



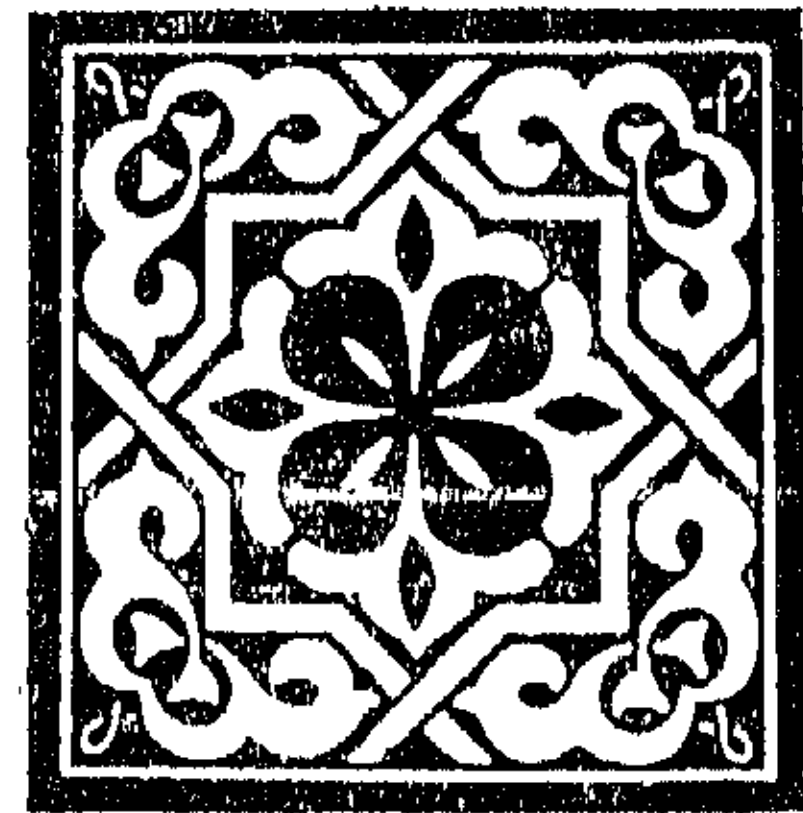
جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام



كشف المحجوب للإيجوي

دراسة وترجمة وتعليق
دكتور إسعاد عبد الهادي قنديل
راجع الترجمة:
دكتور أمين عبد المجيد بدوي

يشرف على إصدارها:
محمد توفيق عويضة

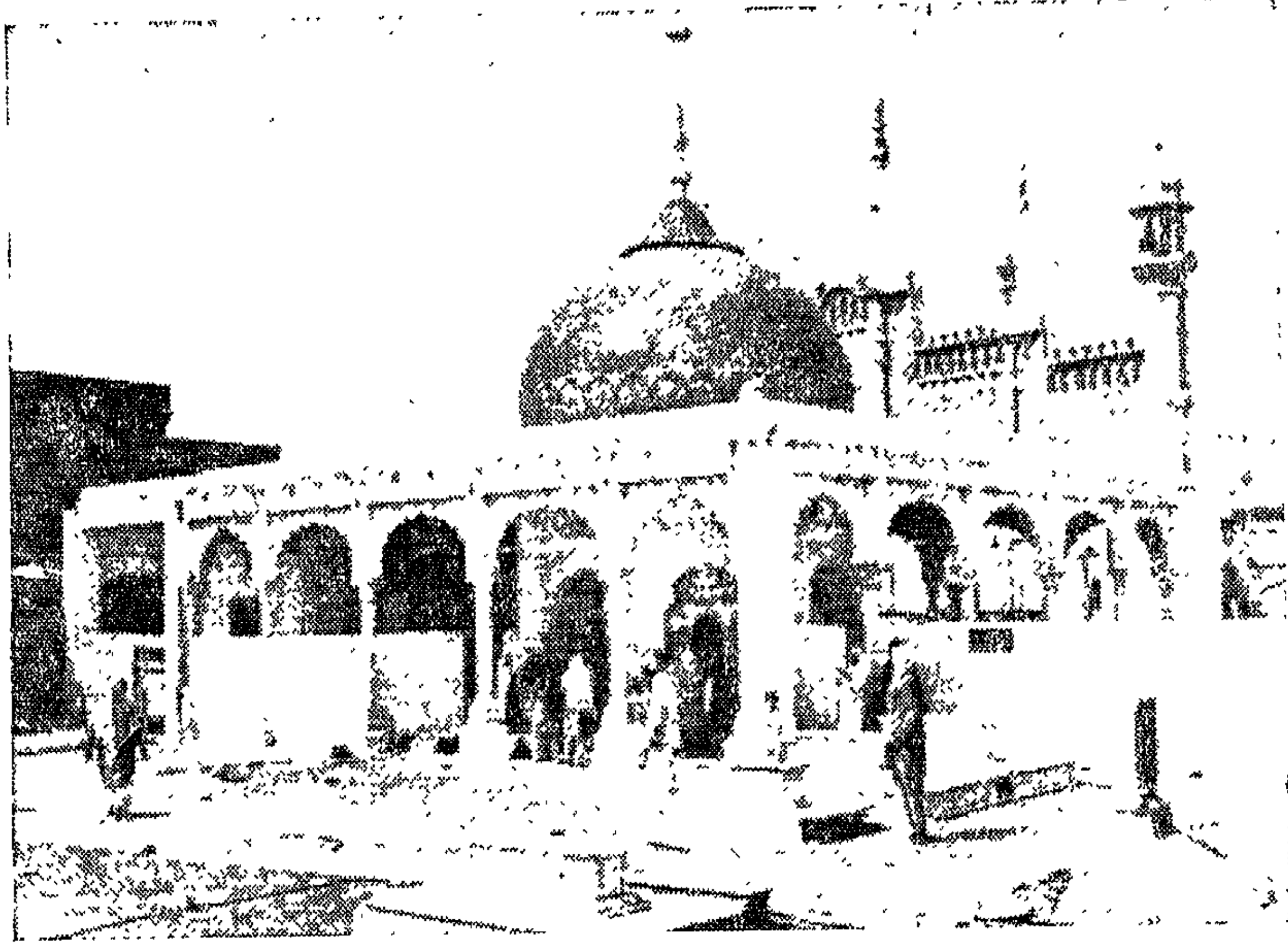


مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
كتاب التسعون

جمادى الأولى ١٣٩٤
يونية ١٩٧٤

((مزار الهجویری فی مدینة لاهور بالباكستان))

مزار حضرت داتا گنج بخش هجویری



منظر خارجي للمزار يظهر فيه المسجد
والضريح وبعض قبور المريدين في الفناء

كلمة وفاء

بدأت معرفتي بالهجویری وكتابه « كشف المحجوب » في عام ١٩٥٧ ، حين كنت أدرس التصوف في إيران على أستاذي الجليل المغفور له الأستاذ الدكتور إبراهيم أمين الشواربي أستاذ اللغة الفارسية بكلية الآداب جامعة عين شمس . وكان أستاذي رحمه الله كثير الإشارة الى الكتب الفارسية في التصوف الاسلامي ، وكان يألم ويأمل من أجلها : يألم لأن المستشرقين سبقوا الى نشر بعضها ، وترجمة البعض الى لغاتهم ، ويأمل في أن يقوم تلاميذه يوما بنقل هذا الجزء الهام من التراث الاسلامي الى اللغة العربية واثناء المكتبة العربية بهذا النتاج القيم للفكر الاسلامي .

وكان من بين الكتب التي عنى أستاذي بالحديث عنها كتابان طالما نبه الى قيمتهما في دراسة التصوف ، وهما : كتاب « أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد » لـ محمد بن المنور ، وكتاب « كشف المحجوب » لعلي بن عثمان الجلابي الهجویری .

وعندما تهيأت للدراسات العليا وقع اختياري على الكتاب الأول ليكون موضوع دراستي للماجستير ، وأتممت في عام ١٩٦٤ اعداد بحث عن أبي سعيد بن أبي الخير مع ترجمة كتاب أسرار التوحيد . وفي نفس العام اخترت الكتاب الثاني ليكون موضوع دراستي للدكتوراه ، وعلى مدى خمس سنوات تمكنت بعون الله في عام ١٩٦٩ من اعداد بحث عن « الهجویری ومذهبه في التصوف كما يبدو من كتابه كشف المحجوب » تحت اشراف الأستاذ الدكتور عبد النعيم محمد حسنين .

غير أن صحيتي لكشف المحجوب لم تنقطع بعد الدكتوراه ، فقد كنت أشعر في قرار نفسي بأهمية نقل هذا الكتاب النفيس الى اللغة العربية حتى يفيد منه الدارسون للتصوف الاسلامي ممن لا يعرفون اللغة الفارسية ، فعكفت على ترجمة الكتاب ، واعداد حواش وأفيية وتعليقات على

الترجمة ، وتحقيق ما ورد في الكتاب من أقوال وروايات وردتها الى أصولها العربية .

وتم هذا العمل بعون الله ، واني أرجو به أن أكون قد وفقت الى تحقيق شيء مما كان يأمل فيه أستاذي ، وأن يعمل غيري لاكمال المسيرة ، فيتم نقل جميع الكتب الصوفية الفارسية الى لغتنا العربية الحبيبة .

والله ولي التوفيق ..

د. اسعاد عبدالهادي قنديل

جمادى الأولى ١٣٩٣
يونيو ١٩٧٣

تقديم

مؤلف كشف المحجوب هو : أبو الحسن على بن عثمان بن أبي على الجلابي الهجویری الغزنوی، كان عالماً من علماء الصوفية في القرن الخامس الهجري ، ومعاصراً للدولة الغزنوية (٣٨٧ — ٥٨٢ هـ) ، وتوفي في عهد السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) .

والهجویری ولد في مدينة «غزنه» بالهضبة الأفغانية ، ومنها استمد لقبه « الغزنوی » ، كما يلقب بالجلابي والهجویری نسبة الى « جلاب » و « هجویر » وهما محلتان من توابع غزنة . وتاريخ ميلاد الهجویری غير معروف ، وان كان من المرجح أنه ولد في أواخر القرن الرابع الهجري .

ولا نعرف عن حياة الهجویری الخاصة الا القليل مما يشير اليه في كتابه كشف المحجوب ، ونتبين منه أنه تتلمذ على أبي العباس الشقاني ، وسلك طريق الصوفية بارشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلي ، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبي القاسم النرجاني (٤٥٠ هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان ، والتقى بمعاصره أبي القاسم القشيري (٤٦٥ هـ) .

ويبدو أن الهجویری تلقى علومه الأولى في موطنه غزنة، ولما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره في السفر والتجول ، وقام برحلات واسعة النطاق ، تنقل خلالها في أرجاء العالم الاسلامي : من سوريا الى التركستان ، ومن بحر قزوين الى الهند ، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وفارس واذربيجان وجرجان والهند ، وأمضى في هذه المناطق فترات كانت تقصر حيناً وتطول أحياناً ، واختلف خلالها الى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين ، فكان يلزم بعضهم وينخرط في سلك مريدتهم ، ويتردد على البعض الآخر ويتلقى منهم تعاليمهم .

وقد امتدت رحلات الهجویری حتى سنة ٤٣١ هـ ، وهي السنة التي زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى ، وكان لا يزال في هذه المدينة

عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥ هـ في عهد السلطان مودود الغزنوى (٤٣٢ — ٤٤١ هـ) وأسر بين الأسرى . ومن المرجح أن الهجویری ترك لاهور عائدا الى غزنه وخراسان في الفترة ما بين ٤٣٥ ، ٤٤١ هـ ، غير أنه رجع الى الهند مرة أخرى ، واستقر به المقام نهائيا في مدينة لاهور ، وظل بها الى أن توفي .

وقد هیأت هذه الرحلات الطويلة للهجویری سبل الاتصال بعدد كبير من شیوخ الصوفية ، وأئمة المذاهب الدينية ، ورؤساء الفرق الاسلامية المختلفة ، ومكنه من الوقوف على جميع التيارات الدينية التي كانت تسود العالم الاسلامی في القرن الخامس الهجری ، ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاکتسب عن طريق هذا وذاك خبرات علمية واسعة ، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا . كما أمدته هذه الرحلات بحصيلة وفيرة من المعلومات القيمة التي ضمنها كتابه واستخدمها في مناقشاته للموضوعات التي تناولها .

وكان الهجویری من أوائل الدعاة الى الاسلام في شبه القارة الهندية ، وقد أسهم في تحول عدد كبير من سكان لاهور الى الاسلام ، وكان في مقدمتهم « رای راجو » نائب لاهور في عهد السلطان مودود . وظل الهجویری يعمل على نشر الدين الاسلامی والتعاليم الروحية في مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها حوالي سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بهذه المدينة ، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار « داتا کنج بخش » وهو الاسم الذي يعرف به الهجویری في الهند وباكستان .

والهجویری ألف كتباً كثيرة أشير الى أسمائها في كشف المحجوب ، وبعض هذه الكتب فقدت في حياة المؤلف ، وبعضها فقد بعد وفاته . ولم يبق من مؤلفات الهجویری سوى كتابه كشف المحجوب الذي يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه .

وكتاب كشف المحجوب يعتبر أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الأصول النظرية والعملية للتصوف . وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامی، سواء منهم من بحثوا في هذا الموضوع ، أو من قصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها .

وتاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، وإن كان من المرجح أن مؤلفه بدأه حوالي سنة ٤٣٥ هـ ، وأتمه حوالي سنة ٤٤٢ هـ .

ويشتمل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف في الأصول النظرية والعملية للتصوف ، وتراجم الأئمة وشيوخ الصوفية ، وأقوال الصوفية ورموزهم ، والفرق الصوفية ، والعقائد الدينية والعبادات ، والمعاملات ، ورسوم الصوفية وتقاليدهم .

وموضوع كتاب كشف المحجوب جاء ردا على السؤال الذي وجهه الى الهجویری أحد رفاقه في غزنة وطلب اليه أن يبين له طريق الصوفية ومقاماتهم ومذاهبهم وأقوالهم ورموزهم ومعاملاتهم . وقد أجاب الهجویری على هذا السؤال اجابة مطولة ، ذلك أنه وضع في اعتباره أن يوضح لعامة الناس الطريقة والشريعة ، وأن يوائم بين تعاليم الصوفية والدين الاسلامی ، وهو ما حاوله قبله مؤلفو الصوفية كأبي نصر السراج الطوسي في اللمع ، وأبي القاسم القشيري في الرسالة ، وما فعله بعده الامام الغزالي في احياء علوم الدين .

وكتاب كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء في المنهج العام ، أو المواد التي تناولها كل من مؤلفيهما ، مما يوضح أن الهجویری اعتمد على اللمع . كما يتضمن كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من الرسالة القشيرية ، مما يؤكد ان مؤلفه اطلع عليها وأفاد منها .

وبالاضافة الى اللمع والرسالة ، فقد اعتمد الهجویری اعتمادا كبيرا على كتاب طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ونقل عنه كثيرا ، لاسيما في الجزء الخاص بتراجم شيوخ الصوفية .

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من كشف المحجوب ، وعلى الأخص « فريد الدين العطار » في كتابه « تذكرة الأولياء » ، و « عبد الرحمن الجامي » في كتابه « نفحات الأنس » . كما أفاد من كشف المحجوب ، على نطاق واسع ، اثنان ممن كتبوا في التصوف في العصر الحديث وهما : قاسم غني ، وأبو العلا عفيفي ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسي لكشف المحجوب ، والثاني كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الانجليزية للكتاب .

وكشف المحجوب طبع لأول مرة في ليننجراد سنة ١٩٢٦ م ، وطبع للمرة الثانية في طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش (ويقابلها ١٣٧٧ هـ ق — ١٩٥٧ م) ، وقام بترجمته الى الانجليزية المستشرق الانجليزى نيكولسون ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م .

ولما كان موضوع هذه الدراسة هو : كتاب كشف المحجوب ، فقد قسمتها الى بابين :

الباب الأول : فى التعريف بمؤلف الكتاب

ويشمل الحديث عن عصر الهجويرى من النواحي السياسية والثقافية والدينية والصوفية ، والتعريف بمدينة « غزنه » باعتبارها موطن الهجويرى ومسقط رأسه ، ومدينة « لاهور » باعتبارها الموطن الثانى للهجويرى ومثواه الأخير .

ويتبع ذلك التعريف بالهجويرى من حيث اسمه وألقابه ومولده ونشأته وزواجه والعلوم التى حصلها وأساتذته وشيوخه ورحلاته ووفاته ومؤلفاته .

والباب الثانى : فى التعريف بكتاب كشف المحجوب

ويشمل الحديث عن الكتاب وموضوعه وأقسامه ومصادره ومنزلته بين كتب التصوف العربية والفارسية السابقة عليه والمؤلفة بعده ، والقيمة العلمية للكتاب .

ويتبع ذلك تعريف بمخطوطات الكتاب وطبعاته والترجمة الانجليزية .

القسم الأول

دراسة حول

الإجبارى وكتابه كشف المحجوب

الباب الأول
التعريف بالاجبيري

الفصل الأول

عصر الهجویری

من النواحي السياسية والثقافية والدينية

أولا : الناحية السياسية :

« على بن عثمان بن أبي على الجلابی الهجویری » مواطن غزنوی ينسب إلى مدينة « غزنه » موطن الأسرة الغزنوية التي أسست في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري دولة كبيرة ، عرفت في التاريخ الاسلامی باسم الدولة الغزنوية .

والهجویری عاش حياته كلها في ظل الدولة الغزنوية . وعلى الرغم من أننا لانعرف تاريخی ميلاده ووفاته على وجه التحديد ، إلا أنه من المرجح أنه عاش في الفترة ما بين العقدين التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجري والعقد السابع من القرن الخامس الهجري ، وهذه الفترة تعاصر في نصفها الأول فترة المجد الحقيقي للدولة الغزنوية التي حكم فيها أشهر سلاطينها الثلاثة الأول : « سبكتكين » وابنه « محمود » و « مسعود بن محمود » ، وتلعاصر في نصفها الثاني فترة أقل قوة في تاريخ الدولة الغزنوية ، حكم فيها سلاطين ثلاثة آخرون هم : « مودود بن مسعود » و « عبد الرشيد بن محمود » و « فرخزاد بن مسعود » . وتوفي الهجویری في عهد « ابراهيم بن مسعود » .

ويعتبر « سبكتكين » المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية التي قامت أول الأمر في مدينة غزنة عندما أسسها مولى من الموالی الأتراك يدعى « البتكين » — وكان يلي قيادة الجيش الساماني من قبل عبد الملك الساماني ، فلما توفي عبد الملك انسحب البتكين إلى غزنة — وكان أبوه حاكما عليها من قبل السامانيين ، فتولى حكمها بعده .

وكان لالبتكين عبد مملوك يدعى سبكتكين ، لم يلبث أن أصبح صهرا له ، ثم خلفه في حكم غزنة سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وظلم إليها قصدار

والباميان وطخارستان (١) ، وشن حملتين موفقتين على ملك البنجساب « جييال » وهزمه وأكرهه على أن يتخلى له عن إقليم كابل الذي يسيطر على المسالك المؤدية الى السهل الهندي الخصيب (٢) .

وعندما استنجد نوح بن منصور الساماني بسبكتكين على قواده ، أسرع اليه ومعه ابنه محمود ، وأحرزا له النصر ، فكافأ سبكتكين بولاية خراسان ، وولى ابنه محمودا قيادة الجيش . وهكذا سيطر سبكتكين على خراسان وصفت له (٣) .

وبعد وفاة سبكتكين في بلخ سنة ١٠٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، خلفه في الحكم ابنه الأصغر اسماعيل ، غير أن أخاه محمودا لم يلبث أن انتزع العرش منه .

ويعتبر « محمود الغزنوي » (٣٨٨ — ٤٢١ هـ / ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) أشهر حكام الغزنويين على الإطلاق ، وواحدا من الشخصيات العظيمة التي لعبت دورا كبيرا في آسيا الوسطى (٤) . وهو أول شخص في الاسلام خوطب بلقب السلطان من قبل الخليفة (٥) العباسي القادر بالله (٣٨١ — ٤٢٢ هـ / ٩٩١ — ١٠٣١ م) .

وقد بلغت الدولة الغزنوية في عهد السلطان محمود أوج مجدها واتسعت ممتلكاتها حتى ضمت جميع بلاد العجم : من خراسان وخوارزم وطبرستان والعراق وفارس وجبال الفجور وطخارستان ، وانقاد له ملوك التركستان (٦) . وما لبث هذا الأمير المحارب ان ولى وجهه شطر الهند ، فغزاها سبع عشرة مرة في مدى سبعة وعشرين عاما (٧) فيما بين عامي ٣٩١ ، ٤١٧ هـ (١٠٠٠ ، ١٠٢٦ م) فخضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ، ومن الهملايا الى الدكن ، واكسبته هذه الغزوات وحيه للإسلام لقب « محطم الأصنام » . وتوفي السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ (٨) .

واذا كان السلطان محمود قد استطاع عن طريق غزواته أن يرفع راية الاسلام فوق قلاع الهند ومعابدها ، وأن يخطط بأسنة سهامه وسيوفه تربة

-
- (١) « طبقات ناصري » منهاج السراج : كابل ١٣٤٢ هـ ش ص ٢٢٦
(٢) « تاريخ الشعوب الاسلامية » بروكلمان : ترجمة نبيه امين : بيروت ١٩٥٣ ج ٢ ص ١١٩
(٣) « طبقات ناصري » ص ٢٢٧ .
(٤) « Sykes » : A History of Persia, London, 1961, V. 2, p. 26.
(٥) « طبقات ناصري » ص ٢٢٨ .
(٦) « السابق » ص ٢٣٠
(٧) « الكامل » ابن الاثير : القاهرة ١٣٤٨ هـ . (انظر حوادث سنة ٣٩١ — ٤١٧) .
(٨) « الكامل » انظر حوادث ٤٢١ هـ .

تلك الديار ويمهد لها لبذر بذور الدين الاسلامي ، فانه لم يمض وقت طويل حتى ذهب الى تلك البلاد شزنوى آخر ، فبذر تلك البذور بالخرقة والسجادة بدلا من السهام والسيوف ، وكان ذلك الرجل هو « على بن عثمان بن أبى على الهجویری الغزنوى » (١) .

وقد تميز أواخر عهد السلطان محمود بظهور قوة ناشئة هي قوة السلاجقة التي بدأت تمارس نشاطها في اقليم خراسان ، ولكن محمودا أوقفهم عند حدهم ، فلزموا جانب الهدوء والسكينة طوال حياته ، غير أن خطرهم لم يابث أن تتفاقم بعد وفاته ، فسيطرو على الولايات الغربية من ا دولة الغزنوية ، واستطاعوا في أقل من عشر سنوات أن ينتزعوا خراسان جميعها من ابنه مسعود .

وكان « مسعود » (٤٢١ — ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٤٠ م) قد استخلص الملك من أخيه الأصغر « محمد » — الذى أجلسه رجال الحاشية والأمراء على العرش في غزنة بعد وفاة أبيه — وسجنه بقلعة « كوهتيز » وأرسل الى الخليفة القادر في طلب اللواء والعهد ، فأقره الخليفة على ما دخل في حوزته من ولايات : « الرى » و « الجبال » و « اصفهان » ، وأمره بأن يعجل بالسير الى خراسان كيلا يقع اضطراب في ذلك الثغر العظيم (٢) .

غير أن ما كان يخشاه الخليفة قد حدث بالفعل ، فقد كانت قوة السلاجقة آخذة في الازدياد ، وبدأوا يغيرون غارات منظمة على خراسان منذ عام ٤٢٥ هـ ، مما جعل مسعودا يذهب بنفسه الى نيسابور لقتالهم ، وتمكنت جيوشه من هزيمتهم بالقرب من « نسا » عام ٤٢٦ هـ . وعندما بلغ هذا الخبر مسامع داود السلجوقى استعان بجيش كبير وقاتل الغزنويين ، وتغلب عليهم (٣) وكانت هذه أول هزيمة جدية وقعت لمسعود ، واضطر معها الى أن يعقد صلحا مع السلاجقة لى يتفرغ للذهاب الى الهند ، ولم يلبث أن سار اليها وفتح قلعة « هانسى » سنة ٤٢٨ هـ (٤) .

وعند عودة مسعود من الهند علم بارتفاع شأن السلاجقة في خراسان وحاول أن يجليهم عنها ، وهاجمهم بالقرب من « سرخس » عام ٤٢٩ هـ ،

(١) مجلة « هلال » جلد بنجم شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ هـ ش : مقال بقلم « غلام سرور »

(٢) « تاريخ البيهقى » أبو أفضل البيهقى : ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ، القاهرة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م : ص ١٧ .

(٣) « زين الاخبار » الكرديزى : طهران ١٣١٥ هـ ش . ص ٨١

(٤) « السابق » ص ٨٣ ، « تاريخ البيهقى » ص ٥٨٠ .

غير أن السلاجقة تمكنوا من هزيمته ولم يلبث « طغرل بك » السلجوقي أن دخل نيسابور ، وجلس على عرش مسعود ، وأعلن نفسه سلطانا للسلاجقة (١) .

وإزداد مسعود غضبا على السلاجقة ، وخرج من غزنة الى خراسان قاصدا الثأر ، ولكن جهوده باءت بالفشل ، فقد هزمه السلاجقة هزيمة نكراء عند « داندانقان » بالقرب من « مرو » عام ٤٣١هـ (٢) ، وكانت هذه الموقعة حدا فاصلا في تاريخ الدولتين الغزنوية والسلجوقية ، فقد قضت نهائيا على نفوذ الغزنويين في خراسان ، وأكدت نفوذ السلاجقة بها .

ورجع السلطان مسعود الى غزنة التي كان يسودها الاضطراب والمذابح والمعارك ، فقد حاصرها السلاجقة وسدوا الطريق اليها ، وقبض مسعود على بعض الفارين من رجاله وأرسلهم الى الهند ليسجنوا بها .

وخلال تلك الاضطرابات رحل الهجویری عن غزنة على عجل ، بحيث لم يسنطع أن يحمل معه كنبه ، فتركها هناك (٣) ، وتوجه الى بلاد الهند . وكان ذهابه اليها حوالى سنة ٤٣١هـ (٤) .

ويبدو أن الهجویری كان مرتبطا في حياته بالدولة الغزنوية ، يعيش في المناطق الخاضعة لنفوذها ، ويتنقل بينها . وقد عرفنا من كشف المحجوب أنه قضى فترة كبيرة من حياته في السفر والتجول ، ومن خلال تتبعنا لرحلاته نعرف أنه قضى الجزء الأكبر من فترة التجول في إقليم خراسان ، وزار عددا كبيرا من مدنه ، وأقام ببعضها فترات كانت تقصر حينا وتطول أحيانا (٥) . ومن الواضح أن الفترة التي قضاها متنقلا بين مدن خراسان تقابل الفترة التي كان فيها نفوذ الغزنويين يسيطر على هذه المنطقة فلما انحسر نفوذهم عنها رجع الى غزنة ، وواجه فيها تلك الاضطرابات . وربما أحس الهجویری

(١) « تاريخ البيهقي » ص ٣٠٦ ، « الكامل » حوادث ٤٢٩ ، « راحة الصدور » الراوندى : ترجمة ابراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد : القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٨ .

(٢) « تاريخ البيهقي » ص ٦٨٤ ، « راحة الصدور » ص ١٦٣ ، « طبقات ناصري » ص ٢٣٣ .

(٣) « كشف المحجوب » لابی الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابی الهجویری الغزنوی : طهران ١٣٣٦ هـ ش (انظر : ص ١١٠) .

(٤) « تذكرة حضرت على هجویری » حکیم سید امین الدین دهلوی : لاہور ١٩٦٢ ص ٢٠ .
The Life and Teachings of Hazrat Data — Ganjbakhsh : Lahore

1967, p. 23.

(٥) « كشف المحجوب » أنظر ص ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ، ٣٠١ .

عقب هزيمة مسعود أن الأمر على وشك أن يخرج من أيدي الغزنويين في غزنة ، كما خرج من أيديهم في خراسان ، فترك غزنة الى الهند حيث بدأ يمارس نشاطه الديني والروحي في تلك البلاد تحت رعاية الغزنويين ، وقام بنشر تعاليم الدين الاسلامي ، وهداية الناس وارشادهم .

أما السلطان مسعود فقد فكر ، بعد هزمته على أيدي السلاجقة، في أن يذهب الى الهند ليجمع جيشا يحارب به السلاجقة من جديد ، وخرج من غزنة حاملا معه خزائنه. وعند « ماريكله » خرج عليه غلمانه، وقبضوا عليه ، وأرسلوه الى قلعة كسرى (١) ، وأجلسوا أخاه محمدا على العرش . ثم لم يلبث مسعود أن قتل على أيدي أبناء محمد سنة ٤٣٢ هـ (٢) .

وتولى مودود بن مسعود أمر الغزنويين في غزنة عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م.) ، وكان أول عمل قام به أن اتجه لقتال عمه محمد ، انتقاما لمقتل أبيه ، فقبض على محمد وابنه والقواد وقتلهم (٣) .

وفي سنة ٤٣٥ هـ ، أراد مودود أن يسترد نفوذ الغزنويين في خراسان ، فسير اليها حاجبه . وعلم بذلك داود السلجوقي فأرسل ابنه « ألب أرسلان » وألحق الطرفين واقتتلا ، وكان الظفر لألب أرسلان ، وعاد عسكر غزنة منهزما (٤) ، واستولى السلاجقة على « بست » و « سيستان » ، وبذلك انتهى حكم الغزنويين في إيران ، واقتصر نفوذهم على غزنة وممتلكاتهم بالهند .

ومن أبرز الأحداث التي وقعت في الهند في عصر مودود : فتنة الراجات ، فقد اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وحاصروا لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وعلم السلطان مودود بذلك ، فأرسل جيشا تمكن بالتعاون مع مقدم العساكر الاسلامية في تلك الديار من هزيمتهم (٥) وتسلم قواد مودود جميع القلاع ، وغنم المسلمون الأموال ، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا خمسة آلاف رجل (٦) . ومن المرجح أن الهجويري كان بين الأسرى ، فقد أشار في كشف المحجوب الى أنه وقع أسيرا في لاهور حيث شغل بتأليف كتابه (٧) .

-
- (١) « زين الأخبار » ص ٨٧
(٢) الكامل : حوادث سنة ٤٣٢ ، « زين الأخبار » ص ٨٧ ، « طبقات ناصري » ص ٢٣٤
(٣) « زين الأخبار » ص ٨٨ — ٨٩ ، « الكامل » حوادث ٤٣٢ .
(٤) « الكامل » : حوادث ٤٣٥ .
(٥) « جامع التواريخ » رشيد الدين فضل الله : أنقره ١٩٥٧ ، المجلد الثاني ج ٤ ص ٢١٧
(٦) « الكامل » أنظر حوادث ٤٣٥ .
(٧) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

وتوفي السلطان مودود سنة ٤٤١ هـ (١) .

وتوالى على عرش غزنة بعد مودود : « محمود بن مودود » ، و « على ابن مسعود » . ولما لم تكن لهما دراية بأمر الحكم فقد خلعا وسجنا ، وجلس على العرش بعدهما عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين (٤٤١) — ٤٤٤ هـ (١) .

ثم تولى عرش غزنة من بعده : « فرخزاد بن مسعود » (٤٤٤ — ٥١١ هـ ١٠٥٢ — ١٠٥٩ م) الذى استطاع هزيمة السلاجقة وأسر قائدهم فى إحدى المعارك التى دارت بين الدولتين ، فلم يفكر السلاجقة فى مهاجمة غزنة طوال فترة حكم فرخزاد . وتوفي فرخزاد عام ٥١١ هـ (٢) ، وتولى بعده : « ابراهيم بن مسعود » (٥١١ — ٤٩٢ هـ / ١٠٥٩ — ١٠٩٨ م) ، فأحسن السيرة واستعد لجهاد الهند ، وفتح حصونا امتنعت على أبيه وجده ، منها قلعة آجود (٤) . وقلعة يقال لها روبا (٥) .

وتميز عصر ابراهيم بالمهادنة مع السلاجقة ، وسعى « داود » السلجوقى لعقد صلح معه ، ووقع بذلك عهدا ، وثبت عليه ابنه الب أرسلان الذى تولى بعده (٦) . وزوج ابراهيم ابنه من ابنة ملكشاه السلجوقى ، وبهذه المصاهرة أمن جانب السلاجقة . وطالت مدة حكمه ، وأعاد لدولة محمود رونقها ، وعمر كثيرا من الأماكن ، وحكم ٤٢ سنة .

وفى خلال فترة حكم السلطان ابراهيم توفي الهجویری حوالى سنة ٤٦٥ هـ . وقام السلطان ببناء ضريح له (٧) .

وتوالى على عرش غزنة بعد وفاة السلطان ابراهيم سنة ٤٩٢ هـ : « مسعود بن ابراهيم » و « أرسلان نشاه بن مسعود » و « بهرامشاه ابن مسعود » الذى دعا للسلاجقة على منابر غزنة ، ولذلك يعتبر يوم جلوس بهرامشاه تاريخا لسقوط غزنة فى أيدي السلاجقة (٨) .

(١) « الكامل » أنظر حوادث ٤٤١ .

(٢) « طبقات ناصرى » ص ٢٣٥ .

(٣) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٥١ .

(٤) « جامع التواريخ » ج ٤ ص ٢١٨ .

(٥) « الكامل » أنظر حوادث سنة ٤٧٢ ، سلطنة غزنويان : خليلي : كابل ١٣٣٣ ص ٢٤٨ .

(٦) « طبقات ناصرى » ص : ٢٣٩ .

(٧) تذكرة على هجویری ص ٤٩ .

(٨) سلطنة غزنويان . ص ٢٥٤ .

ويتميز عصر بهرامشاه بالنزاع مع ملوك الغور الذين ازداد خطرهم ، واستطاعوا أن يسيطروا نفوذهم على غزنة واقليم كابل ، بل انهم تعقبوا خسروشاہ بن بهرامشاہ الغزنوی وابنه بهرامشاہ الثانى آخر سلاطين الدولة الغزنوية وطاردوها حتى قتلوهما ، وبذلك انتهت سيرة دولة الغزنويين التى عمرت قرنين من الزمان ، ومهدت بفضل فتوحاتها العظيمة لتوطيد أقدام المسلمين فى أرض الهند .

ثانيا : الناحية الثقافية :

يعتبر العصر الغزنوى من أزهى العصور التى ازدهرت فيها الحضارة الشرقية الاسلامية . وقد أجمع المؤرخون والنقاد على أن النهضة العلمية والأدبية برزت فى ذلك العصر على نحو لم يسبق له مثيل ، وتركزت هذه النهضة بصفة خاصة فى بلاط السلطان محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ) الذى استطاع أن يجعل من قصره فى غزنة مركزا للنشاط العلمى والأدبى، كانت ترنوا اليه الأنظار ، وتشخص اليه الأبصار(١) .

وكانت هناك فى الفترة المبكرة من العصر الغزنوى مراكز أربعة تجتذب اليها رجال العلم والأدب وهى :

قصر « صاحب بن عباد(٢) » فى اصفهان والرى .

قصر « السامانيين » فى بخارى .

قصر « قابوس بن وشمكير » فى طبرستان .

قصر « المأمونيين » فى خيوه .

ولكن حدث فى الفترة ما بين ٣٨٧ : ٤٠٨ هـ، أن توفى صاحب بن عباد ، وزالت الدولة السامانية من الوجود ، وقتل قابوس بن وشمكير ومأمون الثانى ، واستطاع السلطان محمود بواسطة ذلك ، وبواسطة الفتح والغزو أن يضم اليه رجال العلم والأدب الذين كانوا يحيطون هؤلاء الأمراء(٣) .

(١) تاريخ الادب فى ايران : ادوارد براون . ترجمة ابراهيم أمين الشواربى القاهرة ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ ص ١١٠ — ١١١ .

(٢) « صاحب اسماعيل بن عباد » وزير البويهيين المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، برد عنه أنه كان يملك من كتب العلم ما يحمل على أربعمئة جمل أو أكثر وكان فهرس كتبه يقع فى عشر مجلدات (انظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع » آدم ميتز : ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده القاهرة ١٩٤٧ ج ١ ص ٣) .

(٣) « تاريخ الادب فى ايران » براون ص ١١٧ — ١١٨ .

ومن المشهور عن بلاط السلطان محمود في غزنة أنه كان يجتمع فيه من اهل الأدب زهاء أربعمائة (١) ، من بينهم مجموعة من الشعراء الكبار ، أمثال « عنصري » و « فردوسي » و « أسدي » و « عسجدي » و غضائري ، وفرخي (٢) . وكان السلطان محمود يصطحب معه في غزواته بعض هؤلاء الشعراء فكانوا يصفون المعارك والأحداث ، ويسجلون الوشائع والغزوات .

وقد خلف هؤلاء الشعراء والأدباء دواوين رائعة تزخر بالمدائح لهذا السلطان ، ألفوا المؤلفات العديدة في محامده ومآثره ، نظموا ونثروا ، باللغتين العربية والفارسية ، فألف أبو منصور محمد بن عبد الجبار العتبي تاريخه المعروف بتاريخ العتبي (٣) وأتم الفردوس شاهنامته التي تعد أروع دليل على روح الأسلوب المحمي الفارسي في قمة اكتماله .

لم تكن عناية السلطان محمود بالعلوم أقل من عنايته بالأدب ، فكان يحرص على أن يضم إلى بلاطه في غزنة النابهين من العلماء ، ولم يدخر وسعا في استقدامهم إليه حتى أنه كما يلجأ إلى الترغيب تارة والترهيب تارة (٤) . وقد نجح في أن يضم إليه « العراق » و « الخمار » و « البيروني » وكان كل من هؤلاء أمانا في فنه ، فقد كان أبو نصر العراق الثاني لبطليموس في العلوم الرياضية ، وأبو الخير الخمار الثالث لبقرات و جالينوس في الطب (٥) ، وأما أبو ریحان البيروني فكان عالم عصره العظيم وأحد كبار العلماء في العالم الإسلامي كله . وقد التحق ببلاط السلطان محمود بعد مقتل مأمون الثاني ، ومن غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية وتعلم اللغة السنسكريتية ، وألف كتابه الشهير عن الهند (٦) الفريد في الأدب العربي ، والذي أدى للدراسات الأوروبية خدمة جليلة أيضا (٧) .

وكان السلطان محمود يطمح في أن يضم إلى بلاطه « ابن سينا » ولكنه فر (٨) وظل محمود يأسف لفراره طويلا .

(١) « شعر العجم » شيلي نعماني ترجمة : محمد تقى فخر داي كيلاني طهران ١٣١٦

أنظر ج : ١ ص ٣٦

(٢) السابق « ص ٣٨ » .

(٣) تاريخ العتبي : قام بشرحه أحمد المنيني ويعرف بتاريخ يميني .

(٤) جهار مقاله « نظامي عروضي سمرقندي ليدن » ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م ص : ٧٧

(٥) نفس المرجع السابق ص ٧٦

(٦) كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في القول أو مردولة » أنظر « سبك شناسي »

بهار : طهران ١٣٢١ هـ ش ج ٢ ص ٢٨ حاشية ٢١

(٧) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٢١

(٨) جهار مقاله ، ص ٧٧

ومما يدل أيضا على عناية السلطان محمود بالعلوم والآداب ، تلك المدرسة التي ألحقها بجامع غزنة وكانت تعرف بدار العلم ، وأسس فيها مكتبة جمع فيها جميع المؤلفات القديمة والنادرة التي لم يتوفر وجودها الا في غزنة(١) .

ولم تكن العناية بالعلوم والآداب مقصورة على السلطان محمود وحده ، فقد كان ابنه السلطان مسعود يهتم بالشعراء والأدباء ، ويصلهم بصلات كبيرة ، قال عنه ابن الأثير انه كان محبا للعلماء ، كثير الاحسان اليهم والتقرب لهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلم ، وأجاز الشعراء جوائز عظيمة ، أعطى شاعرا على قصيدة ألف دينار ، وأعطى آخر لكل بيت ألف درهم(٢) .

ثالثا : الناحية الدينية :

كان المجتمع الاسلامي في القرن الرابع الهجري مقسما من الناحية الدينية الى كتلتين : أهل السنة ، والشيعة ، فالخلفاء العباسيون في بغداد ومن تبعهم من الملوك والحكام سنيون يتعصبون للسنة ، والفاطميون في مصر والشام والمغرب ، وبنو بويه في العراق شيعيون يتعصبون للشيعة ، وكان الخلاف قائما على أشده بين الكتلتين .

وفي القرن الخامس الهجري كثرت انفرق الاسلامية واشتد النزاع بينها ، ولم يعد الخلاف مقصورا على أهل السنة والشيعة ، بل تعدى ذلك الى أهل السنة فيما بينهم ، فظهر النزاع بين مذاهب أهل السنة المختلفة كالشافعية والحنفية ، وتنازع الفقهاء بعضهم مع البعض ، وبلغت الخلافات المذهبية بين الشيعة وأهل السنة والأشعرية والمعتزلة والاسماعيلية ، وأيضا النزاع والجدل بين المذاهب السنية ، الى حد أن مجادلات العلماء ومناظراتهم كانت تنتهي أحيانا بالعراك والقتل والنهب والحرق(٣) .

ولم تكن الدولة الغزنوية بمعزل عما يجري في العالم الاسلامي ، فقد كان الغزنويون يعتنقون مذهب أهل السنة ، ويدينون بالولاء للعباسيين أصحاب هذا المذهب ، ويشاركون فيما يجري حولهم من أحداث .

(١) شعر العجم ج ١ ص : ٣٥

(٢) « الكامل » : حوادث ٤٣٢ .

(٣) « تاريخ تصوف در اسلام » قاسم غنى : طهران ١٣٢٢ هـ ش ، ص ٤٦٨ .

وعلى الرغم من أن الدولة التي سبقت المغزنوبين في إيران ، وهي الدولة السامانية ، كانت أيضا تنتمي إلى المذهب السني ، وتدين بالولاء للخليفة العباسي في بغداد ، إلا أنها كانت تهادن المخالفين لمذهبها ، حتى أن الإسماعيلية بلغوا شيئا من النفوذ في عهد نصر بن أحمد الساماني . وربما كان هناك أثر للتعصب المذهبي في بعض نواحي إيران ، مثل نيسابور ، إلا أن الحكومات لم تكن تتدخل في هذه الأمور (١) . غير أن هذا الوضع لم يلبث أن تغير في القرن الخامس ، وأخذ الملوك والحكام يتدخلون بالتدريج في هذا الصراع . وكان السلطان محمود الغزنوي أول ملك من ملوك إيران نكل بالمخالفين لمذهبه (٢) . وقد بلغ من تعصبه للمذهب السني الذي كان يعتنه ، أن امتثل لأمر الخليفة العباسي « القادر » ، وشن حربا لا هوادة فيها على المعتزلة والفلاسفة والإسماعيلية والقرامطة وأعمل فيهم القتل والصلب ، وأمر بلعنهم على المنابر ، وشردهم من ديارهم . وجعل كثيرا من كتب الحكمة والفلسفة والنجوم ورسائل المعتزلة طعمة للنيران (٣) . واعترف هو نفسه بهذا ، فقال أنه أدخل أصبعه ، من أجل العباسيين ، في كل جهات العالم يبحث عن القرامطة ويشنق كل من يجده وتثبت عليه القرمطة (٤) .

وفي ذلك الوقت كانت مذاهب أهل السنة بعضها يتجه إلى الضعف وبعضها ينجه إلى الانتشار والرواج . وكان المقبول من المذاهب الأصلية في جميع الممالك الإسلامية : « المالكي » و « الحنفي » و « الشافعي » ، وكان رواج المذهبين الشافعي والحنفي أكثر من غيرهما في إيران . وقد ورد عن السلطان محمود أنه كان يعتنق المذهب الحنفي ، ولم يلبث أن تحول عنه إلى المذهب الشافعي ، يقول ابن خلكان : « وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث فوجد أكثرها موافقا لمذهب الشافعي فوقع في خلده حكمه » (٥) .

وكان الشيوخ والأئمة والحكماء يجتمعون في بلاط غزنة ويتجادلون حول

-
- (١) « تاريخ أدبيات در ایران » ذبيح الله صفا : طهران ١٣٤٢ هـ ش ج ١ ص ٢٠٢ .
(٢) « السابق » ص ١٣٧ .
(٣) « لما أغار السلطان محمود على الري » سنة ٤٢٠ هـ استخراج من بيت كيب صاحب « كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه (« مستز » ج ١ ص ٢٤٦) . وخلق « مجد الدولة » وأمر بنفيه في خراسان ، وأبع ذلك بصلب جماعة من الباطنية وتشريد المعتزلة وحرق كتبهم وكتب الفلاسفة والمنجمين . أنظر « الكامل » حوادث ٤٢٠ .
(٤) « تاريخ البيهقي » ص ١٩٤ .
(٥) « وفيات الأعيان » : ابن خلكان ج ٢ ص ٨٦ .

المذاهب بين يدي السلطان . ويبدو أن الهجویری كان یشارك فی هذه المجادلات ، فتد ورد فی « رسالة ابدالية » انه تجادل مرة مع واحد من حکماء الهندود فی مجلس السلطان محمود وأنفحمه تماما (١) .

وأشار الهجویری فی كشف المحجوب الى مجادلة وقعت فی بلاط غزنة بینه وبين واحد ممن كانوا يدعون الامامة والعلم فی مسألة تتعلق بالتصوف (٢) .

وعلى الرغم من أن الصوفية كانوا خصوما الداء للفقهاء ، وقد عبروا عن احتقارهم لعلم الفقه تعبيراً قاسياً فكانوا يسمونه عام الدنيا (٣) ، إلا أن شیوخ القرنين الرابع والخامس الهجريين ، نظراً لمعاصرتهم للحكام السنيين المتعصبين ، أخذوا يسعون لتحصيل علوم الظاهر (٤) واتجهوا لتأليف الكتب ، فبدأ فی القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فی مقامات الصوفية وشرح أسس التصوف ، بحيث وجدت فی أواخر هذا القرن كتب قيمة مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » ، وجميعها مؤلفة باللغة العربية .

(١) «Bulletin of the School of Oriental Studies» London, 1926.

نقلا عن : « رسالة ابدالية » يعقوب بن عثمان جرخی

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ١١٥ .

(٣) « الحضارة الاسلامية » : ميتز ج ١ ص ٢٦٦

(٤) « سبك شناسی » ج ٢ ص ١٨٢

الفصل الثانى

« التصوف فى عصر الهجويرى »

تمهيد :

اتجه كثير من المستشرقين والباحثين فى أصل التصوف الى رده لعوامل خارجية بعيدة عن البيئة الاسلامية ، فمنهم من أرجعه الى أصل هندى ، ومنهم من رده الى الرهبة المسيحية ، ومنهم من قال انه رد فعل للعقلية الآرية ضد دين فرضه الغزاه المسلمون على أهل فارس فرضا ، ومنهم من زعم أنه وليد الفلسفة اليونانية . وهناك من خالف هؤلاء وقال ان التصوف الاسلامى نابع من البيئة الاسلامية والدين الاسلامى . والصوفية أنفسهم يعتقدون أن طريقتهم مشيدة بالكتاب والسنة ، وأنها مبنية على سلوك اخلاق الأنبياء والأصفياء (١) .

والتصوف نزعة روحية تميل بالانسان عن العالم المادى وترتفع به الى العالم الروحى ، وهو بهذا المفهوم ظاهرة انسانية تنشأ فى كل بيئة دينية ، وتنمو نتيجة لعوامل داخلية موجودة فى تلك البيئة ، فمما لا شك فيه أن التصوف الاسلامى جزء من الأجزاء التى يتألف منها التراث الدينى والعقلى والنفسى للإسلام ، خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الاسلامية لعوامل النشوء والارتقاء ، وأن تاريخ التصوف فى الاسلام جزء لا يتجزأ من تاريخ الاسلام نفسه ، ومظهر من مظاهر هذا الدين ، وما أحاط به من ظروف ، وما دخل فيه من شعوب ، وليس شيئاً اجتلب من الخارج دون أن تكون له صلة بالدين الاسلامى وروحه وتعاليمه .

على أننا يجب ألا ننكر وجود مؤثرات خارجية ساعدت على نموالتصوف الاسلامى وتطوره ، فقد تعاونت العناصر الروحية الوافدة على البيئة الاسلامية مع العوامل الدينية التى كانت موجودة فى تلك البيئة ، وعمالت

(١) « الطبقات الكبرى » : الشعرانى القاهرة ١٣١٦ هـ ج ١ ص ٣

معها على تطوير التصوف وبلوغه النضج والكمال ، وان كان هذا فيما بعد نشأته الأولى .

(١) نشأة التصوف الاسلامى والمراحل التى مر بها حتى عصر الهجویری :

نشأ التصوف الاسلامى نشأة اسلامية ، فقد ظهرت بذوره الأولى فى نزعات الزهد التى سادت العالم الاسلامى فى القرن الأول الهجرى ، وكان قوامه الانصراف عن الدنيا ومتاعها ، والعناية بأمور الدين ، ومراعاة أوامر الشريعة ، وكانت غايته التى يتطلع اليها العباد والزهاد هى الظفر برضوان الله والنجاة من عقابه .

وكان زهد الزهاد والعباد فى صدر الاسلام معتدلاً ، بمعنى أنهم كانوا يشاركون فى الحياة الاجتماعية ، ويسعون لكسب معاشهم ، ويرعون أوامر الدين والشرع بكل طاعتهم ، ويحافظون عليها بأرواحهم .

وفى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ظهر من بين الزهاد أفراد يحيون حياة تخالف حياة الآخرين ، من حيث المبالغة فى الزهد ، وترك متاع الدنيا ، ورياضة النفس ، فكان لا بد أن يتسموا باسم خاص ، فأطلق عليهم اسم الصوفية . وكان تصوف هؤلاء امتداداً لزهد ومسلك زهاد القرن الأول مع شئ من المبالغة ، فقد قطعوا فى طريق الزهد مراحل أبعد من زهاد القرن الأول ، الا أن المتأمل فى أقوالهم لا يجد فيها شيئاً من العناصر الأساسية للتصوف مثل المحبة والفناء ووحدة الوجود ، والشخص الوحيد الذى تحدث من بينهم عن المحبة الالهية هو « رابعة العدوية » (١) المتوفاه سنة ١٨٠ أو ١٨٥ هـ . وبظهور رابعة تطور مفهوم التصوف ، فقد أصبح الزهد وسيلة من الوسائل التى يستعان بها على مطالعة وجه الله ومشاهدة جماله الأزلى .

وفى القرنين الثالث والرابع الهجريين وصل التصوف الى مرحلة النضج ، وأخذت المسائل الصوفية التى ظهرت أول الأمر غامضة ساذجة تتضح وتدق ، ذلك أن العناصر الغريبة التى بدأت تتسرب الى الاسلام منذ القرن الثالث الهجرى أخذت تنفذ الى التصوف وتتفاعل معه . وكان من نتيجة هذا التفاعل أن تطور مفهوم التصوف وأصبح شيئاً جديداً لا يقف عند حد الرياضة والمجاهدة ، ولا يقنع فيه الإنسان بالمجاهدة ، وإنما تجاوز هذا

(١) « تاريخ تصوف در اسلام » ص ٣١

كله الى غاية أسمى هي فناء الانسان عن نفسه ، وبقاؤه بربه ، واتحاده به .

والتأمل في أقوال صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين يلمس تحولا فكريا طرا على مفهوم التصوف ، فقد ظهرت في أقوالهم أفكار جديدة ، واصطلاحات وتعبيرات خاصة ، بعضها يتعلق **بالجانب النظرى للتصوف** : من تحديد لمعالم الطريق ، وترتيب للمقامات والأحوال . وكان من الرواد الأوائل في هذا المجال « ذو النون المصرى » (٢٤٥ هـ) و « سرى السقطى » (٢٥١ هـ) ، فيعزى الى ذى النون أنه أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات (١) ، والى سرى أنه أول من تكلم في بغداد في ترتيب المقامات وبسط الأحوال (٢) . وبعضها يتعلق **بالجانب النفسى والوجدانى** الذى يرمى الى الفناء فى الله ، واتخاذ المحب والمحبيب ، ومحو الوجود المجازى فى الوجود المطلق الحقيقى . ونشأ عن هذا ، القول بوحدة الوجود ، وأن الوجود الحقيقى هو الله ، وأن ما سواه عدم محض .

وكما كان الحب طابعا للزهد الذى عرف عند رابعة فى القرن الثانى الهجرى فقد أصبح هذا الحب من أخص خصائص التصوف عند صوفية القرن الثالث ، فأقوال « معروف » و « الجنيد » و « ذى النون » تشتمل على هذه الكلمة ، وظهر فى القرنين الثالث والرابع رجال عرفوا بنظريات فى المحبة ، منهم « المحاسبى » و « المتسترى » و « سمعون » و « الشبلى » وغيرهم ، وبلغت فكرة الحب الالهى ذروتها عند أصحاب وحدة الوجود أمثال أبى يزيد البسطامى والحسين بن منصور الحلاج .

ومن الموضوعات التى تطرقت الى التصوف فى هذه الفترة أن روح أحكام الشريعة وباطنها أهم من شكلها وصورتها الظاهرية ، وأن النية مقدمة على العمل ، وأن السفة خير من الفرض ، وأن الطاعة خير من العبادة . وقد اثار هذه الأقوال انتباه الناس فى ذلك الوقت واسترعت أنظارهم ، وخصوصا طبقة الفقهاء الذين عدوا هذه الأقوال خطرا على المجتمع الاسلامى ، واتهموا الصوفية باختلاق البدع تارة ، وبالكفر والالحاد تارة (٣) . كما جرت عليهم أقوالهم فى المحبة والاتحاد والحلول سخط الفرق الاسلامية الأخرى .

(١) « فى الصوف وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبو العلا عفيفى ص ٧

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٣٧

(٣) « تاريخ تصوف » ص ٥٣

وبالنسبة للفقهاء ومواقفهم من الصوفية، قد شهد القرن الثالث الهجرى بداية الصراع بين هاتين الطائفتين . ويرجع النزاع بينهما الى أن أحكام الشريعة فى أول عهد الاسلام كانت تؤخذ بالرواية ، لا فرق بين عبادات واعتقادات أو معاملات ، ثم لم يلبث المسلمون أن بدأوا يناقشون مسائل الدين ويتدارسونها ، ويبحثون عن علل الأحكام على نمط علمى ، ويدونون ما يتناقشون فيه . وهنا نشأ علم الفقه وأقبل الناس عليه يتناقشون فى تدارسه والعمل بأحكامه ، حتى أن كثيرا من المسلمين كانوا يظنون الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو الغاية من الدين (١) .

ثم ظهر أمر الصوفية ، وكان لهم رأيهم الخاص فيما يتعلق بالمسائل الدينية والأحكام الشرعية ، فقد كانوا يرون أن الدين أصبح فى عرف الفقهاء جملة من رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها ، وأن الكمال الدينى يكمن فى البحث فى المعانى الباطنية للأحكام بالاضافة الى معانيها الظاهرية : ومن هنا ظهر علم التصوف ، أو بمعنى آخر ، انقسم علم الشريعة الى قسمين : ظاهر وباطن ، واختص الفقهاء بالاهتمام بالظاهر ، وعنى الصوفية بالباطن ، وأصبح لكل من الطائفتين وجهة نظرهم الخاصة فى ماهية الدين (٢) .

وكان من الطبيعى أن يقع الصدام بين الطائفتين لاختلاف وجهتى نظرهما وما لبث الفقهاء أن أعلنوا عن عدائهم للصوفية، فتصدوا لبعضهم بالمعارضة، واتهموا البعض الآخر بالكفر والزندقة . وقد حفظت لنا الكتب المتقدمة أخبار سلسلة من الاضطهادات التى لاقاها الصوفية على أيدي الفقهاء ، حتى أن مجموعات كبيرة من شيوخ الصوفية سيقوا الى المحاكمات وحكم عليهم بالموت ، واستطاع بعضهم أن يفلت من العقوبة ، وراح البعض الآخر ضحية لهذا التعصب .

وقد ظهر اضطهاد الفقهاء للصوفية على أشده فيما عرف بمحنة الصوفية ببغداد ، أو محنة غلام الخليل (٣) ، وهى المحنة التى فر على أثرها أبو سعيد الخراز الى مصر ، واتهم فيها نحو سبعين صوفيا

(١) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١١ — ١١٢

(٢) « التصوف الثورة الروحية » ص ١١٣

(٣) « هو أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس » . ولد بالبصرة وتوفى ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ولكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء . وقد وصفه الهجويزى بالكر والشعوذة والحقده على الصوفية (انظر كشف المحجوب ص ١٧٢ وما بعدها)

بالزندقة ، من بينهم الجنيد والنورى ، وحكم عليهم بالموت ، وكاد الحكم ينفذ فى بعضهم ، ثم أفرج عنهم(١) . الا أن هذا الاضطهاد بلغ ذروته فى المأساة التى ذهب ضحيتها الحسين بن منصور الحلاج ، فسجن وعذب وقتل ، وكان مقتله بافتاء من الفقهاء وان بدا بأمر الخليفة .

وبالنسبة للفرق الاسلامية الأخرى التى أظهرت عداها للصوفية ، فمنها : « الامامية » فى القرن الثالث ، الذين أنكروا كل نزوع الى التصوف لأنه يستحدث بين المؤمنين ضربا من الحياة الشاذة . ومنها « الحشوية » ، الذين أخذوا على التصوف أنه يغذى الفكر ، ويصرف أصحابه عن ظاهر العبادة ، ويحماهم على طلب الخلعة مع الله ، فيستبيحون اغفال الفرائض . و « المعتزلة » ، الذين كانوا يستنكرون العشق الالهى لأنه يقوم من الناحية النظرية على التشبيه ، ومن الناحية العملية على الملامسة والحلول(٢) .

وقد كان من نتيجة هذا التعصب أن أخذ كبار الصوفية يتشبهون أكثر من ذى قبل بالقرآن والحديث والأدلة العقلية ، وانشغلوا بالتأليف والتصنيف ، ونهضوا للدفاع عن أنفسهم بسلاح الكتاب(٣) . ولعل علم التصوف أصبح علما مدونا فى هذه الفترة ، فقد بدأ فى القرن الرابع الهجرى تأليف الكتب فى مقامات الصوفية ، وبيان أنواع المجاهدات وما ينشأ عنها من الأنواق والمواجيد ، وألفت فى هذه الفترة كتب قيمة مثل « اللمع » لأبى نصر السراج (٣٧٨ هـ) ، « والتعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى (٣٨٠ هـ) ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكي (٣٨٦ هـ) .

وقد أنتشر الصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وأخذوا ينظمون أنفسهم فى جماعات وفرق لها طرقها الخاصة وشيوخها وسالكوها . وكانت هناك مدارس كثيرة للتصوف(٤) فى هذه الفترة ، لكل منها طابع معين . وقد عدد لنا الهجویری الفرق الصوفية أو — المدارس الصوفية بالتعبير الحديث — التى وجدت فى هذه الفترة باثنى عشرة فرقة ، ونسب كل واحدة منها الى شيخ من شيوخ القرنين الثالث والرابع الهجريين .

(١) (أنظر : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٠٣)
(٢) « دائرة المعارف الاسلامية » مادة : « نصوف » .
(٣) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٥٤
(٤) « النصوف السورة الروحية » : أنظر ص ٩٤ وما بعدها .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع قد حفلا بكثير من الشخصيات الصوفية افذة والمذاهب الروحية النظرية والعملية التي سوف نشعر عليها من خلال الباب الممتع الذي ألفه الهجويزي في كشف المحجوب للحديث عن الفرق الصوفية (١) .

وقصارى القول ، أن الصرح المتكامل للتصوف الاسلامي اذى خد على مر الزمان وبدا متين الأساس شامخ البنيان ، قد أرسى أسسه وقواعده رجال عاشوا في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ووضع كل منهم لبنة في هيكله حتى اكتمل البناء . وإذا كانت هناك تغييرات طرأت على التصوف بعد ذلك فإن أكثر هذه التغييرات يرجع إلى التعبيرات والاصطلاحات والظواهر والأشكال ، أما الأسس فقد ظلت ثابتة حتى الآن .

(ب) التصوف في عهد الهجويزي (التصوف في القرن الخامس الهجري) :

كان العالم الاسلامي في القرن الخامس الهجري تسوده الاضطرابات والمنازعات في النواحي السياسية والدينية والعلمية ، ففي الناحية السياسية كانت الخلافات مستمرة بين الخلفاء العباسيين في بغداد ومن يوالونهم من الحكام السنيين كالغزنويين والسلاجقة في ايران ، وبين الفاطميين في مصر وأتباعهم من الشيعة والباطنية الذين انتشروا في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامي ، وخصوصا في ايران . وفي الناحية الدينية كانت الخلافات المذهبية على أشدها ، وكثر النزاع المذهبي بين الفرق الاسلامية ولم يكن هذا النزاع مقصورا على السنة والشيعة بل تعدى ذلك إلى المذاهب السننية فيما بينها . أما الناحية العلمية فلم تكن أحسن حالا ، فقد سرت العداوة والبغضاء بين أهل العلم ، واستحكم الخلاف بين الفقهاء والفلاسفة بحيث انقرض البحث الحر ، وركد كل ما كان مخالفا للدين والسياسة (٢) .

وعلى الرغم مما أوجدته هذه الاضطرابات والقلقل والمنازعات من أثر سيئ في شتى المجالات ، إلا أنها أحدثت نتائج عكسية في مجالين ، هما : المجال الصوفي ، والمجال العلمي .

ففي **المجال الصوفي** ، ساعدت هذه الاضطرابات على انتشار التصوف انتشارا كبيرا ، وليس تعليل ذلك بالأمر الصعب ، فإن اضطراب الحياة السياسية ، وترق الناس في مذاهبهم شيئا وأجزاء ، وجرى كل فريق

(١) « أنظر : الباب الرابع عشر من كشف المحجوب » .

(٢) « تاريخ تصوف » ج ٢ ص ٤٧٠

الى التعصب ، أشاع في الناس اليأس والقنوط ، وملاً نفوسهم بالخوف والقلق ، فلم يجدوا لهم ملجأ غير التصوف .

ومن ناحية أخرى فإن الانشغال بالاضطرابات السياسية والمنازعات الدينية هياً الفرصة للصوفية لترويج مبادئهم ونشر تعاليمهم . وكان لبعدهم عن المجادلات المذهبية أثر كبير في احترام الناس والأمر والسلاطين لهم ، مما أدى الى انتشار التصوف وبروز طبقة المتصوفة (١) . وقد ظهرت في هذا القرن جماعة من كبار شيوخ الصوفية في العالم الاسلامى عامة ، وفي ايران خاصة ، فكان هناك في النصف الأول من القرن الخامس أمثال السلمى والخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى القاسم الجرجانى والقشيرى وغيرهم ممن يرجع اليهم الفضل في تربية جيل من التلاميذ والمريدين الذين صاروا أعلاماً في تاريخ الحياة الروحية في القرون التالية .

على أن انتشار التصوف في هذه الفترة ساعد على أن اندس بين الصوفية كثير من الأدعياء والصوفية المزيفين الذين انضموا الى صفوف الصوفية اما لحماية أنفسهم ، واما طمعاً فيما كان يتمتع به هؤلاء من احترام وتقدير . وقد قام هؤلاء الأدعياء بترويج البدع والخرافات ، ودعا بعضهم الى التحرر من التقاليد الاسلامية ، واسقاط التكليف الشرعية ، وروج بعضهم العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية ، الأمر الذى اساء الى الصوفية وألقى ظلالاً قاتمة على التصوف .

أما المجال العلمى ، فإنه بالرغم مما أحدثته هذه الاضطرابات من ظهور الفرقة بين الطوائف المختلفة ، قد كان لها أثر كبير في ايجاد نهضة علمية واسعة ، اذ نشطت كل فرقة للدفاع عن نفسها بسلاح القلم ، وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفها المعتزلة والاسماعيلية والصوفية وغيرهم من علماء الفرق المختلفة (٢) .

وكانت علوم الصوفية الدينية أهم العلوم وأكثرها نجاحاً ، فقد كانت هى الحركة العلمية التى ضمت أعظم القوى الدينية فى ذلك الوقت ، وتركزت هذه الحركة بصفة خاصة فى خراسان التى أصبحت أكبر مركز للتصوف فى العالم الاسلامى .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى أن اقليم خراسان الفارسي كان مهد الكتابات الصوفية ، وموطن كبار العلماء الذين ألفوا فى التصوف الاسلامى مثل أبى

(١) « سلاجقة ايران والسراق » عبد المنعم حسنين : القاهرة ١٩٥٩ ص ١٨١

(٢) « سلاجقة ايران » ص ١٩٢

نصر السراج الطوسي ، وأبى عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، وأبى القاسم القشيري النيسابورى ، وحجة الاسلام الامام الغزالي الطوسي .

ومن أهم الكتب الصوفية التى ألفت فى القرن الخامس الهجرى كتابان ألفا فى النصف الأول منه ، وهما : « الرسالة » و « كشف المحجوب » .

والرسالة ألفها بالعربية « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري » وشرح فيها الأسس الصوفية وأحوال المتصوفة . وآراؤه فيها مثل للتوسط والاعتدال (١) .

وكشف المحجوب ألفه بالفارسية «أبو الحسن على بن عثمان الهجویری» وسلك فيه مسلك معاصره القشيري فى الاعتدال ، فهو يربط فى كتابه بين الشريعة والحقيقة ، ويبين أن الشريعة بدون الحقيقة ليست إلا رياء ، وأن الحقيقة بدون الشريعة ليست إلا نفاقاً (٢) .

والواقع أن القشيري والهجویری كانا من الرواد الأوائل وكانت لهما جهودهما التى لا تنكر فى سبيل إعادة التصوف الى سيرته الأولى وتنقيته . مما علق به من شوائب ، فقد ألفا كتابيهما فى وقت كان التصوف فيه قد بلغ حدا جعل الكثيرين يأخذون أنفسهم بالازورار عنه ، والنفور من أهله ، وتوجيه المطاعن اليه ، والقاء الشبهات على تعاليمه ، فقد كان ينظر الى التصوف وقتئذ على أنه زندقة وخروج على تعاليم الكتاب والسنة . ولم تكن هذه النظرة ناشئة عما كان يدعو اليه بعض الصوفية من التعاليم المنطوية على التحرر من التقاليد ، واستقاط التكليف فحسب ، وانما كانت ناشئة أيضا عما كان هنالك من امتزاج بين بعض التعاليم والمذاهب الصوفية وبين بعض العقائد الشيعية والاسماعيلية الباطنية (٣) .

وقد كان لهذه الحال أثرها العميق فى نفوس المخلصين من مفكرى الصوفية أمثال القشيري والهجویری ، وان من يقرأ مقدمتى « الرسالة » و « كشف المحجوب » يقف على مدى أسف مؤلفيهما لانهايار التصوف فى عصرهما ، ولهفتهما على العودة به الى سابق عهده ، ويلمس الحرارة والاخلاص فيما كتبه كل منهما ، والأمل الذى راودهما فى زوال النكسة التى حلت بالتصوف ، هذا الأمل الذى دعاهما الى تأليف كتابيهما . كما يقف فى نفس الوقت على مدى العلاقة الوثيقة بين هاتين المقدمتين ، فقد عالج المؤلفان بعمق ،

(١) « سبك شناسى » ج ٢ ص ١٨٦

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٩٩

(٣) « الحياة الروحية فى الاسلام » محمد مصطفى حلمي ، القاهرة ١٩٤٥ : أنظر ص ١٢١

نفس الموضوع ، واتفقا على التفاصيل ، بل وفي استخدام نفس التعبيرات ،
وان كانت المعالجة على أساس مختلف :

فالقشيري يعالج الموضوع على أساس انقراض المثلين الحقيقيين
للتصوف ، وان كان لا ينكر وجود التصوف ، فهو يقول :

« اعلموا ، رحمكم الله ، أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم
ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة في هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة .
مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين لهم بسيرتهم
وسنتهم اقتداء » (١) .

ويذكر القشيري أن هذا هو السبب الذى دعاه لأن يؤلف رسالته
ويضمنها سير الشيوخ السابقين ، مبينا آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم
وعقائدهم ومواجيدهم ، لتكون نبراسا لجيل جديد من المريدين الصادقين .

يقول : « فعلقت هذه الرسالة اليكم ، أكرمكم الله ، وذكرت فيها
بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم ، وعقائدهم
بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم الى
نهايتهم ، لتكون لمريدى هذه الطريقة قوة » (٢) .

وأما الهجویری ، فيعالج نفس الموضوع على أساس الاختفاء التام
لعلم التصوف في زمنه ، وخصوصا في المنطقة التى يعيش فيها ، وأنه لم
يبق منه الا صورة مشوهة مخالفة للأصل .

يقول : « اعلم أن هذا العلم قد اندرس في الحقيقة في زماننا ، وبخاصة
في هذه الديار حيث انشغل الخلق جميعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق
الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه
الطريقة على خلاف أصلها ، فاستحضر همتك الأمر قصرت عنه أيدي أهل
هذا الزمان وأسرارهم باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد
أهل الإرادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة

(١) « الرسالة » ج ١ ص ٢٠

(٢) « السابق » ص ٢٢

الحق ، ورضى خاصة الخلق وعامتهم من ذلك بالعبارة ، واشتروا حجابهم عنه بالروح والقلب ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد «(١) .

فهذه الصورة المشوهة للتصوف هي التي دفعت الهجویری لأن يرسم في كتابه صورة واضحة للتصوف يبين فيها أصوله النظرية والعملية ، ويؤيد كل أصل منها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ويقرن فيها بين الشريعة والحقيقة ، ويوائم بين التكليف الشرعية والمعاني الصوفية التي تنطوي عليها ، ويتصدى لآراء المنحرفين والأدعياء الذين أساءوا الى التصوف والصوفية .

وقد كان لهاتين المحاولتين من القشيري والهجویری أثرهما في تنبيه الأذهان الى الخطر الذي حاق بالتصوف ، والدعوى الى تنقيته وتصفيته مما لحق به من شوائب . وقد قبيض لهاتين المحاولتين الصليقتين أن تؤتيا أكلهما على يد الإمام الغزالي الذي جاء بعدهما وبذل جهده لادخال التصوف في صلب الاسلام السني ، وأصبح كتابه « احياء علوم الدين » الذي ألفه في أواخر القرن الخامس مصدرا للتصوف السني بغير جدال (٢) .

واذا كان الفضل يرجع للغزالي في اقامة التصوف الذي يعتبر أبلغ تعبير وأوضح تحديد للمذهب السني (٣) ، فقد كانت للقشيري والهجویری جهودهما التي لا تنكر في الدعوة الى هذا الاصلاح وتهيئة الجو له .

ومن المميزات التي تميز بها التصوف في هذه الفترة أن نفوذ التصوف بدأ يظهر في الشعر الفارسي وأخذ هذا النفوذ يزداد قوة على مر الأيام ، وأصبح للشعراء الصوفية في القرن الخامس لسان مرموز ، فعلى الرغم من أنهم استعملوا نفس ألفاظ ومصطلحات القرن الرابع ، إلا أنهم استعملوها على سبيل الكنايات والاستعارات ، فالله عندهم هو « الحبيب » و « المعشوق » و « المحبوب » ، والوجد الحاصل من التفكير فيه : هو « الخمر » و « الخمار » ، والظاهر والباطن منه عبارة عن « طلعتة المنيرة » أو « طرته السوداء القائمة » ، وما الى ذلك من التعبيرات الرمزية الكثيرة (٤) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٧

(٢) « تاريخ الفلسفة العربية » حنا الفاخوري : بيروت ١٩٥٧ . ص ٣٤٨

(٣) « تاريخ الادب في ايران » ج ٢ ص ٣٦٨

(٤) « تاريخ الادب في ايران » براون ج ٢ ص ٣٣٤

وكان أبو سعيد بن أبي الخير أول من استعمل هذا اللسان المرموز من شعراء الصوفية في إيران . ويعزى إليه أنه أول ما ابتدع الشعر الصوفي ، ويعتبر في ذلك أمما لمن جاء بعده من شعراء الصوفية الكبار في إيران أمثال « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » .

وقد استقر صوفية القرن الخامس في الخانقاهات التي بدأت في الانتشار منذ القرن الرابع الهجري ، وازداد انتشارها بشكل ملحوظ في أوائل القرن الخامس حتى عمت جميع أنحاء العالم الإسلامي . وكان هناك عدد كبير من هذه الخانقاهات في خراسان والعراق وفارس وأنحاء كثيرة من إيران (١) ، ووضعوا نظاما معيناً للحياة فيها ، وكان يقوم بإدارة كل واحدة منها شيخ من شيوخ الصوفية المعروفين في هذه الفترة . ونجد على رأس هؤلاء أبا سعيد بن أبي الخير الذي يعتبر أول من شرع نظام الحياة في الخانقاهات ، وأدار عددا منها ، واعتلى المنبر في نيسابور ، وعقد المجالس ، وتصدى لعلماء الظاهر وأئمة المذاهب وجادلهم وحاورهم مما عرض حياته للخطر في بعض الأحيان (٢) . وقد ظل أبو سعيد يعمل قرابة نصف قرن على نشر تعاليمه الصوفية في خراسان ، مستقرا في نيسابور وموطنه « ميهنه » تارة ، ومتنقلا ما بين « طوس » و « خرقان » و « مرو » تارة أخرى ، وتجمع حوله المريدون من كل مكان ، ونال حظوة كبيرة عند العامة والخاصة .

والواقع أن أبا سعيد قاد حركة صوفية واسعة النطاق في إقليم خراسان في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وخصوصا بعد انقضاء فترة الغزنويين الكبار وظهور أمر السلاجقة في إيران ، فقد فتح الميدان أمام المتصوفة في هذه الفترة وراجت سوقهم في العصر السلجوقي .

ونجد في « راحة الصدور » و « أسرار التوحيد » اشارات الى زيارات (٣) ولقاءات (٤) بين أمراء السلاجقة وشيوخ الصوفية في عصرهم .

وقد تعاصر مع أبي سعيد عدد من شيوخ الصوفية المعروفين أمثال أبي عبد الرحمن السلمى (٤١٢ هـ) ، وأبى حسن الخرقي (٤٢٥ هـ) ، وأبى العباس الشقاني ، وأبى الفضل الختلي ، وأبى القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) ، وأبى القاسم القشيري (٤٦٥ هـ) . وقام كل من هؤلاء بنشاط

(١) « أسرار التوحيد » تأليف محمد بن المنور : ترجمة اسعاد عبد الهادي ، القاهرة ١٩٦٦ : أنظر ص ٤١ ، ٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٨٢ وغيرها .

(٢) « السابق » أنظر ص ٨٩ — ٩٥ .

(٣) « أسرار التوحيد » الترجمة : أنظر ص ١٤٠ ، ١٨٢ .

(٤) « راحة الصدور » الترجمة : أنظر ص ١٦٠ — ١٦١ .

كبير في نشر التعاليم الصوفية في خراسان وأجزاء أخرى من إيران ،
وانشغل كل منهم بتربية عدد من المريدين الذين برزت منهم مجموعة
بلغوا بدورهم مرتبة الشيوخ ، وقاموا بتربية جيل آخر من المريدين ،
وأداروا الخانقاهات ، وقاموا برحلات واسعة النطاق لنشر التعاليم
الصوفية . ومن هؤلاء :

« أبو علي الفارمدى » (٤٧٧ هـ) شيخ حجة الاسلام الغزالي ، فقد
كان تلميذا ومريدا لكل من أبي القاسم القشيري وأبي القاسم الجرجاني ،
وتلقى الخرقه على يد هذا الأخير وخلفه بعد وفاته ، وأصبح شيخ
شيوخ خراسان (١) .

و « أبو الفتح بن سألبة » (٤٧٣ هـ) ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن
ابن سألبة البيضاوى ، وكان تلميذا ومريدا لأبي مسلم الفارسي وخواجه
علي بن حسن الكرماني ، وصحب الشيخ أبا علي الداستاني ، واتخذ
باب كوار خانقاها خدم فيها ثلاثين سنة ، وجاور عنده كثير من العلماء
والصالحين . وتوفي سنة ٤٧٣ هـ ودفن في خانقاها (٢) .

و « أبو الحسن علي بن عثمان الهجویری » (٤٦٥ هـ) الذي تتلمذ
على يد أبي العباس الشقاني ، وكان مريدا لكل من أبي الفضل الختلي
وأبي القاسم الجرجاوى ، والتقى بمعاصره القشيري ، وقام برحلات واسعة
النطاق في أنحاء العالم الاسلامي التقى خلالها بعدد كبير من شيوخ
الصوفية الكبار والأئمة ورؤساء المذاهب ، وجمع معلومات قيمة ضمنها
كتابه كشف المحجوب ..

(١) « سفينة الأولياء » ص ٧٥ .

(٢) « شد الازار » ص ١٨٠ - ١٨١ .

الفصل الثالث

التعريف بالهجويرى

موطنه - أسرته - اسمه وألقابه - مولده - زواجه

موطنه :

الحديث عن موطن الهجویری لا يقتصر على التعريف بمنطقة واحدة ، فحياته مقسمة الى ثلاث فترات ، أمضى كل فترة منها في بقعة ، فقد ولد في مدينة « غزنه » وأمضى بها الفترة الأولى من حياته ، ولما بلغ مبلغ الشباب تجول في أرجاء العالم الاسلامی وزار عددا كبيرا من مدنه وأقاليمه ، ثم استقر به المقام في مدينة « لاهور » بالهند حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته . ومن هنا يشمل حديثنا عن موطن الهجویری :

١ — التعريف بمدينة غزنه باعتبارها مسقط رأس الهجویری ، والمدينة التي أمضى بها فترة طفولته وصباه .

٢ — التعريف بمدينة لاهور باعتبارها المدينة التي أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته ، ومثواه الأخير .

أما الفترة التي تتوسط هاتين فيصعب أن نحدد له فيها موطننا ، لأنه لم يكن مستقرا في بقعة معينة .

التعريف بغزنة :

عرفت « غزنه » في التاريخ الاسلامی بأنها موطن سلاطين الغزنويين وعاصمتهم الأولى التي أصبحت في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس من أشهر المدن الاسلامية والمدينة الثانية بعد بغداد ، التي ترنو اليها أنظار المسلمين في جميع العالم الاسلامی وتهفو اليها أفئدتهم ، وتحتل من تاريخهم مركزا مرموقا ، فمنها خرجت جيوشهم الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية ، ولم تتل به قط سورة ولا آية (١) .

(١) « وفيات الاعيان » ج ٢ ص ٨٥

و « غزنه » (١) التي تعرف بهذا الاسم تارة ، وعرفت باسم « غزنه »
و « غزنين » (٢) تارة أخرى : هي مدينة تقع في وسط الهضبات الأفغانية
المرتفعة . وهذه المدينة توجد الآن على الطريق بين كابل وقندهار (٣) في
أفغانستان .

وغزنة مدينة قديمة ، ورد ذكرها في كتب التاريخ والجغرافيا قبل
الغزنويين . وقد ذهب إليها السائح الصيني « هيوان تسانج » حوالي
سنة ٦٤٤ م ، وسماها عاصمة « تساوكيوتو » أي « زابلستان » ، وسجل
اسمها على هذا النحو : « هوسي نا » أي « غزنه » (٤) .

وقد ضبط ياقوت اسمها فقال : « غزنه » بفتح أوله وسكون ثانيه ثم
نون ، هكذا يتلفظ بها العامة ، والصحيح عند العلماء « غزنين » ويعربونها
فيقولون « جزنه » ويقال لمجموع بلادها زابلستان ، وغزنه قصبته ،
وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين
خراسان والهند (٥) .

وكان الجغرافيون العرب يسمون الاقليم الجبلي في أعالي نهر هيلمند
ونهر قندهار « زابلستان » وهي البلاد التي حول غزنه ، أما المنطقة التي
بين غزنه وكابل فكانت تعرف بكابلستان (٦) .

ويعرف ياقوت زابلستان بأنها كورة واسعة قائمة برأسها جنوبى بلخ
وطخارستان وهي منسوبة الى زابل جد رستم بن دستان ، ويقول ان
العجم يزيدون السنين وما بعدها في أسماء البلدين (٧) .

وكانت غزنه تضم في أطرافها عددا من المحلات والقرى من توابعها ،
من بينها محلتين باسم « جلاب » (٨) و « هجوير » (٩) ، استوطنتهما أسرة
الهجويري فانتقلت من احدهما الى الأخرى (١٠) ، ومنها استمد لقبه ، فهو

(١) هكذا يسميها « ابن الاثير » و « النسوى » و « رشيد الدين فضل الله »

(٢) تسمى غزنين في : « زين الاخبار » و « تاريخ بيهقي » و « راحة الصدور »
و « طبقات ناصري » .

(٣) « سلطنت غزنويان » : أنظر مقدمة المؤلف :

(٤) « السابق » .

(٥) « معجم البلدان » ياقوت الحموى : طهران ١٩٦٥ ج ٦ ص ٢٨٩

(٦) « بلدان الخلافة الشرقية » ص ٣٨٨

(٧) معجم البلدان ج ٢ ص ٩٠٤

(٨) « جلاب » صاحبة من ضواحي غزنة اشتهرت بنوع من المرمز النفيس

(٩) « هجوير » بضم الهاء وسكون الجيم : من مضافات غزنين (انظر « هدبة
العارفين » اسماعيل البغدادي استانبول ١٩٥١ ج ١ ص ٦٩١

(١٠) « سفينة الاولياء » : دارا شكوه : لکهنو ١٢٩٥ هـ — ١٨٧٨ م ص ١٦٤

يلقب بالجلابى تارة ، وبالهجویری تارة أخرى ، وكثيرا ما يضاف كلاهما الى اسمه فيقال له : الجلابى الهجویری (١) .

ولا يوجد فى مدينة غزنه حاليا أو على مقربة منها موضع باسم جلاب أو هجویر ، وقد قام السيد « حبيبى » منذ سنوات بزيارة ضريح الشيخ عثمان والد الهجویری ، وذكر أن هذا الضريح يوجد الآن فى قرية تسمى « أربابها » على بعد ميل من غزنه ، وأنه ربما كانت واحدة من المحلتين السابقتين تقع فى موضع أربابها غير أن دورة الأيام محت اسمها أو بدلته (٢) .

ويبدو أن الهجویری كان يحب موطنه غزنه حبا جما ، وظل برغم رحلاته العديدة مرتبطا بمسقط رأسه يحمل له الاعزاز والتقدير ، فهو لا يذكر اسم غزتين الا بقوله : « غزنین حرسها الله » (٣) . وقد أبدى أسفه لأنه عندما كان يؤلف كتاب كشف المحجوب ، فى مدينة لاهور ، لم يكن فى متناول يده كتبه ومراجعته التى كان قد تركها فى غزنین (٤) .

التعريف بلاهور :

تعتبر « لاهور » الموطن الثانى للهجویری ، فهى المدينة التى أمضى بها الفترة الأخيرة من حياته وتوفى بها ، ولا يزال قبره فيها .

و « لاهور » مدينة هندية قديمة يرجع تاريخها الى ألفى عام ، وتدخل الآن ضمن نطاق الأراضى الباكستانية .

ويرد اسم لاهور فى التفاسير الهندية القديمة على أنه مأخوذ من الكلمة السنسكريتية « لوه أور » التى تعنى : قلعة « لوه » أحد توأمى الاله الهندى العظيم « راما » بطل الملحمة الهندية الشهيرة « رامايانا » . وقد أشار السائح الصينى « هيوان تسانج » الى لاهور فى سجله عام ٦٣٠ م . وتذكر لاهور فى بعض المصادر على أنها : « لهاوور » (٥) أو « لوهور » أو « لهانور » (٦) أو « لاهوور » . وضبط ياقوت اسمها فقال : « لوهور » بفتح أوله وسكون ثانيه والهاء وآخره راء ، والمشهور من اسم هذا البلد « لهاوور » وهى مدينة عظيمة ومشهورة فى بلاد الهند (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١

(٢) « هلال » جلد بنجم شماره ١ - خرداد ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ ، ١١٥

(٤) « السابق » ص ١١٠

(٥) أنظر : « الكامل » حوادث ٤٣٥ ، جامع التواريخ المجلد الثانى ج ٤ ص ٢١٧

(٦) « كشف المحجوب » ص ١١٠ حاشية ٣٥

(٧) « معجم البلدان » ج ٤ ص ٣٧١

ولاهور عاصمة اقليم البنجاب ، وهو واحد من الأقاليم الأربعة التى يشتمل عليها وادى السند ، وهى : « البنجاب » و « راجبوتانا » و « والكجرات » و « والسند » ، ويسمى هذا الوادى بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ، ولما احتواه من المباني التى أسفرت عنها الحضارة الإسلامية (١) .

ويقع اقليم البنجاب فى أسفل جبال الهملايا . وكلمة البنجاب مكونة من كلمتين « بنج » و « آب » ومعناها بالفارسية : الأنهار الخمسة ، اذ تجرى فى البنجاب الأنهار « ستلج » و « جناب » و « بياس » (الاندوس) و « جهلم » و « راوى » وجميعها روافد لنهر السند ، تنبع من جبال همالايا الغربية ، وتجرى حاليا فى أرض الباكستان وتتخلل البنجاب سلسلة من التلال ، وبها منطقتان من الغابات فى مقاطعتى : مولتان ولاهور (٢) .

ويرد ذكر لاهور فى كشف المحجوب على انها من توابع المولتان (٣) ، بينما يذكرها القزوينى على أنها من المدن الكبرى فى السند شأنها فى ذلك شأن المولتان ، يقول : « السند مملكة كبيرة من الاقليم الثانى ، ومدنها الكبرى هى : المنصورة ، ملتان ، لاهور ، هياطيه (بهاطيه) ، فرشاور (بشاور) . . . والأهالى هناك يتحدثون ، غالبا بالفارسية » (٤) .

و « لاهور » تقع قرب الشاطئ الأيسر لنهر راوى ، وتشغل موقعها منذ أزمنة مبكرة ، ومعظم مناطقها أكثر علوا من المناطق المحيطة بها ، وقد أقيمت المدينة الحالية على بقايا المساكن القديمة التى كانت فى تلك المنطقة (٥) ، ولا تزال بعض المناطق القديمة باقية على حالها حيث كانت تقوم المدينة القديمة ، ويوجد بها مزار الهجویری (٦) .

وتمتاز لاهور بأنها أكبر مركز للثقافة الإسلامية فى شبه القارة الهندية ، وهى مقر جامعة البنجاب أقدم أكاديمية للآداب والعلوم فى الهند .

نسب الهجویری وأسرته :

لا نكاد نعرف شيئا عن أسرة الهجویری ، فهو لم يشر قط فى كتابه الى أسرته أو أبويه . وكل ما لدينا من معلومات فى هذا الصدد هو مجرد اشارة

(١) « حضارة الهند » جوستاف لوبون : ترجمة عادل زعيتر — القاهرة ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م ص ٦٩ .

(٢) السابق « باكستان المعاصرة » حافظ حمدى ومحمود الشرقاوى : القاهرة (بدون تاريخ) ص ٨ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « نزعة القلوب » ص ٢٥٩ .

(٥) Encyclopaedia - Britannica : Vol. 13 : «Lahore» p. 595.

(٦) « تذكرة حضرت على هجویری » أنظر : ص ٨٧ .

طفيفة وردت في سفينة الأولياء ، لا تتعدى أنه كان من أسرة تتصف بالتقوى والزهد ، استوطنت مدينة غزنه (١) .

وهناك شجرة لنسب الهجویری ، لم يرد ذكرها الا في « خزينة الأصفیاء » ، وهذه الشجرة توصل نسبه الى الامام على بن أبی طالب . وذكر مؤلف الخزينة أن هذه الشجرة مدرجة في تواریخ السابقین ، ولكنه لم يذكر أسماء هذه التواریخ .

يقول : « شجرة نسبی حضرت ممدوح بدين نوع درج تواریخ متقدمین است كه حضرت مخدوم على بن عثمان بن سيد على بن عبد الرحمن بن شاه شجاع بن أبو الحسن على بن حسين أصغر بن سيد زيد شهيد بن حضرت امام حسن رضي الله عنه بن على كرم الله وجهه » (٢) .

وترجمته : « شجرة نسب حضرة الممدوح مدرجة في تواریخ المتقدمین على هذا النحو : أن حضرة المخدوم على بن عثمان بن السيد على بن عبد الرحمن ، بن شاه شجاع بن أبی الحسن على بن الحسين الأصغر ، ابن السيد الشهيد زيد ، ابن حضرة الامام الحسن رضي الله تعالى عنه ، ابن على كرم الله وجهه » .

وقد أشير الى هذا النسب في هدية العارفين ، فأضاف البغدادي لقب « الحسيني » الى اسم الهجویری (٣) . وورد ذكره أيضا في مقالين في مجلة (هلال) ، فذكر الكاتب في المقال الأول أن نسب الهجویری يتصل من ناحية أبيه بالامام الحسن (٤) ، وذكر في الثاني أن الشيخ عثمان والد الهجویری يتصل نسبه في الظهر الثامن بالامام على المرتضى (٥) . ويبدو من هذه العبارات أن الهجویری كان من أصل عربي .

والده :

والد الهجویری هو الشيخ عثمان بن أبی على ، وكان — كما وصفه — غلام سرور — رجلا متدينا جدا ، على قدر كاف من التصوف والعرفان .

(١) « سفينة الأولياء » ص ١٦٤ .

(٢) « خزينة الأصفیاء » مفتی غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر : ج ٢ ص ٢٣٣) .

(٣) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .

(٤) « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .

(٥) « هلال » جلد پنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

ويبدو أن الشيخ عثمان كان على قيد الحياة حتى عصر السلطان محمود الغزنوى ، وأدرك فترة ازدهار غزنه في ذلك العصر . يقول غلام سرور ما ترجمته :

« وفي تلك الفترة كان العلماء والفضلاء وأرباب المعرفة والشعراء والصوفية يتوجهون الى مدينة غزنه من جميع أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث أصبحت تلك المدينة والقرى التابعة لها مركزا للعلوم الدينية والآداب الاسلامية . وكان الشيخ عثمان من بين الوافدين على غزنه ، فاتخذ مسكنه في ضواحيها ، وصار موضع احترام الأهالى ، ومحل ثقتهم واعتقادهم » .

وتوفى الشيخ عثمان في غزنه ، ولا يزال قبره بها ، في قرية تسمى « اربابها » على بعد ميل من غزنه الحالية (١) .

والدته :

أما عن والدته الهجویری ، فقد كانت هى أيضا من بيت متدين . وقد أشار « داراشكوه » الى واحد من اخوتها باسم الشيخ « تاج الأولياء » ، ويبدو أنه كان من الرجال الصالحين المعروفين في غزنه وتوفى ودفن بها ، ولا يزال ضريحه معروفا باسمه هناك . وقد زار « دارا شكوه » هذا الضريح الذى يقع بالقرب من ضريح والد الهجویری ، ويتصل به قبر والدته (٢) .

اسمه والقباه :

« الهجویری » اسمه : « على بن عثمان » . وقد أثبت هذا الاسم في مقدمة كشف المحجوب (٣) ، وكرره كثيرا في ثانيا الكتاب ، فقد كان في كل مرة يتحدث فيها عن نفسه ، يصر على أن يقول :

« ومن كه على بن عثمان الجلابى ام » .

أى : « وأنا على بن عثمان الجلابى » .

حتى أن هذه العبارة وردت ثمان وعشرين مرة في كتاب كشف المحجوب (٤)

(١) « هلال » جلد بنجم - شماره ١ ، خرداد ماه ١٣٣٦

(٢) « سفينة الاوياء » ص ١٦٥

(٣) « كشف المحجوب » ص ١

(٤) « السابق » (انظر الصفحات رقم : ١ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٩١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥٥ ، ٣٣٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ، ٣٨٨ ، ٤١٤ ، ٤٤٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦) .

والاسم الكامل الذى يرد للهجویری ، مضافا اليه كنيته وألقابه ، هو :

« أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابی الهجویری الغزنوی » ،
ويعرف فى بعض المصادر باسم : « داتا كنج بخشى لا هورى » (١) . كما
أنه يسمى أحيانا فى اختصار : « الغزنوی » أو « الهجویری » أو « الجلابی »

وإذا تأملنا هذا الاسم الطويل ، نجد أنه ينقسم الى ثلاثة أقسام :

كنية ، اسم ثلاثى ، ألقاب .

فالكنية : أبو الحسن (٢) .

والاسم : على بن عثمان بن أبى على (٣) .

والألقاب : الجلابی والهجویری والغزنوی .

ولا يوجد فى أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری خلاف حول
كنيته ، أو اسمه أو اسم أبيه ، وإن كان هناك خلاف يسير حول اسم جده ،
فقد ذكرته بعض المصادر على أنه « على » (٤) وذكرته بعضها الآخر على
أنه « أبو على » . ويبدو أن الأخير هو الأصح لأنه المذكور فى مقدمة
كشف المحجوب .

أما عن الألقاب التى يلقب بها الهجویری ، فقد ارتبطت كلها بموطنه
والأماكن التى عاش فيها :

فهو يلقب بالجلابى نسبة الى « جلاب » .

ويلقب بالهجویری نسبة الى « هجویر » (٥) .

(١) « خزينة الاصفياء » مفتى غلام سرور : لاهور ١٩١٤ (أنظر ج ٢ ص ٢٢٤) ،
« سلطنت غزنويان » ص ٣٣٨ ، « فهرست كتابهای جابى فارسى » خنابا مشار :
تهران ١٣٣٧ (أنظر ج ١ عمود ١٢٦٥) ، تذكره حضرت على هجویری ص ١٧ ،
وكلمة « داتا » تطلق على رجل الدين فى مقابل الكلمة العربية ، و « كنج بخشى »
بمعنى : واهب الكنز ،

(٢) « نفحات الانس » عبد الرحمن بن أحمد جامى : طهران ١٣٣٦ هـ ش - ص ٣١٦ ،
« سفينة الاولياء » ص ١٦٤ ، « هدية العارفين » ج ١ ص ٦٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١ ، « نفحات الانس » ص ٣١٦ ، « سفينة الاولياء » ص ١٦٤

(٤) أنظر : « نيكولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب ، « Ette » :
Catalogue of persian Manuscripts (Endia office Library) Vol. I.

(٥) بخطىء البعض فى ترجمة لقب الهجویری عن الانجليزية فيترجمونه : « الحجویری »
أنظر : « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » آدام ميتز : ج ٢ ص ١٧
وغیرها ، « مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى » فرانتز روزنتال : ترجمة
أنيس فريحة : بيروت ١٩٦١ ص ١٢٨ .

ويلقب بالغزنوى نسبة الى « غزنه » .
وجلاب وهجوير محلتان من محلات مدينة غزنه مسقط رأس الهجويرى .
يبقى بعد ذلك لقب : داتا كنج بخش لاهورى ، الذى تطلقه بعض المصادر
على الهجويرى . وقد ذكر صاحب « خزينة الأصفياء » أن « معين الدين
حسن السنجرى » (١) هو الذى أطلق عليه هذا الاسم ، ذلك انه عندما
تتخذ خلعة قطب لاهور ، ذهب الى ضريح الهجويرى واختلى هناك ،
وعندما هم بمغادرة المكان وقف في مواجهة القبر وقال هذا البيت :

كنج بخش هردو عالم مظهر نور خدا
كاملان رابير كامل ناقصان را راهنما

وترجمته :

انه واهب كنز كلا العالمين ومظهر نور الله ،
وشيخ كامل للكاملين ، وهاد للناقصين .

ومنذ ذلك اليوم اشتهر باسم : « كنج بخش » (٢) .
غير انه ورد في مقال في مجلة « هلال » ان هذه الرواية موضة شك ،
وذكر الكاتب ان هذا اللقب ورد على لسان الهجويرى في كتابه « كشف
الأسرار » حيث يقول ما ترجمته :

« يا على ، ان الناس يسمونك بالوهاب ، وانت لا تملك فلسا
واحدا . فلا تدع لهذا الادعاء سبيل الى قلبك ، والا كان هذا
محض غرور . فالوهاب هو الله وحده ، فلا تكن شريكا له والا هلك .
وهو بلا شك اله واحد ، وليس له شريك » (٣) .

ويبدو من هذه العبارة ان الهجويرى كان يلقب بداتا كنج بخش اثناء
حياته ، وأنه لم يكن يستحسن هذا اللقب .

« وداتا كنج بخش » هو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهند
وباكستان ، منذ قرون طويلة . وقد لا يعرف عامة الناس هناك اسم
« على الغزنوى » ، ولكن لا يوجد من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا
كنج بخش » .

(١) « معين الدين حسن السنجرى » من سلسلة شيوخ الجشتية . كان مريدا للشيخ
عثمان الهارونى وتوفى سنة ٦٣٣ هـ (انظر ترجمته فى : « سفينة الاولياء » ص ٩٣
— ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها) .
ص ٩٣ — ٩٤ ، « خزينة الاصفياء » ج ١ ص ٢٥٦ وما بعدها) . . .
(٢) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤
(٣) انظر : مجلة « هلال » شماره سوم : اردیبهست ١٣٣٢ .

أما لقب « لاهورى » (١) فقد اكتسبه الهجویری من اقامته في مدينة لاهور خلال الفترة الأخيرة من حياته .

مواده ونشأته :

تاریخ میلاد الهجویری مجهول تماما ، فكتاب كشف المحجوب خال من الإشارة الى هذا الأمر ، كما أنه لم يرد ذكر هذا التاريخ في أى من المصادر التى تحدثت عن الهجویری ، حتى أقربها اليه عهدا .

والواقع أنه لا سبيل أمامنا لمعرفة تاريخ ميلاده ، على وجه التقريب الا بالرجوع الى بعض الاشارات ، غير المباشرة ، التى وردت في كشف المحجوب ، والتى يشير فيها الهجویری الى معاصريه من الصوفية .

ومن المعروف ، في كثير من المصادر ، أن الهجویری عاصر كلا من أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ — ٤٤٠ هـ) ، وأبى القاسم القشیری (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ) .

وبالنسبة لأبى سعيد ، فقد ذكرت بعض المصادر أنه والهجویری كانا مریدین لشيخ واحد هو « أبو الفضل حسن السرخسی » (٢) ومن هنا أطلقت عليه لقب « شقيق أبى سعيد » (٣) . ولكننا بالرجوع الى كشف المحجوب نضع أیدینا على الحقائق التالية :

أولا : أن الهجویری كان مریدا لأبى الفضل محمد بن الحسن الختلی (٤) ، لا أبى الفضل حسن السرخسی ، وهو لم ير هذا الأخير وإنما حدثه عنه (خواجه) الامام الحزামী (٥) .

(١) أنظر : « خزينة الاصفاء » ج ٢ ص ٢٣٢

« سلطنت غزنویان » ص ٣٣٨

« بزم شوق » نشریه ماهیانه ادبی و فرهنگی : اکادمی فارسی کراچی نومبر ١٩٦٣
(مقال بقلم غلام سرور) .

(٢) أنظر :

مقدمة مخطوطة كشف المحجوب التابعة لمكتبة فينا ، والمحفظة تحت رقم ٣٤٤ من مجموعة « هامر » ، « فصل الخطاب » محمد بارسا (نقلا عن « كشف المحجوب » مقدمة المصحح ص ٦١ — ٦٢) ، « سبك شناسی » ج ٢ ص ١٨٧ .

« هلال » جلد سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) « رسالة آبدالية » یعقوب بن عثمان الجرجی نقلا عن :

«Ethe», Cat. Vol. I.

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٥) « السابق » ص ٢٨٧ .

ثانيا : لم يلتق الهجویری بأبی سعید بن أبی الخیر أثناء حياته ، وإنما قام بزيارة قبره في ميته (١) بعد وفاته ، والتقى بابنه « المظفر » ، وخادم أبی سعید الخاص « حسن بن المؤدب » . وسمع من هذا الأخير بعض أخبار أبی سعید (٢) ، وسمع بعضها الآخر من أبی مسلم الفارسی أحد معاصري أبی سعید (٣) .

ثالثا : ترجم الهجویری لأبی سعید ضمن عدد من شيوخ الصوفية من معاصريه ، وذلك في الباب الثاني عشر من كشف المحجوب المسمى « باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين » (٤) :

والمجموعة الأولى من هؤلاء الشيوخ لم يدركهم الهجویری ، وهم بالنسبة لأبی سعید أما شيوخه مثل : أبی العباس القصاب (٣٩٧ هـ) (٥) وأبی علی الدقاق (٤٠٥ هـ) (٦) ، وأما رفاقه مثل : أبی عبد الله الداستاني (٤١٧ هـ) وأبی الحسن الخرقاني (٤٢٥ هـ) .

والمجموعة الثانية : وان كانوا أيضا من طبقة أبی سعید ، إلا أن الهجویری أدركهم وتلمذ عليهم ، وهم يمثلون أساتذته وشيوخه ، مثل : أبی العباس الشقناني (٧) ، وأبی القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) (٨) وأبی الفضل الختلي وخواجه مظفر بن حمدان (٩) .

ويتضح من هذا الموضع الذي ترجم فيه الهجویری لأبی سعید ، ومن لهجة التقدير والاحترام الكبير التي ترجم له بها ، أنه كان يعدّه في مرتبة شيوخه وأساتذته الذين كانوا جميعا ينتمون الى جيله ، وبالتالي فإن الهجویری يمثل الجيل الذي تلا هؤلاء الشيوخ وهو جيل تلاميذهم ومريديهم .

وبالنسبة للقشيري : فمن الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری التقى به وسمع منه بعض آرائه (٩) . ولكننا في الوقت نفسه نستشف من الموضع الذي ترجم له فيه — وهو نفس الباب الذي ترجم فيه لأبی سعید

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٠١

(٢) « السابق » ص ٢٠٥

(٣) السابق ص ٤٥٠ — ٤٥١

(٤) السابق ص ٢٠٢ — ٢١٤

(٥) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٥٦ ، ٦٣

(٦) « السابق » أنظر ص ٧٠ — ٧١

(٧) « أسرار التوحيد » أنظر ص ٢٤٦ — ٢٤٧

(٨) « السابق » أنظر ص ٨١

(٩) « السابق » ص ٢٢٠ — ٢٢١

(١٠) « كشف المحجوب » ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢٨٧

ولأساتذته وشيوخه - ومن اللهجة التي تحدث بها عنه ، أنه كان يعدده هو الآخر في عداد أساتذته . وليس هذا غريبا ، فالقشيري كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير ، وقد تلازما مدة طويلة في نيسابور (١) ، كما عاصر القشيري أيضا أساتذة الهجويري وشيوخه (٢) ، وكان على اتصال وثيق بهم .

وكان يوجد الى جوار هذه المجموعة من الشيوخ ، التي تضم أبا سعيد والقشيري وأساتذة الهجويري وشيوخه ، عدد من التلاميذ والمريدين الذين كانوا يتتلمذون على بعض هؤلاء الشيوخ ويلتزمون بعضهم ، وهؤلاء التلاميذ عرفوا فيما بعد ، وبلغوا هم أيضا مرتبة الشيوخ ، ونذكر منهم « أبا الفتح ابن سالبه » (٣) و « أبا علي الفارمدى » .

أما « أبو الفتح » فهو ابن شيخ الشيوخ أبي الحسن بن سالبه البيضاوى (٤) ، كان تلميذا لعدد من الشيوخ من طبقة أبي سعيد (٥) ، وتوفي سنة ٤٧٣ هـ . وقد أشار اليه الهجويري ، في كشف المحجوب ، بما يدل على أنه كان من طبقتة ، وصرح بأنه لم ير شيخ الشيوخ ولكنه رأى ابنه ، وذكر اسم أبي الفتح بين أسماء الصوفية المعاصرين له ، وقال انه سوف يصبح خلفا طيبا لأبيه ، ومرجوا فيه (٦) . .

وأما « أبو علي الفارمدى » (٧) المتوفى سنة ٤٧٧ هـ ، فقد كان مريدا

(١) أسرار التوحيد » انظر : الفصل الاول من الباب الثاني .

(٢) كشف المحجوب » ص ١٨٩ .

(٣) « أبو الفتح بن سالبه : عبد السلام بن أحمد ، « أبو الفتح الصوفي ويعرف بابن سالبه ، من أهل فارس . سافر الكثير ، وجال في البلاد وسمع بها الحديث . ورد بغداد في سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، فسمع بها من أبي القاسم بن بشران ، وأبي علي ابن شادان . وتوفي ببغداد سنة ٤٧٣ هـ » انظر : « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ابن الجوزي : حيدر آباد ١٣٥٨ هـ - ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٤) « شيخ الشيوخ أبو الحسين أحمد بن محمد بن جعفر البيضاوى المعروف بابن سالبه ، وكان من كبار مشايخ الصوفية في فارس في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس . من معاصري أبي اسحاق بن شهريار الكازرونى (٤٢٦ هـ) وأبي حنان التوحيدى (٤٠١ هـ) . توفي سنة ٤١٥ هـ ، ودفن في بيضاء فارس » . « شد الازار في حظ الازار عن زوار المزار » معين الدين أبو القاسم جنيد الشيرازى . تصحيح : محمد قزوينى وعباس اقبال : طهران ١٣٢٨ هـ - انظر حواشى ص ٤٧٦ » .

(٥) تادب « أبو الفتح » بالشيخ أبي مسلم الفارسي ، ولقى الشيخ أبا الحسن على بن خواجه الكرماني ، وصحب الشيخ أبا عبد الله الداستاني - وثلاثتهم من معاصري أبي سعيد وزملائه » .

() انظر : « شد الازار » ص ١٨٠ - ١٨١ () .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٧) « أبو علي الفارمدى » : شيخ حجة الاسلام الغزالي (انظر : نفحات الانس ص ٣٧٠) ، اسمه الفضل بن محمد بن علي الفارمد ، وفارمد من تسمى طوس ، انظر : « معجم البلدان » ج ٣ ص ٨٣٩) ، وكان شيخ شيوخ خراسان وتلميذا للامام القشيري ، ومريدا للشيخ أبي القاسم الجرجاني ، وألتقى بالشيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، وتوفي سنة ٤٧٧ هـ ، وقبره في طوس (انظر : « سفينة الاولياء » ص ٧٥) .

لأبى الحسن الخرقانى(١) ، وتلميذا ومريدا لأبى القاسم القشيرى ، ثم انضم الى حلقة مريدى أبى القاسم الجرجانى(٢) . وفى خلال فترة تلمذته على الجرجانى ، بعث به الى أبى سعيد بن أبى الخير ، فأقام عنده فترة فى مدينة(٣) ، ثم رجع الى الجرجانى وتسلم منه الخرقة ، وأصبح خليفة له بعد وفاته .

وقد أشار الهجويرى الى الفارمدى خلال ترجمته لشيخه أبى القاسم الجرجانى ، ووصفه بأنه لسان الوقت ، وتنباؤه بأنه سوف يكون خير خلف للشيخ وخير قدوه للصوفية . ثم أثار الى نفسه فى الترجمة ذاتها بما يفيد أنه ، عند اتصاله بأبى القاسم الجرجانى وتعرفه على مريده الفارمدى ، كان لا يزال فى سن الشباب(٤) .

ويتضح من هاتين الاشارتين أن الهجويرى والفارمدى كانا مريدين لشيخ واحد ، هو « أبو القاسم الجرجانى » ، وكانا كلاهما ينتميان الى جيل النلامذة والمريدين ، مما يدل على أنهما متقاربان فى السن ، ومن طبقة واحدة ..

وبالاضافة الى هؤلاء ، أشار الهجويرى فى الباب الثالث عشر من كشف المحجوب (باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على حسب البلدان)(٥) الى عدد من الصوفية من بينهم مجموعة من الشبان من أبناء الشيوخ من طبقة أبى سعيد ، وهم :

المظفر بن أبى سعيد (٤٤٠ هـ) .

أحمد بن أبى الحسن الخرقانى (٤٢٥ هـ) .

أبو الحسن على بن أبى على الأسود (سياه) (٤٢٤ هـ) .

وربما كان هؤلاء يمثلون الطبقة التالية لطبقة الهجويرى ..

وبعد هذا العرض لطبقات ثلاث من معاصرى الهجويرى ، نستنتج أنه كان يمثل طبقة تتوسط طبقة الشيوخ من أقران أبى سعيد بن أبى الخير ، وطبقة أبناء هؤلاء الشيوخ . وبناء عليه يمكن أن نرجح أنه ولد فيما بين العقدين

(١) ١ نفحات الانس « ص ١٩٦٨ .

(٢) « أسرار التوحيد » انظر ص ١٤٢ - ١٤٤ .

(٣) « السابق » ص ٢٠٧ .

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ - ٢١٨ .

التاسع والعاشر من القرن الرابع الهجرى . واذا افترضنا أنه ولد حوالى منتصف هذه الفترة ، فان ذلك لا يتعارض مع ما ورد فى بعض المصادر من أنه عاصر السلطان « محمود الغزنوى » (١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ ، وابنه السلطان مسعود (٢) (٤٣٢ هـ) .

أما عن نشأة الهجویری ، فمن الواضح أنها كانت نشأة دينية خالصة ، فقد ولد فى بيئة متدينة عرفت بالزهد والتقوى (٣) ، بين أب على قدر كاف من التصوف والعرفان (٤) وأم من بيت متدين عرف أفرادہ بالصلاح والتقوى فتلقى التعاليم الأولية للدين الاسلامى على أفراد أسرته ، وصحب أباه خلال فترة طفولته ، فتعرف على مبادئ التصوف فى سن مبكرة ، وتشرب روحه منذ الصغر ، وكان لذلك أثره الكبير فى اتجاهه الى التصوف ، وسلوكه طريق الصوفية .

زواجه :

وردت فى كشف المحجوب اشارة عابرة أشار فيها الهجویری الى زواجه، ويبدو منها أن تجربته فى الحياة الزوجية كانت قصيرة وغير سارة ، ذلك أن القدر أراد له أن يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها ، وأفسدت عليه هذه المرأة حياته لمدة عام ، انتقلت بعده الى رحمة الله .

يقول ما ترجمته : « وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق من آفة الزواج أحد عشر عاما ، قدر أن وقعت فى الفتنة ، وصار ظاهرى وباطنى أسير الصفة التى كانوا عليها معى ، دون أن تكون هناك رؤية . وقد استغرقت فى ذلك عاما بحيث كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته . والحمد لله على جزيل نعمائه » (٥) .

وقد اختلف « زوكوفسكى » و « نيكولسون » فيما اذا كان الهجویری قد مر بتجربة عاطفية خلال هذا العمام ، أم أنه تزوج فعلا . ويبدو أن

(١) « سلطنت غزنویان » ص ٣٣٨ ، « رسالة آبدالية » (نقلا عن مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٢) « تصوف » عباس مہرین : کابل ص ٣٢ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « هلال » جلد بنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٤٧٦ .

زوكوفسكى فهم من العبارة السابقة أن الهجویری لم يكن متزوجاً (١) ، وأن التجربة التي مر بها كانت تجربة عاطفية (٢) ، بينما يرى نيكولسون أنه قد تزوج فعلاً (٣) .

ولا شك أن الصواب في جانب نيكولسون ، لأننا إذا رجعنا الى النص نجد الهجویری يقول :

« من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، فقد قدر أن وقعت في الفتنة » ومعنى هذا أن تغيراً قد حدث من حالة الى حالة مغيرة ، أى من عدم الزواج الى الزواج ، واستمر هذا التغير لمدة عام ..

وقد ذكر « محمد الدين » مؤلف كتاب : « حيات حضرت داتا كنج بخش » في فصل من الكتاب عنوانه : « الزواج الأول والثانى لحضرة دانا كنج بخش » أن الهجویری تزوج مرتين ، واستند في ذلك الى النص الذى ورد في كشف المحجوب .

وبدأ الكاتب هذا الفصل بقوله أن حضرة داتا كنج بخش آثار الى زواجه الثانى ولم يذكر شيئاً عن زواجه الأول ، عندما قال في كشف المحجوب .

« وأنا على بن عثمان الجلابى ، من بعد أن حفظنى الحق تعالى من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، فقد قدر أن وقعت في الفتنة » .

واستنتج الكاتب من هذه العبارة أن الهجویری تزوج مرتين :

المرّة الأولى : عندما كان لا يزال صغيراً ، فتزوج بناء على رغبة والديه ، غير أن هذا الزواج لم يدم طويلاً ، اذ توفيت الزوجة الأولى .

وظل الهجویری بدون زواج لمدة أحد عشر عاماً ، كما هو واضح من عبارته .

والمرّة الثانية : عندما قدر له أن يقع في حب الأسرة والأولاد ، وكانت تسيطر عليه عندئذ عاطفة قوية جعلته يرتبط بامرأة لم يكن قد رآها من

(١) « يشترك » ميتر مع زوكوفسكى في هذا الرأى ، انظر : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع » ج ٢ ص ٢٤ .

(٢) Bulletin of : Oriental Studies : A Translation of Zhukovsky's Intro duction.

(٣) انظر : نيكولسون : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

قبل ، فتزوج بها ، ولم يقدر له التوفيق في زواجه الثانى ، ذلك أن المرأة التى تزوجها كادت أن تفسد عليه دينه . واستمرت هذه التجربة القاسية لمدة عام ، كما يدل عليه قوله :

« واستغرقت في ذلك عاما ، حتى كاد يفسد على دينى ، الى أن بعث الحق تعالى بكمال فضله وتمام لطفه ، عصمته لاستقبال قلبى المسكين ، ومن على بالخلاص برحمته » .

فهذه العبارة تدل ، في رأى الكاتب ، على أن الزوجة الثانية توفيت أيضا بعد عام من الزواج . ويضيف الكاتب أن الزواج الثانى للهجویری تم أيضا استجابة لرغبة والديه ، ذلك أنه على الرغم من كراهيته للزواج — كما يتبين من أقواله في كتابيه : كشف المحجوب وكشف الأسرار — اضطر أمثالا لأوامرهما أن يتزوج مرتين ، إذ لم تكن لديه المقدرة على رفض طلبهما ، احتراماً لهما(١) .

والواقع أن الكاتب حل النص الوارد في كشف المحجوب تحليلا لا بأس به ، توصل عن طريقه الى ترجيح أن الهجویری تزوج مرتين ، وهو ما نؤيده فيه ، الا أننا نأخذ عليه بعض التضارب في أقواله ، فهو تارة يقول ان الهجویری تزوج في المرة الثانية استجابة للرغبة القوية التى تملكته حبا في تكوين الأسرة والأولاد ، وتارة أخرى يقول انه كان كارها للزواج عازما عنه ، وانما اضطر اليه ارضاء لوالديه .

وفي رأينا أن الهجویری تزوج للمرة الأولى في حياة أبويه ، وكان لا يزال شابا حديث السن . وربما كان زواجه استجابة لرغبة والديه ، كما يقول « محمد الدين » .

أما امرة الثانية فيبدو أنها كانت بعد وفاة أبويه . ومن المرجح أن زواجه الثانى تم خلال فترة الرحلات ، ذلك أن العبارة الواردة في النص تشير الى أنه ظل بدون زواج لمدة أحد عشر عاما ، ومعنى هذا أنه كان قد تخطى الثلاثين من عمره . ومما لا شك فيه أن هذه الفترة من عمره تقابل فترة الرحلات .

وقد انعكست مرارة التجربة الثانية الفاشلة للهجویری في الزواج على أقواله ورأيه في الزواج في كتابه كشف المحجوب ، وجعلته يفسو على النساء في حكمه ، حتى أنه صرح بأن المرأة سبب البلاء في الدنيا والآخرة ، وأنها كانت كذلك منذ البداية ، وبقيت هكذا الى يومه(٢) .

(١) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٤٠ — ٤٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٧٥ — ٤٧٦ .

الفصل الرابع

ثقافته - أساتذته وشيوخه الشخصيات التي تأثر بها

١ - ثقافته ونوع العلوم التي حصلها :

من الواضح من كشف المحجوب أن الهجویری كان على درجة كبيرة من ثقافة عصره ، فكتابه مرآة لثقافة دينية واسعة النطاق ، ودراية كاملة باللغتين الفارسية والعربية . ويبدو أنه بدأ دراسته في موطنه غزنه في سن مبكرة ، فاشتغل بما كان يشتغل به أترابه في ذلك الوقت من دراسة العلوم المتعارفة على عهده : كقراءة القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب ، وكرس جهدا كبيرا لدراسة العلوم الدينية والشرعية كال تفسير والحديث والروايات والفقه . وقد توفرت له في شبابه فرصة طيبة لتنمية معارفه عن طريق الرحلات المتعددة التي تجول خلالها في أرجاء العالم الاسلامی (١) ، فتزود من أنواع الثقافة الاسلامیة التي كانت منتشرة في كل بقعة من العالم الاسلامی .

وبالإضافة الى هذا ، فقد أفادته تلك الرحلات في الاطلاع على العديد من الكتب والمؤلفات الدينية عامة ، والصوفية خاصة ، مما وسع أفقه ، وعمق مفهومه للناحيتين الدينية والروحية .

واذا استعرضنا بعض الشواهد البارزة والواضحة في كتاب كشف المحجوب ، فانه يمكننا عن طريق ذلك أن نتعرف في وضوح على العلوم التي حصلها الهجویری أثناء دراسته ، والمعارف التي اكتسبها من اطلاعاته وقرائاته .

وأول ما يستلفت نظرنا في الكتاب ، كثرة الآيات القرآنية التي وردت فيه ، فالهجویری استعمل ٢٣٦ آية قرآنية (٢) استعمالا دل على معرفته الكاملة بالقرآن الكريم ، واستيعابه للمعاني التي تهدف اليها آياته الكريمة ، والمغزى

(١) انظر تفصيل هذه الرحلات في الفصل الخامس من هذا الباب .

(٢) « كشف المحجوب » انظر فهرست الآيات القرآنية ص ٥٧٦ - ٥٨٠ .

العميق الذى تنطوى عليه كل آية ، فكان يستشهد ببعض هذه الآيات لاثبات الآراء التى يذهب اليها ، ويرجع الى بعضها ليجلو معنى أساء البعض فهمه ، ويشرح بعضها ليطلع القارئ على المغزى الذى تنطوى عليه ، ويؤكد عن طريق عدد منها بعض الأسس والأصول الصوفية .

ولا شك أن هذا ان دل على شئ فانما يدل على أنه تعلم القرآن قراءة ، وتعمقه فهما وتفسيرا .

والى جوار الآيات القرآنية ، استعمل الهجویری ١٣٨ حديثاً (١) ، وشرح كثيراً منها شرحاً وافياً ، ونقل معظمها الى اللغة الفارسية . وفى هذا أيضاً ما يدل على المصامح الكبير بعلم الحديث ، مما يؤكد أنه درس هذا العلم دراسة وافية . وقد صرح هو نفسه بأنه تتلمذ على بعض الشيوخ ممن كانوا أساتذة فى علوم الحديث (٢) والتفسير (٣) .

وبالإضافة الى الآيات القرآنية والأحاديث ، فقد روى الهجویری ما يقرب من خمسمائة قول لشيوخ الصوفية ، بعضها للسابقين عليه ، ابتداء من الرواد الأوائل للصوفية ، وبعضها لشيوخه والمعاصرين له .

وفى هذا دلالة على معرفته بالروايات التى كان شيخه الختلى من المبرزين فيها ، وكانت له مجموعة منها أشار الهجویری اليها فى كتابه (٤) .

أما عن دراسة الهجویری للفقه ، فقد بدا أثر تلك الدراسة واضحاً فى الجزء الأخير من كشف المحجوب ، الذى تحدث فيه عن الأحكام الشرعية للطهارة (٥) والصلاة (٦) والزكاة (٧) والصيام (٨) والحج (٩) ، فالهجویری فى هذه الأقسام يبين فى دقة الأحكام الشرعية لهذه العبادات من الناحية الفقهية — أى من ناحية ظاهرها وأحكامها التى تجرى على الجوارح — ثم يوائم بين هذه الأحكام الظاهرية وبين المعانى الباطنية التى تنطوى عليها ، والتى هى من أعمال القلوب لا الجوارح ، مما يدخل فى نطاق المفهوم الصوفى لهذه العبادات . كما تكلم فى المعاملات كالزواج والصحة وغيرها .

-
- (١) « كشف المحجوب » انظر فهرست الأحاديث ص ٥٨١ — ٥٨٨ .
 - (٢) « انظر : ترجمة خواجه » المظفر بن حمدان ضمن التعريف بأساتذة الهجویری «
 - (٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .
 - (٤) « السابق » ص ١١٠ .
 - (٥) « السابق » ص ٣٧٤ — ٣٨٦ .
 - (٦) « السابق » ص ٣٨٦ — ٤٠٤ .
 - (٧) « السابق » ص ٤٠٤ — ٤١٣ .
 - (٨) « السابق » ص ٤١٩ — ٤٢٢ .
 - (٩) « السابق » ص ٤٢٢ — ٤٣٢ .

ويبدو أن الهجویری درس الفقه على مذهب أبی حنیفة ، فقد صرح في ترجمته له بأنه كان يميل اليه ويعتق مذهبہ (١) .

والى جوار العلوم الدينية ، فقد درس الهجویری اللغتين الفارسية والعربية ، وأجادهما اجادة مكنته من أن يمك بزمام اللغتين ، فينقل من احدهما الى الأخرى في سهولة ويسر . وقد حرص دائما على ترجمة الأحاديث والأقوال المأثورة وأقوال شيوخ الصوفية ، فهو يثبت أصل الحديث أو القول باللغة العربية ، ثم يتبعه بترجمة له بالفارسية . وكثيرا ما يشرح هذه الأحاديث والأقوال بالفارسية بما يبين المعانى الواسعة لها أو النواحي الغامضة فيها . والحق أن هذه الترجمات والشروح فيها الدليل الكافى على مدى اجادته للغتين ، والمآله بدقائق كل منهما . .

وفى الكتاب أيضا كثير من الأشعار والاشارات الأدبية الفارسية والعربية، التى استعملها الهجویری فى مواضعها الصحيحة مما ينبىء عن فهم عميق وذوق أدبى سليم مدعم بدراسة واعية للأدب واطلاع على الآثار الأدبية ، حقيقة أن الذوق الأدبى موهبة فطرية فى الإنسان ، الا أن الدراسة تصقل هذه الموهبة وتبرزها وتنمىها . يضاف الى ذلك ما صرح به الهجویری من أنه كان شاعرا ، وله ديوان من الشعر ، وان كان هذا الديوان مفقودا (٢) .

٣ — أساتذته وشيوخه :

ذكر الهجویری فى كتابه عددا من الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم وأفاد منهم واقتدى بهم . وقد أدرك صحبة بعض هؤلاء الشيوخ ورافقهم لمدة طويلة ، وكان يتردد على البعض الآخر وينخرط فى سلك مريدتهم ، ويتلقى عنهم تعاليمهم الصوفية . وجميع هؤلاء الشيوخ كانوا من الأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين الذين عاشوا فى الفترة ما بين النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، وهى الفترة التى تعد من أزهى الفترات فى تاريخ التصوف ، فقد برزت فيها معالم الحياة الصوفية فى أجلى صورها ، واتخذت شكل الفرق المنظمة ، وكان لكل فرقة منها نظمها وتقاليدها ورسومها الخاصة بها ، وان التقت جميعها حول هدف واحد ينشده كل صوفى .

(١) « كشف المحجوب » ص ١١٦ .

(٢) « السابق » ص ٢ .

وكانت كل فرقة من هذه الفرق تقوم على مجموعة من التلاميذ والمريدين يلتفون حول شيخ يشرف على تربيتهم واعدادهم ، ويلقنهم تعاليمه ومبادئه ، فانتشرت الزوايا والخانقاهات في كل مكان ، وكانت كل واحدة منها يديرها شيخ من الشيوخ الكبار له نظامه الخاص في تربية تلاميذه ومريديه ، ويخلفه في رئاستها أشهر هؤلاء التلاميذ والمريدين .

ونعرف من المعلومات الواردة في كشف المحجوب أن الهجویری تتلمذ في بعض العلوم على ((أبي العباس أحمد بن محمد الشقائي)) ، وقد وصفه بأنه كان اماما في فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا في جميع المعاني ، رأى كثيرا من الشيوخ ، وكان من كبار أهل التصوف وأجلهم .

والشقائي كان من شيوخ الصوفية الذين يتمسكون بالشرعية ، فقد ذكر الهجویری أنه لم ير طيلة حياته رجلا من أي صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

ويبدو أنه كانت هناك روابط من المودة والعطف المتبادل تربط بين الهجویری وأستاذه ، على نحو ما يظهر من قوله عنه : « وكان لي معه أنس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة » (١) .

ولا ندري متى توفي أبو العباس الشقائي على وجه التحديد ، وإن كنا نعرف من كتابي « كشف المحجوب » و « أسرار التوحيد » (٢) أنه كان معاصرا لأبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبي القاسم الجرجاني المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

وكان الشقائي من القائلين بالفناء ، وله فيه عبارات غامضة اختص بها . وكان يصيح قائلا : « أشتهى عدما لا عود فيه » (٣) .

أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي :

صرح الهجویری بأنه سلك الطريق بارشاد أبي الفضل محمد بن الحسن الختلي ، وترجم له في كتابه فقال :

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .
(٢) انظر : كشف المحجوب ص ١٨٩ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٢٤٧ .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ .

« ومنهم زين الأوتاد وشيخ العباد : أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى
رضى الله عنه ، وبه قدوتى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير
والروايات ، ويذهب مذهب الجنيد فى التصوف ، وكان مريدا للحرى » (١)

ونتبين من هذه العبارة أن الختلى كان جنيدى المذهب ، فهو مريد
أبى الحسن الحرى (٣٧١ هـ) . وكان الحرى مريدا للشبلى (٣٣٤ هـ) ،
والشبلى مريدا للجنيد البغدادى (٢٩٧ هـ) .

وطريق الجنيد مبنى على الصحو على عكس أبى يزيد البسطامى فطريقه
مبنى على السكر ، ومن ثم قال الختلى : « السكر ملعب الصغار ، والصحو
مفنى الرجال » (٢) .

وعن الختلى اعتنق الهجويرى مذهب الجنيد وأشاد به .

وقد خلطت بعض المصادر بين أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى مرشد
الهجويرى وقدوته ، وبين أبى الفضل حسن السرخسى مرشد أبى سعيد
ابن أبى الخير ، وذكرت أن الهجويرى وأبا سعيد كانا مريدين لشيخ واحد (٣) .
وعلى الرغم من أن سلسلة شيوخ أبى الفضل حسن السرخسى تنتهى أيضا
الى الجنيد (٤) ، إلا أنه — كما يدل عليه اسمه — سرخسى — منسوب الى
مدينة « سرخس » فى إقليم خراسان ، وقد عاش فى هذه المدينة وتوفى بها
فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وقبره هناك (٥) . أما أبو الفضل الختلى
فقد عاش معظم حياته فى سوريا ، وتوفى فى قرية تسمى « بيت الجن » تقع
بين « بانيار » و « دمشق » (٦) .

ولا نعرف متى توفى الختلى ، فلم يرد ذكر تاريخ وفاته فى « نفحات
الأنس » أو « سفينة الأولياء » ، وإن كان صاحب « خزينة الأصفياء » يحدد
لوفاته سنة ٤٥٣ هـ ويذكر أنه حصل على هذا التاريخ من حاشية لنفحات
الأنس (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٢٣٢ .

(٣) سبك شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « فصل الخطاب » (نقلا عن « كشف المحجوب »
ص ٦١ ، ٦٢ من مقدمة زوكوفسكى) ، « هلال شمارة سوم — ارديبهشت ١٣٣٢ انظر :
مقال بقلم غلام سرور .

(٤) ١ أسرار التوحيد « الترجمة العربية » ص ٤٣ .

(٥) « السابق » ص ٦٠ ، « نفحات الأنس » ص ٢٨٤ ، « ديوان أبو سعيد أبو الخير »
نشر سعيد نفيسى : طهران ١٣٣٤ هـ ش (انظر ص ٣ من المقدمة) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٧) « خزينة الاصفيا » ج ٢ ص ٢٣١ .

ولكن يبدو أن هذا التاريخ ليس صحيحا تماما ، ومن المرجح أنه توفي قبل هذا التاريخ وذلك للأسباب التالية :

أولا : أن الهجویری ذكر أنه رافق شيخه الختلی لفترة طويلة ، وظل على صلة به الى أن توفي في بيت الجن ، واستمع الى آخر كلماته ، وهی الوصية التي أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة (١) .

ثانيا : وردت في كشف المحجوب فقرة تفيد أن الهجویری بدأ تأليف الكتاب في بلاد الهند حيث كان أسيرا في مدينة لاهور بين أناس ليسوا من جنسه . وتضمنت الفقرة نفسها اشارة من الهجویری الى مجموعة الروايات التي جمعها الختلی ، وأبدى الهجویری أسفه لأنه ترك هذه المجموعة في موطنه غزنين (٢) .

ثالثا : بالنسبة لفترة الأسر المذكورة ، فقد كانت في عام ٤٣٥ هـ ، وهو العام الذي وقعت فيه فتنة الراجات الهند في لاهور ، وأسروا عددا كبيرا من المسلمين (٣) . ومن المرجح أن الهجویری كان من بين الأسرى .

رابعا : ذكر صاحب « تذكرة على هجویری » أن الهجویری ذهب الى لاهور بعد هزيمة السلطان مسعود الغزنوي على أيدي السلاجقة ووقع الاضطرابات والقتال في غزنه وكان ذلك حوالي سنة ٤٣١ هـ (٤) .

واستنادا الى ما تقدم نستنتج أن الختلی توفي قبل عام ٤٣١ هـ . وهذا لا يتعارض مع ما ذكره الهجویری من أن شيخه الختلی كان من أقران شيخ الشيوخ أبي الحسن بن سالبه (٥) المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وأبي عمر القزويني (٦) المتوفى سنة ٤٤٢ هـ (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٢) « السابق » ص ١١٠ .

(٣) « الكامل » حوادث سنة ٤١٥ هـ ، « سلطنة غزنويان » ص ٢٣٧ .

(٤) « تذكرة على هجویری » ص ٢٠ .

(٥) « خلط جامي بين شيخ الشيوخ أبي الحسن بن سالبه المتوفى سنة ٤١٥ هـ ، وبين ابنه أبي الفتح المتوفى سنة ٤٧٣ هـ ، فالترجمة التي وردت في النفحات لشيخ الشيوخ هي ترجمة ابنه أبي الفتح التي وردت في شد الازار (قابل بين « شد الازار » ص ١٢٨ — ١٢٩ ، و « نفحات الانس » ص ٢٧٩) .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٧) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ هـ ، « صفو الصفوة » أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي حيدر آباد ١٣٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان من بين الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری وأفاد منهم :

((أبو القاسم علی الجرجانی الطوسی)) : من شيوخ الصوفية المعروفين من طبقة أبي سعيد بن أبي الخير (٤٤٠ هـ) ، ومريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) .

تحدث الهجویری عن الجرجانی فوصفه بأنه : « لا نظير له في عصره ، ولا بديل منه في زمانه ، وقام بأسفار شاقة في المعاملة » (١) .

وقد لجأ الهجویری الى الجرجانی لحل مشاكله ، ووضع فيه ثقته ، ومنحه أسرارہ ، ففي الوقت الذي كان لا يزال فيه الهجویری شاباً مغروراً ، كان الجرجانی يمثل القطب الذي يدور حوله أهل زمانه ، وتتجه اليه قلوب الصوفية في كل مكان ، ويعتمد عليه المريدون ، فقد كان آية في كشف وقائع المريدین ، وعالماً بفنون العلم (٢) .

وكانت للجرجانی كرامات وصف لنا الهجویری واحدة منها حدثت معه شخصياً (٣) ، ويبدو أنه كان يتردد عليه كثيراً في طوس ويسأله في كل ما يعن له من أمور ، فقد سأله عن الشروط التي ينبغي توفرها في الدرويش لكي يكون جديراً بأن يلقب بالفقير (٤) . كما سأله عن شروط الصحبة (٥) .

وفي حديث للهجویری عن الأحوال والرؤى التي ظهرت له ، والرياضات التي مارسها : قال له الجرجانی ، عندما رأى نخوة الصبي وجذوة الشباب تقوده الى الزهو والغرور :

« يا بني ، ليس للآدمي نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة . والآدمي لا يخلص أبداً من أسار الزهو » (٦) .

وكان الجرجانی جنيدی المذهب ، ترتبط سلسلة شيوخه بالجنيد بثلاث وسائط (٧) ، فهو مريد أبي عثمان المغربي (٣٧٣ هـ) ، وكان المغربي مريداً لأبي علي الكاتب (٣٤٠ هـ) ، والكاتب مريداً لأبي علي الرودباري (٣٢٢ هـ) ، والرودباري مريداً للجنيد البغدادي (٢٩٧ هـ) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢١١ .

(٢) « السابق » ص ٢١١ .

(٣) « السابق » ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٤) « السابق » ص ٥٥ .

(٥) « السابق » ص ٤٤١ .

(٦) « السابق » ص ٢١٢ .

(٧) « نفحات الانس » ص ٣٠٧ .

ولكن « دارا شكوه » خلط بين الجرجاني وتلميذه ومريده أبى على الفارمدى ، فذكر أن الجرجاني كان يجمع بين مذهب الجنيد ، ومذهب أبى يزيد البسطامي عن طريق أبى الحسن الخرقاني(١) . والصحيح أن الفارمدى هو الذى كان مريدا للخرقاني من ناحية ، وللجرجاني من ناحية أخرى(٢) . أما الجرجاني فقد كان معاصرا لأبى الحسن الخرقاني وأبى سعيد بن أبى الخير وأبى العباس الشقاني وأبى القاسم القشيري .

وكانت هناك علاقات ودية ، تقوم على أساس من التقدير والاحترام المتبادل ، تربط بين الجرجاني وأبى سعيد والقشيري ، فقد كان الجرجاني يرسل مريديه الى أبى سعيد ليتم لهم تعليمهم(٣) ، وكان أبو سعيد يعد الجرجاني مساويا له في الدرجة(٤) . أما القشيري فقد اعترف بأن الجرجاني يتفوق عليه في مجال التصوف(٥) .

كذلك خلط « العطار » في تذكرة الأولياء بين أبى القاسم الجرجاني وأبى القاسم بشر ياسين ، فنقل عن « أسرار التوحيد » قصة لقاء أبى القاسم بشر ياسين بأبى سعيد بن أبى الخير عندما كان طفلا ونسبها الى أبى القاسم الجرجاني(٦) . ومن المعروف أن أبا القاسم بشر ياسين عاش في ميته مواطن أبى سعيد ، وتوفي بها عام ٣٨٠ هـ(٧) .

وكان الجرجاني على قيد الحياة عندما ألف الهجویری كشف المحجوب ، وتوفي عام ٤٥٠ هـ(٨) ، وان كان « ابن العماد الحنبلي » يذكر لوفاة الجرجاني تاريخا آخر هو عام ٤٦٩ هـ(٩) . ولكن التاريخ الأول هو الأصح . .

وقد تتلمذ على الجرجاني ، بالإضافة الى أبى على الفارمدى ، « أبو بكر

-
- (١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ .
 - (٢) « نفحات الانس » ص ٣٦٨ .
 - (٣) « أسرار التوحيد » الترجمة ص ٢٠٧ .
 - (٤) « السابق » ص ٨١ .
 - (٥) « السابق » ص ١٤٤ .
 - (٦) « تذكرة الاولياء » فريد الدين العطار : نشر نيكلسون ليدن ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م النصف الثاني ص ٢٥٣ .
 - (٧) « أسرار النوحيد » الترجمة ص ٣٣ - ٣٦ .
 - (٨) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » معصو معليشة : طهران ١٣١٨ هـ ، ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ .
 - « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » لابی الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي : القاهرة ١٣٥٠ هـ ، ج ٣ ص ٣٣٤ .

النساج « أستاذ الشيخ أحمد الغزالي (١) شقيق الامام الغزالي . وغيره .
من المريدين ممن وصفهم الهجویری بأن كلا منهم زينة لعالم (٢) .

والى جوار الشقاني والختلي والجرجاني ، توجد شخصية أخرى طالما
تردد عليها الهجویری وتلقى عنها بعض التعاليم الصوفية ، وهى شخصية :
(**خواجه**) **أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان** (النوقاني) (٣) الملقب
بالسيد الامام . كان من كبار الصوفية وأئمة أهل الحديث المعروفين (٤) ،
ترجم له الهجویری فقال :

« ومنهم رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء : أبو أحمد المظفر بن أحمد
ابن حمدان رضى الله عنه ، كان متربعا فى الرئاسة ، وقد فتح الله عز وجل
له باب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة » (٥) .

ولا نعرف متى توفى خواجه المظفر ، ولكن يبدو من كتابى كشف المحجوب
وأسرار التوحيد أنه كان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير (٤٤٠ هـ)
وأبى القاسم الجرجاني (٤٥٠ هـ) ، ومن المرجح أنه توفى قبل تأليف كتاب
كشف المحجوب ، فقد وردت فى الترجمة التى كتبها له الهجویری عبارة تدل
على أنه لم يكن على قيد الحياة فى ذلك الوقت ، وأنه قد بقى منه خلف طيب
هو ابنه السيد أحمد (٦) . ومعنى هذا أنه توفى قبل سنة ٤٣٥ هـ .

والمظفر كان من الصوفية الذين ينتمون الى أسر عريقة ، قطع فى طريق
التصوف مرحلة كبيرة ، وبلغ فيه مكانة مرموقة تبدو من قوله : « ان ما أدركه
العظماء بقطع البوادی والمغازات أدركته وأنا جالس على الحشايا فى مكان
الصدارة » .

وكان المظفر ممن يتكلمون فى الفناء والبقاء ، وله فيه بيان حسن وعبرة
عالية (٧) .

وبالرغم من أن المظفر ألف كتابا فى اباحة السماع ، الا أنه حذر الهجویری
من التعود عليه ، وقال له عندما رأى نشوته به :

(١) « نفحات الانس » ص ٣٧٠ ، طرائق الحقائق « ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) « كشف المحجوب » : ص ٢١١ .

(٣) « أسرار التوحيد » : الترجمة : ص ٣١٣ .

(٤) « كشف المحجوب » : ص ٥٢٤ .

(٥) « السابق » ص ٢١٢ .

(٦) « السابق » ص ٢١٣ .

(٧) « السابق » ص ٢١٣ .

« سوف يأتى وقت يتساوى فيه لديك هذا السماع ونعيق الغراب ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع » (١) .

٣ — الشخصيات التى تأثر بها الهجویری :

بالإضافة الى الأساتذة والشيوخ الذين تتلمذ عليهم الهجویری ، هناك عالم من علماء الصوفية وشیخ من شیوخهم من المعاصرين للهجویری ، كان له أثر واضح فى شخصيته وفى كتابه ، وهو :

« أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشیری » من شیوخ خراسان ، وإمام نيسابور ، وصاحب الرسالة القشيرية .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم ينص على أنه تتلمذ على القشیری ، إلا أنه من الواضح أنه كان من الشخصيات التى تركت أثرا بارزا فيه ، فقد حذوه فى كتابه (٢) ، ونقل من رسالته كثيرا من رؤوس الموضوعات التى تناولها ، وبعض الآراء المتعلقة بالأصول الصوفية ، بل أن هناك علاقة وثيقة بين مقدمة الرسالة للقشیری ومقدمة كشف المحجوب ، فالقارىء للمقدمتين يدرك لأول وهلة مدى التشابه بينهما حتى فى استعمال نفس العبارات والألفاظ .

والقشیری كان مريدا لأبى على الدقاق (م ٤٠٥ هـ) (٣) ، واستأذا لشیخ شیوخ خراسان أبى على الفارمدی (م ٤٧٣ هـ) (٤) .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فى الباب الذى ترجم فيه لأساتذته وشیوخه (٥) . ، كما نقل عنه بعض الآراء التى سمعها منه شخصا ، كراهيه فى مسألة الفقر والفنى (٦) ، ، ورأيه فى المحبة (٧) ، وموقفه من الحلاج (٨) ، وقصد زيارته لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان (٩) .

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ٢١٤ .
 - (٢) « السابق » ص ١٤١ .
 - (٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ .
 - (٤) « نفحات الانس » ص ٣١٣ .
 - (٥) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .
 - (٦) « السابق » ص ٢٨ .
 - (٧) « السابق » ص ٤٠١ .
 - (٨) « السابق » ص ١٠٩ .
 - (٩) « السابق » ص ٢٠٥ .

وكان القشيري ينتمى الى حلقة أبى سعيد بن أبى الخير ، وكان أبو سعيد يبدى اعجابه الشديد بالقشيري ويصفه بأنه أستاذ الأساتذة (١) . كما تحدث القشيري عن أبى سعيد بعد وفاته فى احترام وتقدير عظيمين ، وقال فى حقه : « عندما رأينا الشيخ أبا سعيد لأول مرة لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره لقرأنا التصوف فى الكتب » (٢) .



وهناك عدد آخر من شيوخ الصوفية المعروفين تأثر بهم الهجویری على الرغم من أنه لم يلتق بهم . ومن هؤلاء من كان معاصرا للهجویری ولم تسنح له الفرصة للقاءه مثل أبى سعيد بن أبى الخير ، ومنهم من كان سابقا عليه وتأثر به عن طريق اطلاعه على كتبه ومؤلفاته وجمع أخباره مثل الحسين بن منصور الحلاج ومحمد بن على الترمذی .

أما « أبو سعيد بن أبى الخير » فهو « أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد بن أحمد الميهنى » ، من أكبر الشخصيات الصوفية التى عاشت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، والنصف الأول من القرن الخامس .

وقد ترجم الهجویری لأبى سعيد فوصفه بأنه « سلطان سلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال . كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة وشأن عظيم فى درجة اشرافه على الأسرار ، وكان له آيات وبراهين كثيرة » (٣) .

وأبو سعيد ولد فى مدينة « ميهنة » من أعمال « خاوران » باقليم « خراسان » سنة ٣٥٧ هـ ، وتلقى علومه الأولى فيها ، ثم انتقل الى مدينة « مرو » لدراسة الفقه ، فقرأ على أبى عبد الله الخضرى خمس سنوات ، وبعد وفاته تحول الى أبى بكر القفال المروزى فقرأ عليه خمس سنوات أخرى ، ترك بعدها مرو الى « سرخس » حيث درس التفسير وعلم الأصول وأخبار الرسول على الامام أبى على زاهر بن أحمد (٤) . ثم لم يلبث أبو سعيد أن ترك دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية ، واتخذ أبا الفضل حسن السرخسى مرشدا له وقدوة (٥) .

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ١٠٢ .

(٢) « السابق » ص ٤١٣ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢٠٦ .

(٤) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٤٠ .

(٥) « السابق » ص ٤١ — ٤٢ .

وقام أبو سعيد برياضات شاقة لمدة خمسة عشر عاما ، قضى سبعة أعوام منها معتكفا في زاوية داره (١) ، ثم رجع الى سرخس فمارس الرياضة تحت اشراف ابن الفضل عام (٢) ، بدأ بعده فترة أخرى من الرياضة امتدت لسبع سنوات قضاها متجولا في صحراء خاوران (٣) . وفي خلال هذه الفترة الأخيرة توفي أبو الفضل ، فاتصل أبو سعيد بأبي عبد الرحمن السلمى في نيسابور وتلقى منه الخرقة الأولى (٤) ، ثم اتصل بأبي العباس القصاب ونال على يديه الخرقة الثانية (٥) .

وكان أبو سعيد يعتنق مذهب أبى يزيد البسطامى ، الذى يقوم على فكرة وحدة الوجود ، وأصبح هو ومعاصره أبو الحسن الخرقانى من أكبر المروجين لهذه الفكرة (٦) .

ويعتبر أبو سعيد الرائد الأول لشعراء الصوفية من الايرانيين ، فقد كان أول من صاغ عقائده نظما بالفارسية ، فكان مثلا احتذاه فيما بعد شعراء الصوفية الكبار من الايرانيين أمثال « السنائى » و « العطار » و « جلال الدين الرومى » (٧) ، بل أن أغلب المستشرقين اعتمدوا في دراساتهم لتعاليم أبى سعيد وعلاقتها بالتطور التاريخى للصوفية على الرباعيات التى نسبت اليه (٨) .

وقد احتل أبو سعيد من التصوف الإسلامى مكانة مرموقة عندما اتخذ ، في مطلع القرن الخامس الهجرى من مدينة نيسابورا لنشاطه (٩) ، وأخذ يعقد المجالس فيها لمدة طالت حتى قاربت الثلاثين عاما ، التف خلالها حوله كثير من المريدين ، وذاع صيته فى إقليم خراسان ، وتهافت الناس على مجالسه (١٠) ، واختلف اليها كثير من شيوخ الصوفية ورجال الدين وأئمة المذاهب المختلفة ، من بينهم « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » و « أبو محمد الجوينى » (١١) والد امام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، و « أبو القاسم القشيرى » (١٢) .

(١) « أسرار التوحيد » ص ٤٤ .

(٢) « السابق » ص ٥٤ .

(٣) « السابق » ص ٤٥ ، ٥٦ .

(٤) « السابق » ص ٥٠ .

(٥) « السابق » ص ٦٤ .

(٦) Nicholson : Studies in Islamic Mysticism : London, 1921, p. 76.

(٧) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » نشر سعيد نفيسى انظر ص ٦ من المقدمة .

(٨) Studies in Islamic Mysticism : p. 48.

(٩) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٧٧ .

(١٠) « السابق » ص ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٦ .

(١١) « السابق » ص ١٠٨ ، ١٥٦ ، ١٧٢ ، ٢٣١ .

(١٢) « السابق » ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٠ .

ويعزى الى أبى سعيد أنه أول من أسس نظام الخانقاهات فى الاسلام (١)، فقد كان يعيش بين مريديه فى عدد من هذه الخانقاهات ، ووضع لحياتهم بها القواعد والأسس (٢) .

وكان أبو سعيد يتميز بشخصية قوية ، ومقدرة فائقة على قراءة الأفكار ، وقد مكنت له هاتان الميزتان من أن يسيطر على أعدائه والمناوئين له ، فهابوه ، وتخلوا عن معارضتهم له (٣) .

وأثرت عن أبى سعيد كرامات كثيرة تحدث عنها حفيده « محمد بن المنور » بأسهاب فى كتاب أسرار التوحيد . وتوفى أبو سعيد فى ميته عام ٤٤٠هـ (٤) .

وعلى الرغم من أن الهجويرى لم يلتق بأبى سعيد فى حياته ، إلا أنه تأثر ببعض أقواله وآرائه التى استمع اليها من معاصريه ، وناقش رأى أبى سعيد فى الفقر والغنى (٥) واستشهد ببعض أشعاره وأقواله فى مواضع من كشف المحجوب . وقام بزيارة قبره بعد وفاته ، وأقام على القبر ثلاثة أيام ، رأى خلالها كرامة من كرامات أبى سعيد (٦) .

وأما « الحلاج » (٧) فيرجع اهتمام الهجويرى به الى بداية شبابه ، وقد خصه فى ذلك الوقت بكتاب مستقل شرح فيه أقواله ، وتحدث عن أحواله فى كتاب آخر له اسمه : « منهاج الدين » (٨) .

وكان الهجويرى قد قرأ معظم مؤلفات الحلاج التى وقعت فى يده ، وجمع أشعاره وأقواله وحكمه من مختلف الشيوخ ، واستخدمها فى مناقشاته وجدله فى كشف المحجوب (٩) . كما ضمن الكتاب ترجمة للحلاج ، وبين موقف شيوخ الصوفية منه ، وصرح بأن اثنين من شيوخه ، وهما : « أبو العباس الشقانى » و « أبو القاسم الجرجانى » كانا من بين المعتقدين فى الحلاج ، والمعظمين لأمره (١٠) .

(١) « فى التصوف الاسلامى وتاريخه » نيكولسون : ترجمة أبى العلا عفيفى القاهرة

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م ، ص ٥٨ .

(٢) « أسرار التوحيد » : الترجمة ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

(٣) « السابق » ص ٨٩ - ٩٤ .

(٤) « السابق » ص ٣٩٨ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٢٤ ، ٢٦ .

(٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٧) « ترجم له السلمى فى الطبقات فذكر أن اسمه » : أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج (انظر : طبقات الصوفية ص ٣٠٨) ويسميه ابن النديم : عبيد الله بن أحمد

ابن أبى طاهر الحسين بن منصور الحلاج (انظر : الفهرست ص ٢٦٩) .

(٨) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

(٩) « السابق » انظر : ص ٢٣٥ ، ٣٢٠ ، ٣٣٢ ، ٣٦١ وغيرها .

(١٠) « السابق » ص ١٨٩ .

وقد اختلف شيوخ الصوفية في الحلاج ، فمنهم من قبله ، ومنهم من رده ،
ومنهم من توقفوا في أمره :

فالذين ردوه كثيرون . والذين قبلوه منهم : « ابن عطاء » و « ابن خفيف »
و « النصرابادى » ، ومن المتأخرين « أبو سعيد بن أبي الخير » ، وقد أشاد
أبو سعيد بالحلاج ووصفه بأنه كان فريد عصره في علوم التصوف في المشرق
والمغرب (١) .

وأما الذين توقفوا في أمره فمنهم : « القشيري » (٢) والشيخ « عبد الله
الأنصاري » (٣) .

والحلاج صلب ببغداد سنة ٣٠٩ هـ ، ويرجع السبب في قتله الى مقالته
المشهورة : « أنا الحق » التي أعلن فيها اتحاده بالذات الالهية ، والى
مجموعة أخرى من الأسباب . كما اتهم بالسحر والشعوذة وادعاء
الكرامات .

وقد دافع الهجویری عن الحلاج دفاعا حارا ، وحاول أن ينفي عنه
ما نسبوه اليه من الاحتيال والسحر ، ظنا منهم أن الحسين بن منصور
الحلاج هو الحسن بن منصور الملحد البغدادي ، أستاذ محمد بن زكريا ورفيق
أبي سعد القرمطی (٤) .

وكان الهجویری أول من طرق هذه الفكرة بأنه كان هناك شخصان يدعى
كل منهما الحلاج : أحدهما ذلك الملحد الذى ينسب الى بغداد ، والآخر
الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاء فارس . وقد نقل كل من
« العطار » (٥) و « محمد بارسا » (٦) هذه الفكرة عن الهجویری .

ويذكر الهجویری أن الحلاج الحقيقى الذى اختلف المشايخ في أمره
وهجروه ، لم يكن هجرهم له يعنى الطعن في دينه ومذهبه ، بل في حال
دنياه ، والا لما قال عنه الشبلى : « أنا والحلاج شيء واحد » ، وقال محمد
ابن خفيف « هو عالم ربانى » . وإنما كان هجرهم له بسبب اغضابه
لشيوخه ، فقد كان في بداية أمره مريد سهل بن عبد الله ، وانصرف عنه دون

(١) « اسرار التوحيد » الترجمة ص ٩٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) « نفحات الانس » انظر : ص ١٥٠ .

(٤) « كشف المحجوب » ١٩٠ .

(٥) « تذكرة الاولياء » (انظر ج ٢ ص ١٤٦) .

(٦) Bulletin of Oriental Studies : Zhukovsky's Introduction.

نقلا عن : فصل الخطاب .

استئذان واتصل بعمر بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق بالجنيد ، فلم يقبله . ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة لا مهجور الأصل (١) .

وساق الهجویری الدلیل علی بطلان ما نسب الى الحلاج من السحر فذكر ان السحر في اصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، وأن اظهار السحر في حال الكمال كفر واطهار الكرامة معرفة ، لأن الأول يكون نتيجة لسخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة على رضائه .

وأضاف الهجویری أن أهل السنة والجماعة متفقون على أن المسلم لا يكون ساحرا ، وأن الكافر لا يكون مكرما ، لأن الاضداد لا تجتمع . والحسين بن منصور كان طوال عمره في ثياب الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ، وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة في التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . وعلى هذا فان ما نسب اليه كان من الكرامات . والكرامات لا تكون الا لولي محقق (٢) .

كذلك دافع الهجویری عن الحلاج للمرة الثانية بشأن ما نسب اليه من الأقوال التي تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، فذكر أن ذلك كان مبالغة منه وتهويلا في العبارة لا في المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته في غلبة الحال . وذكر أيضا أنه يجوز أن يكون معنى تلك العبارات صعبا فلا يستطيعون فهم مقصوده منها ، ويصور لهم وهمهم صورة عنها ينكرونها ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى (٣) .

ولا شك أن رأى الهجویری هذا في الحلاج يختلف كثيرا عن آراء غيره فيه . ويبدو هذا الاختلاف جليا اذا ما قارنا أقواله بقول واحد من معاصري الحلاج ، وهو : « الاصطخري » الذي أشار الى الحلاج وصور نظريته في الحلول فقال : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ، وكان رجلا حلاجيا ينتحل النسك ، فما زال يرتقى به طبقا عن طبق حتى انتهى به الحال الى أن زعم أن من هذب في الطاعة نفسه ، واشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه في منع الشهوات ارتقى به الى مقام المقربين . ثم لا يزال يتنزل في درج المصافاة حتى يصفو

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ .

(٢) « السابق » ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩٢ .

عن البشرية طبعه ، فاذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذى كان منه عيسى بن مريم ، فيصير مطاعا فلا يريد شيئا الا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله « (١) .

وعلى الرغم مما رأيناه من الدفاع المستميت للهجویری عن الحلاج ، الا أنه يصرح بأنه لم يكن يصلح لأن يكون قدوة ، وهو يوضح السبب في ذلك فيه ذكر أنه كان مغلوبا في حالة غير متمكن ، وينبغي للقدوة أن يكون متمكنا حتى يمكن الاقتداء به . وكذلك لم يمنعه تصريحه بأن الحلاج يحتل من قلبه مكانا عزيزا ، من أن ينقد طريقه ، فيصفه بأنه لم يكن مستقيما على أى أصل ، وأن حاله غير مستقرة على وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة (٢) .

وذكر الهجویری أنه رأى في بغداد ونواحيها طائفة من الملاحدة يدعون توليهم للحلاج ، وقد اتخذوا من أقواله حجة لزندقتهم ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين .

وتنسب الى الحلاج مؤلفات كثيرة ، رأى منها الهجویری خمسين مؤلفا ، بعضها في بغداد ، وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان (٣) . وقد ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين مؤلفا من مؤلفات الحلاج (٤) .

والى جوار الحلاج كانت هناك شخصية أخرى تأثر بها الهجویری وهى شخصية « أبى عبد الله محمد بن على الترمذى » المعروف بالحكيم . وهو متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقه حنفى ، توفى عام ٢٨٥هـ (٥) . ذكره السلمى في طبقات الصوفية على أنه من كبار شيوخ خراسان (٦) ، وترجم له الهجویری فوصفه بأنه كان كاملا واماما في فنون العلم ، ومن المشايخ المحتشمين ، له تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة (٧) . وكانوا يطلقون عليه اسم « حكيم الأولياء » (٨) .

(١) انظر ص ١١٤ من : « الحياة الروحية في الاسلام » محمد مصطفى حلمى : القاهرة ١٩٤٥ (نقلا عن الاصلخرى) .

(٢) (كشف المحجوب ص ١٩٢) .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١٩١ .

(٤) « الفهرست » ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٥) « التصوف الثورة الروحية » ص ٣٠٨ .

(٦) « طبقات الصوفية » ص ٢١٧ .

(٧) « كشف المحجوب » ص ١٧٧ .

(٨) « تذكرة الاولياء » ج ٢ ص ٩١ .

وكان الترمذى شيخاً لأبى على الجوزجاني ، وأبى بكر الوراق الترمذى وروى عنه هذا الأخير أن الخضر عليه السلام كان يحضر إليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع (١) .

وقد حظى الترمذى بتعظيم الهجویری وحبّه عن طريق قراءته لكتبه التي أشار إلى عدد منها في كشف المحجوب ، لا سيما كتابه « ختم الولاية » الذي اعتمد عليه الهجویری في مناقشته لموضوع الولاية . كما نسب إليه فرقة الحكيمية (٢) من المتصوفة ، وذكر أن أساس مذهبها يقوم على الولاية .

ويعد الترمذى رائد « ابن عربى » الذى جاء بعده بثلاثة قرون ، فقد درسه وأعجب به ، ولا سيما بكتابه المفقود « ختم الولاية » .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٧٨ .
(٢) « السابق » ص ٢٦٥ وما بعدها .

الفصل الخامس

رحلات الهجویری

بعد أن أتم الهجویری دراسته الأولى فی موطنه غزنه ، وحصل قدرا كافیا من العلوم المعروفة علی عهده ، سلك مسلك علماء عصره فی السفر والتجول طلبا للعلم والمعرفة ، فرحل إلى بلاد متعددة ، وطوف طويلا فی العالم الاسلامی ، من سوريا إلى التركستان ، ومن بحر قزوين إلى الهند ، فزار العراق وخوزستان وفارس والشام وأذربيجان وجرجان وخراسان وما وراء النهر والتركستان والهند . وقد أفادته هذه الرحلات فأمدته بحصيلة وفيرة من المعلومات والمعارف ، ومكنته من لقاء كثير من رجال العلم والأئمة وشيوخ الصوفية المعروفين فی عصره ، والممثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة . وحادث بعض هؤلاء ، وجادل بعضهم ، واستمع إلى آراء كثير من الشيوخ وجمع أقوالهم ، وبهذا حصل علی مادة متنوعة وحیة استخدمها فی حكاياته عن الشيوخ الذين ترجم لهم ، وفی القائه الأضواء علی مختلف الأمور التي عالجهأ فی كتابه .

ويبدو أن الهجویری مر بفترة عاصفة من حياته قبل أن يتصوف ، وأنه بدأ رحلاته فی خلال تلك الفترة وهو لا يزال فی سن الشباب ، وكانت أولى رحلاته .

رحلته إلى العراق : وقد صور لنا حياته فيها ، وكيف أنه انشغل بجمع الثروة وبعثرتها ، والتف حوله بعض الفضوليين واخوان السوء الذين أرهقوه بمطالبهم حتى عجز عن تحقيق رغباتهم ، وغرق فی الديون .

ويبدو أن الهجویری كان علی صلة ببعض رجال الدين والأئمة المعروفين فی ذلك العصر ، وربما كانوا من طبقة والده أو من أساتذته الذين تتلمذ عليهم ، وكان من بين هؤلاء شخص يتابع أخباره ، وعرف نوع الحياة التي انغمس فيها ، فأشفق علیه منها ، وبعث إليه برسالة ينصحه فيها ويحذره من أن يشغل قلبه عن الله بالاهتمام بتحقيق رغبات أولئك الذين ملأ الهوى قلوبهم ، وطلب منه أن يكف عن ذلك (١) .

(١) كشف المحجوب ص ٤٤٩ .

وأحدثت رسالة ذلك السيد أثرها في نفس الهجویری فی الحال ، وأحس بالراحة ، ويبدو أنه اتجه بعدها الى التوبة .

وفي العراق زار الهجویری « بغداد » ونواحيها ، ورأى هناك جماعة من الصوفية المزيفين ، سماهم « الملاحدة » ، وكانوا يدعون كذبا أنهم ينتسبون الى الحلاج ، واتخذوا من بعض أقواله حجة لزندقتهم ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « الحلاجيين » (١) . وكان الشيخ الكبير أبو جعفر محمد ابن المصباح الصيدلانی ومعه أربعة آلاف من أتباع الحلاج الحقيقيين المنتشرين في العراق يصبون اللعنة على هؤلاء الحلوليين الذين ينسبون أنفسهم زورا الى الحلاج (٢) .

رحلته الى فرغانه : من المرجح أن تكون هذه الرحلة هي الرحلة الثانية من رحلات الهجویری ، وأنه قام بها بعد أن أقطع عن حياة اللهو والعبث وانجه الى التوبة ، وأخذ يتقرب الى شيوخ الصوفية بزيارة بعض الأحياء منهم ، وزيارة قبور من ودعوا الحياة . ونجد في مقدمة الأحياء الذين زارهم : « الباب الفرغانی » (٣) .

والباب هذا كان شيخا من الأوتاد يدعى « عمر » ، ويقيم في قرية من قرى فرغانه اسمها « شلاتك » ، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم جريا على عادة أهل تلك الديار الذين كانوا يطلقون اسم « الباب » على الشيوخ الكبار (٤) .

ولما مثل الهجویری بين يدي « الباب » سأله : لم جئت ؟ قال : لأرى الشيخ ، وليشملني بعين رعايته . فقال له الباب : يا بني ؟ انني أراك منذ اليوم (الفلانی) ، فلما أحصى الهجویری السنين والأيام وجد أن اليوم المشار اليه هو اليوم الذي بدأ فيه توبته . ونصحه الباب أن يقلع عن السفر والتجول ، فالأمر ليس موقوفا على زيارة المشايخ ، وإنما عليه بالهمة .

وفي هذه الزيارة رأى الهجویری كرامة من كرامات الباب (٥) .

(١) كشف المحجوب ص ١٩٢ .

(٢) السابق ص ٣٣٤ .

(٣) ترجم له جامی فی نفحات الانس وقال ان شيخ الاسلام عبد الله الانصاري ذكر أن الشيخ « عمو » رآه (انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٢) ، والشيخ « عمو » : كنيته أبو اسماعيل ، واسمه أحمد بن محمد بن حمزة الصوفي ، توفي سنة ٤٤٢ هـ وقبره في هراة (انظر : « سفينة الاولياء » ص ١٦٣) .

(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

رحلته الى الشام :

يبدو أن نصيحة الباب للهجویری بالكف عن زيارة المشايخ قد لاقت منه اقتناعاً وقبولاً . وكان عليه بعد ذلك أن يختار لنفسه موجهاً روحياً ومرشداً يسلم اليه أمره ، ويسلك الطريق بارشاده .

ورحل الهجویری الى بلاد الشام ، وهناك التقى بأبي الفضل محمد بن الحسن الختلي فاتخذ منه مرشداً وقدوة (١) .

وكان الختلي يسكن « بيت الجن » وهي قرية تقع بين « بانيار » و « دمشق » . ولزم الهجویری شيخه الختلي مدة طويلة ، وظل يصحبه الى أن توفي ، وكان يتردد على دمشق في رفقته (٢) .

وفي بلاد الشام زار الهجویری قبر « بلال » مؤذن الرسول عليه السلام ، وبات ليلة على القبر ، ورأى الرسول في نومه (٣) .

كذلك ذهب الى الرملة لزيارة « ابن المعل » وكان شيخاً من كبار شيوخ الصوفية وسادة أهل زمانه . وقد وجده الهجویری من المهتمين بالحسين ابن منصور الحلاج (٤) .

رحلته الى آذربيجان :

في أثناء الفترة التي لازم فيها الهجویری شيخه الختلي كان يتردد في رفقته على ديار آذربيجان ، فرأى بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيال مرقعاتهم ليضع فلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » (٥) فسأل شيخه : بأي خزي ابتلى هؤلاء ونضحوا على هذا النحو ؟ فأجابه الشيخ بأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين وهم يحرصون على جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص (٦) .

وفي جبال آذربيجان رأى الهجویری درويشاً كان يسير وهو يردد أبياتاً من الشعر ، وبدا عليه الشخوب ، وجلس مسنداً ظهره الى حجر ثم فارق الحياة (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ .

(٢) « السابق » ص ٣٠٠ .

(٣) « السابق » ص ١١٦ .

(٤) « السابق » ص ٤٤٧ .

(٥) « سورة البقرة » آية ١٦ .

(٦) « كشف المحجوب » ص ٦٤ .

(٧) « السابق » ص ٥٣٥ .

رحلته الى خوزستان وفارس :

من بين الأقاليم التي أشار الهجویری الى أنه قام بزيارتها اقليما خوزستان وفارس . وقد رأى فيهما وفي بغداد وخراسان خمسين مؤلفا من مؤلفات الحلاج (١) .

رحلته الى جرجان :

كذلك زار الهجویری اقليم جرجان ، وتردد كثيرا على « بسطام » حيث يوجد قبر أبى يزيد البسطامی ، فقد اعتاد كلما اعترضته مشكلة في الطريق أن يذهب الى بسطام ويقيم فيها مجاورا على قبر أبى يزيد حتى تحل مشكلته . وفي إحدى المرات امتدت اقامته على القبر لمدة ثلاثة أشهر (٢) .

رحلته الى خراسان :

وذهب الهجویری الى اقليم خراسان ، ويبدو أنه أقام فيه طويلا ، وزار عددا من ولاياته ومدنه وقراه .

وقد وصف الهجویری خراسان في عصره بأنها موضع اقبال الحق ، وذكر أنه رأى فيها وحدها ثلاثمائة من الصوفية لكل منهم مشرب خاص ، ويكفى أن يكون في العالم واحد منهم ، ذلك أن شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان (٣) .

ومن بين المناطق التي زارها الهجویری في خراسان ولاية « قومس » ، وكان في ذلك الوقت يعاني مشكلة اعترضته في الطريق ، وهناك نزل في خانقاه للدراويش ، وأساء هؤلاء معاملته ، ولكن هذه المعاملة الخشنة أفادته من ناحية أخرى ، فقد أحس بعدها بالراحة ، وحلت واقعته (٤) .

وكان الهجویری يتردد على « نيسابور » لزيارة (خواجه) المظفر ابن حمدان وهناك سمع منه رأيه في الفناء والبقاء (٥) .

كذلك التقى الهجویری في « نيسابور » بأبى القاسم القشيري ، وحدثه القشيري بقصة ذهابه الى خرقان لزيارة أبى الحسن الخرقاني (٦) ، وسمع

(١) « كشف المحجوب » ص ١٠١ .

(٢) « السابق » ص ٧٧ .

(٣) « السابق » ص ٢١٦ .

(٤) « السابق » ص ٧٧ .

(٥) « السابق » ص ٢١٣ .

(٦) « السابق » ص ٢٠٥ .

الهجويرى فى نيسابور أيضا رأى القشيرى فى مسألة الفقر والغنى (١) .
أما مدينة « طوس » فيبدو أن الهجويرى أقام فيها فترة ، كان يتردد خلالها
على شيخه أبى القاسم الجرجانى ويتلقى منه تعاليمه الروحية(٢) .

وقد التقى الهجويرى فى مدينة « سرخس » بالسيد الامام الحزامى الذى
حدثه بقصة كرامة من كرامات الشيخ أبى الفضل حسن السرخسى(٣) .

وفى مدينة « مرو » رأى الهجويرى الرسائل المتبادلة بين أهل « مرو »
وأهل « نسا » من اليسارية أتباع أبى العباس السيارى(٤) .

وفى مرو أيضا قال له واحد من أئمة الحديث المعروفين انه ألف كتابا فى
إباحة السماع ، فقال له الهجويرى : انها لمصيبة كبرى حلت بالدين أن
أحل السيد الامام لهوا هو أصل جميع الفساد(٥) .

كذلك زار الهجويرى مدينة « ميهنة » موطن أبى سعيد بن أبى الخير
وأقام على قبره ثلاثة أيام ، ورأى كرامة من كراماته(٦) ، والتقى أثناء هذه
الزيارة بالمظفر(٧) ابن الشيخ أبى سعيد . ورأى أيضا خادم أبى سعيد
الخاص ومريده « حسن بن المؤدب » ، وقص عليه هذا الأخير قصة زيارة
أبى سعيد لأبى الحسن الخرقانى فى خرقان(٨) .

رحلته الى ما وراء النهر :

ذكر الهجويرى أنه كان لفترة طويلة ، فى ما وراء النهر ، صديقا لأحمد
ابن حماد السرخسى(٩) ، ورأى منه عجائب كثيرة(١٠) . ومن الأشياء التى
استمع اليها منه قصة توبته(١١) ، ورأيه فى الزواج(١٢) .

وفى ما وراء النهر أيضا رأى الهجويرى رجلا من أهل الملامة كان لا يأكل
إلا ما يعافه الناس ، كالكرات الذابل والقرع المر والجزر التالف . وكان

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ٢٨ .
 - (٢) « السابق » ص ٥٥ ، ٣٠١ .
 - (٣) « السابق » ص ٢٨٧ .
 - (٤) « السابق » ص ٣٢٢ .
 - (٥) « السابق » ص ٤٦٧ .
 - (٦) « السابق » ص ٣٠١ - ٣٠٢ .
 - (٧) « السابق » ص ٢١٦ .
 - (٨) « السابق » ص ٢٠٥ .
 - (٩) « السابق » ص ٤٧٦ .
 - (١٠) « السابق » ص ٢١٦ .
 - (١١) « السابق » ص ٢٤٢ .
 - (١٢) « السابق » ص ٤٧٧ .

يصنع ملابسه من الخرق البالية التي يلقيها الناس في الطريق ، فيجمعها
ويغسلها ويصنع منها مرقعة (١) .

كذلك رأى في مدينة بخارى الشيخ أحمد السمرقندى ، ولم يكن قد نام
الليل لمدة أربعين عاما ، وكان ينام قليلا أثناء النهار (٢) .

رحلته الى التركستان :

وذهب الهجویری الى التركستان ، وصور لنا مشاهداته في هذه الرحلة
فقال انه رأى النار في احدى المدن التي تقع على حدود البلاد الاسلامية ،
وقد اندلعت في جبل ، وكان النوشادر يفور من أحجاره ، وفي وسط تلك
النار كان يوجد فأر حى فلما خرج من النار هلك (٣) .

رحلته الى الهند :

وفي نهاية المطاف رحل الهجویری الى بلاد الهند حيث أمضى الفترة
الأخيرة من حياته في مدينة « لاهور » ، وظل بهذه المدينة الى أن توفي ،
ولا يزال قبره بها .

(١) « كشف المحجوب » ص ٥٦ .

(٢) « السابق » ص ٤٦٠ .

(٣) « السابق » ص ٥٣١ - ٥٣٢ .

الفصل السادس

المرحلة الأخيرة من حياة الهجویری

استقرار الهجویری فی لاهور ومفاته فیها وقبره

ذكرنا من قبل أن الهجویری أمضى الفترة الأخير من حياته فی بلاد الهند حيث استقر به المقام فی مدينة لاهور . وظل بها الى أن توفي ، ولا يزال قبره هناك .

وقد أشارت بعض المصادر الى أن الهجویری ذهب الى الهند بناء على أمر صدر اليه من شيخه أبی الفضل الختلی (١) . ورأينا فیما ورد فی كشف المحجوب عن الختلی أن الهجویری لازمه الى أن توفي فی قرية « بيت الجن » (٢) بسوريا . فاذا صح التاريخ الذى أورده صاحب خزينة الأصفیاء لوفاة الختلی ، وهو سنة ٤٥٣ هـ (٣) ، فان الهجویری يكون قد ذهب الى الهند بعد هذا التاريخ ، أى بعد سنة ٤٥٣ هـ .

ومما لا شك فيه أن هذا التاريخ المذكور يبعد عن الصواب ، ذلك أن الهجویری كان أسیرا فی لاهور أثناء الفتنة التى وقعت بها سنة ٤٣٥ هـ ، وقد أشار هو بنفسه الى أنه كان يؤلف أجزاء من كشف المحجوب خلال فترة الأسر (٤) ، وفى هذا ما يؤيد أنه رحل الى لاهور قبل سنة ٤٣٥ هـ ، لو يرجح فی نفس الوقت ما ذكرته بعض المصادر من أن الهجویری ذهب الى الهند سنة ٤٣١ هـ ، أثناء الاضطرابات التى وقعت فی غزنه فی أواخر عصر السلطان مسعود الغزنوی (٥) .

غير أن هناك اشارتين وردتا فی كشف المحجوب ، لهما دلالات معينة :
الأولى : أن الهجویری أشار فی موضع من الكتاب الى أنه اطلع على الرسالة القشيرية واقتدى بنظامها فیما يتعلق بترتيب بعض الأشخاص

(١) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٣) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣١ .

(٤) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٥) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٢٠ ، ٢٣ «The Life and Teachings»

فى القسم الخاص بالتراجم(١) . ومن المعروف أن الرسالة ألفت سنة ٤٣٧ هـ .
فلا بد أنه اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

والثانية : صرح الهجویری بأنه قام بزيارة قبر أبی سعید بن أبی الخیر فی « میهنه » ، وأقام على القبر ثلاثة أيام(٢) . ومن البديهی أن هذه الزيارة تمت بعد وفاة أبی سعید سنة ٤٤٠ هـ .

واستنادا الى ما تقدم نرى أنه من المحتمل أن يكون الهجویری قد ذهب الى بلاد الهند مرتین :

المرّة الأولى : ضمن جولاته فی العالم الاسلامی ، فذهب الى بلاد الهند أيضا . وكان ذهابه اليها قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وليس هناك ما يمنع من أنه ذهب فی عام ٤٣١ هـ ، وكان لا يزال فی الهند عندما وقعت فتنة لاهور سنة ٤٣٥ هـ ، وأسر بين الأسرى .

والمرّة الثانية : ذهب فيها الهجویری الى بلاد الهند بعد وفاة أبی سعید ابن أبی الخیر سنة ٤٤٠ هـ . وفي هذه المرّة استقر نهائیا فی مدينة لاهور حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته .

ومن المحتمل أن يكون قد أمضى الفترة ما بين الرحلتين ، أو جزءا منها ، فی غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ، واطلع على الرسالة القشيرية ، وقام بزيارة قبر أبی سعید بعد وفاته سنة ٤٤٠ هـ . ثم رحل الى الهند واستقر بها .

أما عن حياة الهجویری فی الهند ، وعلى وجه التحديد فی مدينة لاهور ، فيبدو أنها كانت حياة حافلة فی النواحي الدينية عامة والصوفية خاصة ، فقد أم الهجویری لاهور بعد أن طوف طويلا فی العالم الاسلامی ، والتقى بكثير من رجال الدين والأئمة المعروفين على عهده ، وتتلّمذ على عدد من شيوخ الصوفية المشهورين فی النصف الأول من القرن الخامس الهجرى . واطلع فی الوقت نفسه على كثير من المؤلفات الدينية والصوفية ، واستطاع عن طريق هذا وذاك أن يبلغ درجة تؤهله لالقاء الدروس الدينية ، وهداية الناس وارشادهم . فلما آنس من نفسه القدرة على الاسهام فی الدعوة الى الاسلام ، اتجه الى ذلك المجتمع الذى كان قد انضم حديثا الى العالم الاسلامی ، ليمارس نشاطه فی نشر تعاليم الدين ، والدعوة الى الحياة الروحية الخالصة ، داخل حدود الدين الاسلامی .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٢) « السابق » ص ٣٠١ .

وسواء كان انتقال الهجویری الى الهند تلبية لأمر شيخه « الختلی » ،
أو استجابة لرغبته الشخصية في نشر الدين الاسلامی في تلك البقاع ، فإنه
استطاع أن ينال ثقة الأهالی في لاهور فتعلقوا به وأحاطوه بهالة من الاجلال
والتعظيم .

وعندما بلغ الهجویری لاهور : اختار لاقامته الجهة الغربية من المدينة ،
قرب معبد للهندوس على نهر راوی (١) ، حيث يوجد مزاره الآن ، وبنى
في تلك البقعة مسجداً ، وجمع حوله عدداً من الطلاب ، وأخذ يقوم بالتدريس
لهم . ثم تخلى عن التعليم لأنه في نظره يبرز نوعاً من السمو والتعالی
على الآخرين (٢) .

وقد أسهم الهجویری في تحول عدد كبير من سكان تلك المنطقة الى
الاسلام ، وكان أولهم « رای راجو » (٣) نائب لاهور في عهد السلطان مودود ،
فأسلم على يديه واتخذ لنفسه اسم « الشيخ الهندی » (٤) .

وأقام الهجویری في مسجده خانقاها (٥) ، والنف حوله فيها المريدون من
لاهور وجميع أنحاء البنجاب . ولم يكن تأثيره مقصوراً على المسلمين ، بل
كان يحضر مجلسه عدد كبير من غير المسلمين ، وأسلموا على يديه (٦) .

ويقال انه عندما بنى الهجویری المسجد ، كان محرابه يميل قليلاً الى
الجنوب عن محاريب المساجد الأخرى ، فاعترض عليه العلماء والأئمة في
ذلك الوقت ، وصمت الهجویری . وذات يوم جمعهم وأمهم للصلاة في
المسجد ، ولما قضيت الصلاة قال للحاضرين : انظروا في أي اتجاه توجد
الكعبة ؟ فارتفعت عنهم الحجب ، وظهرت لهم الكعبة محاذية للمسجد (٧) .
وقد روت بعض المصادر هذه القصة على أنها كرامة من كرامات الهجویری .

ويبدو أن الهجویری لم ينقطع عن التأليف والتصنيف خلال الفترة التي
قضّاها في لاهور ، وإذا صحت نسبة كتابي : « ثواقب الأخبار » و « كشف
الأسرار » اليه ، فإنه يكون قد ألفهما في هذه الفترة .

(١) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

(٢) « The Life and Teachings » p. 24.

(٣) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٨ .

(٤) « The Life and Teachings » p. 24.

(٥) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٦) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

(٧) « سفينة الاولیاء » ص ١٦٤ ، « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

وقد ظل الهجویری یمارس نشاطه الروحي والديني في مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها ، وقام مريدوه والمعتقدون فيه بدفنه بالقرب من مسجده (١) .

وكان یرافق الهجویری في رحلته الى لاهور اثنان من رفاقه وهما « أحمد ابن حماد السرخسی » (٢) الذي رافقه لمدة طويلة في ما وراء النهر ، و « أبو سعيد الهجویری » (٣) الذي كتب كشف المحجوب ردا على سؤاله .

وقد بقى هذان الصديقان في صحبة الهجویری طيلة اقامته في مدينة لاهور ، وظلا بها بعد وفاته حتى وانماهما أجلهما في هذه المدينة ، ودفنا الى جواره . ولا يزال قبراهما داخل ضريح الهجویری (٤) .

تاریخ وفاته :

تاریخ وفاة الهجویری مختلف فيه (٥) . وهناك تواریخ ثلاثة لوفاته ، یرد ذكرها أكثر من غيرها في معظم الكتب التي تحدثت عن الهجویری وعن كتابه كشف المحجوب ، وهذه التواریخ هي :

سنة ٥٦٦ هـ ، سنة ٦٥٥ هـ ، الفترة ما بين سنتی ٦٥٥ ، ٦٦٩ هـ .

ومما يؤسف له أن « جامی » ، على الرغم من اعتماده الكبير في « نفحات الأنس » على كتاب كشف المحجوب ، وما یکنه لمؤلفه من الاعزاز والتقدير ، فانه عندما ترجم له أغفل تاریخ وفاته ، واكتفى بذكر مقتطفات قليلة من كشف المحجوب .

ولم یقطع « دارا شکوه » برأى في هذا الموضوع ، وانما أورد تاریخین لوفاة الهجویری فهو یقول : « وكانت وفاته في سنة ٥٦٦ هـ في قول ، وفي سنة ٦٦٤ هـ في قول آخر » (٦) .

أما صاحب « خزينة الأصفیاء » فقد زاد على هذين التاريخین تاریخا

(١) « حلال » جلد بنجم — شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

(٢) « كشف المحجوب » انظر ص ٤٧٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ٧ .

(٤) «The Life and Teachings» p. 26.

(٥) « لم یحاول » زوكوفسکی في المقدمة القيمة التي كتبها لكشف المحجوب عندما طبعه لأول مرة أن يبحث هذه المسألة واكتفى بأن قال : « من سوء الحظ أننا لا نملك مصدرا واحدا يقدم لنا معلومات عن حياة الهجویری بطریقة مفصلة ودقیقة ، بل اننا لا نعرف حتى تاریخ مولده ووفاته » انظر :

Zhukovsky's Introduction : Bulletin of Oriental Studies.

(٦) « سفينة الاولیاء » ص ١٦٥ .

آخر هو : سنة ٤٦٥ هـ (١) ، وذكر أنه استقى هذا التاريخ من الأقوال الموثوقة لصاحبى « نفحات الانس » (٢) ، و « أخبار الأصفياء » . وأضاف أنه توجد قطعة من الشعر على بوابة ضريح الهجویری تحمل تاريخ وفاته ومجموع هذه القطعة يساوى ، فى حساب الجمل : ٤٦٥ (٣) . وورد ذكر هذا التاريخ أيضا فى كل من : « كشف الظنون » (٤) ، و « هدية العارفين » (٥) .

وقد تابع كتاب الفهارس الغربیون : « ایتة » و « ريو » و « بلوشیه » ، دارا شکوه فى ذكر التاريخین اللذین وردا فى « سفینه الأولیاء » وهما : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ونقلوا هذین التاريخین ، اما عن « ریاض الأولیاء » (٦) ، واما عن سفینه الأولیاء ، وزاد علیهما « ایتة » التاريخ : ٤٦٥ هـ ، نقلا عن « مآثر الکرام » (٧) .

غیر أن « ريو » یستبعد صحة التاريخین : ٤٥٦ ، ٤٦٤ هـ ، ویستند فى ذلك الى أن الهجویری کان معاصرا لأبى القاسم القشیرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، وأن اسم القشیرى یرد فى بعض مواضع من كشف المحجوب وقد أضيف الیه عبارة (رحمة الله) ، أو (رحمة الله علیه) (٨) ، وبناء على هذه الملاحظة یقول « ريو » أن أیا من هذین التاريخین لا یتفق مع هذه الحقیقة ، ولذا فهو یرجح أن تكون وفاة الهجویری بعد سنة ٤٦٥ هـ (٩) ، أى بعد وفاة القشیرى .

وفى رأینا أن ملاحظة « ريو » هذه لیست على جانب کبیر من الصواب ، ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

أولا : لیس من المستبعد أن تكون هذه الاضافات من فعل الناسخ ، ومما یؤید هذا أن اسم الهجویری نفسه ورد فى موضع من كشف المحجوب وقد أضيف الیه عبارة (رحمه الله) (١٠) .

-
- (١) « ورد هذا التاريخ فى کتابى » : سبک شناسى ج ٢ ص ١٨٧ ، « تاريخ ادبیات ابران » صفا ج ٢ ص ٨٩٢ .
- (٢) « لم یرد فى ترجمة الهجویری فى کتاب نفحات الانس ذکر تاريخ وفاته (انظر : ص ٣١٦ — ٣١٧) . واذا صح ما ذکره صاحب خزینة الاصفیاء فربما کان هذا التاريخ فى حاشیة من حواشی النفحات ولیس فى النص .
- (٣) « خزینة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٤ .
- (٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ .
- (٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
- (٦) Rieu : Catalogue of the Persian Manuscripts : Vol. I,
- (٧) Ethé : Catalogue of Persien Library : Vol. I.
- (٨) « كشف المحجوب » انظر ٤٠١ ، ٤٣٩ .
- (٩) « Rieu : Cat » Vol. I.
- (١٠) « كشف المحجوب » ص ٣٠٠ حاشیة ٤٤ ، ص ٣١٦ .

ثانيا : اذا كانت عبارة (رحمه الله) أضيفت الى اسم القشيري بواسطة الهجویری ، فمعنى هذا أن كتاب « كشف المحجوب » قد تم تأليفه بعد وفاة القشيري سنة ٤٦٥ هـ ، وهذا مخالف للحقيقة ، فمما لا شك فيه أن كشف المحجوب ألف قبل هذا التاريخ بفترة طويلة (١) .

ثالثا : ان القشيري كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، والدليل المسمى على هذه الحقيقة موجود في الكتاب نفسه ، فبالرجوع الى الباب الثانى عشر (باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين) نجد أن الهجویری ترجم للقشيري ضمن عشرة من شيوخ الصوفية ، ومن بين هؤلاء يوجد اثنان فقط من الواضح أنهما كانا على قيد الحياة أثناء تأليف الكتاب ، وهما « أبو القاسم الجرجاني » و « القشيري » وتتضح هذه الحقيقة من العبارة التى ترجم بها الهجویری لهما ، فهو يستعمل فى ترجمتهما الرابطة (است) (٢) وذلك على خلاف الفعل الماضى (بود) (٣) الذى يستعمله فى التراجم الثمانى الأخرى مما يدل على أن أصحابها لم يكونوا على قيد الحياة ، وتواريخ وفاة هؤلاء معروفة ، وترجع كلها الى ما قبل تأليف كشف المحجوب . كما وردت بالكتاب عبارة صريحة تشير الى أن الجرجاني كان حيا عند تأليفه ، وترجمتها : « والشيخ أبو القاسم الجرجاني رضى الله عنه ، وهو اليوم القطب المدار عليه ، أبقاه الله » (٤) .

أما « نيكولسون » فيبدو أن ملاحظة « ريو » قد أثارت انتباهه ، فتقبل — فى مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب — فكرة وفاة الهجویری بعد سنة ٤٦٥ هـ ، وان كان قد استند الى دليل آخر غير الذى استند اليه ريو وهو : أنه من الواضح من كتاب كشف المحجوب أن أبا القاسم الجرجاني كان حيا عند تأليفه . ومن المعروف أن الجرجاني توفى سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن نيكولسون وجد تاريخا آخر لوفاة الجرجاني فى كتاب « شذرات الذهب » وهو سنة ٤٩٦ هـ (٥) وبناء عليه رجح أن الهجویری توفى بعد عام ٤٦٩ هـ أو على الأقل فيما بين ٤٦٥ ، ٤٦٩ هـ (٦) .

واذا كنا نتفق مع نيكولسون فى أن الجرجاني كان حيا عند تأليف كشف المحجوب ، الا أننا نختلف معه فى أنه توفى سنة ٤٦٩ هـ ، حقيقة أن هذا

(١) (ارجع الى تاريخ تأليف الكتاب فى الباب الثانى : الفصل الاول) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٢١١ ، ٢٠٩ « است » = يكون ، كائن .

(٣) « السابق » ص ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٢ « بود » = كان .

(٤) « السابق » ص ٢٥٩ .

(٥) « شذرات الذهب » ج ٣ ص ٧٠ .

(٦) « نيكولسون » (انظر : مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

التاريخ ورد في شذرات الذهب ، ولكن من الواضح أن هناك خطأ ما ، فمن الثابت أن الجرجاني توفي سنة ٤٥٠ هـ (١) .

وترد في بعض الكتب والمقالات اشارات تشير الى تواريخ متأخرة لوفاة الهجویری ، منها ما يشير الى سنة ٤٧٠ هـ (٢) ، ومنها ما يشير الى أبعد من ذلك فيجعل وفاته فيما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ (٣) .

على أنه يبدو أن أصبح هذه التواريخ وأقربها الى الصواب : التاريخ الذى ذكره صاحب خزينة الأصفياء وهو سنة ٤٦٥ هـ ، ذلك أن « مفتى غلام سرور » مؤلف الخزينة ، مواطن لاهورى نشأ وتربى في البيئة التى توفي بها الهجویری ، وقام بزيارة قبره عدة مرات ، وهو يصرح بأنه استقى هذا التاريخ من نفحات الأنس وأخبار الأصفياء ، وأن هناك قطعة من الشعر مكتوبة على البوابة الداخلية لضريح الهجویری تشتمل على هذا التاريخ (٤) .

وقد تولى ذكر هذا التاريخ في ثلاثة من الكتب والمقالات الحديثة ، مضافا اليه الشهر واليوم الذى توفي فيه الهجویری ، فجاء تاريخ وفاته على هذا النحو :

التاسع من محرم سنة ٤٦٥ هـ (٥) .

التاسع عشر من صفر سنة ٤٦٥ هـ (٦) .

الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ (٧) .

وإذا كنا نلاحظ اختلافا بين هذه التواريخ في الشهر واليوم ، الا أنها جميعا تتفق على سنة ٤٦٥ هـ .

وهناك ثلاث قطع من الشعر الفارسى تنسب الى : (خواجه) معين الدين جشتى (٦٣٣ هـ) ، ومولانا جامى (٨٩٨ هـ) ، والشاعر الباكستانى محمد اقبال (١٩٣٨) ، وهذه القطع الثلاث مكتوبة على جدران مزار الهجویری ، وتتضمن كل قطعة منها كلمة أو عبارة تشير الى تاريخ وفاة الهجویری ومجموعها بحساب الجمل يساوى ٤٦٥ .

(١) « سفينة الاولياء » ص ٧٥ ، « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٢) « شد الازار » : انظر : ص ١٨٠ حاشية ٣ .

(٣) The Life and Teachings : p. 24. نقلا عن :
«Oriental College Magazin, Lahore (Volume 36. p. 27 - 43)

(٤) « خزينة الاصفياء » ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٤٩ .

(٦) مجلة « هلال » شماره سوم اردیبهشت ١٣٣٢ هـ ش .

(٧) The Life and Teachings : p. 24.

أما القطعة الأولى ، فهي مكتوبة على حائط الباب الى اليسار ، وتحمل اسم خواجه معين الدين ، وهي :

أين روضه كه بانيش شده فيض الست(١)
مخدوم على راست كه باحق بيوست
در هستي نيست شد هستي يافت
زان سال وصالش افضل آمداز (هست) (٢)
سنة ٤٦٥ هـ خواجه معين الدين جشتي

وترجمتها :

١ — هذه هي الروضة التي بنيت لفيض « الأزل » ، المخدوم « على » الذي اتصل بالحق .

٢ — فنى عن الوجود فأدرك البقاء ، ولذا فالأفضل أن جاءت سنة وصاله من كلمة (هست) .

والقطعة الثانية للجامي(٣) : موجودة على بوابة داخلية في الطريق الى الضريح ، وهي :

خائقاه على هجویری است
خاك جاروب از درش بردار
طوطیاكن به ديدة حق بين
تاشوى واقف بر اسرار
جونكه سردار ملك معنى بود
سال وصلش برآید ز (سردار) (٤)
سنة ٤٦٥ هـ مولانا جامي

وترجمتها :

— انها خائقاه على الهجویری ، فارفع عن بابها مكنسة الغبار .

(١) كلمة « الست » تأتي كثيرا في الفارسية بمعنى : الازل ، وهي اشارة الى الآية الكريمة : « واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم » سورة الاعراف الآية ١٧٢ .

(٢) « هست » بمعنى : موجود ، كائن ، و « هست » بحساب الجمل = ه (٥) + س (٦٠) + ت (٤٠٠) = ٤٦٥ .

(٣) من المرجح أن هذه القطعة المنسوبة الى الجامي هي التي أشار اليها مؤلف خزينة الاصفياء . (انظر ج ٢ ص ٢٣٤) .

(٤) الكلمة « سردار » بمعنى « قائد » كانت مستعملة في العربية ، ومجموعها بحساب الجمل : س (٦٠) + ر (٢٠٠) + د (٤) + ا (١) + ر (٢٠٠) = ٤٦٥

- أيها الببغاء ؟ انظر بعين مبصرة للحق ، لتقف على الأسرار .
- ولما كان سردار ملك المعنى ، فان سنة وصله تستخرج من كلمة (سردار) .

والقطعة الثالثة : لحمد اقبال ، وتوجد على حائط البوابة الشرقية ، وهى :

سـال بنائى حـرم مومنان
خـواه زجبريل ز هاتف مجـو
جشـم (به مسجد أقصى فكن) (١)
« الذى باركه » هم بكو
سنة ٤٦٥ هـ علامه اقبال (٢)

وترجمتها :

- سل جبريل عن تاريخ بناء حرم المؤمنين ، ولا تسل الهاتف عنه .
- وألق ببصرك الى المسجد الأقصى ، وقل أيضا : « الذى باركه » (٣) .
- وعلى الرغم من أن ضريح الهجویری ومسجده قد أعيد بناء بعض أجزائهما ، وأدخلت عليهما تعديلات كثيرة ، وزيد في مساحتهما مما يحتمل معه أن تكون بعض هذه الأشعار قد أعيد كتابتها في وقت متأخر ، إلا أنها تتفق فيما بينها على تاريخ واحد لوفاة الهجویری وهو سنة ٤٦٥ هـ . وفى هذا ما يجعلنا نرجح هذا التاريخ على غيره من التواريخ الأخرى .

« قبر الهجویری »

لا يزال قبر الهجویری قائما فى مدينة لاهور ، داخل ضريحه ، فى المزار المعروف بمزار « داتا كنج بخش » ، ويوجد حاليا فى المنطقة القديمة من لاهور ، خارج بوابة « بهاتى » ، ويقع غربى القلعة (٤) .

(١) العبارة : « به مسجد أقصى فكن » بحساب الجمل :

$$\begin{array}{rcl} & & \text{به : ب (٢) + هـ (٥)} \\ \text{مسجد : م (٤٠)} & + & \text{س (٦٠) + ج (٣) + د (٤)} \\ \text{أقصى : أ (١)} & + & \text{ق (١٠٠) + ص (٩٠) + ي (١٠)} \\ \text{فكن : ف (٨٠)} & + & \text{ك (٢٠) + ن (٥٠)} \\ \hline & & \text{المجموع ٤٦٥} \end{array}$$

(٢) « تذكرة حضرت على هجویری » انظر ص ٥٠ — ٥١

(٣) اشارة الى الاية الكريمة : « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » سورة « الاسراء » آية ١

(٤) « سفينة الاولياء » ص ١٦٥ ، « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٨٧ .

وصف المزار من الخارج :

يتكون المزار من الضريح والمسجد . ويقع المسجد في الجهة الغربية ، ويوازيه الضريح في الجهة الشرقية . وجمدت أبنيتهما وزيد في مساحتهما عدة مرات . وقد وصفه صاحب تذكرة « حضرت على هجویری » بقوله : « ان أول ما تقع عليه عين الناظر : مبنى عال يقع في الجهة الغربية منه مسجد فخم » (١) .

والضريح ، كما هو واضح في الصورة ، يتكون من سياج خارجي يتوسطه المقام حيث يوجد القبر ، وتعلوه قبة كبيرة . وتبدو داخل السياج بعض الحجرات ، كما يفتح على بعض الأفنية الداخلية الصغيرة . أما الفناء الخارجي ، فمتسع وتظهر فيه قبور بعض المريدين والمعتقدين في الهجویری (٢)

وقد دفن الهجویری عند وفاته بالقرب من المسجد الذي بناه في حياته . وكان القبر يتألف أول الأمر من الصفة وبعض المباني المحيطة بها ، والتي قام ببنائها السلطان ابراهيم الغزنوی (٤٥١ — ٤٩٢ هـ) . وفي عهد السلطان أكبر أضيف إليه بعض الأبنية التي أصلحت أو أعاد بناءها المهرابا « رنجیت سنغ » (٣) . ولم تكن هناك قبة فوق قبر الهجویری في البداية وفي سنة ١٢٧٨ هـ بنى « حاجی نور محمد سادو » سياجا حول الضريح تتوسطه قبة تعلو القبر (٤) وقام باصلاحها من بعده مولوی « فیروز المدين » وزین الجدران بالرخام وطلی القبة باللون الأخضر (٥) .

وكان « میان غلام جیلانی » حفيد « مهرجندو » قد شيد مسجدا الحقه بالضريح ، غير أن هذا المسجد هدم عند بناء المسجد الجديد المقام على أرض المسجد الذي كان قد شيده الهجویری في حياته ، بعد أن زيد في مساحته . وقد جدد بناء هذا المسجد مرتين (٦) . ويوجد في صحن المسجد الجديد لوح من الرخام طوله ثلاثة أقدام وعرضه تسع بوصات علامة على الموضع الذي كان يوجد فيه ضريح « مؤمن خان » نائب والی البنجاب في عهد محمد شاه امبراطور الهند . ولوح آخر يشير الى محراب مسجد الهجویری القديم (٧) .

(١) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٥٠ .

(٢) « السابق » ص ٥٢ .

(٣)

«The Life and Teachings» p. 26.

«The Life and Teachings», p. 27.

(٤)

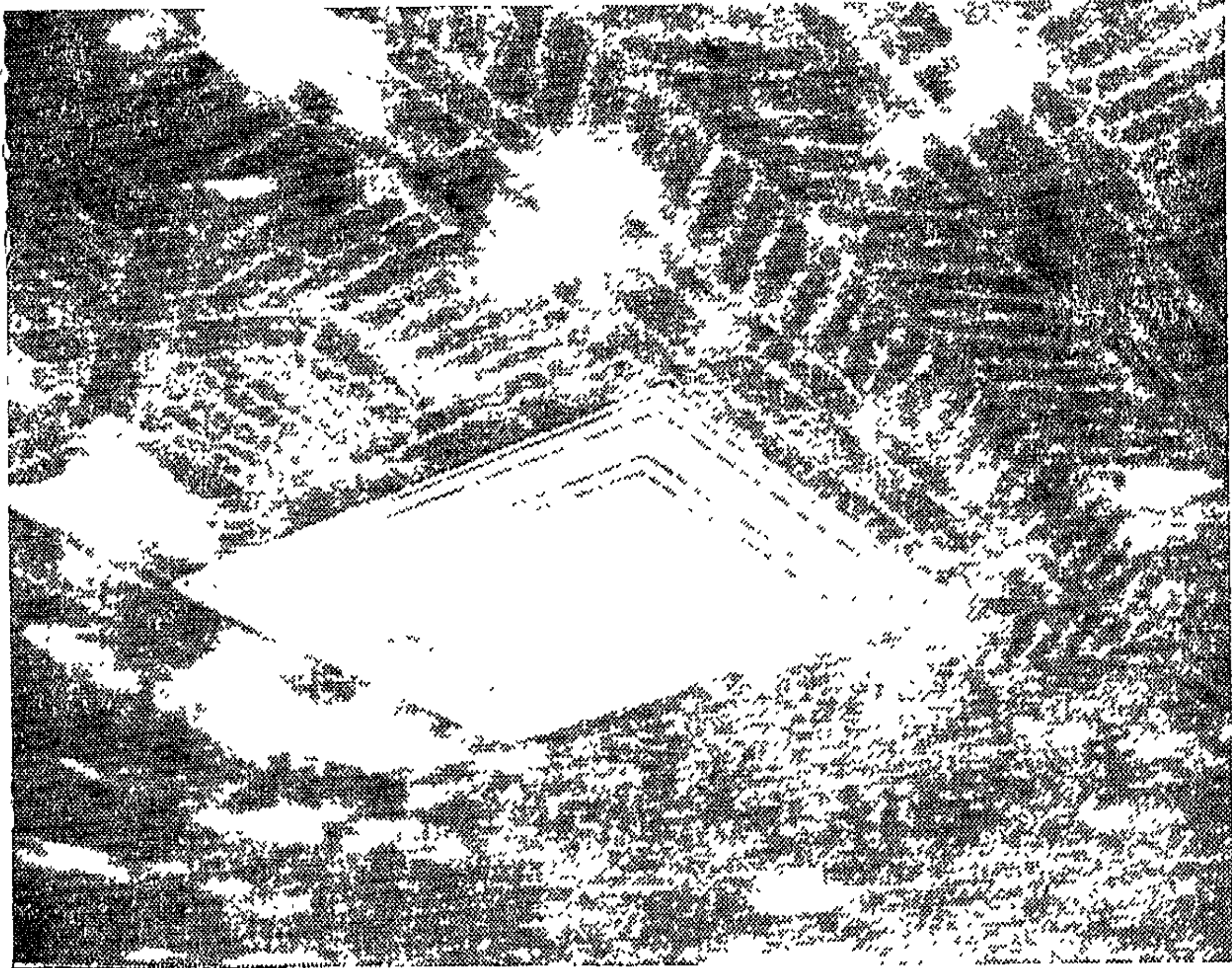
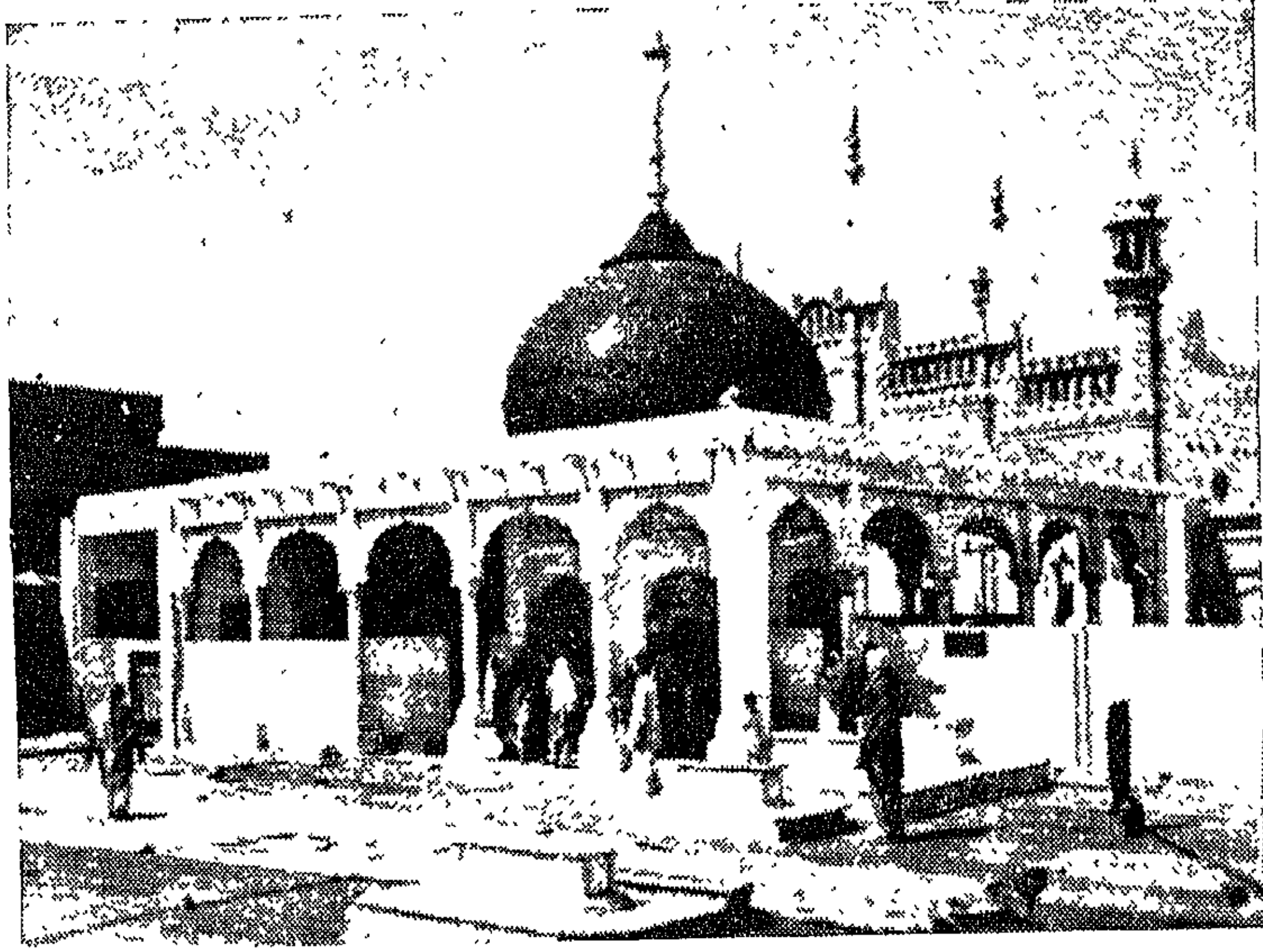
« تذكرة حضرت على هجویری » ص ٥٢ .

(٥) « تذكرة حضرة على هجویری » ص ٥٢ .

(٦) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٧) « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٥٢ .

مزار الهجویری



الأوج الرخامي في المسجد الجديد : الذي يشير الى
محراب المسجد القديم الذي بناه الهجویری في حياته .

وصف الضريح من الداخل :

يقع قبر الهجویری داخل المقام الذى يتوسط الضريح . وقد بنى القبر على صفة من الرخام الأبيض ، بنى « ایواز خان » سیاجها — وایواز خان هو حارس أفيال المہراجا رنجیت سنغ — ويقع قبر الهجویری فى الوسط ويحيط به قبرا : الشيخ « أحمد السرخسى » والشيخ « أبو سعید الهجویری » (١) .

وتوجد عند رأس القبر — كما يبدو فى الصورة — لوحة رخامية كبيرة تسد أحد أبواب المقام نقش عليها آيات من القرآن الكريم ، واسم الهجویری وألقابه وتاريخ وفاته وبيت من الشعر لـ (خواجہ) معین الدین الـ (جشتی) يشير فيه الى لقب داتا کنج بخش . ويبدو فى أسفل اللوحة اسم الشخص الذى أقامها على نفقته ، واسم الخطاط الذى نقشها .

وتفتح البوابة المواجهة للقبر على حجرة صغيرة ، وهى الحجرة التى اعتكف فيها خواجہ معین الدین وأمضى بها فترة الجلہ (٢) ، وعندما هم بالعودة ، وقف أمام القبر ، وقال البيت المنقوش على اللوحة . وهناك حجرة أخرى خارج حرم الضريح كان يقضى فيها الشيخ « فريد الدين كنج شكر » (٣) مدة الجلہ (٤) .

كما توجد داخل الضريح حجرة تسمى حجرة القرآن بها نسخ عديدة من القرآن الكريم من بينها نسخة بخط السعدى الشيرازى ، ونسخة تحمل اسم سلطان الاسلام عالمكير المغولى (٥) . ومن أبرز النسخ المهداه : مصحف أهدته « موران » خلیة المہراجان « رنجیت سنغ » ، ونسخة أهداها الى الضريح « محمد خان » ونسخة ثالثة « لنواب ناصر » كما أهدى رنجیت سنغ نسخة نفيسة الى الضريح عقب حملته المظفرة على الأفغان . وتوجد نسخة مكتوبة بالمسك أهداها متعبد غير معروف (٦) .

(١) «The Life and Teachings» p. 26.

(١)

(٢) « خزينة الاصفیاء » انظر ج ٢ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

(٣) « مسعود بن عز الدين محمود » ويعرف بفريد الدين كنج شكر . كان مريدا وخليفة لقطب الدين بختيار ، وأدرك صحبة خواجہ معین الدین الجشتی . توفى سنة ٦٦٤ هـ وقبره بين مولتان ولاهور (انظر : سفينة الاولیاء ص ٩٦) .

« خزينة الاصفیاء » ج ١ ص ٢٨٧ .

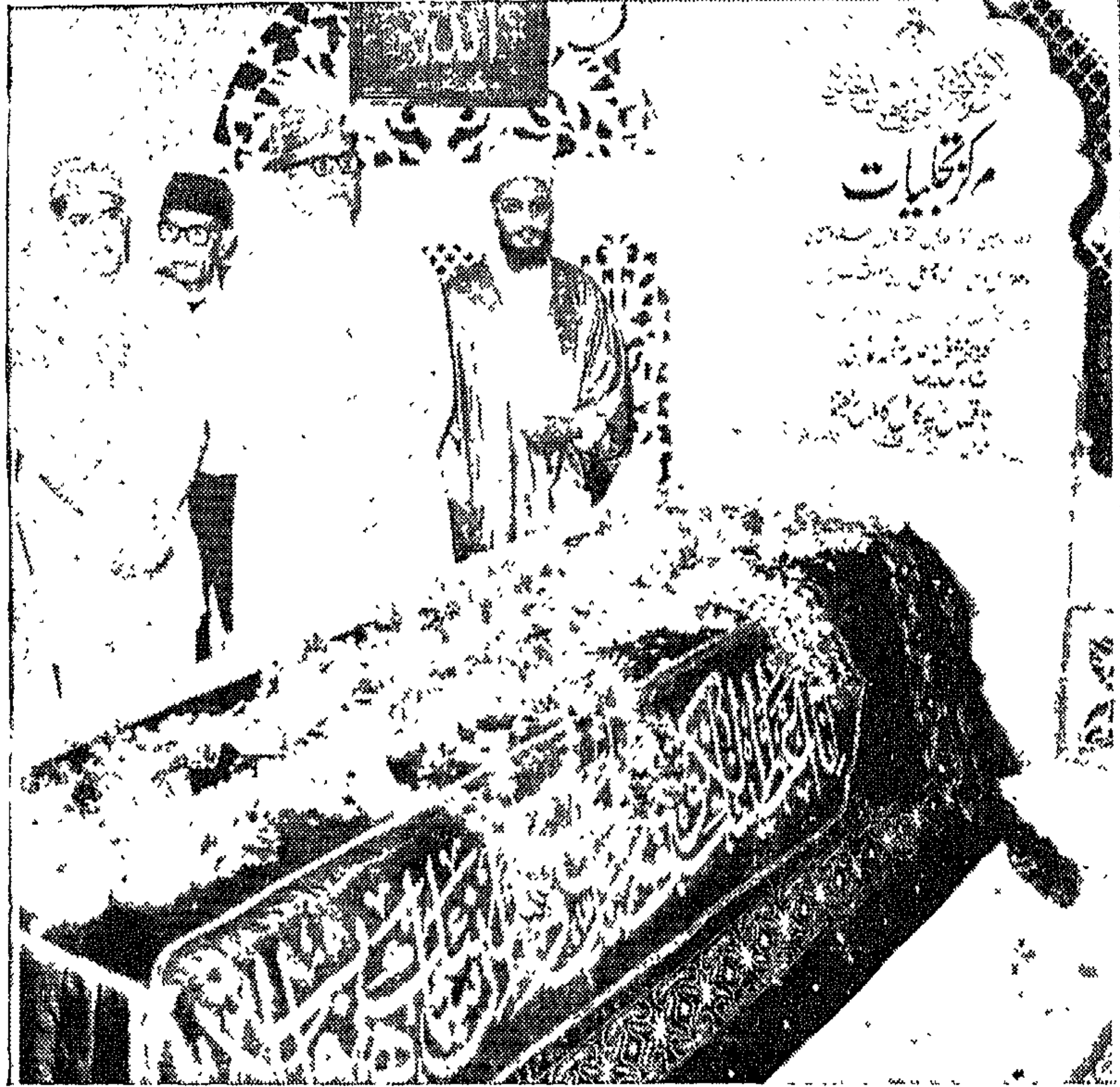
(٤) « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥) « تذكره على هجویری » ص ٥٢ .

(٦)

«The Life and Teachings», p. 27.

((قبر الهجویری))
وتبدو اللوحة الرخامية الى اليمين



((العبارات المكتوبة على اللوحة))
بسم الله الرحمن الرحيم
((ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) .
مركز تجلیات
قدوة السالكين ، زبدة العارفين ، حجة الكاملين ،
سند الواصلين ، مظهر العلوم الخفى والجلى المشهور
مخدوم على الهجویری المعروف بحضرت داتاکنج بخش
لاهوری قدس الله روحه ولا زالت تجلیاته وبركاته دائما
ابدا .
کنج بخش فیض عالم مظهر نور خدا
ناقصان رابیر کامل کاملان را رهنما
سال وصال ٤٦٥ هـ
بناکنده (البانی)
جویدری دین محمد بن جویدری دین کتبه عبد الحمید
غلام رسول

ومزار الهجویری من الأماكن المقدسة التي يعتز بها المسلمون في شبه القارة الهندية ، ويؤمه جمهور كبير من أبناء الهند وباكستان للزيارة والتبرك . وقد لا يعرف عامة الناس في تلك البلاد اسم « على بن عثمان الجلابي الهجویری » ، ولكن لا يوجد في شبه القارة من لا يعرف الاسم المحبوب « داتا كنج بخش » ، وعلى الرغم من مرور أكثر من تسعة قرون على وفاة صاحبه ، إلا أن هذه القرون والأعوام لم تقلل من تعلق الناس به وحبهم له ، واعتقادهم في ذلك الرجل العظيم الذي كان بسلوكه وأخلاقه وحبه لنشر الاسلام نموذجا للمسلم الحقيقي ، فقد أضاع منذ ذهابه الى الهند مشعل الاسلام ، وروج شرع الرسول في تلك البقاع المترامية الأرجاء ، وأحكم غرس بذور الدين الاسلامي في قلوب أهل تلك البلاد (١) .

وقد أثر مريدو الجهویری في لاهور في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي لشبه القارة تأثيرا عميقا ، فلم يكن من نتيجة حركة العلماء المسلمين الذين وفدوا على شبه القارة ، أن حملت معها ديناً يدعو الى التوحيد فحسب ، بل حملت معها أيضا الأفكار الديمقراطية التي تنظم المجتمع الاسلامي ، الى الهنود الذين كانوا يعبدون آلهة متعددة ويخضعون لنظام الطبقات المهين .

واذا كان مرور الأيام والأحداث ، والانقلابات السياسية والجغرافية قد استطاع أن ينال من بناء الدولة التي أقامها السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند على الغزو والفتوحات ، فإن بناء العشق والمحبة الذي شيده على الهجویری الغزنوي على أساس من الايمان العميق والحياة الروحية الخالصة قد ظل صامدا مع الأيام ، بل ان اسم الهجویری ليطغى على اسم ذلك السلطان الذي طامس حطم معابد الأصنام ومعقل الشرك والضلال .

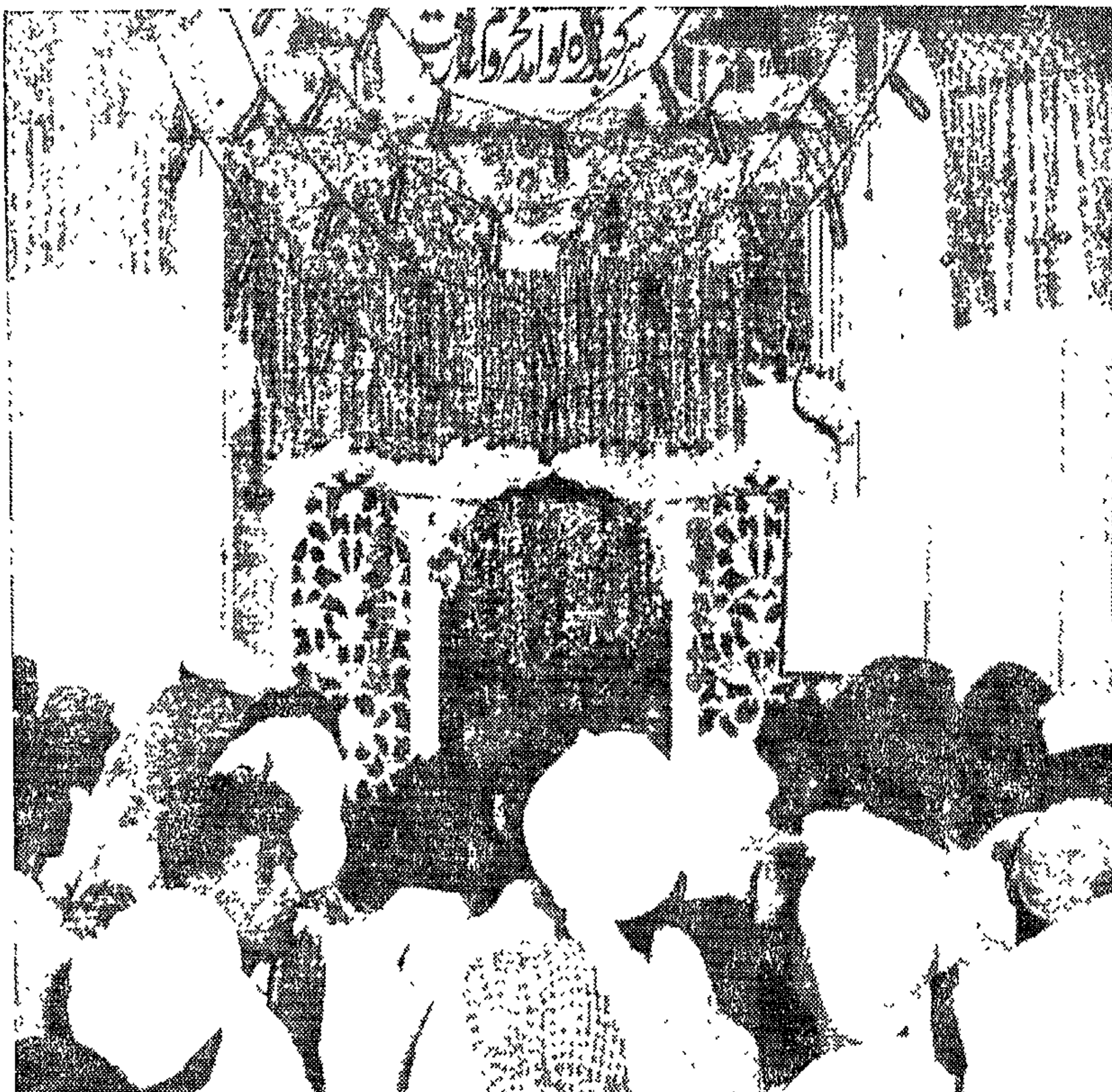
يقول الشاعر محمد اقبال :

سید « هجویر » مخدوم امم مرقدأوبیر « سنجر » را حرم
بندهای کوهسار آسان کسخت در زمین هند تخم سجده ریخت
عهد فاروق از جمالش تازه شد حق زحرف او بلند آوازه شد
باسببان عزت ام کتاب از نکاهش خانه باطل خراب
خاک بنجاب ازدم او زنده کشت صبح ما از مهر او تابنده کشت
عاشق وهم قاصد طیار عشق از جبینش آشکار اسرار عشق (٢)

(١) « هلال » جلد بنجم شماره ١ خرداد ماه ١٣٣٦ .

(٢) «The Life and Teachings» : p. 3.

((البوابة الرئيسية للمقام))



كتب في أعلى البوابة العبارة :
هر كه يدروازه او آمد محروم نه رفت
وترجمتها : من جاء الى بابه لم يذهب محروما

وترجمته :

- سيد « هجویر » مخدم الأمم ، برقده للشيخ « سنجر » حرم .
- حطم سلاسل الجبال فى يسر ، وبذر فى أرض الهند بذور الصلاة .
- تجدد عهد الفاروق بجماله ، وعلا صوت الحق وذاع بكلامه .
- انه الحارس لعزة أم الكتاب ، وبظفرته دار الباطل خراب .
- حيت أرض البنجاب بأنفاسه ، وأضاء صبحنا بشمسسه .
- هو العاشق ورسول العشق الطيار ، وأسرار العشق تلوح من جبينه .

ولا يزال قبر الهجویری مطافا لمئات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، وموضعا لعبادة الأولياء ، وخلوة ورع للنساک ، يتجهون اليه ليعتکفوا فيه فترة الأربعينية ، ولا تزال به الأماكن التى اختلى فيها قطب الهند « معین الدين حسن السنجرى الجشتى » والشيخ « فريد الدين كنج شكر » .

وقد اشتهر عن قبر الهجویری تحقيق حاجة كل ذى حاجة ان هو طاف بروضته المنورة أربعين ليلة جمعة ، أو أربعين يوما على التوالى (١) .

ويحتفل أهل الباكستان حكومة وشعبا بمولد داتا كنج بخش هجویری كل عام ، ويمتد الاحتفال بالعرس سبع ليال .

(١) « سفينة الأولياء » ص ١٦٥ ، « خزينة الاصفیاء » ج ٢ ص ٢٣٤ .



صورة لحدث كبير من السيدات المعتقدات في داتاكنج بخش
وقد تعودن زيارة ضريحه في أيام الجمعة واصطحبن أولادهن
لينالوا بركة صاحب المزار ..

تفضل السيد الدكتور حسين مجيب المصرى باهدائي هذه المجموعة من الصور التي حصل
عليها بمساعدة صديقه الباكستاني السيد محمد حسن الاعظمي ، فلهما جزيل الشكر .

الفصل السابع

مؤلفاته

عرف الهجویری كرائد من الرواد الأوائل الذين ألفوا في التصوف ، عن طريق كتابه « كشف المحجوب » ، الذي يعد باكورة المؤلفات الصوفية في اللغة الفارسية ، وواحدا من أمهات الكتب الشرقية المؤلفة في التصوف الاسلامی .

الدارس للتصوف الاسلامی يستطيع في يسر أن يلمس المكانة الكبيرة التي يحتلها « كشف المحجوب » ككتاب قيم يقوم على أساس علمی ومنطقی ، ومنهج سليم ، فهو مرجع له أهميته ، وقلما توجد دراسة في التصوف الاسلامی قام بها المستشرقون ، تخلو من الافادة من هذا الكتاب ، والاشادة به ، فهو لا يقل أهمية وشهرة عن أمهات الكتب الصوفية العربية المعروفة ، ونعني بها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة القشيرية » .

ومن المؤسف حقا أن تكون الافادة من هذا الكتاب ، في أغلب الأحيان ، عن طريق الترجمة الانجليزية ، التي قام بها المستشرق الانجليزى « نيكولسون » لهذا الكتاب .

وعلى الرغم من أن شهرة الهجویری ترجع الى كتاب كشف المحجوب ، الذي يتصل اسمه دائما باسم مؤلفه ، الا أن الهجویری كان مؤلفا مكثرا ، طرق موضوع التصوف في عدد من الكتب قبل كشف المحجوب ، وهو في هذا الأخير يشير الى هذه الكتب ، ويحيل القارئ اليها عندما يتعرض لمسألة سبق أن تناولها بالتفصيل في واحد من هذه الكتب .

ومن خلال هذه الاشارات نتعرف على مؤلفات الهجویری السابقة على كشف المحجوب ، والتي لم يقدر لها أن تبقى وتصل الى أيدينا .

والهجویری كان شاعرا وناثرا ، بدأ نشاطه الأدبی في فترة مبكرة من حياته ، بل انه ذكر في كتابه « كشف الأسرار » أنه بدأ التأليف وهو

لا يزال في الثانية عشر من عمره (١) !!! وقد اجتمع له انتاج وفير ، فالكتب التي ورد ذكرها في كشف المحجوب تبلغ ثمانية ، واذا أضفنا اليها كشف المحجوب يكون انتاجه من النشر تسعة كتب ، علاوة على ديوان من الشعر .

وليس هذا فحسب ، فهناك كتابان آخران ينسبهما البعض الى الهجویری ، وان لم يرد ذكرهما في كشف المحجوب ..

وفيما يلي قائمة بأسماء مؤلفات الهجویری :

- ١ — الديوان .
- ٢ — منهاج الدين .
- ٣ — كتاب الفناء والبقاء .
- ٤ — كتاب في شرح كلام الحلاج .
- ٥ — البيان لأهل العيان .
- ٦ — بحر القلوب .
- ٧ — أسرار الخرق والملونات .
- ٨ — كتاب الايمان .
- ٩ — الرعاية بحقوق الله تعالى .
- ١٠ — كشف المحجوب .
- ١١ — ثواقب الأخبار .
- ١٢ — كشف الأسرار .

ولا نعرف بأي لغة كتبت هذه المؤلفات ، باستثناء كشف المحجوب ، وكشف الأسرار ، ذلك أن هذه المؤلفات فقد بعضها أثناء حياة الهجویری ، والبعض الآخر بعد وفاته . ولم يصل إلينا من هذه المجموعة سوى كشف المحجوب الذي يعد آخر مؤلفات الهجویری ..

يقول زوكوفسكى : « من العسير على المرء أن لا يشعر بالأسى لفقد أوليات كتابات الهجویری وبخاصة أنه ، على الرغم من ذلك ، يحيل القارئ اليها دائماً (٢) .

ونعرف بهذه المؤلفات ، ونبدأ بالجزء الذي فقد في حياة المؤلف .

(١) نقلا عن : « تذكرة حضرت على هجویری » ص ٩١ .

(٢) «Bulletin of Oriental Studies» : Zhukovsky's Introduction, p. 487.

أشار الهجویری فی مقدمة كشف المحجوب الى أن اثنين من مؤلفاته
فقدوا وشوها أثناء حياته ، وهما : « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » .

أما الديوان : فقد روى الهجویری عن فقده قصة بسيطة مؤداها أن
شخصاً طلبه منه ، ولم يكن لديه سوى النسخة الأصل لذلك الديوان ،
فأعطاه له . وغير ذلك الرجل فيها وأسقط اسم الهجویری من أولها ،
وعرض الديوان على الناس على أنه من نظمه (١) .

وهذه القصة على بساطتها تثير تساؤلات عديدة تدور حول الأمور
التالية :

١ — متى نظم الهجویری ذلك الديوان ، وبأى لغة نظمه ؟

٢ — إذا كانت للهجویری المقدرة على النظم ، فلم لم يطرق هذا
السبيل مرة أخرى ؟

٣ — لماذا لم يستشهد الهجویری في كشف المحجوب بشواهد من شعره
مع أنه استشهد في مواضع كثيرة من الكتاب بأشعار غيره ؟

بالنسبة للتساؤل الأول : يبدو أن الهجویری نظم الديوان في بداية
شبابه ، وكانت انطباعاته فيه انطباعات شخصية لشاب حديث السن ،
ولم يكن قد اتجه بعد الى التصوف . ومما يرجح هذا أن الشخص الذي
استولى على الديوان استغل حداثة سن الهجویری فسلبه الجهد الذي
بذله في نظم الديوان ونسبه الى نفسه في اطمئنان ، لأن الهجویری لم
يكن قد عرف كشاعر أو كاتب . أما اللغة التي نظم بها الديوان ، فمن
المرجح أنها كانت اللغة الفارسية ، إذ أن الهجویری على الرغم من ثقافته
العربية واجادته للغة العربية ، كتب باللغة الفارسية ، وإن كانت اللغة
العربية تمثل عنصراً هاماً في كتاباته ..

وبالنسبة للتساؤلین الثانی والثالث ، فمن المحتمل جداً أن الهجویری
كان ينظم الشعر ، وربما باللغتين الفارسية والعربية . وهناك مثل واحد
ورد في كشف المحجوب لشعره العربی ، فقد استشهد ببيت واحد ونص
على أنه قائله (٢) . أما شعره الفارسی فهناك أمثلة منه وردت في كتاب

(١) « كشف المحجوب » ص ٢ .

(٢) « السابق » ص ٣١٣ .

« كشف الأسرار » ، وربما كان السبب في احجام الهجویری عن الاستشهاد بأمثلة من شعره يرجع الى أن الأشعار التي كانت متداولة في ذلك الوقت ، كانت في معظمها أشعارا غزلية يؤولونها تأويلا صوفيا ، والهجویری وان أباح سماع الشعر الا أنه كان من المعارضين للتأويل ، وقد عاب على الذين يقضون أوقاتهم في سماع أوصاف المحبوب ومحاسنه، كالعین والطرة والخال وما شابه ذلك ، وتأويلها على أنها للحق جل جلاله (١) .

وأما كتاب « منهاج الدين » : فهو المؤلف الثاني الذي فقد في حياة الهجویری . وقد وردت في كشف المحبوب اشارات تدل على أنه كان من أوائل الكتب التي ألفها ، وان موضوعه كان يرتبط بالتصوف . ويبدو أن منهاج الدين كان على هيئة تذكرة ، فقد ذكر الهجویری أنه تحدث فيه ، في شيء من التفصيل ، عن مناقب أهل الصفة وشرح أحوالهم كل على حدة (٢) ، ولذلك فانه عندما تعرض لذكر هؤلاء في الجزء الخاص بتراجم الحياة من كشف المحبوب اكتفى بذكر أسمائهم ..

وبالإضافة الى أهل الصفة ، فقد تحدث الهجویری في الكتاب عن بعض الصوفية ، من بينهم الحلاج ، ذلك أنه في الترجمة التي كتبها للحلاج في كشف المحبوب ، أشار الى أنه تعرض في منهاج الدين لبداية الحلاج ونهايته (٣) .

وقد حدث للهجویری مع منهاج الدين ما حدث له مع الديوان ، اذ أن مدع ركيك استولى على الكتاب ، ومحا اسم الهجویری من عنوانه ، وعرضه على الجمهور على أنه من تأليفه ، وأظهر للعوام أنه مؤلفه ، بينما كان الخواص يضحكون منه على هذا القول .

ويبدو أن ظاهرة الانتحال كانت متفشية في ذلك الوقت ، وعلى وجوه عدة ، فقد أشار « فرانتز روزنتال » الى ثلاثة أنواع من الانتحال :

النوع الأول : وكان يمارسه جماعة من المؤلفين الذين يسعون وراء الشهرة ، فيغفلون ذكر أسمائهم وينتحلون أسماء أدباء مشهورين يوقعون بها مؤلفاتهم (٤) .

(١) « كشف المحبوب » ص ٥١٩ .

(٢) « السابق » انظر : ص ٩٦ .

(٣) « السابق » انظر : ص ١٩٢ .

(٤) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٦ .

والنوع الثانى : وهو أن كتباً بجملتها كانت تنتحل ، وذلك بوضع اسم المنتحل محل اسم المؤلف الحقيقى . وضرب لهذا النوع مثلاً بالهجويرى (١) .

والنوع الثالث من السرقات الأدبية : ما كان شائعاً عند المسلمين ، ويكاد ينحصر فى السرقات الشعرية ، بعكس كتب الاغريق التى كانت تتناول الأدب جملة (٢) .

وقد كان لهاتين الحادثتين أثرهما على الهجويرى ، وحاول أن يتلافى حدوث ذلك تقبلاً فعمد الى ادخال اسمه فى مؤلفاته حتى أن اسمه يتردد فى كشف المحجوب ثمان وعشرين مرة . .

أما المجموعة الثانية من مؤلفات الهجويرى ، والتى يبدو أنها فقدت بعد وفاته فتنشتمل على الكتب التالية :

١ — كتاب الفناء والبقاء :

ناقش الهجويرى ، فى الباب الخامس من كشف المحجوب ، اختلاف الصوفية فى الفقر والصفوة ، وتطرق من ذلك الى مناقشة الفناء والبقاء من حيث المعنى والعبارة ، وأشار الى ترهات أرباب اللسان الذين يعبدون العبارة ، وأوماً الى أنه فى مرحلة طيش الشباب ألف كتاباً فى « الفناء والبقاء » وكانت له فيه أقوال من هذا النوع (٣) .

٢ — كتاب « فى شرح كلام الحلاج » :

هذا الكتاب أيضاً من الكتب التى ألفها الهجويرى فى صدر شبابه ، فقد صرح بأنه كان فى شبابه مفتوناً بالحلاج ، وقرأ كثيراً من كتبه . وقد دفعه إعجابه بالحلاج الى تأليف ذلك الكتاب فى شرح كلامه ، وأيد فيه بالدلائل والحجج علو أقوال الحلاج ، وصحة حالة (٤) .

٣ — كتاب « البيان لأهل العيان » :

ذكر الهجويرى أنه ألف هذا الكتاب فى بداية تصوفه ، ويبدو أنه تعرض فيه لشرح بعض الرموز الصوفية :

(١) « مناهج العلماء المسلمين » ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) « السابق » ص ١٢٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٦٧ .

(٤) « السابق » ص ١٩٢ .

٤ — كتاب « بحر القلوب » (١) :

يبدو أن الهجویری ألف هذا الكتاب بعد كتاب البيان لأهل العیان وطرق فيه نفس الموضوع فشرح الرموز والمصطلحات الصوفية ، وإن كان قد سلك في ذلك مسلكا أكثر تفصيلا واشباعا من كتاب البيان . .

٥ — « أسرار الخرق والملونات » :

أشار الهجویری فی الباب الرابع من كشف المحجوب ، وهو الباب الخاص بلبس المرقعة ، الى أنه ألف في هذا الموضوع كتابا مستقلا أسماه « أسرار الخرق والملونات » وذكر أنه يلزم لكل مريد نسخة منه (٢) .

٦ — كتاب « الايمان » :

من المسائل التي تناولها الهجویری في كشف المحجوب ، موضوع « الايمان » ، وقد أفرد له قسما مستقلا أطلق عليه : « كشف الحجاب الثالث في الايمان » . وفي هذا القسم أشار الهجویری إشارة مقتضبة الى مدلول « الايمان » في الشريعة ، وعند المعتزلة والخوارج وغيرهم ، ثم أحال القارئ الى كتاب مستقل ألفه في هذا الموضوع (٣) واعتذر بأنه سيقصر حديثه في هذا الموضع على اثبات رأى الصوفية في الايمان (٤) .

٧ — « الرعاية بحقوق الله تعالى » :

خص الهجویری « التوحيد » بباب في كشف المحجوب أطلق عليه « كشف الحجاب الثاني في التوحيد » ، وشرح للقراء عامة مبدأ التوحيد عند الموحدين ، وأشار الى آراء المخالفين من الثنوية والوثنيين وغيرهم ، ثم أحال القارئ المتخصص في هذا العلم ، الذي يهتم بدراسة هذه المسألة دراسة وافية ، الى كتاب من تأليفه أكثر تفصيلا ، اسمه : الرعاية بحقوق الله تعالى (٥) .

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٣٣ .

(٢) « السابق » ص ٦٣ .

(٣) « السابق » ص ٣٦٨ .

(٤) « السابق » ص ٣٧٤ .

(٥) « السابق » ص ٣٦٠ .

وغنى عن التعريف أن هناك كتابين يحملان هذا الاسم ، وهما :

كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (٢) .
وكتاب « الرعاية لحقوق الله » للحارث بن أسد المحاسبى (٣) المتوفى سنة ٢٤٣ هـ (٤) .

وأما « كشف المحجوب » : فهو الكتاب الوحيد الذى بقى من مؤلفات الهجویری ، وقدر له أن يصل الى أيدينا . ولما كان كشف المحجوب يمثل الشق الثانى من هذه الدراسة فقد أفردنا للتعريف به بابا مستقلا ، وهو الباب الثانى .

وبالإضافة الى الكتب والمؤلفات التى تنسب الى الهجویری يوجد كتابان لم يرد ذكرهما فى كشف المحجوب :

أولهما « ثواقب الأخبار » : وقد أشار اليه البغدادى إشارة عابرة عند تأريخه لكشف المحجوب فذكر أن الهجویری ألف « ثواقب الأخبار » وكشف حجب المحجوب لأرباب القلوب (٥) . ولا ندرى من أين استقى البغدادى اسم هذا الكتاب ، إذ لم يرد ذكره فى أى من المراجع التى رجعنا إليها .

والثانى « كشف الأسرار » : وهو كتيب صغير يحمل اسم الهجویری ، طبع فى السنوات الأخيرة فى مدينة لاهور .

وقد تيسر لنا الاطلاع على بعض الاشارات التى تشير الى هذا الكتاب . وأولى هذه الاشارات وردت فى كتاب « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، فقد نقل مؤلفه « آدم ميتز » رأيا للهجویری فى طبقة الوعاظ ، وذكر اسم المرجع على أنه « كشف الاسرار » مخطوط بمكتبة فينا تحت رقم ١٥٤ (٦) . وهذا يدل على أن الكتاب كان لا يزال مخطوطا عندما اطلع عليه « ميتز »

ووردت الاشارة الثانية فى مقال فى مجلة « هلال » التى تصدر بالفارسية فى « كراچى » وقد نقل « غلام سرور » كاتب المقال نصا عن كشف الاسرار

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩ .
 - (٢) « طبقات الصوفية » ص ١٠٣ .
 - (٣) « كشف المحجوب » ص ١٣٤ .
 - (٤) « طبقات الصوفية » ص ٥٦ .
 - (٥) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩١ .
 - (٦) « الحضارة الاسلامية » ميتز : ج ٢ ص ٨٢ .

يتعلق بلقب « كنج بخش » الذى يطلق على الهجویری ، وذكر أن هذا النص ورد على لسان الهجویری فى الكتاب (١) . ويبدو من هذه الإشارة أن كتاب كشف الأسرار يضم بعض المعلومات التى تشير الى حياة الهجویری الخاصة ، وهو العنصر الذى نفتقده تماما فى كشف المحجوب ..

أما الإشارة الثالثة ، فقد وردت فى كتيب عن الهجویری كتب باللغة « الاردوية » ، وأطلق عليه مؤلفه اسم « تذكرة حضرت على هجویری » . وقد نقل المؤلف عن كشف الأسرار نموذجين لشعر الهجویری (٢) .

على أن هناك صورة أوضح لكشف الأسرار نستطيع أن نتبين ملامحها من خلال كتيب كنبه بالانجليزية أحد الأساتذة السابقين فى جامعة عليكرة الإسلامية ، وأطلق عليه اسم :

The Life and Teachings of Hazrat Data Ganjbakhsh.

وذكر فيه أن كشف الأثرار طبع أخيرا فى لاهور ، ويبدو من حديثه عن الكتاب أنه أطلع عليه ..

وقد أشار المؤلف الى أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، فذكر أن الأسس والتعاليم التى يتضمنها هذا الكتيب تسير فى خط واحد مع التعاليم الواردة فى كشف المحجوب ، كما أن الطريقة التى تنقل بها هذه التعاليم مشابهة لتلك التى جاءت فى كشف المحجوب . ويتشابه الكتابان أيضا فى أن اسم المؤلف استخدم مرات عديدة خلال الكتاب (٣) .

ويضم كشف الأسرار الى جوار الأسس والتعاليم الصوفية بعض المعلومات الإضافية التى تتعلق بتواريخ الحياة . ويبدو أن بالكتاب قسما على هيئة تذكرة ، تحدث فيه الهجویری عن بعض الأشخاص الذين قابلهم أثناء إقامته بالهند . وتأثر بهم (٤) .

وعلى الرغم من القرائن التى أوردتها المؤلف وأيد بها أوجه الشبه بين كشف الأسرار وكشف المحجوب ، الا أنه يلقى ظللا من الشك على نسبة كشف الأسرار الى الهجویری ، فهو يقول انه من المحتمل أن يكون هذا

(١) « حلال » اردبيشت ١٣٣٢ .

(٢) « تذكرة حضرت على هجویری » انظر ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) The Life and Teachings : p.29.

(٤) The Life and Teachings : p.25.

الكتاب منتحلا ، كتبه بعض تلاميذ الهجویری الذين كانوا متعطشين لنشر تعاليم أستاذهم . غير أنه يعود فيقول : وحتى لو صح أن الكتاب ليس من تأليف الهجویری فإنه يعتبر ملخصا جيدا لتعاليمه (١) . وهكذا يتأرجح رأيه بين القبول والرفض .

والواقع أننا لا نستطيع أن نقطع أو نرجح ما إذا كان كشف الأسرار من تأليف الهجویری أم من تأليف تلاميذه ، إذ لم يتيسر لنا الاطلاع عليه حتى يمكننا أن نصدر حكما سليما مستمدا من دراسة الكتاب . ونرجو أن تتاح لنا هذه الفرصة يوما ما .

والحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نستخلصها مما سبق : أنه إذا صحت نسبة كشف الأسرار الى الهجویری فإنه يكون قد ألفه بعد كتاب كشف المحجوب ، وخلال الفترة الأخيرة من حياته التي قضاها في مدينة لاهور . وهو ما ينطبق أيضا على « ثواقب الأخبار » إذا ثبت أن هناك كتابا بهذا الاسم ينسب الى الهجویری ..

وبعد هذا العرض الموجز للكتب والمؤلفات التي تنسب الى الهجویری — بالإضافة الى كشف المحجوب — والتي ورد ذكر الجزء الأكبر منها في هذا الأخير بما يدل على أن الهجویری ألفها قبله ، هناك سؤال يطرح نفسه ، وهو :

هل ألف الهجویری هذه الكتب فعلا ؟ وإذا كان قد ألفها ، فأين هي ؟ ولماذا لم تصل إلينا ؟ ..

حقيقة أن هناك اثنين من بينها ذكر الهجویری أنهما فقدتا أثناء حياته ، وهما « الديوان » وكتاب « منهاج الدين » ، ولكن كيف أختفت الكتب الأخرى التي أشار إليها الهجویری بما يدل على أنها كانت موجودة في حياته ، ومتداولة في الوقت نفسه ، فهو عند الإشارة الى بعضها يحيل القارئ إليها ، ويطلب منه أن يرجع إليها (٢) ، أو يصرح بأنه لابد له من الحصول على نسخة منها (٣) ، كيف أختفت هذه الكتب جميعها بعد وفاته ، ولم يبق منها

(١) The Life and Teachings : p.29.

(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٦٠ .

(٣) « السابق » ص ٦٣ .

الا كشف المحجوب فكان الكتاب الوحيد الذى وصل الينا ؟ ولماذا تخلو كتب
الفهارس من ذكر أى منها ؟ .

والواقع أننا للأسف لا نجد اجابة لهذا السؤال ، وكل ما نستطيع أن
نقوله فى هذا الصدد انه اذا كان الهجويرى قد ألف هذه الكتب فعلا ، فهذا
لا يخرج عن أمرين : اما أن هذه الكتب قد ضاعت ضمن ما ضاع من التراث
الاسلامى ، واما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ، ولم يقدر لها بعد من
يعثر عليها ، ويعنى بنشرها أو دراستها .

الباب الثاني
التعريف بكتاب كشف المحجوب

الفصل الأول تعريف بالكتاب اسمه — موضوعه — تاريخ تأليفه

كتاب كشف المحجوب أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية ، وأول كتاب منظم في الأصول النظرية والعملية للتصوف (١) . ويعد من المؤلفات القيمة في التصوف الاسلامي ، الأمر الذي جعل الجميع يتحدثون عنه وعن مؤلفه بكثير من التقدير . .

يقول الجامي في نفحات الأنس :

« على بن عثمان بن أبي علي الجلابي الغزنوي ، صاحب كتاب كشف المحجوب ، الذي يعتبر من الكتب القيمة المشهورة في هذا الفن » (٢) . .

ويقول دارا شكوه في سفينة الأولياء :

« كشف المحجوب ، كتاب مشهور ، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولم يؤلف كتاب في التصوف باللغة الفارسية كتابا قريبا مثله » (٣) .

ويقول بهار في سبك شناسي :

« كشف المحجوب : تأليف العالم العارف أبي الحسن علي بن عثمان الغزنوي ، من الكتب القديمة القيمة » (٤) . .

وقد نوه بقيمة هذا الكتاب أيضا المستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الاسلامي ، سواء منهم من بحث في هذا الموضوع ، أو من قصر جهوده على نشر كتب التصوف وترجمتها .

(١) «Ethé : Cat», Vol. I

(٢) « نفحات الانس » ص ٣١٦ .

(٣) « سفينة الاولياء » ص ١٦٤ .

(٤) « سبك شناسي » ج ٢ ص ١٨٧ .

« وكشف المحجوب » في الفارسية بمكانة « اللمع » من العربية ، فكلاهما يعد أقوم المؤلفات الصوفية في لغته ، وأكثرها قيمة وأوفرها مادة في التصوف .

وقد اعتمد صاحب كشف المحجوب على الكتب العربية في التصوف ، السابقة عليه مثل : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة القشيرية . وأفاد منه من جاء بعده من المؤلفين الفرس ، وكمل من له دراية بالتصوف الاسلامي ، وصلة بالمراجع الفارسية مثل : تذكرة الأولياء ونفحات الأنس وسفينة الأولياء وتاريخ تصوف در اسلام ، يستطيع أن يدرك الى أى مدى أفاد مؤلفو هذه الكتب من كشف المحجوب ، وإلى أى حد كان اعتمادهم عليه سواء صرحوا بذلك أو لم يصرحوا .

اسم الكتاب :

أطلق الهجویری على كتابه اسم « كشف المحجوب (١) » ، وشرح الهدف من هذه التسمية فقال :

« أين كتاب راکشف المحجوب نام کردم مراد آن بود که تا نام کتاب ناطق باشد بر آنجه اندر کتابست مر کروهی راکه بصیرت بود چون نام کتاب بشنوند دانند که مراد از آن چه بوده است » .

وترجمته :

« أسميت هذا الكتاب كشف المحجوب ، والفرض من ذلك أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فإن أهل البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان الفرض منه » .

ويرى الهجویری أن اسم كشف المحجوب أنسب الأسماء لكتابته ، لأنه يعبر تعبيراً صادقاً عما يحتويه الكتاب .

يقول :

« وجون أين کتاب اندر بیان راه حق بود ، وكشف حجب بشریت جزاین نام ویرا اندر خور نبود » (٢) .

(١) « مما هو جدير بالذكر أن هناك كتاباً يحمل اسم « كشف المحجوب » في المذهب الاسماعيلي ، كتبه بالفارسية : « أبو يعقوب السجزي » ، وكان معاصراً للهجویری (انظر : « سبك شناسی » ج ٢ ص ٥٢) .
(٢) « كشف المحجوب » ص ٤ .

وترجمته :

« ولما كان هذا الكتاب في بيان طريق الحق ، وكشف حجب البشرية
فانه لا يناسبه غير هذا الاسم » .

وهناك خلاف حول اسم « كشف المحجوب » . وقد ذكر زوكوفسكى
أن اسم الكتاب في النسخة الخطية الخاصة بمكتبة « فينا » ، وهى النسخة
التي جعلها متنا لطبعته لكشف المحجوب ، وفي النسخ الأخرى التى اعتمد
عليها في تصحيح المتن ، هو : « كشف المحجوب » (١) .

وكذلك أثبت كتاب الفهارس : « ريو » (٢) و « ايته » (٣) و « بلوشيه »
اسم الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » ، ولكن وردت في كتاب كشف
الظنون زيادة في الاسم هى عبارة (لأرباب القلوب) ، فصار الاسم
الكامل لكتاب « كشف المحجوب لأرباب القلوب » (٤) .

ويعتقد زوكوفسكى أن حاجى خليفه مؤلف كشف الظنون ربما التبس
عليه الأمر ، بل انه يظن أن حاجى خليفة لم ير متن كتاب كشف المحجوب
أصلا ، لأن من عادته عندما يؤرخ للكتب التى يثبتها فى كتابه ، والتى رآها
رأى العين ، أن ينقل بداية النسخة ونهايتها ، ولكنه لم يفعل هذا مع كشف
المحجوب ، ويبدو أنه نقل العنوان المذكور عن كتب أخرى (٥) .

وقد ذكر « محمد بارسا » فى كتابه « فصل الخطاب لوصل الأحباب »
أن كشف المحجوب عنوان مختصر لكتاب الهجويرى ، وأن الاسم الكامل
له هو : « كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب » (٦) .

وكذلك أضاف يعقوب بن عثمان بن محمد الجرخى فى رسالته المسماة
« رسالة ابدالية » عبارة (لأرباب القلوب) الى عنوان الكتاب . ويقول
زوكوفسكى انه من المحتمل أن يكون مرجع حاجى خليفة أحد هذين
الكتابين (٧) .

(١) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٢) « Rieu » : Cat, Vol. I.

(٣) « Ethé » : Cat, Vol. I.

(٤) « كشف الظنون » ج ٢ عمود ١٤٩٤ ، « نقل البغدادى الاسم على هذا النحو فى
هدية العارفين » أنظر ج ١ عمود ٦٩١ .

(٥) « كشف المحجوب » : أنظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ .

(٦) « السابق » : أنظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٢ ، (ذكر محمد عباسى
أن كلمة (سر) أضيفت الى عنوان كشف المحجوب فى الفهرست المثبت فى أول كتاب « فصل
الخطاب » فأصبح عنوان الكتاب : « كشف سر المحجوب لأرباب القلوب » : أنظر حاشية
ص ٥٢ من مقدمة زوكوفسكى) .

(٧) « كشف المحجوب » أنظر مقدمة زوكوفسكى ص ٥٣ .

والواقع أننا نرجح مع زوكوفسكى أن الاسم الاصلى للكتاب هو « كشف المحجوب » فقط ، وذلك للأسباب الآتية :
أولا : أن هذا الاسم هو الذى ورد على لسان المؤلف فى النسخ التى أمكننا الاطلاع عليها .

ثانيا : أثبت كتاب الفهارس الكتاب تحت اسم « كشف المحجوب » وهو الاسم الذى ورد فى متون جميع المخطوطات التى اطلعوا عليها وأثبتوها فى فهارسهم .

ثالثا : اعتمد زوكوفسكى فى طبعته لكتاب كشف المحجوب على خمس مخطوطات جعل احداها متنا ، ورجع الى الأربع الأخرى لتصحيح المتن ، وهو يؤكد أن هذا الاسم هو الذى ورد فى جميع النسخ التى اعتمد عليها ، ومن غير المحتمل أن تكون بقية الاسم — اذا صح أن هناك بقية — قد سقطت من هذه النسخ جميعها .

رابعا : جاء هذا الاسم دون زيادة فى « نفحات الانس » ، وقد اعتمد الجامى على كشف المحجوب اعتمادا كبيرا ، ونقل عنه نص عبارته فى كثير من الموضوعات والتراجم ، ومن المستبعد أن يكون مخطئا فى اسم الكتاب .

خامسا : أكبر الظن أن بعض الذين أضافوا الى اسم كشف المحجوب عبارة (لأرباب القلوب) قد تواردت فى أذهانهم بعض المعانى التى ردها الهجویری فى مقدمة الكتاب ، فهو يقول ان كتابه كشف للحجاب ، ويعرف الحجاب بأن هناك نوعين من الحجاب : أحدهما الحجاب « الرينى » الذى أشار اليه الله تعالى فى قوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون(١) » وهذا الحجاب لا يرتفع أبدا ، والثانى : الحجاب « الغينى » ويجوز أن يرتفع فى بعض الأحيان . ثم يذكر أنه وضع كتابه ليصقل القلوب الأسيرة فى الحجاب الغينى والتى يكمن فيها نور الحق حتى أنها ببركة قراءته يرتفع عنها الحجاب ، وتجد الطريق الى الحقيقة(٢) ، ومن هنا أضافوا عبارة (لأرباب القلوب) الى اسم الكتاب ، ثم نقلها عنهم غيرهم .

موضوع الكتاب :

موضوع كتاب « كشف المحجوب » جاء اجابة على السؤال الذى وجهه الى الهجویری أحد مواطنيه ، ويدعى « أبو سعيد الهجویری » ، وسأله فيه أن يبين له أصول الطريقة ومقامات الصوفية وأقوالهم ومعاملاتهم :

(١) سورة « المطففين » آية ١٤ .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٥ - ٦ .

يقول الهجویری :

« قال السائل وهو أبو سعيد الهجویری : بیان کن مرا أندر تحقیق
طریقت تصوف وکیفیت مقامات ایشان ، و بیان مذاهب ومقالات ایشان .
واظهار کن مرا رموز واشارات ایشان وجکونکی محبت خداوند عز وجل ،
وکیفیت اظهار آن برد لها ، وسبب حجاب عقول ازکته وماهیت آن ، ونفرت
نفس ازحقیقت آن ، وآرام روح باصفوت آن وآنجه بدین تعلق دارد
از معاملات آن » (۱) .

وترجمته :

قال السائل وهو أبو سعيد الهجویری : بین لی علی التحقیق طریقة
التصوف ، وکیفیه مقامات الصوفیه ومذاهبهم وأقوالهم ، وأظهر لی رموزهم
واشاراتهم ، وکیف تكون محبتهم لله عز وجل ، وکیفیه اظهارها علی القلوب
وما السبب فی حجاب العقوب عن کنها وماهیتها ، ونفرة النفس من
حقیقتها ، وسکینه الروح الی صفوتها ، وما یعلق بهذا من المعاملات .

وقبل الاجابة علی هذا السؤال ، یرسم الهجویری صورة قاتمة لعلم
التصوف فی أيامه فیقول ما معناه :

« أعلم أن هذا العلم قد اندرس فی الحقیقة فی زماننا هذا ، وبخاصة فی
هذه الدیار حیث انشغل الخلق جمیعا بأهوائهم ، وأعرضوا عن طریق
الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعیاء هذا الوقت صورة لهذه الطریقة
علی خلاف أصلها . فاستحضر همک لأمر قصرت عنه أیدی أهل هذا الزمان
وأسرارهم باستثناء خواص حضره الحق ، وانقطع عنه مراد أهل الارادة ،
وانعزلت عن وجوه معرفة أهل المعرفة غیر خواص حضرة الحق » (۲) .
ویمضی الهجویری فی هذا الی أن ینتقل الی موضوع الكتاب ، ویبدأ بشرح
المنهج الذی سیسیر علیه ، فیقول ما ترجمته :

« والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضح مقصودک فی المقامات والحجب ،
وأبسطها بیان لطیف ، وأشرح عبارات أهل الصنائع ، والحق بذلك قدرا
من أقوال الشیوخ ، وأمدّه بغير الحکایات حتی یتحقق مرادک ، ویعلم من
ینظر فی هذا العلم من علماء الظاهر و غیرهم أن لطریق التصوف أصلا قویا ،
وفرعا مثمرا » (۳) .

(۱) « کشف المحجوب » ص ۷ .

(۲) « السابق » ص ۷ .

(۳) « السابق » ص ۱۰ .

ويتضح من العبارة السابقة أن الهجویری أخذ على نفسه أن يقدم للسائل منهجا كاملا لعلم التصوف : أصوله وفروعه وآدابه ومعاملاته ، ليثبت لعلماء الظاهر وغيرهم ممن ينكرون هذا العلم ويتهمون الصوفية بالجهل أن لعلم التصوف أصولا ثابتة تقوم على أسس علمية سليمة ، الى جانب استنادها الى الناحية الروحية .

وقد بدأ الهجویری كتابه باثبات فضيلة العلم ، ثم تكلم في الفقر والتصوف ولبس المرقعة ، والملازمة ، وتراجم الشيوخ ، والفرق الصوفية ، والعقائد والعبادات ، والآداب والرموز والمعاملات .

وموضوع الكتاب على هذه الصورة متكامل وواف بالغرض الذي ألف من أجله ..

ويمكن أن نقسم الكتاب من الناحية الموضوعية الى الأقسام الآتية :

أولا : أبواب تتناول الأصول الصوفية ، وهى :

باب الفقر .

باب التصوف .

باب اختلافهم في الفقر والصفوة .

ثانيا : أبواب تعالج المسائل الفرعية ، وهى :

باب لبس المرقعة .

باب بيان الملازمة .

ثالثا : قسم خاص بتراجم الشيوخ .

رابعا : قسم خاص بالفرق الصوفية .

خامسا : قسم خاص بالعقائد الدينية ، ويتحدث في :

معرفة الله تعالى — التوحيد — الايمان .

سادسا : قسم خاص بالعبادات ويتكلم في :

الطهارة — الصلاة — الزكاة — الصوم — الحج .

سابعا : أقسام تتحدث في : آداب الصوفية ورموزهم ورسومهم .

ولنا ملاحظة صغيرة فيما يختص بالتسلسل المنطقى لأبواب الكتاب وترابطها من الناحية الموضوعية ، فالدارس للكتاب يفتقد عنصر الترابط بين بعض الأبواب من الناحية الموضوعية .

مثال ذلك : الأبواب من الثانى الى السادس ، والتي جاءت على هذا النحو :

٢ — باب الفقر ، ٣ — باب التصوف ، ٤ — باب لبس المرقعة

٥ — باب اختلافهم فى الفقر والصفوة ، ٦ — باب بيان الملامة .

فلو أن الوضع تغير بالنسبة للبابين الرابع والخامس وتقدم باب الاختلاف فى الفقر والصفوة لكان هناك ترابط تام بينه وبين البابين الثانى والثالث من الناحية الموضوعية .

وكذلك الحال بالنسبة للقسم الرابع والعشرين الخاص بالرموز والمصطلحات الصوفية ، فلو أنه جاء بعد الباب الرابع عشر الخاص بالفرق الصوفية لكان بينهما تناسق كبير من ناحية الموضوع ، إذ أن جزءا كبيرا من الرموز شرح خلال الحديث عن الفرق .

تاريخ تأليفه :

تاريخ تأليف كشف المحجوب غير معروف على وجه التحديد ، فالهجویری لم يذكر فى الكتاب التاريخ الذى بدأ تأليفه فيه ، أو التاريخ الذى أنهى فيه هذا العمل . ومن الملاحظ أنه ابتعد دائما عن ذكر أى تاريخ مهما كانت أهميته ، وذلك على العكس مما فعله معاصرة القشیری ، فقد ذكر القشیری اسمه فى مقدمة الرسالة ، ونص على التاريخ الذى ألفها فيه (١) .

وعلى الرغم من أن الهجویری اطلع على الرسالة ، واقتفى أثر القشیری فى بعض الأمور ونقل عنه كثيرا ، كما هو واضح من كشف المحجوب ، وما نلاحظه أيضا من التشابه الكبير بين مقدمتى الرسالة وكشف المحجوب ، فإنه يبدو أن هذه المسألة لم تستلفت نظره ، ولم يرها جديرة ببعض الاهتمام الذى أولاه لذكر اسمه ، فقد كان حريصا على إثباته فى مقدمة كشف المحجوب وكرر ذلك كثيرا فى ثناياه ، ولم يهتم بالإشارة الى تاريخ تأليفه .

والرأى السائد الذى تردد بالنسبة لكتاب كشف المحجوب والفترة التى ألف فيها ، يتلخص فى ثلاث نقاط :

الأولى : أن الكتاب آخر مؤلفات الهجویری .

(١) « الرسالة » أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشیری : تحقيق عبد الحليم محمود : القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م (انظر مقدمة المؤلف ص ١٨) .

الثانية : أن الهجویری ألفه فی الفترة الأخيرة من حياته وخلال اقامته فی مدينة لاهور ..

الثالثة : أن الكتاب مؤلف حوالی منتصف القرن الخامس الهجری ، أو الربع الثالث من القرن الخامس الهجری ، وربما فی الربع الأخير من القرن الخامس ..

وبالنسبة للنقطة الأولى ، وهی أن كشف المحجوب آخر مؤلفات الهجویری (١) ، فقد أصبحت هذه المسألة موضع شك بعد أن عرف أن هناك مؤلفات تنسب الیه ، لم یرد ذكرها فی كشف المحجوب ضمن مؤلفات الهجویری السابقة علی كشف المحجوب ، مما یرجح أنها الفت بعده (٢) .

وبالنسبة للنقطة الثانية ، فهناك أمران :

الأول : أن الكتاب ألف فی الهند خلال الفترة التي قضاها الهجویری أسیرا فی مدينة لاهور . وقد أشار الهجویری نفسه الی هذا فی موضع من الكتاب ، واعتذر بأنه لیس لديه معلومات أكثر لأنه كان قد ترك كتبه فی غزنه (٣) ..

والثاني : ويدور حول الاجابة علی هذا السؤال :

هل كتب الهجویری كتابه كله فی الهند خلال الفترة المشار الیه ، أم أنه كتب جزءا منه فقط ؟

وفی الاجابة علی هذا السؤال یوجد رأیان :

أولهما : رأى من اعتمدوا فقط علی اشارة الهجویری ، السابقة ، فأخذوها قضية مسلمة ، وقطعوا بأن الكتاب كله قد ألف فی الهند (٤) ..

وثانيهما : رأى من ترددوا فی قبول هذا الأمر ، ورجحوا أن فصولا من الكتاب فقط هی التي كتبت فی لاهور (٥) . وفسر بعضهم اشارته الی الكتب والمواد التي لم تكن فی متناول يده بأنها مجموعة الأحاديث المنقولة التي جمعها شیخة الختلی (٦) ..

(١) «Zhukovsky's Introduction» ، « تصوف » ص ٣٢ ، « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ .

(٢) (انظر : مؤلفات الهجویری) ص ٧٩ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٤) « هلال » شمارة سوم اردیبهشت ١٣٣٢ (مقال بقلم غلام سرور) ، « نیکولسون » مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب .

(٥) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٣ (مقال بقلم مطیع الامام) .

(٦) «Zhukovsky's Introduction»

والواقع أننا نميل الى الاتفاق مع أصحاب الراى الثانى وذلك للأسباب الآتية :

١ — فيما يتعلق بتصريح الهجويرى أنه كان يؤلف كتابه فى الهند فى الوقت الذى كانت فيه كتبه فى غزنه ، فمن الواضح أنه كان يشير الى مجموعة الروايات التى جمعها شيخه الختلى — والتى نص عليها فى هذا الموضع — اذ مما لا يرقى اليه شك أنه كان فى متناول يده وهو يكتب أجزاء كثيرة من كتابه مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسمياها ، وكثيرا ما ينقل أمثالا وقصصا بحرفيتها ، ويورد استشهادات مقتطفة يصعب على الانسان أن يحفظها عن ظهر قلب . ونظرة فى الفصل الخامس (١) من هذا الباب كافية لاثبات ذلك .

٢ — يتضح من المادة التى وردت فى كشف المحجوب أنه بالرغم من أن كثيرا من المعلومات التى ضمنها المؤلف كتابه قد أمكن له جمعها خلال فترة تجوله التى سبقت وقوعه فى الأسر ، الا أنه توجد معلومات أخرى ترجع الى ما بعد هذه الفترة ، مما يوضح أن بعض أجزاء من الكتاب كتبت بعدها ، مثال ذلك قصة زيارة الهجويرى لقبر أبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (٢) .

٣ — هناك دليل آخر ملموس مرتبط بالدليل السابق ، وهو أنه اذا صح أن فترة الأسر المشار اليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور عام ٤٣٥ هـ ، وأن الهجويرى كان يمارس فى هذه الفترة كتابة مؤلفه ، على نحو ما صرح به فى ترجمته لحبيب الراعى (٣) ، فقد ذكر فى ترجمته لمعروف الكرخى أنه اقتفى أثر « السلمى » و « القشيرى » فى اختيار الموضع الذى ترجم له فيه (٤) ، وفى هذا اشارة الى أنه اطلع على رسالة القشيرى قبل أن يكتب هذا الجزء . ومن المعروف أن الرسالة ألفت عام ٤٣٧ هـ ، فلا بد إذن أن الهجويرى اطلع عليها بعد هذا التاريخ .

وخلاصة رأينا ، بالنسبة لهذه النقطة ، أنه يبدو أن الهجويرى بدأ كتابة أجزاء من كتابه خلال فترة الأسر ، أى حوالى سنة ٤٣٥ هـ ، بعد أن تهيأت له مادة مناسبة لأن يبدأ الكتابة . وبعد اطلاق سراحه رجع الى غزنه وخراسان ، حيث استعاد كتبه ومراجعته ، وجمع كمية أخرى من المعلومات

(١) « انظر : مظاهر التأثير والتأثر » .

(٢) « كشف المحجوب » ص ٣٠١ .

(٣) « السابق » ص ١١٠ .

(٤) « السابق » ص ١٤١ .

ضمها الى ما لديه ، وبذلك أتيحت له الفرصة أن يكمل الكتاب . وربما أتم هذا العمل في غزنة أو خراسان ، وليس هناك ما يمنع أيضا من أن يكون قد أتمه في الهند عندما رجع اليها في المرة الثانية ليقيم نهائيا بمدينة لاهور . .

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، التي تتعلق بتاريخ تأليف الكتاب ، فهناك فترات ثلاث يشار اليها على أن الكتاب قد ألف في احداها :

الأولى : حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى (١) .

والثانية : النصف الثانى من القرن الخامس ، أو بعبارة أخرى : الربع الثالث من القرن الخامس الهجرى (٢) .

والثالثة : ما بين سنة ٤٨١ وسنة ٥٠٠ هـ (٣) .

وقد اعتمد من رجحوا الفترة الأولى على ما هو واضح في ترجمة الهجویری لشيخه أبى القاسم الجرجانى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، من أنه كان حيا عند تأليف كشف المحجوب . .

وأسند من رجحوا الفترة الثانية الى أنه في الجزء الأخير من كشف المحجوب ، يضاف الى اسم أبى القاسم القشیری المتوفى سنة ٤٦٥ هـ ، عبارة (رحمه الله) مما يدل على أن هذا الجزء كتب بعد وفاة القشیری (٤) .

أما الفترة الأخيرة فقد أشير اليها في مقال كتبه « يحيى حبيبي » وقول بكثير من المعارضة ، وان وجد من يميل الى تصديقه (٥) .

ونناقش الآن احتمالات هذه الفترات أو التواريخ الثلاثة :

أولا : فيما يتعلق بالتاريخ الأول فان الفترة المذكورة ، اذا اخذت بمعناها الواسع ، لا تبعد عن الحقيقة . والدليل الذى نستند اليه هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه من رجحوا هذه الفترة — من أن الكتاب ألف في حياة أبى القاسم الجرجانى — وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجویری (٦) .

(١) «Zhukovsky's Introduction»

(٢) « بزم شوق » نوفمبر ١٩٦٣ ص ١٦ (مقال بقلم غلام سرور) .

(٣) Oriental College Magazine (Volume 36 pp. 27 - 43) by:

Mr. Yahya Hobibi.

(٤) Rieu Cat: Vol. I, Ethé Cat: Vol. I.

(٥) «THE LIFE AND TECHINGS», p. 25.

(٦) انظر : ص

ثانيا : بالنسبة للتاريخ الثانى ، غفى رأينا أن الفترة المحددة تبعد عن الصواب . والدليل الذى نستند اليه فى رفض تلك الفترة هو نفس الدليل الذى اعتمد عليه البعض فى ترجيحها — وهو أن اسم القشيرى يعقبه أحيانا عبارة رحمه الله — وقد فسر ذلك أيضا عند مناقشتنا لتاريخ وفاة الهجویری (١) .

ثالثا : فيما يتعلق بالتاريخ الأخير — وهو الفترة ما بين ٤٨١ ، ٥٠٠ هـ — فربما كانت الفترة المحددة أبعد التواريخ الثلاثة عن الصواب بعد أن عرفنا أن الهجویری نفسه قد توفى حوالى سنة ٤٦٥ هـ .

أما عن الفترة التى نرجحها لتأليف الكتاب وتاريخ الانتهاء منه ، فقد بات واضحا أن الهجویری بدأ تأليف كتابه حوالى سنة ٤٣٥ هـ وهى السنة التى وقع فيها أسيرا فى مدينة لاهور ، على نحو ما صرح به الهجویری نفسه فى الكتاب (٢) ، وما أثبتناه من أن فترة الأسر المشار إليها كانت أثناء فتنة الراجات التى وقعت فى لاهور سنة ٤٣٥ هـ (٣) .

أما عن تاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب ، فيبدو أن الهجویری أتمه فيما بين سنتى ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ . ونستند فى ذلك الى الأمور التالية :

١ — من المستبعد أن يكون الهجویری قد أنهى كتابه قبل سنة ٤٤٠ هـ ، وهى السنة التى توفى فيها أبو سعيد بن أبى الخير ، لأنه ذكر فى الكتاب أنه زار قبر أبى سعيد (٤) .

٢ — وردت فى كشف المحجوب اشارتان فى الباب الثالث عشر — وهو الباب الذى ذكر فيه الهجویری رجال الصوفية المتأخرين مرتبة على حسب بلدانهم وقال فى مقدمته انه سيذكر فى هذا الباب أسماء الذين كانوا أحياء على عهده — وأولى هاتين الاشارتين أشير بها الى « خواجه على بن الحسين السيركانى » ، ونصها :

« أما ازاهل كرمان خواجه على بن الحسين السيركانى ، سياح وقت بود ، وأسفار نيكوداشت ، ويسرش حكيم مردى عزيز است » (٥) .

(١) انظر : ص

(٢) « كشف المحجوب » ص ١١٠ .

(٣) انظر : ص

(٤) « كشف المحجوب » ص ٣٠١

(٥) « السابق » ص ٢١٥ .

وترجمتها :

« أما من أهل كرمان : السيد على بن الحسين السيركانى ، وكان سياح الوقت ، وذا أسفار طيبة . وابنه حكيم رجل عزيز » .

وواضح من هذه الاشارة أن خواجه على لم يكن على قيد الحياة عند كتابتها ، فقد استعمل الهجويرى فى الحديث عنه الفعل الماضى (بود«ا») ، بينما استعمل فى الحديث عن ابنه الرابطة (است) (ب) ، وهذا يبين أن خواجه على وان كان حيا على عهد الهجويرى ، الا أنه كان قد توفى عند كتابة هذه النبذة ، بينما كان ابنه لا يزال على قيد الحياة . وتاريخ وفاة الأب، محدد بعام ٤٤١ هـ (١) ، وتوفى الابن عام ٤٧٠ هـ (٢) ..

والاشارة الثانية أشير بها الى أبى جعفر « محمد بن الحسين الحرمى » ، ونصها :

« أما ازاهل ما وراء النهر : خواجه أمام مقبول خاص وعام أبوجعفر محمد بن الحسين الحرمى ، مردى مستمع وكرفتارست ، وهمتى على دارد وروزكارى صافى ، وشفقتى تمام بر طالبان دركاه حق » (٣) .

وترجمتها :

« أما من أهل ما وراء النهر : « خواجه » الامام ، مقبول الخاص والعام ، أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمى ، وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق » .

ويتضح من هذه الاشارة أن محمد بن الحسين الحرمى كان على قيد الحياة عند كتابتها ، فالهجويرى يستعمل فى هذه النبذة الرابطة (است) والفعل المضارع (دارد) (ج) . وقد توفى محمد بن الحسين الحرمى عام ٤٤٢ هـ (٤) ..

(١) ذكر « نفيسى » أن خواجه على بن حسن (حسين) الكرمانى السيركانى كان من شيوخ الصوفية فى كرمان ، ومن مريدى الشيخ « عمو » وتوفى سنة ٤٤١ هـ (انظر : شد الازار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٢) « هدية العارفين » ج ١ عمود ٦٩٢ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٥ .

(٤) « الكامل » حوادث سنة ٤٤٢ ، « صفوة الصفوة » ج ٢ ص ٢٧٥ .

(أ) « بود » = كان . (ب) « است » = يكون ، كائن . (ج) « دارد » = يملك .

ويمكن أن نستخلص من هاتين الاشارتين أنه من المرجح أن يكون الهجویری قد أنهى كتابه فيما بین عامی ٤٤١ ، ٤٤٢ هـ ، أى بعد وفاة خواجه على بن الحسین السیرکانی عام ٤٤١ هـ ، وقبل وفاة محمد بن الحسین الحرمی عام ٤٤٢ هـ .

وبناء على ما تقدم يكون الهجویری قد بدأ تألیف كتاب كشف المحجوب حوالی عام ٤٣٥ هـ . وأتمه حوالی عام ٤٤٢ هـ . وهذه الفترة التي نرجحها لا تتعارض مع ما ذكر من أن الهجویری كتب مؤلفه حوالی منتصف القرن الخامس الهجری ، وأثناء حياة أبی القاسم الجرجانی المتوفی سنة ٤٥٠ هـ .

* * *

الفصل الثاني أقسام الكتاب

(تقسيم آيته ، تقسيم من وجهة نظرنا ، التعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها)

١ - أقسام الكتاب من الناحية الشكلية :

تقسيم آيته : تعرض « آيته » في فهرسه لذكر خمس نسخ من كشف المحجوب ، أثبتها تحت أرقام : ١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ، وذكر أن الكتاب ينقسم طبقا لجميع النسخ الى أربعين بابا (١) بينما نسختا « غينا » ، و « بودلين » تتكون كل منهما من أربعة وستين بابا (٢) تتضمن عدة فصول . وفيما يلي قائمة بأقسام الكتاب كما أثبتها « آيته » طبقا للنسخة تحت رقم ١٧٧٣ :

- ١ - باب اثبات العلم .
- ٢ - باب الفقر .
- ٣ - باب التصوف .
- ٤ - باب لبس المرقعة .
- ٥ - باب اختلافهم في الفقر والتصوف .
- ٦ - باب في الملامة .
- ٧ - باب في ذكر أئمتهم من الصحابة .
- ٨ - باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت .
- ٩ - باب في ذكر أئمتهم من أهل (أصحاب) الصفة .
- ١٠ - باب في ذكر أئمتهم من التابعين .

(١) ورد هذا أيضا في : « تاريخ أدبيات فارسي » هرمان آيته : ترجمة رضا زاده شفق ، طهران ١٣٣٧ - ١٩٥٨ م (انظر ص ٢٩٤) .

(٢) «Ethé» Cat. Vol. I.

- ١١ — باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين .
- ١٢ — باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين .
- ١٣ — باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
- ١٤ — باب فى فرق فرقهم ومذاهبهم .
- (ويقول أيته : وفى نهاية هذه القائمة توجد أربعة كشوف) :
- كشف الحجاب الأول فى معرفة الله .
- كشف الحجاب الثانى فى التوحيد .
- كشف الحجاب الثالث فى الايمان .
- كشف الحجاب الرابع فى الطهارة .
- ١٥ — باب التوبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب الخامس فى الصلاة .
- ١٦ — باب المحبة وما يتعلق بها .
- كشف الحجاب السادس فى الزكاة .
- ١٧ — باب الجود والسخاء .
- كشف الحجاب السابع فى الصيام .
- ١٨ — باب الجوع وما يتعلق به .
- كشف الحجاب الثامن فى الحج .
- ١٩ — باب المجاهدة .
- كشف الحجاب التاسع فى الصحبة وآدابها .
- ٢٠ — باب الصحبة وما يتعلق بها .
- ٢١ — باب آدابهم فى الصحبة .
- ٢٢ — باب فى آداب الصحبة فى الإقامة .
- ٢٣ — باب فى آدابهم فى السفر .
- ٢٤ — باب فى آدابهم فى الأكل .
- ٢٥ — باب فى آدابهم فى المشى .
- ٢٦ — باب فى نومهم فى السفر والحضر .
- ٢٧ — باب فى آدابهم فى الكلام والسكوت .
- ٢٨ — باب فى آدابهم فى السؤال وتركه .

- ٢٩ — باب في آدابهم في التزويج والتجريد .
- ٣٠ — كشف الحجاب العاشر في بيان الفاظهم وحقائق معانيها .
- كشف الحجاب الحادى عشر في السماع .
- ٣١ — باب في السماع وما يتعلق به .
- ٣٢ — باب في سماع الشعر .
- ٣٣ — باب في سماع الأصوات والألحان .
- ٣٤ — باب في كلام السماع .
- ٣٥ — باب في اختلافهم في السماع .
- ٣٦ — باب في مراتبهم في حقيقة السماع .
- ٣٧ — باب في الوجد والوجود والتواجد ومراتبه .
- ٣٨ — باب في الرقص وما يتعلق به .
- ٣٩ — باب في الخرق .
- ٤٠ — باب في آداب السماع .

ونلاحظ على هذا التقسيم الذى أورده « ايته » أمرين :

الأول : يبدو أن الرقم (٤٠) الذى أشار به الى عدد أبواب الكتاب قد حصل عليه بعد أن أحصى كلمة (باب) التى عنون بها المؤلف لمجموعة من الأمور والمسائل التى ذكرها أو ناقشها فى كتابه ، كأن يقول مثلا : باب اثبات العلم ، باب الفقر ، باب الجوع وهكذا .

وهنا نلاحظ أن الرقم الصحيح هو (٣٩) لا (٤٠) .

والثانى : لم يعط « ايته » رقما لأقسام الكتاب التى عنون لها المؤلف بكلمة (كشف الحجاب) باستثناء الحجاب العاشر الذى أعطاه رقم (٣٠) كما لو كان بابا من الأبواب التى ذكرها المؤلف ، وبذلك حصل على الرقم (٤٠) الذى ذكر أنه مجموع عدد الأبواب التى ينقسم اليها الكتاب طبقا لهذه النسخة .

تقسيم من وجهة نظرنا :

الواقع أننا اذا أردنا أن نحدد أقسام الكتاب تحديدا أكثر دقة وتناسقا نجد أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما يمكن تقسيمها الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : وتشمل أربعة عشر قسما أطلق على كل منها اسم (باب) ، وبعض هذه الأبواب يشتمل على فصول .

المجموعة الثانية : وتشمل أحد عشر قسما أطلق على كل منها اسم (كشف الحجاب) ، وبعض هذه الأقسام يشتمل على أبواب وفصول .

وفيما يلي قائمة بأقسام الكتاب كما نراها من وجهة نظرنا :

مقدمة المؤلف : وتشتمل على ثمانية فصول قصيرة .

أقسام الكتاب :

المجموعة الأولى :

- ١ — باب اثبات العلم : ويشتمل على أربعة فصول .
- ٢ — باب الفقر : ويشتمل على فصلين .
- ٣ — باب التصوف : ويشتمل على فصلين .
- ٤ — باب لبس المرقعة : ويشتمل على فصلين .
- ٥ — باب اختلافهم في الفقر والصفوة .
- ٦ — باب بيان الملامة : ويشتمل على فصلين .
- ٧ — باب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين .
- ٨ — باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت .
- ٩ — باب في ذكر أهل الصفة .
- ١٠ — باب في ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار .
- ١١ — باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا . (أى الى عهد المؤلف) .
- ١٢ — باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين .
- ١٣ — باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان .
- ١٤ — باب في فرق فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم .

المجموعة الثانية :

- ١٥ — كشف الحجاب الأول في معرفة الله تعالى : ويشتمل على فصلين .
- ١٦ — كشف الحجاب الثانى في التوحيد : ويشتمل على فصل .

- ١٧ — كشف الحجاب الثالث في الايمان : ويشتمل على فصل .
- ١٨ — كشف الحجاب الرابع في الطهارة : ويشتمل على باب وفصلين .
- ١٩ — كشف الحجاب الخامس في الصلاة : ويشتمل على باب وأربعة فصول .
- ٢٠ — كشف الحجاب السادس في الزكاة : ويشتمل على فصل وباب .
- ٢١ — كشف الحجاب السابع في الصوم : ويشتمل على باب .
- ٢٢ — كشف الحجاب الثامن في الحج : ويشتمل على باب .
- ٢٣ — كشف الحجاب التاسع في الصحبة مع آدابها وأحكامها : ويشتمل على عشرة أبواب .
- ٢٤ — كشف الحجاب العاشر في بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم .
- ٢٥ — كشف الحجاب الحادى عشر في السماع : ويشتمل على عشرة أبواب .

٢ — تعريف بأقسام الكتاب وموضوعاتها :

ذكرنا أن المؤلف قسم كتابه الى مقدمة وخمسة وعشرين قسما ونعرف في اختصار بهذه الأقسام ونبين الموضوعات التى يشتمل عليها كل قسم منها :

مقدمة الكتاب (١)

قدم المؤلف لكتابه بمقدمة طويلة نوعا استغرقت حوالى عشر صفحات . استهلها باسم الله والحمد له ، والصلاة والسلام على رسوله ، وأثبت فيها اسمه واسم الكتاب ، ثم عقد ثمانية فصول قصيرة :

الفصل الأول : تحدث فيه عن السبب الذى من أجله أثبت اسمه فى بداية الكتاب .

الفصل الثانى : ذكر فيه أنه سلك طريق الاستخارة ، وبين فضائل ذلك .

الفصل الثالث : فى أنه محا عن قلبه الأغراض النفسية قبل أن يبدأ العمل .

(١) « كشف المحجوب » ص ١ — ١١ . (ملاحظة : هذا التقسيم وأرقام الصفحات وفقا للطبعة الحديثة لكشف المحجوب طهران ١٣٣٦ هـ . ش ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث) .

الفصل الرابع : فى « النية » عملا بقول الرسول عليه السلام : « نية المؤمن خير من عمله » .

الفصل الخامس : شرح فيه الغرض من تسمية الكتاب باسم « كشف المحجوب » .

الفصل السادس : صرح فيه بأنه عرف مقصود السائل وأنه يجد فى نفسه القدرة على اجابته على سؤاله اجابة مفصلة .

الفصل السابع : فى طلب التوفيق والعون من الله على اتمام مهمته .

الفصل الثامن : تحدث فيه عن أن هذا العالم موضع لأسرار الله وأن الجواهر والأعراض والطبائع إنما هى حجاب لتلك الأسرار ، وأن الانسان محجوب بوجوده عن الأسرار الربانية ، وقد أصبح هذا الحجاب مزاجا له ، فلا جرم أن اكتفى بالجهل واشترى بالروح حجابيه عن الحق لأنه يجهل جمال الكشف .

واستطرد من هذا الى أن جميع المشايخ حثوا المريدين على تعلم العلم والمداومة عليه فمهد بذلك للباب الأول من الكتاب .

أقسام الكتاب

القسم الأول :

« باب اثبات العلم » (ص ١١ — ٢١) .

ويقع فى حوالى احدى عشرة صفحة ، ويشتمل على أربعة فصول .

موضوعه :

(١) تحدث المؤلف فى هذا الباب عن ضرورة العلم ، وذكر أن تعلم جميع العلوم ليس فريضة على كل الناس ، الا بالقدر الذى يتعلق بالشرعية ، وأنه ينبغى أن يكون العلم مقرونا بالعمل .

ثم قسم العلم الى علمين :

علم الله تعالى ، وعلم الخلق .

(ب) الفصل الأول : علم الله .

(ج) الفصل الثانى : علم الخلق .

(د) الفصل الثالث : عن السفسطائيين الذين ينكرون العلم ، والملاحدة من الصوفية الذين يقولون بترك العلم .

(هـ) الفصل الرابع : ذكر فيه طائفة من أقوال المشايخ فى العلم .

القسم الثانى :

باب الفقر (ص ٢١ — ٣٤) .

ويقع فى حوالى اثنتى عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين .

موضوعه :

(ا) الفقر من الناحية الروحية ، ويتحدث فيه عن درجة الفقر فى الطريق ، وحقيقته ورسمه .

(ب) الفصل الأول : فى اختلاف المشايخ فى الفقر والغنى وأيهما أفضل .

(ج) الفصل الثانى : فى أقوال شيوخ الصوفية فى الفقر وشرح رموزهم .

القسم الثالث :

باب التصوف (من ٣٤ — ٤٩) .

ويقع فى حوالى خمس عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) يتحدث فى هذا الباب عن لفظ (الصوفى) وهل هو مشتق من الصوف أم الصف أم الصفاء ؟ . ويرفض هذه الاشتقاقات جميعها ويرجح أنه اسم من أسماء الأعلام لهذه الطائفة . ويقسم أهل التصوف الى : « صوفى » و « متصوف » و « مستصوف » .

(ب) الفصل الأول : فى أقوال المشايخ فى تعريف الصوفى والتصوف .

(ج) الفصل الثانى : فيها قليل فى المعاملات .

القسم الرابع :

باب لبس المرقعة (ص ٤٩ — ٦٥) .

ويقع فى حوالى ست عشرة صفحة ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(ا) المرقعة شعار للمتصوف ولكن بعض الأدعياء يرتدونها طلبا للجاه ، وهم بذلك يسيئون الى الصوفية الحقيقيين لأن الناس ينسبونها اليهم ويظنونهم على شاكلتهم .

(ب) الفصل الأول : فى شرط المرقعات ، وحياسة المرقعة ، والشروط التى ينبغى توفرها فىمن يلبس المرديد المرقعة .

(ج) الفصل الثانى : فى ترك عادة لبس المرقعة ، والأصل فى تخريق الثياب .

القسم الخامس :

- باب اختلافهم في الفقر والصفوة (٦٥ — ٦٨) .
- ويقع في ثلاث صفحات .

موضوعه :

اختلاف علماء الصوفية في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، والصفوة عند جماعة أتم من الفقر . وهذا الخلاف خلاف في العبادات لأن الأولياء وصلوا الى حيث فنيت الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى .

القسم السادس :

- باب بيان الملامة (ص ٦٨ — ٧٨) .
- ويقع في عشر صفحات ، ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(أ) الملامة وأثرها في خلوص المحبة . وقد خص الحق أحباءه بالملامة غيرة عليهم حتى لا تقع عين الفير على جمال حالهم ، وحتى لا يعجبوا هم بأنفسهم فيقعوا في آفة العجب والتكبر .

(ب) الفصل الأول : الملامة على ثلاثة أوجه :

ملامة استقامة السير .

ملامة القصد .

ملامة الترك .

(ج) الفصل الثاني : في تعريف أبي حمدون القصار للملامة .

القسم السابع :

- بباب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين (ص ٧٨ — ٨٥) .
- ويضم هذا الباب تراجم للخلفاء الأربعة :

١ — أبو بكر الصديق .

٢ — عمر بن الخطاب .

٣ — عثمان بن عفان .

٤ — علي بن أبي طالب .

القسم الثامن :

- باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت (ص ٨٥ — ٩٧) .
- ويشتمل على خمس تراجم :
- ١ — الحسن بن علي .
 - ٢ — الحسين بن علي .
 - ٣ — علي بن الحسين بن علي زين العابدين .
 - ٤ — أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (الباقر) .
 - ٥ — أبو محمد جعفر بن علي بن الحسين (الصادق) .

القسم التاسع :

- باب في ذكر أهل الصفة (ص ٩٧ — ٩٩) .
- عرف المؤلف في هذا الباب بأهل الصفة وذكر مجموعة من أسمائهم .

القسم العاشر :

- باب في ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار (ص ٩٩ — ١٠٧) .
- ترجم في هذا الباب لأربعة أشخاص هم :
- ١ — أويس القرني .
 - ٢ — هرم بن حيان .
 - ٣ — الحسن البصري .
 - ٤ — سعيد بن المسيب .

القسم الحادي عشر :

- باب في ذكر أئمتهم من أتباع التابعين (ص ١٠٧ — ٢٠٢) .
- ويشتمل على أربع وستين ترجمة للأشخاص التالية أسمائهم :
- ١ — حبيب العجمي .
 - ٢ — مالك بن دينار .
 - ٣ — أبو حليم حبيب بن سليم الراعي .
 - ٤ — أبو حازم المدني .
 - ٥ — محمد بن واسع .
 - ٦ — أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز .
 - ٧ — عبد الله بن المبارك المروزي .

- ٨ — أبو على الفضيل بن عياض .
- ٩ — أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى .
- ١٠ — أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور .
- ١١ — بشر بن الحارث الحافى .
- ١٢ — أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى .
- ١٣ — أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى .
- ١٤ — أبو سليمان داود بن نصير الطائى .
- ١٥ — أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى .
- ١٦ — أبو على شقيق بن ابراهيم الأزدي .
- ١٧ — أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني .
- ١٨ — أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى .
- ١٩ — أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم .
- ٢٠ — أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى .
- ٢١ — الامام أحمد بن حنبل .
- ٢٢ — أبو الحسن أحمد بن أبى الحوارى .
- ٢٣ — أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخى .
- ٢٤ — أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى .
- ٢٥ — أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازى .
- ٢٦ — أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى الحداد .
- ٢٧ — أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمار القصار .
- ٢٨ — أبو سرى منصور بن عمار .
- ٢٩ — أبو عبد الله أحمد بن عاصم الانطاكى .
- ٣٠ — أبو محمد عبد الله أحمد بن خبيق الأنطاكى .
- ٣١ — أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي .
- ٣٢ — أبو الحسن أحمد بن محمد النورى .
- ٣٣ — أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى .
- ٣٤ — أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء .
- ٣٥ — أبو محمد رويم بن أحمد .
- ٣٦ — أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى .

- ٣٧ — أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص .
- ٣٨ — أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى .
- ٣٩ — عمرو بن عثمان المكى .
- ٤٠ — أبو محمد سهل بن عبد الله التستري .
- ٤١ — أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخى .
- ٤٢ — أبو عبد الله محمد بن على الترمذى .
- ٤٣ — أبو بكر محمد بن عمر الوراق (الترمذى) .
- ٤٤ — أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز .
- ٤٥ — أبو الحسن على بن محمد الاصفهانى .
- ٤٦ — أبو الحسن محمد بن اسماعيل (خير النساچ) .
- ٤٧ — أبو حمزة الخراسانى .
- ٤٨ — أبو العباس أحمد بن مسروق .
- ٤٩ — أبو عبد الله محمد بن اسماعيل المغربى .
- ٥٠ — أبو على الحسن بن على الجوزجاني .
- ٥١ — أبو محمد أحمد بن الحسين الجريري .
- ٥٢ — أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل الأدمى .
- ٥٣ — أبو المغيث الحسين بن منصور الحلج .
- ٥٤ — أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الخواص .
- ٥٥ — أبو حمزة البغدادي البزاز .
- ٥٦ — أبو بكر محمد بن موسى الواسطى .
- ٥٧ — أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى .
- ٥٨ — أبو محمد جعفر بن محمد بن نصير الخلدى .
- ٥٩ — أبو على محمد بن القاسم الرودبارى .
- ٦٠ — أبو العباس القاسم بن القاسم بن مهدى السيارى .
- ٦١ — أبو عبد الله محمد بن خفيف .
- ٦٢ — أبو عثمان سعيد بن سلام المغربى .
- ٦٣ — أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن محموديه النصر ابادى .
- ٦٤ — أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى .

القسم الثاني عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين (ص ٢٠٢ — ٢١٤) .
« يقول في مقدمة هذا الباب : بعض الذين سأذكرهم في هذا الباب
توفوا وبعضهم أحياء » .

ثم يورد تراجم لعشرة من شيوخ الصوفية هم :

- ١ — أبو العباس أحمد بن محمد القصاب .
- ٢ — أبو علي الحسن بن محمد الدقاق .
- ٣ — أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني .
- ٤ — أبو عبد الله محمد بن علي الداستاني .
- ٥ — أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهني .
- ٦ — أبو الفضل محمد بن الحسن الختلي .
- ٧ — أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري .
- ٨ — أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني .
- ٩ — أبو القاسم علي الجرجاني الطوسي .
- ١٠ — أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان النوقاني .

* * *

القسم الثالث عشر :

باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين من أهل البلدان (ص ٢١٤ — ٢١٨) :
يذكر في هذا الباب أسماء الذين كانوا لا يزالون أحياء على عهده من زهاد
الصوفية ومشايخهم من أرباب المعاني ، ويورد أسماءهم مرتبة على حسب
البلدان :

- ١ — أهل الشام والعراق .
- ٢ — أهل فارس .
- ٣ — أهل قهستان و آذربايجان وطبرستان وقومس .
- ٤ — أهل كرمان .
- ٥ — أهل خراسان .
- ٦ — أهل ما وراء النهر .
- ٧ — أهل غزنين وسكانها .

* * *

القسم الرابع عشر :

باب فى الفرق بين فرقهم ومذاهبهم وآياتهم ومقاماتهم وحكاياتهم

(ص ٢١٨ — ٣٤١)

تناول المؤلف فى هذا الباب الفرق الصوفية ، وقسمها الى اثنتى عشرة فرقة ، وتحدث عن كل فرقة منها ونسبها الى مؤسسها ، وذكر الأسس الرئيسية فى مذهبها ، وبين أن هذه الفرق تتفق فيما بينها فى أصول الشرع وفروعه والتوحيد ، ولكنها تختلف فى بعض الجزئيات : كالمعاملات والمجاهدات والمشاهدات والرياضات ، وفى تفسير بعض المصطلحات حيث يبدو هذا الاختلاف واضحا .

وهذه الفرق هى :

١ — المحاسبية :

وتنسب الى أبى عبد الله الحارس بن أسد المحاسبى ، وأساس مذهبهم يقوم على الرضا .

وقد تكلم المؤلف فى الأمور الآتية :

(أ) الرضا وهل هو من المقامات أم الأحوال .

(ب) فصل : فيما قيل بشأن ذلك .

(ج) الفرق بين المقام والحال .

٢ — القصارية :

وتنسب الى أبى صالح حمدون بن أحمد بن عماره القصار ، وأساس مذهبهم على الملامة .

تحدث المؤلفان فى إيجاز عن الملامة وأحوال القارىء الى الباب السادس من الكتاب حيث تناول هذه المسألة بالتفصيل .

٣ — الطيفورية :

وتنسب الى أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، وأساس مذهبهم يقوم على السكر .

وقد تكلم المؤلف عن السكر والصحو .

٤ — الجنيدية :

وتنسب الى أبى القاسم الجنيد بن محمد ، وأساس مذهبه يقوم على الصحو على عكس الطيفورية .

٥ — النورية :

وتنسب الى أبى الحسن أحمد بن محمد النورى ، وأساس مذهبه يقوم على الايثار .

٦ — السهلية :

وتنسب الى سهل بن عبد الله التستري ، وأساس مذهبه يقوم على الرياضة والمجاهدة . وقد تناول المؤلف المسائل التالية :

- (أ) الكلام فى حقيقة النفس .
- (ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى النفس .
- (ج) الكلام فى مجاهدة النفس .
- (د) الكلام فى حقيقة الهوى .

٧ — الحكيمية :

وتنسب الى أبى عبد الله بن على الحكيم الترمذى ، وأساس مذهبه يقوم على الولاية . وتحدث المؤلف فى :

- (أ) اثبات الولاية .
- (ب) فصل : فى الرد على المعتزلة والحشوبة ممن ينكرون تخصيص الأولياء .
- (ج) فصل : فى رموز المشايخ عن الولاية .
- (د) الكلام فى اثبات الكرامات .
- (هـ) الفرق بين المعجزات والكرامات .
- (و) اظهار جنس المعجزة على يد من يدعى الألوهية .
- (ز) تفضيل الأنبياء على الأولياء .
- (ح) تفضيل الأنبياء والأولياء على الملائكة .

٨ - الخرازية :

وتنسب الى أبى سعيد الخراز ، وأساس مذهبه يقوم على الفناء والبقاء .

(١) الكلام فى الفناء والبقاء .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ ورموزهم فيما يتعلق بالفناء والبقاء .

٩ - الخيفية :

وتنسب الى أبى عبد الله محمد بن خفيف ، وأساس مذهبه يقوم على الغيبة والحضور

١٠ - السيارية :

وتنسب الى أبى العباس السيارى ، وأساس مذهبه يقوم على الجمع والتفرقة .

١١ - الحاولية :

وهم طائفتان :

الأولى : تنسب الى أبى حلمان الدمشقى .

والثانية : تنسب الى فارس .

(١) الكلام فى الروح .

(ب) فصل : فى أقوال المشايخ فى الروح .

القسم الخامس عشر :

كشف الحجاب الأول فى معرفة الله تعالى (ص ٣٤١ - ٣٥٦) .
ويشتمل على فصلين :

موضوعه :

(١) المعرفة نوعان : معرفة علمية ، ومعرفة حالية . وقد سمي العلماء والفقهاء صحة العلم بالله معرفة ، بينما سمي شيوخ الصوفية صحة الحال مع الله معرفة .

(ب) الفصل الأول : المعتزلة يعتقدون أنه يمكن معرفة الحق عن طريق العقل . ويعتقد آخرون أن الاستدلال وسيلة صحيحة لكسب المعرفة .
(ج) الفصل الثاني : في أقوال المشايخ في المعرفة .

القسم السادس عشر :

كشف الحجاب الثاني في التوحيد (ص ٣٥٦ — ٣٦٨)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) حقيقة التوحيد الحكم على وحدانية شيء بصحة العلم بواحدانيته .
ولما كان الله تعالى واحدا لا يقاسمه أحد في ذاته وصفاته ، ولا قسم ولا شريك له في أفعاله ولما كان الموجودون يعرفونه على هذه الصفة ، فإنهم يسمون هذا العلم توحيدا .

والتوحيد على ثلاثة أنواع :

توحيد الحق للحق

توحيد الحق للخلق

توحيد الخلق للحق

(ب) فصل في أقوال المشايخ في التوحيد .

القسم السابع عشر :

كشف الحجاب الثالث في الإيمان (ص ٣٦٨ — ٣٧٤)
ويشتمل على فصل .

موضوعه :

(أ) الإيمان من ناحية اللغة هو التصديق . وقد اختلف الناس في إثبات حكمه ، فالمعتزلة يقولون إن جميع الطاعات العلمية والعملية إيمان ، والإيمان عند غيرهم : المعرفة ، وعند المتكلمين من أهل السنة : التصديق المطلق . أما الصوفية فينقسمون فيه إلى قسمين :

فريق يقول إن الإيمان قول وتصديق وعمل ،

وفريق يقول إنه قول وتصديق .

(ب) فصل : في حقيقة الإيمان .

القسم الثامن عشر :

كشف الحجاب الرابع في الطهارة (ص ٣٧٤ — ٣٨٦)

يشتمل على باب وفصلين .

موضوعه :

- (أ) الطهارة على نوعين : طهارة الظاهر ، وطهارة القلب .
- وطهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالتوبة .
- (ب) باب التوبة وما يتعلق بها : يشترط للتوبة ثلاثة أمور :
الأسف على المخالفة ، ترك الزلة في الحال ، العزم على عدم العودة الى المعصية . والتائبون على ثلاث درجات : التائب ، والمنيب ، والأواب .
- (ج) فصل : في الرجوع عن التوبة .
- (د) فصل : في أقوال المشايخ في التوبة .

القسم التاسع عشر :

كشف الحجاب الخامس في الصلاة (ص ٣٨٦ — ٤٠٤)

ويشتمل على باب وخمسة فصول .

موضوعه :

- (أ) الصلاة في عرف الفقهاء مجموعة من الأحكام الظاهرة ، ولكن الصوفية يربطون بين هذه الأحكام الظاهرة ومعانيها الباطنية ..
- (ب) فصل في رأى الصوفية في الصلاة : فريق يعدون الصلاة وسيلة للحضور ، وفريق يعدونها وسيلة للغيبة . وطائفة من أرباب الأحوال يقولون انها تتم في مقام الجمع ، وفريق يقول انها تتم في مقام التفرقة ..
- ومما يتعلق بالصلاة : المحبة .
- (ج) باب المحبة :
- الفصل الأول : في أنواع المحبة .
- الفصل الثانى : المحبة أساس التصوف .

- الفصل الثالث : رأى المشايخ فى العشق .
- الفصل الرابع : فى أقوال المشايخ فى حقيقة المحبة .

* * *

المقسم العشرون :

- كشف الحجاب السادس فى الزكاة (ص ٤٠٤ — ٤١٣) .

ويشتمل على فصل وباب :

موضوعه :

- (أ) الزكاة فريضة واجبة على تمام النعمة ، ولكل شىء زكاة من جنسه :
فالمال نعمة وله زكاة من جنسه ، والأشياء العينية نعمة ولها زكاة من
جنسها ، والصحة نعمة كبيرة ، ولكل عضو من أعضاء البدن زكاة .
- (ب) فصل : فى رأى شيوخ الصوفية فيمن يعطى الزكاة ومن يأخذها .
- (ج) باب الجود والسخاء .

* * *

المقسم الحادى والعشرون :

- كشف الحجاب السابع فى الصوم (ص ٤١٣ — ٤٢٢) .

ويشتمل على باب .

- (أ) الصوم عبادة سرية بين المخلوق والخالق وجزاؤها لا نهاية له .
- وأقل درجة فى الصوم هى الجوع .
- (ب) باب الجوع .

* * *

المقسم الثانى والعشرون :

- كشف الحجاب الثامن فى الحج (ص ٤٢٢ — ٤٣٢)

ويشتمل على باب .

موضوعه :

- (أ) الحج فريضة على العبد فى حال الصحة والعقل والبلوغ والاسلام
وحصول الاستطاعة .

وليس الغرض من الحج مشاهدة الكعبة ، وإنما كشف المشاهدة ،
وعندما يكون العبد مكاشفاً فإن العالم كله يصبح حرماً له ، وعندما يكون
محجوباً يصبح الحرم بالنسبة له أظلم من أى مكان .

(ب) باب المشاهدة .

القسم الثالث والعشرون :

كشف الحجاب التاسع فى الصلوة وأدابها وأحكامها (ص ٤٧٢ — ٤٧٩)
ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ — باب الصلوة وما يتعلق بها .
- ٢ — باب آدابهم فى الصلوة ، ويشتمل على فصل .
- ٣ — باب آداب الإقامة فى الصلوة .
- ٤ — باب الصلوة فى السفر .
- ٥ — باب آدابهم فى الأكل .
- ٦ — باب آدابهم فى المشى .
- ٧ — باب آدابهم فى السفر والحضر .
- ٨ — باب آدابهم فى الكلام والسكوت .
- ٩ — باب آدابهم فى السؤال وتركه .
- ١٠ — باب آدابهم فى التزويج والتجريد .

القسم الرابع والعشرون :

كشف الحجاب العاشر فى بيان منطقهم وحدود الفاظهم وحقائق معانيهم
(ص ٤٧٩ — ٥٠٨)
موضوعه :

لأهل كل فن ، ولأرباب كل معاملة عبارات يستعملونها بعضهم مع البعض
ولا يعرف معناها سواهم ، وللصوفية أيضاً ألفاظ خاصة ، منها :

الحال والوقت ، والمقام والتمكين ، والمحاضرة والمكاشفة ، والقبض
والبسط ، والأنس والهيبة ، والنقهر واللفظ ، والنفى والإثبات ،

والمسامرة والمحادثة ، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، والعلم
والمعرفة ، والشريعة والحقيقة ، وغير ذلك .

القسم الخامس والعشرون :

كشف الحجاب الحادى عشر فى السماع (ص ٥٠٨ - ٥٤٦)
ويشتمل على عشرة أبواب :

- ١ - باب سماع القرآن .
- ٢ - باب سماع الشعر .
- ٣ - باب سماع الأصوات والألحان .
- ٤ - باب أحكام السماع .
- ٥ - باب اختلافهم فى السماع .
- ٦ - باب مراتبهم فى حقيقة السماع ، ويشتمل على فصل .
- ٧ - باب الوجد والتواجد .
- ٨ - باب الرقص .
- ٩ - باب الخرق .
- ١٠ - باب آداب السماع .

الفصل الثالث مصادر الكتاب

الروايات الشفوية ، الكتب والرسائل المدونة

اعتمد الهجویری فی کتابه علی مصادر متعددة ، واسبتقی مادته من منابع مختلفة ، منها الروايات الشفوية ، ومنها الكتب والرسائل المدونة . وقد بدأ من خلال كشف المحجوب أن الهجویری كان علی علم تام بأعمال أسلافه ، وهو یعدد مصادرہ ویذكرها بالاسم تارة ، ویكتفی بأن یشیر الی أسماء مؤلفيها تارة أخرى .

ويمكن أن نقسم مصادر كشف المحجوب الى قسمين :

أولا : الروايات الشفوية :

لا شك أن الروايات الشفوية كانت المصدر الأول الذي استمد منه الهجویری مادة كتابه ، وقد لاحظنا أنه كثيرا مايردد فی الكتاب عبارات :

- سمعت فلانا یقول كذا ... (١)
- سألت فلانا عن كذا ، فقال (٢)
- كنت عند فلان ، فقال واحد كذا ... (٣)
- جرت لی مناظرة مع واحد ، فقال كذا ... (٤)
- اتفق لی صحبة أحد الأديباء ، فقال كذا ... (٥)
- روی لی فلان عن فلان كذا ... (٦)

(١) « كشف المحجوب » انظر ص ٢٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ .
(٢) السابق « انظر ص ٥٥ .
(٣) السابق « انظر ص ٢١٣ .
(٤) « السابق » انظر ص ٨ ، ١١٥ .
(٥) « السابق » انظر ص ٧٥ .
(٦) « السابق » انظر ص ٢٠٥ .

وقد تكونت حصيلة الهجویری من هذه الروایات بالرحلات التي قام بها (١) ، فقد رحل كثيرا ، وزار أماكن متعددة من العالم الاسلامی ، وأمكنه عن طريق هذه الرحلات الاتصال بكثير من كبار رجال الدين والأئمة والصوفية في عصره ، والممثلين الصادقين والأدعياء للمذاهب والفرق المختلفة ، وتجادل معهم في المسائل التي كان يهتم بها . وجاهد في الوقت نفسه لكي يستطلع آراءهم ويقف على مذاهبهم ، ويقدر مدى قربهم أو بعدهم عن أهل السنة ، ومدى تمسكهم بأحكام الشريعة أو مجافاتهم لها ، وبذلك حصل على معلومات قيمة ومتنوعة استخدمها في حكاياته عن التقى بهم ، وفي أحكامه الصادقة على آرائهم ومذاهبهم ومختلف المسائل التي أوردها في كتابه أو تعرض لمناقشتها .

ثانيا : الكتب والرسائل المدونة :

رجع الهجویری الى كثير من الكتب والرسائل التي كانت معروفة على عهده . ويمكن أن نقسم مصادره من هذا النوع الى ثلاث مجموعات .

المجموعة الأولى : الكتب التي رجع اليها وذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ونقل عنها في كتابه ونص على ذلك صراحة ، وهي :

أولا : كتاب « اللمع » لأبي نصر السراج الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ هـ .

أشار الهجویری الى هذا الكتاب في باب آدابهم في الصحبة، وذكر أنه ينقل عنه ، وأورد النص الذي نقله باللغة العربية (٢) .

غير أن اعتماد الهجویری على اللمع لم يكن مقصورا على هذا ، فقد اعتمد عليه كثيرا ونقل عنه في مواضع أخرى ، وإن لم يصرح بهذا . وإندارس لكتابي كشف المحجوب واللمع يمكنه في سهولة ويسر أن يضع يده على المواضع التي ينقل فيها الهجویری عن اللمع ، وقد أوردنا مثلا واحدا يبين هذه الحقيقة (٣) ، وإن كان يوجد على غرارها الكثير .

ثانيا : كتاب المحبة : لعمر بن عثمان المكي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ .

(١) ارجع الى تفصيل رحلات الهجویری ص

(٢) « كشف المحجوب » ص ٤٤٤

(٣) انظر الفصل الخامس من هذا الباب : (مظاهر التأثير والتأثر : بين اللمع وكشف المحجوب) .

وذكر الهجویری هذا الكتاب فی باب المحبة ، ونقل عنه نصا ترجمه الى الفارسیة وصرح بأنه ینقل عنه (١) .

ثالثا : كتب أبی عبد الرحمن السلمی المتوفی سنة ٤١٢ هـ

اعتمد الهجویری على كتب ثلاثة من مؤلفات أبی عبد الرحمن السلمی ، وهی :

كتاب تاریخ أهل الصفة ، كتاب طبقات الصوفیة ، كتاب السماع .

أما ((تاریخ أهل الصفة)) فقد أشار الیه فی قوله ما ترجمته :

« وقد ألف الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی رضی الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوی أقوال المشایخ — کتابا منفردا فی تاریخ أهل الصفة ، وأورد فیہ مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنیاتهم » (٢) .

وأما ((طبقات الصوفیة)) فقد ذكر الهجویری أنه هذا حذوه فی ترتیبه لتراجم الشیوخ (٣) .

وأما ((كتاب السماع)) فقد ورد ذكره فی باب السماع حیث یقول الهجویری ما ترجمته :

« وقد روى الصحابة رضوان الله علیهم مثل هذا ، وجمعه الشیخ أبو عبد الرحمن السلمی فی كتاب السماع ، وقطع باباحته » (٤) .

رابعا : كتاب ((تاریخ المشایخ)) لأحمد بن علی الترمذی المتوفی سنة ٢٨٥ هـ

أشار الهجویری الى هذا الكتاب فی باب لبس المرقعة ، وأورد منه خبرا عن الامام أبی حنیفة النعمان (٥) . ویبدو أن الهجویری اعتمد على هذا الكتاب فی ترجمته للأئمة والشیوخ الأوائل .

خامسا : ((الرسالة)) لأبى القاسم عبد الکریم بن هوازن القشیری المتوفی سنة ٤٦٥ هـ .

(١) « كشف المحجوب » ص ٣٩٩ — ٤٠٠

(٢) « السابق » ص ٩٨ — ٩٩

(٣) « السابق » ص ١٤١

(٤) « السابق » ص ٥٢٣ — ٥٢٤

(٥) « السابق » ص ٥٠

أشار الهجویری الى الرسالة القشيرية اشارة غير مباشرة عند ترجمته
لمعروف الكرخي ، حيث يقول ماترجمته :

« وكان من الواجب ذكره قبل هذا ، ولكنى ذكرته في هذا الموضع موافقة
لاثنين من الشيوخ : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : والأول
هو الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله الذي كتبه على هذا
الترتيب ، والثاني الأستاذ أبو القاسم القشيري الذي ذكره في كتبه على
هذه الجملة » (١) .

وبالرغم من أن الهجویری لم يذكر اسم الكتابين ، الا أنه من الواضح
من عباراته أنه يعنى طبقات الصوفية والرسالة القشيرية .

غير أن افادة الهجویری من الرسالة القشيرية لم تكن مقصورة على
هذا ، فمن الثابت أنه ينقل عنها في أماكن كثيرة من كتابه . ومعظم
استشاداته من الأقوال والحكايات مأخوذة عن الرسالة دون زيادة ،
وان كان في بعض الأحيان يضيف عبارة من عنده لتوضيح المعنى .

كما يتضمن كتاب كشف المحجوب ترجمة فارسية لبعض فصول من
الرسالة القشيرية (٢) .

سادسا : « حكايات عراقيان » (حكايات العراقيين) :

وهي مجموعة من الحكايات عن شيوخ الصوفية من تصنيف بعض
شيوخ العراق .

والهجویری ينقل عن هذه المجموعة ويذكرها مرة باسم « حكايات
عراقيان » (٣) ويكتفى مرة أخرى بأن يشير اليها باسم « حكايات » (٤) .

المجموعة الثانية :

وهي الكتب والرسائل التي ذكر الهجویری أسماءها وأسماء مؤلفيها ،
وصرح بأنه اطلع عليها وقراها ، ولا شك أنه أفاد منها ، وان لم يشر الى
أنه ينقل عنها ، مثل :

-
- (١) « كشف المحجوب » ص ١٤١
(٢) « انظر على سبيل المثال : باب المحبة في الرسالة : ج ٢ ص ٦١٠ وما بعدها ،
وطابق بينه وبين كشف المحجوب ص ٣٩٢ وما بعدها » .
(٣) « كشف المحجوب » ص ٥٦ وغيرها .
(٤) « السابق » ص ٧١ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٧٤ وغيرها .

١ — تصانيف الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ :
وقد أشار الهجویری الى هذه التصانيف في ترجمته لاحلاج حيث يقول :
« وله تصانيف زاهرة ، ورموز وكلام مهذب في الأصول والفروع . وأنا
على بن عثمان الجلابی رأيت له خمسين تصنيفا في بغداد ونواحيها ،
وبعضها في خوزستان وفارس وخراسان » (١) .

٢ — مؤلفات أبی جعفر بن المصباح الصيدلانی :
يقول الهجویری عنه ماترجمته :
« وكان من رؤساء المتصوفة ، وذا لسان طيب في التحقيق وميل عظيم
الى الحسين بن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه » (٢) .

٣ — رسائل السيارية :
وهي الرسائل المتبادلة بين أهل « نسا » وأهل « مرو » من السيارية
أتباع أبی العباس السياری ، وقد اطلع الهجویری على بعض منها
في مدينة مرو (٣) .

المجموعة الثالثة :

كتب أشار اليها الهجویری ، وهي نوعان :
(١) الكتب التي ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها ، مثل :
١ — مؤلفات الحكيم الترمذی ، وهي :
آداب المريدين ، ختم الولاية ، كتاب النهج ، كتاب نوادر
الأصول (٤) .

- ٢ — كتاب « مرآة الحكماء » لشاه بن شجاع الكرمانی (٥) .
٣ — كتاب « غلط الواجدین » لأبی محمد رويم (٦) .
٤ — كتاب « تصحيح الارادة » للجنييد البغدادي (٧) .

(١) « كشف المحجوب » ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) « السابق » ص ٢١٤ — ٢١٥

(٣) « السابق » ص ٣٢٣

(٤) « السابق » ص ٤٩٣ ، ١٧٨

(٥) « السابق » ص ١٧٤

(٦) « السابق » ص ١٧٠

(٧) « السابق » ص ٤٣٩

- ٥ — كتاب « الرعاية بحقوق الله » لأحمد بن خضرويه (١) .
- ٦ — كتاب « المرقعة » لأبى معمر الأصفهاني (٢) .
- ٧ — كتاب « الرعاية » لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (٣) .
- ٨ — كتاب فى « اباحة السماع » لمؤلف مجهول (٤) .
- (ب) التصانيف والتآليف التى اكتفى بذكر أسماء مؤلفيها ومصنفيها ،
وهى :

- ١ — تصانيف يحيى بن معاذ الرازى (٥) .
- ٢ — تآليف أبى بكر الوراق (٦) .
- ٣ — آثار سهل بن عبد الله (٧) .
- ٤ — تصانيف أحمد بن خضرويه (٨) .
- ٥ — تصانيف أبى سعيد الخراز (٩) .

وبالإضافة الى هذه المصادر ، فقد استند الهجويرى الى كثير من الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية والأخبار الصحاح والاقوال المأثورة عن شيوخ
الصوفية الأوائل .

وعلى الرغم من تعدد المصادر التى اعتمد عليها الهجويرى ، رأينا
يشكو فى موضع من كشف المحجوب ، من الظروف غير المواتية التى كان
عليه أن يمكث فيها على تأليف الكتاب ، فقد كان أسيرا فى بلاد الهند ،
بينما كانت كتبه فى موطنه غزنة .

ويقول زوكوفسكى انه فيما يختص بالكتب والمواد التى لم تكن فى متناول
يد الهجويرى ربما كان يعنى بذلك بعض المجموعات من الأحاديث المنقولة
التي جمعها شيخه الختلى فى « الروايات » (١٠) ، اذ مما لا يرقى اليه أدنى

(١) « كشف المحجوب » ص ٤٣٩
 (٢) « السابق » ص ٦٢
 (٣) « السابق » ص ١٤٤
 (٤) « السابق » ص ٥٢٤
 (٥) « السابق » ص ١٥٣
 (٦) « السابق » ص ٤٣٩ ، ١٧٩
 (٧) « السابق » ص ٤٣٩
 (٨) « السابق » ص ١٥١
 (٩) « السابق » ص ٣١١
 (١٠) « السابق » ص ١١٠

شك أنه كان في متناول يده مواد أخرى ، فهو يعدد بوضوح مراجعه ويسمّيها ، وكثيرا ما ينقل قصصا بنصّها ، ويورد استشهدات يصعب على الإنسان أن يحفظها عن ظهر قلب (١) .

على أننا نرى الهجويري في بعض الأحيان يبدأ قولاً منقولاً بالعربية ويكمّله بالفارسية (٢) أو يورد تفسيراً أو شرحاً ما بالفارسية في ثانياً تعبيرات عربية مبعثرة . وكذلك يسرد بعض أئوال الشيوخ بالفارسية (٣) على نحو يوحى بغياب أصولها العربية ، تلك الأصول التي كان يمكن أن يورد منها استشهدات مضبوطة .

* * *

-
- (١) انظر « اللمع » ص ١٩٥ وقابل بينه وبين كشف المحجوب ص ٤٤٤) .
(٢) انظر : معراج بايزيد في اللمع ص ٤٦٤ وفي كشف المحجوب ص ٣٠٦) .
(٣) انظر : الترجمة الفارسية لقول الحسن البصري في كشف المحجوب ص ٥٠ والاصل العربي في « التعرف » ص ٢٣ ، حكاية الرسالة المتبادلة بين يحيى بن معاذ وأبي يزيد في كشف المحجوب ص ٢٢٣ والاصل العربي في الرسالة ج ٢ ص ٦٢٠) .

الفصل الرابع مكانة الكتاب بين كتب التصوف

(كتب النصوص قبل كشف المحجوب ، والكتب المؤلفة بعده)

يحتل كتاب كشف المحجوب مكانة مرموقة في تاريخ التصوف الاسلامي ، فهو يمثل واسطة العقد بالنسبة لأمهات الكتب العربية في التصوف ، والكتب الفارسية في هذا الموضوع ..

وكشف المحجوب يعتبر باكورة المؤلفات الفارسية في التصوف ، ولم تسبقه كتب في موضوعه ، باستثناء الترجمة الفارسية لكتاب : « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، وهي الترجمة التي قام بها « المستمل البخاري (٤٣٤ هـ) للأصل العربي لكتاب التعرف للكلاباذي « ٣٨٠ هـ » (١) ، وكل ما سبقه كان من الكتب العربية التي كانت ولا تزال تعتبر من أهم المراجع في التصوف الاسلامي ، مثل « اللمع » و « التعرف » و « قوت القلوب » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وواضح من كتاب كشف المحجوب أن مؤلفه اعتمد على عدد غير قليل من الكتب العربية : ومن أهمها « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ، فقد رجع الى هذه الكتب واهتدى بمناهجها ، ونقل عنها كثيرا من مواد كتابه ، وصار هو أيضا مرجعا لمن جاء بعده ، ذلك أن مؤلفو الصوفية من الفرس الذين جاءوا بعد الهجویری أفادوا من كشف المحجوب واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا في مؤلفاتهم ، مثل : « تذكرة لأولياء » و « نفحات الأنس » و « سفينة الأولياء » و « طرائق الحقائق » و « تاريخ تصوف در اسلام » وغيرها .

ويجدر بنا قبل أن نقيم كتاب كشف المحجوب ، أن نعرف بالكتب التي سبقته وأفاد منها ، والكتب التي آلت بعده وأفادت بدورها منه ..

(١) « كشف المحجوب » انظر مقدمة المصحح ص ١٩

كتب التصوف قبل كشف المحجوب :

ذكرنا أن الكتب الصوفية التي سبقت كشف المحجوب كانت كلها باللغة العربية ، مثل : اللمع والتعرف وقررت القلوب وطبقات الصوفية والرسالة . وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك كتب أخرى ، فمن الواضح أنه كانت هناك محاولات كثيرة سابقة على هذه الكتب ولكنها لم تصل الينا ، وهى إما أن تكون فى عداد ما ضاع من التراث الإسلامى ، وإما أن تكون محفوظة فى خزانة أو مكتبة ولم يقدر لها بعد من ينشرها أو يتوفر على دراستها .

ويؤيد هذا القول ما نقرأه فى الكتب التى تحت أيدينا من أسماء لكتب ورسائل ليس لنا من العلم بها الا معرفة أسمائها أو أسماء مؤلفيها . وان نظرة واحدة فى أبواب ثلاثة من كتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » للكلاباذى ، وهى الأبواب : الثانى والثالث والرابع (١) ، لدليل ماذى على صحة هذا القول ، قد ذكر المؤلف فى هذه الأبواب أسماء من تعرضوا للتصوف وعلومه ، سواء عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة . ويؤكد ذلك أيضا ما ورد فى كشف المحجوب من اشارات الى الكتب التى رجع اليها الهجویری أو قرأها ، والتي رآها رأى العين (٢) .

وقد كانت هناك مدرستان صوفيتان عبرتا عن التصوف ، وبينتا أسسه وقواعده وآدابه ومعاملاته :

أما المدرسة الأولى : فهى مدرسة أبى القاسم الجنيد (٢٠٧ هـ) ببغداد : وقد اعتمدت هذه المدرسة على الكلمة المنطوقة واتخذت من المساجد منابر لدعوتها ..

وأما المدرسة الثانية : فهى مدرسة أبى نصر البراج (٣٧٨ هـ) فى نيسابور : واعتمدت على الكلمة المكتوبة ، واتخذت من الكتب ميدانا لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأذواقها . كما حفظت لنا أيضا تراث المدرسة الأولى .

ونعرف الآن ببعض الكتب العربية التى لها ارتباط وثيق بكشف المحجوب والتي تعد من أهم المراجع التى اعتمد عليها مؤلفه .

(١) « التعرف لمذهب أهل النصف » أبو بكر محمد الكلاباذى : القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ (انظر : ص : ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٢) .

(٢) انظر : الفصل الثالث من هذا الباب .

أولاً : « اللمع » (١) :

مؤلف اللمع هو : « أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي » المتوفى في رجب عام ٣٧٨هـ (٢) ، والملقب بطاووس الفقراء (٣) ، كان مريداً لأبي محمد المرتعش ، ورأى : « سرى السقطى » و « سهل التستري » (٤) .

والسراج تجول في أنحاء العالم الاسلامي ، واجتمع بأعلام التصوف في عصره . ويروى عنه الهجويري أنه لما بلغ بغداد ، كان ذلك في شهر رمضان ، فأفردوا له خلوة في مسجد « الشونيزيه » ، وأعطى رئاسة الدراويش ، فأمرهم حتى يوم العيد ، وكان يختم القرآن في صلاة التراوح خمس مرات . وكان الخادم يضع في غرفته رغيفا كل ليلة ، وفي يوم العيد — وكان رضى الله عنه قد رحل — نظر الخادم فوجد الثلاثين رغيفاً في مكانها (٥) .

و « اللمع » يعد من أكبر المراجع وأوثقها وأغزرها مادة في التصوف ، وهو بمثابة الكتاب الأم في اللغة العربية ، منه اقتبس جميع من ألفوا في التصوف ، واهتدوا بأبوابه ومنهجه . .

وممن أفادوا من هذا الكتاب الهجويري ، فكتابه كشف المحجوب يشبه الى حد كبير كتاب اللمع ، سواء في المنهج العام ، أو المواد التي تناولها ، مما يوضح أن بعض تفاصيل كشف المحجوب مستمدة من اللمع . .

وقد استهدف السراج في كتابه غاية قصد اليها ، وهي رسم المبادئ الصوفية التي تعبر عن روح القرآن وجوهر السنة ، وبيان الأخطار التي وقع فيها السالكون للطريق أما عن سوء نية أو عن حسن قصد . .

يقول : « قد استخرت الله تعالى ، وجمعت أبواباً في معنى ما ذهب اليه أهل التصوف وتكلم مشايخهم المتقدمون ، في معاني علومهم وعمدة أصولهم وأساس مذهبهم ، وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم ، وما انفردوا به من الاشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشككة الصحيحة على أصولهم ، وحقائق مواجيدهم وفصولهم » (٦)

(١) يسمى الجامى هذا الكتاب : « لمعة » انظر : « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .

(٢) « نذرات الذهب » ج ٣ ص ٩١ .

(٣) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ ، « أسرار التوحيد » ص ٢٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٨٢ .

(٤) « نفحات الانس » ص ٢٨٣ .

(٥) « كشف المحجوب » ص ٤١٧ .

(٦) « اللمع » ص ١٨ .

وقد قسم السراج كتابه الى قسمين :

القسم الأول : عدد من الأبواب القصيرة تحدث فيها عن علم التصوف ومذهب الصوفية ومنزلتهم ، وطبقات أهل الحديث والفقهاء وما ترسموا به من أنواع العلوم ، والكشف عن اسم المصوفية وصفاتهم ، والتوحيد والموحد والعارف ، والفرق بين المؤمن والعارف ..

والقسم الثانى : مجموعة من الأقسام أطلق على كل قسم اسم « كتاب » ويشتمل كل كتاب منها على عدد من الأبواب القصيرة . وهذه الكتب هى :

- كتاب الأحوال والمقامات .
- كتاب أهل الصفوة فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل .
- كتاب الأسوة والافتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .
- كتاب المستنبطات .
- كتاب الصحابة .
- كتاب آداب المتصوفة .
- كتاب المكاتبات والصدور والأشعار والدعوات والرسائل .
- كتاب السماع .
- كتاب الوجد .
- كتاب اثبات الكرامات .
- كتاب البيان عن المشكلات .
- كتاب تفسير الشطحيات والكلمات التى ظاهرها مستبشع وباطنها صحيح مستقيم .

ومما لا شك فيه أن كتاب اللمع كتاب قيم ، واف ، متكامل الموضوع ، سليم المنهج إلا أن شخصية المؤلف تبدو فيه باهتة ، فهو يعتمد ، فى معالجته للمواد التى يقدمها ، على أقوال من سبقه من الشيوخ والزعماء الأوائل للصوفية . وقلم يدلى برأيه الخاص فى الموضوع الذى يتناوله ..

ويلاحظ على الكتاب أيضا أنه تعبير عن التصوف من وجهة نظر أهل السنة ، فالسراج يحيل كل أصل من الأصول التى يتعرض لها فى كتابه الى القرآن والسنة ويدعمه بالآيات القرآنية والأحاديث ، ولذلك فإن تحليله لمادة الموضوع يفتقر الى العنصر الفكرى ، والنظرة الفلسفية ..

قائماً : « طبقات الصوفية » :

كتاب طبقات الصوفية يذكر على أنه من مؤلفات أوائل القرن الخامس الهجري ، ولكن يبدو أنه مؤلف في أواخر القرن الرابع الهجري (١) . .

ومؤلف طبقات الصوفية هو : « محمد بن الحسين بن موسى بن خالد ابن سالم بن راوية بن سعد بن قبيصة بن سراقبة » (٢) العربي الأصل ، المعروف بأبي عبد الرحمن السلمى ، والمنوفى سنة ٤١٢ هـ (٢) .

وقد اشتهر أبو عبد الرحمن بنسبه الى السلميين ، وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد لأبي عمرو بن نجيد السلمى (٣٦٦ هـ) .

وأبو عبد الرحمن تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقتنى ، وأبو نصر السراج الطوسى (٤) . وكان السلمى مريداً لأبي القاسم النصارى وابتدى وتسلم منه الخرقة (٥) . .

وعلى السلمى تتلمذ عدد كبير من الصوفية المعروفين ، من بينهم الصوفى الفارسى المعروف « أبو سعيد بن أبى الخير » الذى نال على يديه الخرقة الأولى (٦) . ومنهم أيضاً أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة .

وللسلمى مؤلفات كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، ولكن الذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف ، وهو الكتاب الذى نتحدث عنه . .

والسلمى لم يكن أول من ألف فى الطبقات ، فقد سبقه الى ذلك غيره واعتمد هو على تأليفهم ، وان كانت الأصول التى اعتمد عليها قد ضاعت كلها ، ولم يصل الى أيدينا سوى كتابه (٧) : طبقات الصوفية .

(١) « جاء فى ترجمة أبى العباس القصاب فى نفحات الانس أنهم قالوا لأبى العباس ان سلمى ألف كتاباً فى الطبقات . فسألهم : هل ذكر فيه اسمى ؟ فقالوا : لا . فقال : لم يفعل شيئاً (انظر : نفحات ص ٢٦٦) وطبقاً لاسرار التوحيد فان أبى العباس القصاب توفى حوالى سنة ٣٩٧ هـ (انظر : أسرار التوحيد ص ٣٦) وعلى هذا يكون الطبقات قد ألف فى أواخر القرن الرابع » .

(٢) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٦ .

(٣) « المنتظم » ج ٨ ص ٦ .

(٤) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ١٩ .

(٥) « نفحات الانس » ص ٣١١ .

(٦) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٥٠ .

(٧) « طبقات الصوفية » انظر : المقدمة ص ٥٠ .

وكما أفاد السلمى من كتب السابقين عليه ، فقد أفاد من كتابه من ألفوا بعده فى الطبقات سواء منهم من كتب بالعربية(١) أو بالفارسية . ومن هؤلاء الهجویری ، فقد صرح فى كشف المحجوب بأنه هذا حذو السلمى فى ترتيبه للشيوخ الذين ترجم لهم(٢) .

وكتاب طبقات الصوفية هو الأصل لكتاب « نفحات الأنس » للجامى ، فقد ترجم الشيخ عبد الله الأنصارى الهروى (٤٨١ هـ) طبقات الصوفية الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة ، وزاد عليه ما أملاه فى مجالس الصحبة ومجامع الوعظ والتذكير ، وأقوالا أخرى لبعض الشيوخ الذين لم يرد ذكرهم فى الكتاب ، وبعض أذواقه ومواجيده التى جمعها وكتبها واحد من مريديه(٣) . ثم جاء « جامى » فنقل هذه الترجمة من اللهجة الهروية بعبارة بسيطة متعارف عليها بين أهل عصره ، وأضاف الى ذلك ذكر عبد الله الأنصارى ومعاصريه والمتأخرين عنه(٤) . وأطلق على هذه المجموعة اسم : « نفحات الأنس » .

ويشتمل كتاب طبقات الصوفية على تراجم لخمس طبقات من الشيوخ ، كل طبقة تتكون من عشرين فردا .

و « طبقات الصوفية » ليس أول كتاب للسامى فى التراجم فقد ذكر أنه ترجم قبله للصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، فى كتاب له اسمه كتاب : « الزهد »(٥) .

وكتاب طبقات الصوفية مطبوع فى القاهرة ، فقد حققه ونشره « نورالدين شرييه » سنة ١٩٥٣ م ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها . .

ثالثا : « الرسالة » :

« الرسالة من مؤلفات القرن الخامس الهجرى . ومؤلفها : « أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى »(٦) ، ولد فى بلدة « استو » ، وكان

(١) أفاد من الطبقات : « القشيرى » فى الرسالة ، « الاصفهانى » فى الحلية ، « البغدادى » فى تاريخ بغداد ، « الشعرانى » فى لوائح الانوار (انظر : مقدمة الطبقات ص ٥١) .

(٢) « كشف المحجوب » ص ١٤١ .

(٣) « نفحات الأنس » ص ١ .

(٤) « السابق » ص ٢ .

(٥) « طبقات الصوفية » ص ٣ .

(٦) « فى كشف المحجوب » عبد الكريم أبو القاسم انظر : ص ٢٠٩ .

سكانها من العرب الذين قدموا خراسان ، فهو عربى من قبيلة قشير بن كعب (١) . .

وكان القشيري تلميذا لأبى على الدقاق (٤٠٥ هـ) فى نيسابور . وزوجا لابنته (٢) . وتتلّمذ أيضا على أبى عبد الرحمن السلمى «١٢هـ» ، وعاصر تلميذا من تلاميذ السلمى المشهورين هو « أبو سعيد بن أبى الخير » ، وقد التقى كل منهما بالآخر فى نيسابور ، وتلازما فترة طويلة ، وكان أبو سعيد يعقد مجلسا فى زاوية القشيري مرة كل أسبوع (٣) .

وقد عاصر الهجویری القشیری وترجم له فى كشف المحجوب ووصفه بأنه كان رفيع القدر فى زمانه ، عظيم المنزلة ، وله تصانيف نفيسة محققة (٤) .

والقشیری كان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، فكان يعرف الأصول على مذهب الأشعرى ، والفروع على مذهب الشافعى ، وانتهى به الامر الى أن صار إمام نيسابور الشهيرة (٥) .

وتوفى القشیری فى نيسابور سنة ٤٦٥ هـ ، ودفن بها الى جوار شيخه أبى على الدقاق .

وللقشیری مؤلفات كثيرة الا أن أشهرها رسالته هذه المعروفة بالرسالة القشيرية ، والتي كتبها الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام سنة سبع وثلاثين وأربعمائة (٦) ، وبين فيها جانبين :

الأول : سيرة رجال الصوفية وبعض أقوالهم .

والثانى : مبادئ السلوك ومناهجه .

يتناول :

« وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة فى آدابهم وأخلاقهم

(١) « الرسالة » (انظر مقدمة الناشر ص ١٣) .

(٢) « أسرار الوجود » الترجمة العربية ص ١٠٢ .

(٣) « السابق » ص ١٠٦ .

(٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ .

(٥) « السابق » (انظر : مقدمة زوكوفسكى) .

(٦) « الرسالة » ج ١ ص ١٨ .

ومعاملاتهم . وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا اليه من مواجيدهم وكيفية ترفيهم من بدايتهم الى نهايتهم «(١) .

وقد أفاد القشيري من كتابي « اللمع » و « طبقات الصوفية » وجمع في رسالته بين موضوعيهما ، وتعد الرسالة من المراجع العربية المهمة في التصوف . وهى تعتبر قيمة جدا كمجموعة من الأمثلة والحكايات والتعريفات ، ولكنها تتبع طريقة شكلية (٢) ، فالمؤلف لا يكاد يظهر رأيه فيها الا في القليل النادر ع وتلك ظاهرة تتسم بها مدرسة نيسابور التى تنتمى اليها الكتب الثلاثة : اللمع وطبقات الصوفية والرسالة .

والرسالة ترجمت الى الفارسية مرتين :

المرّة الأولى : ترجمها فى زمن قريب من وفاة مؤلفها ، واحد من تلاميذه يدعى : « خواجه امام أبو على بن أحمد العثماني ، وهى ترجمة سقيمة اذا قلورنت بالأصل ، وفيها كثير من الأخطاء ، كما أن المترجم حذف منها أشياء كثيرة ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة فى مكتبة : « أيا صوفية » تحت رقم ٢٠٧٧ ، ونسخة أخرى فى المتحف البريطانى (٣) ..

والمرّة الثانية : نظرا للأخطاء المشار اليها فى الترجمة الأولى ، فقد كانت الحاجة تستدعى اصلاح هذه الترجمة ، وتم هذا العمل على يد « أبى الفتوح عبد الرحمن بن محمد النيسابورى » بمدينة كرمان بعد عام ٥٥٠ هـ ..

وتوجد نسخة من هذه الترجمة المصححة فى مكتبة : « لالا اسماعيل » تحت رقم ١٢٠ (٤) ..

وقد طبعت الرسالة فى القاهرة عدة مرات ، كان آخرها الطبعة المحققة والمفهرسة التى قام بها « عبد الحليم محمود » و « محمود بن الشريف »

(١) « الرسالة » ص ٢٢ .

(٢) « نيكولسون » (انظر مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب) .

(٣) « تاريخ أدبيات » صفا ج ٢ ص ٨٨٩ .

(٤) « جاء فى مقدمة هذه النسخة أن القشيري كان يريد أن يعدد كتابة الرسالة بالفارسية ولكنه لم يفعل ، وقام بهذا العمل ليذه أبو على العثماني ، ولكن هذه الترجمة سقيمة ولذا قام باصلاحها أبو الفتوح النيسابورى تلبية لطلب شيخ الشيوخ أحمد ابن ابراهيم بارسا » .

(انظر : صفا ج ٢ ص ٨٨٩) .

ونشرت في القاهرة سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م وتقع في جزئين . وقد اعتمدنا على هذه الطبعة ..

كتب التصوف بعد كشف المحجوب :

بالنسبة للكتب الصوفية المؤلفة بعد كشف المحجوب ، سنقصر حديثنا على الكتب الفارسية القريبة الى عهده ، والكتب التي تأثرت به ونقلت عنه ، مثل أسرار التوحيد وتذكرة الأولياء ونفحات الانس .

ويجدر بنا في هذا الموضع أن نشير الى أنه توجد عشرات المؤلفات الصوفية المنظومة بعد كشف المحجوب ، مثل منظومات : « السنائي » و « العطار » و « جلال الدين الرومي » وغيرهم ، الا أنه من العسير أن نقارن بين هذه المنظومات وبين كشف المحجوب لاختلاف وسيلتي التعبير ، من ناحية ، وآن الشعراء منهجهم الخاص في ناول المسائل الصوفية .

ونعرف الآن بهذه الكتب .

أولاً : كتاب « أسرار التوحيد » .

أسرار التوحيد هو أقرب الكتب الصوفية عهدا الى كشف المحجوب ، فهو من مؤلفات القرن السادس الهجري . ومؤلفه واحد من أحفاد الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير يدعى : محمد بن المنور بن أبي سعيد بن أبي طاهر ابن أبي سعيد بن أبي الخير (١) .

وتاريخ تأليف أسرار التوحيد مختلف فيه ، الا أنه من المرجح أنه مؤلف حوالي سنة ٥٧٤ هـ (٢) .

وأسرار التوحيد مقسم الى ثلاثة أبواب :

الباب الأول: في بداية حياة الشيخ أبي سعيد ، ويشتمل على ذكر أحواله في طفولته وشبابه ، والعلوم التي حصلها ، والرياضات التي قام بها ، وتفاصيل حياته حتى بلوغه سن الأربعين .

(١) « أسرار البرزخ » (انظر مقدمة ذبيح الله صفا) .

« ديوان أبو سعيد أبو الخير » .

(٢) « ديوان أبو سعيد أبو الخير » ص ١ ، « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : مقدمة المترجم ص ٥ - ٦ .

الباب الثانى : فى أواسط حياة الشيخ أبى سعيد ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ .

الفصل الثانى : فى الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال .

الفصل الثالث : فى بعض فوائد انفس الشيخ ، وبعض الرسائل والأشعار التى جرت على لسانه .

الباب الثالث : فى انتهاء حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى وصاياه عند وفاته .

الفصل الثانى : فى وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : فى كراماته التى جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار اليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل انكرامة .

و « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف فى شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلف قائم بذاته،موضوعه حياة واحد من الصوفية . وقد أعطيت فى الكتاب صورة لأبى سعيد وسط دائرة الصوفية والدراويش الذين عاش معهم فى تفاصيل واسعة ، ولذا يعد أسرار التوحيد من أوضح الكتب التى صورت لنا حياة الدراويش فى القرن الخامس الهجرى .

ويشتمل أسرار التوحيد على معلومات قيمة عن الرسوم والعادات والتقاليد الصوفية ، الى جانب كثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات تلك الفئة ، كما أنه يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته ، والشروط التى ينبغى توفرها فى الشيخ والمريد(١) . وطريقة تأديب الشيخ لريديه ، ونوع العلاقة بينهما ، ونظام الحياة فى الخانقاهات(٢) .

(١) « أسرار التوحيد » الترجمة العربية : انظر : ص ٣٦٠ — ٣٦١ .

(٢) « السابق » انظر ص ٣٦١ — ٣٦٣ .

وكتاب أسرار التوحيد طبع أكثر من مرة ، ومن بين طبعاته الطبعة التي نشرها ذبيح الله صفا في طهران عام ١٣٣٢ هـ . ش . ، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها .

وقد ترجمت أسرار التوحيد الى العربية ونشرت الترجمة في القاهرة عام ١٩٦٦ م .

ثانياً : ((تذكرة الأولياء)) :

مؤلف هذا الكتاب هو « أبو طالب » محمد بن أبي بكر ابراهيم الملقب بفريد الدين ، والمعروف بالعطار : من رجال القرن السادس الهجري وأوائل القرن السابع ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

والعطار واحد من ثلاثة من كبار الشعراء الصوفية في ايران وهم : السنائي والعطار وجلال الدين الرومي .

وكان العطار يشتغل بالطب ويملك صيدلية يطب فيها الناس ، ويعمل في الوقت نفسه في تأليف الكتب ونظم الأشعار . وله مؤلفات كثيرة ، ذكر بعضهم أن عددها مساو لعدد سور القرآن (١) ، وإن كان المعروف منها يقرب من ثلاثين مؤلفاً ، كلها منظومة باستثناء تذكرة الأولياء .

وتذكرة الأولياء ، كما يدل عليه اسمه : كتاب في تراجم الأولياء والصوفية وشيوخ الطريقة . ومعظم نسخه تشتمل على اثنتين وسبعين ترجمة (٢) ، وإن كان هناك من يرفع هذا الرقم الى سبع وتسعين (٣) .

ويعتبر كتاب تذكرة الأولياء أقدم مؤلف في التراجم باللغة الفارسية ، فبالرغم من وجود عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة في هذا الموضوع ، مثل : طبقات الصوفية ، وحلية الأولياء ، ومناقب الأبرار ، وصفوة الصفوة ، إلا أنه لم تكن هناك مؤلفات من هذا النوع قبل تذكرة الأولياء ، باستثناء الجزء الخاص بالتراجم في كشف المحجوب ، والترجمة الفارسية لطبقات الصوفية .

(١) « تذكرة الأولياء » ج ١ (انظر مقدمة القزويني ص ١) .
(٢) « السابق » (انظر مقدمة نيكولسون ص ٧) .
(٣) « فريد الدين وكتابه منطق الغير » أحمد ناجي القيسي ص ٢٨٥ .

وقد اعتمد العطار في تذكرة الأولياء على كثير من الأصول العربية السابقة عليه ، وصرح هو نفسه بأنها تمثل الجزء الأكبر من المؤلف الذى عمله ، وان كان لا يذكر أسماء هذه الكتب فى المواضع التى ينقل فيها عنها . وأفاد العطار أيضا من كتابى كشف المحجوب وأسرار التوحيد ، فهو ينقل عنهما كثيرا دون أن يشير إليهما (١) .

وتذكرة الأولياء طبع فى الهند ، وطبعه المستشرق الانجليزى نيكولسون فى لندن سنة ١٣٢٢ هـ - ١٩٠٥ م ، فى مجلدين ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها .

ثالثا : نفحات الأنس :

كتاب نفحات الأنس مؤلف فى القرن التاسع الهجرى ، فقد ذكر مؤلفه انه أتمه سنة ٨٨٣هـ (٢) . ومؤلف هذا الكتاب هو : « نور الدين عبد الرحمن ابن نظام الدين أحمد بن محمد الدشتى » : كان من الأدباء والشعراء والعلماء والصوفية ، وزعيما لطائفة النقشبندية ، فهو مريد الشيخ سعد الدين الكاشغرى تلميذ الشيخ بهاء الدين النقشبندى (٣) . وتنتهى سلسلة شيوخ الجامى الى «خواجه» عبيدالله أحرار من كبار شيوخ النقشبندية . وللجامى انتاج ضخم من الشعر والنثر ، ومؤلفاته تبلغ أربعة وأربعين مؤلفا ، بعدد لفظ « جام » (٤) . وقد ألف جامى باللغتين العربية والفارسية (٥) .

ويعتبر نفحات الأنس أهم مؤلفات الجامى ، بل أن دارا شسكوه يعده بمثابة العينين بالنسبة لهذه المؤلفات (٦) .

ونفحات الأنس : كما يبدو من مقدمة مؤلفه ، يعتمد أساسا على طبقات الصوفية للسلمى المؤلف باللغة العربية ، والذى نقله شيخ الاسلام عبدالله

(١) « سبك شناس » ج ٢ ص ٢٠٩ وما بعدها . (انظر المقارنة التى عقدها « بهار » بين تذكرة الاولياء وكل من أسرار التوحيد وكشف المحجوب) .

(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .

(٣) « طرائق الحقائق » ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .

(٥) بلغ عدد مؤلفات الجامى الموجودة بدار الكتب المصرية ٤٥ كتابا ورسالة فارسية،

وسبع كتب عربية (انظر فهرست مؤلفات نور الدين عبد الرحمن الجامى :

اعداد نصر الله الطرازى) .

(٦) « سفينة الاولياء » ص ٨٣ .

الأنصارى الى الفارسية باللهجة الهروية القديمة . وقد راودت الجامى فكرة نقل هذا الكتاب ، من اللهجة الهروية الى الفارسية البسيطة المتعارف عليها فى عصره ، عدة مرات ، الا أن بعض الموانع كانت تعوقه عن اتمام هذه الرغبة . وفى سنة ٨٨١ هـ طلب منه الأمير « عليشير » القيام بهذا العمل (١) ، فشرع فيه وأتمه سنة ٨٨٣ هـ (٢) .

ويشتمل نفحات الانس على مقدمة قصيرة للمؤلف ، وتسع مقولات فى الأصول الصوفية ، وتراجم لشيوخ الصوفية تتجاوز الستمائة ترجمة . .

ومع ما يحتله كتاب نفحات الانس من مكانة كبيرة بين كتب التصوف الفارسية ، الا أن مؤلفه اعتمد على مجهودات غيره . فبالإضافة الى ترجمة الأنصارى لطبقات الصوفية ، نقل الجامى عن كشف المحجوب وأسرار التوحيد جزءا كبيرا من مادته، ويبدو ذلك جليا فى تراجم معاصرى الهجويرى وأبى سعيد بن أبى الخير . وقد صرح الجامى نفسه فى مقدمة النفحات أنه أحيا فى كتابه معلومات السابقين . .

فهو يقول ما ترجمته : « وانى آمل من مكارم أخلاق القراء عندما تطيب أوقلتهم بين الأنفاس الطيبة لأولياء الله ، وفيض أرواحهم المقدسة ، أن لا ينسوا باعت هذه المجموعة ومؤلفها ، وأن يدعوا له بالخير (٣) .

وكتاب « نفحات الانس » طبع فى الهند على الحجر عدة مرات ، وتم طبعه حديثا لأول مرة فى طهران عام ١٣٣٦ هـ ش . وهى الطبعة التى قام بها « مهدي توحيدى بوز » وقد اعتمدنا على هذه الطبعة . .

(١) « نفحات الانس » ص ٤ .

(٢) « نفحات الانس » ص ٦٣٦ .

(٣) « السابق » ص ٥ .

الفصل الخامس

مظاهر التأثير والتأثر

أولا : بين اللمع وكشف المحجوب :

ذكرنا من قبل أن كشف المحجوب واللمع متشابهان في الخطة العامة ، مما يدل على أن بعض تفاصيل الكتاب الأول مستمدة من الثاني .

ومن الغريب أنه على الرغم من تصريح الهجویری في موضع من كتابه بأنه ينقل عن السراج ، وذكره لاسمه واسم كتابه ، واستشهاده برأيه ، ونقله لنص عبارته (١) ، وإيراده أيضا حكاية عن السراج في كشف المحجوب (٢) إلا أنه أغفله تماما في الجزء الخاص بالتراجم ، فلا توجد للسراج ترجمة ضمن تراجم الشيوخ التي أوردها الهجویری في كتابه ، في الوقت الذي أفرد فيه كل من « العطار » (٣) و « الجامی » (٤) مكانا للسراج في كتابيهما ، وإن كان ما ذكره عنه لا يتعدى تلك الإشارات الواردة في كشف المحجوب .

ويبدو من الدراسة الواسعة لكتابي اللمع وكشف المحجوب أن الهجویری اعتمد على اللمع اعتمادا واضحا ، ونقل عن السراج كثيرا من مواده ، وإن كان لا يصرح بأنه ينقل عنه .

ونضرب لذلك مثلا موضوع السماع ، فقد أفرد له كل منهما جزءا كبيرا من كتابه ، وأطلق السراج على هذا الجزء اسم : « كتاب السماع » (٥) ، وسماه الهجویری : « كشف الحجاب الحادی عشر في السماع » (٦) .

ويبدو من الجدول التالي التشابه الكبير في المادة التي وردت في الكتابين ، مما يوضح أن الهجویری نقل عن السراج .

-
- (١) كشف المحجوب : أنظر ص ٤٤٤ .
 - (٢) « السابق » أنظر ص ٤١٧ .
 - (٣) « تذكرة الأولياء » ج ٢ ص ١٨٢ — ١٨٣ .
 - (٤) « نفحات الانس » أنظر ص ٢٨٣ .
 - (٥) « اللمع » أنظر ص ٣٣٨ وما بعدها .
 - (٦) « كشف المحجوب » أنظر ص ٥٠٨ وما بعدها .

أولا — من حيث التقسيم :

قسم السراج « كتاب السماع » الى الأبواب التالية :	وقسم الهجویری « كشف الحجاب الحادی عشر في السماع » الى الأبواب التالية :
١ — باب في حسن الصوت والسماع وتفاوت المستمعين	١ — باب سماع القرآن .
٢ — باب في السماع واختلاف أقاويلهم في معناه .	٢ — باب سماع الشعر .
٣ — باب في وصف سماع العامة	٣ — باب سماع الأصوات والألحان .
٤ — باب في وصف سماع الخاصة	٤ — باب أحكام السماع .
٥ — باب في ذكر طبقات المستمعين	٥ — باب اختلافهم في السماع .
٦ — باب في ذكر من اختار سماع القصائد والأبيات من الشعر	٦ — باب مراتبهم في حقيقة السماع
٧ — باب في وصف سماع المريدين والمبتدئين .	٧ — باب الوجد والتواجد .
٨ — باب في وصف المشايخ في السماع	٨ — باب الرقص .
٩ — باب في وصف خواص الخواص في السماع .	٩ — باب الخرق .
١٠ — باب في سماع الذكر والمواظ والحكمة .	١٠ — باب آداب السماع .
١١ — باب فيمن كره السماع والذي كره الحضور في المواضع التي يقرءون فيها القرآن بالألحان ويقولون القصائد ويتواجدون ويرقصون .	

ثانيا : من حيث الآراء والعبارات وأقوال المشايخ والقصص والاستشهادات :

١ - يبدو تأثر الهجویری بالسراج ونقله عنه فيما يلي :

« اللمع »

ص ٣٥٢ : واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضي الله عنه : اقرأ ، فقال : أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال : أنا أحب أن أسمع من غيري .
وقوله عليه السلام : شيبتنى سورة هود وأخواتها .

ص ٣٥٣ : وأن النبي صلى الله عليه وسلم مر على عصابة من أهل الصفة يستر بعضهم بعضا من العري وقارىء يقرأ لهم .

« كشف المحجوب »

ص ٥٢٠ : قوله عليه السلام : « زينوا أصواتكم بالقرآن . »

ص ٥١٥ : وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن مسعود اقرأ : فقال أنا أقرأ وعليك أنزل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحب أن أسمع من غيري . . ونيز كفت بيغمبر عم شيبتنى سورة هود . روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت فى عصابة فيها ضعفاء المهاجرين وان بعضهم يستر بعضا من العري وقارىء يقرأ علينا ونحن نستمع لقراءته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قام علينا فلما رآه القارىء سكت . قال : فسلم ، وقال : ماذا كنتم تصنعون . . الخ .

ص ٣٤٢ :

قال الشيخ رحمه الله : بلغنى أنه سئل ذو النون ، رحمه الله ، عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب الى الحق ، فمن أصغى اليه بحق تحقق ، ومن أصغى اليه بنفس تزندق .

ص ٥٢٧ :

ذو النون كويد رح: السماع وارد الحق ، مزعج القلوب الى الحق فمن أصغى اليه بحق تحقق ومن أصغى اليه بنفس تزندق . سماع وارد حقست كى دلها بدو بر انكيزد وبر اطلب وى حريص كند . هر كه آنرا بحق شنود بحق راه يابد ، وهر كه بنفس شنود اندر زندقه افتد .

«السمع»

وسئل الشبلي رحمه الله ، كما بلغنى ، عن السماع فقال : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة ، فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية .

ص ٣٤٣ :

وسمعت الحصرى ، رحمه الله ، يقول فى بعض كلامه : ايش اعمل بالسماع ؟ ينقطع اذا انقطع من يسمع منه ، ينبغى ان يكون سماعك متصلا غير منقطع .

ص ٣٤٠ :

ومن اللطيفة التى جعل الله فى الأصوات الطيبة أن الطفل فى المهد يبكى لوجود ألم ، فيسمع الصوت الطيب فيسكت وينام .

ص ٣٥٨ :

سمعت الدقى يقول : سمعت الدراج يقول : كنت أنا وابن الفوطى مارين على الدجلة بين البصرة والأبله واذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل بين يديه جارية تغنى وتقول :

«كشف المحجوب»

ص ٥٢٨ :

وشبلى كويد رضى : السماع ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الاشارة حل له استماع العبرة والا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية ، ظاهر سماع فتنه است وباطنش عبرتست أنكه أهل اشارتست مراورا سماع عبرت حلال باشد والا آن ديكر طلب فتنه است وتعلق ببلا .

ص ٥٢٩ :

وحصرى كويد رح : ايش اعمل بالسماع ينقطع اذا انقطع من نسمع منه . ينبغى أن يكون سماعك متصلا غير منقطع . جكنم سماع راكى جون قارى خاموش شود آن منقطع شود . بايد كه سماع بسماع متصل باشد بيوسته كه هرگز بريده نكردد .

ص ٥٢٣ :

ولنذر كودكان خرد اين حكم ظاهرست كى جون بكريند اندر كاهواره كسى نوائى بزند خاموش شوند و مر آنرا بشنوند .

ص ٥٣٣ :

دقى روايت كند ازدرج كه او كفت : من با ابن الفوطى بر لب دجله ميرفتيم ، ميان بصره وابله بكوشكى فرا رسيديم ، نيك مردى بر آن در نشست بود وكينزكى بدان در نشست كه وىرامى غنا كرد ومي كفت :

«اللمع»

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل
في سبيل الله ود
كان منى لك يبذل

قال : واذا شاب تحت المنظر
بيده ركوة وعليه مرقعة يتسمع ،
فقال : يا جارية بالله وبحياة مولاك
الا أعدت على هذا البيت . قال :
فأقبلت الجارية عليه وهي تقول :

كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وكان الشاب يقول : هذا والله
تلوني مع الحق في حالي ، قال فشقق
شهقة وحمد ، فتأملناه فاذا هو ميت ،
قال : فقلنا : قد استقبلنا فرض ،
فوقفنا ، فقال صاحب القصر
للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالى ،
قال ثم خرج أهل البصرة وصلوا
عليه ، فلما فرغوا من دفنه قام
صاحب القصر وقال : اليس تعرفوني ؟
أنا فلان ابن فلان أشهدكم أن كل
شيء لى في سبيل الله تعالى ، وكل
جوارى أحرار ، وهذا القصر للسبيل ،
قال : ثم رمى بثيابه واتزر بازار ،
وارتدى بالآخر ، ومرت على وجهه
والناس ينظرون اليه حتى غاب عن
أعينهم وهم يبيكون ، فما رآه أحد بعد
ذلك ولا سمع له خبر .

ص ٣٥٨ :

قال الشيخ رحمه الله : سمعت أبا
عمرو وعبد الواحد بن علوان
بالرحبة ، رحبة مالك بن طوق ، قال :
كان شاب يصحب الجنيد رحمه الله
فكان اذا سمع شيئا من الذكر
يزعق ، فقال له الجنيد يوما : ان
فعلت ذلك مرة أخرى لم تصحبني ،

«كشف المحجوب»

في سبيل الله ود
كان منى لك يبذل
كل يوم تتلون
غير هذا بك أجمل

وجواني را ديدم اندر زير ديوار
كوشك ايستاده بامرعه وركوه ،
كفت : اى كنيزك بخداى تو برتوكة
اين بيت بازكوى كى از زندكانى من
يك نفس بيش نمانده است تا بارى
جان باستماع اين بيت برآيد .
كنيزك ديكر باره بازكفت ، آن
جوان نعره بزد ، جان ازوى
جدا شد ، خداوند كوشك مر
كنيزك راكفت كى تو آزادى وخود
فروود آمد وبجهاز وى مشغول شد ،
وهمه اهل بصره بروى نماز كردند .
بس آن مرد بر باى خاست
وكفت : يا اهل بصره من كه فلان
بن فلانم همه املاك خود سبيل كردم
ومماليك آزاد كردم . هم از آنجا
برفت وكسى خبر آن مرد نيافت .

ص ٥٣٢ :

معروفست كه جنيد را مريدى
بوده است كى اندر سماع اضطراب
بسيار كردى ، ودرويشان بدان
مشغول شدندى ، بيش شيخ رضى
شكايت كردند ، ويراكفت : بعد ازين
اكراندر سماع اضطراب كنى نيز من
باتو صحبت كنم . ابو محمد جريرى

«السمع»

قال : فربما كان الجنيد يتكلم رحمه الله في شيء من العلم ، فيتغير ، ويضبط عند ذلك نفسه حتى يقطر عن كل شعرة من بدنه قطرة من الماء . وحكى لى أبو عمرو أنه صاح يوما من الأيام صيحة فانشق وتلفت نفسه .

باب فيمن كره السماع ص ٣٧٢ :

فقد كره ذلك من جهات شتى :
* فقوم كرهوا ذلك لأخبار رويت عن بعض الأئمة المتقدمين والعلماء والتابعين أنهم كرهوا ذلك ، فكره من كره ذلك اقتداء بهم ومتابعة لهم ، اذ كانوا هم الأئمة في أحكام الدين والمقدمين في عصرهم على جماعة المسلمين .

* وقوم كرهوا ذلك للمريدين والقاصدين والتائبين لعظم ما فيه من الخطر ان استلذوا ذلك وتابعوا حظوظهم فتنحل عند ذلك عقودهم وتنفسخ عزماتهم ويركنوا الى شهواتهم ويتعرضوا للفتنة ويقعوا في البلية .

* وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذي يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من أحد وجهين : اما هم قوم متلهون من أهل

«كشف المحجوب»

كويد : در سماعی من اندروی نگاه میکردم لب برهم نهاده بود وخاموش می بود تا ازهر موئی از اندام می چشمه بکشد تاهوش از وی بشد ویک روز بیهوش بود . بس من ندانم تا وی اندر سماع درستر بود یا حرمت بیر بر دلش قویتر .

«باب في مراتبهم في حقيقة السماع»

ص ٥٣٥ :

کروهی از مشایخ خواندن قرآن بالحن وشنیدن قصاید و اشعار را جنائک حروف از حد آن تجاوز کرده است کراهیت داشته اند . و خود برهیز کرده و اندر آن غلو نمود ، و ایشان جند کروهند ، وهریکی را اندر آن علتی دیگرست .

* کروهی از آن آنند که اندر تحریم آن روایات یافته اند و اندر آن متابعت سلف صالح شده ، و بدان تقلید کرده .

* ص ٥٣٧ :

و کروهی دیگرند که از خوف وخطر مریدان که اندر بلا و بطالت نیفتند ، و بدیشان تقلید نکنند ، و از سر توبه باسر معصیت باز نیایند ، و هوا اندر ایشان قوت نکیرد، و هوس مر عزمیت صلاح ایشان را فسخ نکند که معرض بلا و مایه فتنة است سماع بردو فرقت اند یکی لاهی و دیگر نه نشستند .

* کروهی دیگر گفتند که أهل سماع بردو فرقت اند یکی لاهی و دیگر الهی، لاهی درعین فتنة باشد و ازان نترسد ، و الهی بریاضات و مجاهدات

«اللمع»

الدعابة والفتنة أو هم قوم وصلوا الى الأحوال الشريفة وعانقوا المقامات الرضية وأماتوا نفوسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا الى الله عز وجل في جميع معانيهم ، قالوا : ولسنا من هؤلاء ولا من هؤلاء فلا معنى لاشتغالنا بذلك وترك ذلك أولى بنا .

ص ٣٧٣ :

✽ وكرهت طائفة أخرى ذلك من جهة أن العامة لا تعرف مقاصد القوم فيما يسمعون فربما غلطوا في مقاصدهم وزلقوا ، فكرهوا ذلك شفقة على العامة وصيانة للخاصة وغيره على الوقت الذي اذا فات لا يدرك .

ص ٣٧٣ :

وطائفة أخرى كرهت ذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه أنه قال : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » فقالوا : هذا مالا يعنينا ، لأننا ما أمرنا بذلك ، وليس هو من زاد القبر ، ولا مما يطلب به النجاة في الآخرة .

«كشف المحجوب»

وبانقطاع دل از مخلوقات واعراض سر از مكنونات فتنة از خود دور کرده باشد ، واز ان ايمن شده . چون ما نه ازین گروه باشيمنه ازان ترك آن مارا بهتر ومشغول شدن بجیزی كه موافق ماست اولیتر .

ص ٥٣٨ :

وگروهی دیگر گفتند : چون عوام اندر سماع فتنة است واز شنیدن ما اعتقاد مردمان مشوش میشود واز درجت ما اندر ان محجوبند وبما می بزه کار شوند بس برعامه شفقت کنیم ، ومر خاص را نصیحت کنیم ، وبر وقت غیرت دست ازان بداریم .

ص ٥٣٨ :

وگروهی گفته اند كه بیغمبر عم گفت : « من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » . دست از چیزی بداریم كه ازان کریز از انج بما لا يعنى مشغول شدن تضییع وقت باشد ، ووقت دوستان بادوستان عزیز باشد ، ضایع نباید کرد .

* * *

ثانياً - بين الرسالة وكشف المحجوب :

صرح الهجویری فی ترجمته لمعروف الکرخی بأنه اقتفى أثر السلمی والقشیری فی اثباته لترجمة معروف فی مکانها(۱) . ولا شک أن هذه الإشارة تبين لنا أن الهجویری اطلع على الرسالة القشيرية ، واهتدى بترتيبها فی هذا الموضع .

وقد ترجم الهجویری للقشیری فی کتابه ضمن عشرة من شیوخ الصوفية المتأخرين المعروفين على عهده من بينهم أساتذته وشیوخه . ویبدو من هذه الترجمة مدى التقدير والاحترام الذى كان یکنه الهجویری للقشیری(۲) .

وعلى الرغم من أن الهجویری لم یصرح بأنه نقل بعض مواده عن الرسالة، الا أن المتفحص لکتابی كشف المحجوب والرسالة یلمس مدى ما أفاده الهجویری من رسالة القشیری ، فهو فی بعض المواضع ینقل عنه عین عباراته ، وهو فی مواضع أخرى یهتدی بأمثله وینقل عنه قصصاً بعینها استشهد القشیری بها فی موضعها . كما ینقل عنه أيضاً کثیراً من أقوال الشیوخ ورموزهم بالنسبة للموضوع الذى یبحثه ، وان كان یزید على هذه الأقوال ، فی کثیر من الأحيان ، شرحاً من عنده ، أو یبدى رأیه فیها .

کذلك بدا تأثر الهجویری بالرسالة واضحاً من المنهج العام للکتاب ، فقد ضمت الرسالة ، الى جانب الأصول الصوفية ، مجموعة كبيرة من تراجم شیوخ الصوفية جاءت على هيئة تذکرة داخل الکتاب ، وقد حذا الهجویری حذو القشیری فضمن كشف المحجوب سبعة أبواب فی تراجم الأئمة من الصحابة والتابعین وأتباع التابعین وشیوخ الصوفية السابقین لعصره والمعاصرين له . ونورد هنا مثلاً من أمثلة کثیرة یبین مدى افادة الهجویری من الرسالة :

(۱) « كشف المحجوب » ص ۱۴۱ .

(۲) « كشف المحجوب » ص ۲۰۹ - ۲۱۰ .

الرسالة (ج ٢)

ص ٥٨١ :

« باب التوحيد »

قال الله عز وجل : « والهكم اله واحد » .

أخبرنا الإمام أبو بكر بن الحسن ابن فورك ، قال : حدثنا أحمد بن محمود ... الخ ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فيمن كان قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد ، فقال لأهله : اذا مت فاحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم انصفوني في البحر ، فقال الله عز وجل للريح : اذى ما أخذت ، فاذا هو بين يديه ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال :

استحياء منك . فغفر له » .

التوحيد : هو الحكم بأن الله واحد ، والعلم بأن الشيء واحد أيضا توحيد .

ص ٥٨٢ : والتوحيد ثلاثة :

توحيد الحق للحق : وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد .

والثاني : توحيد الحق ، سبحانه ، للخلق : وهو حكمه ، سبحانه ، بأن العبد موحد ، وخلق توحيد العبد .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، سبحانه ، وهو علم العبد بأن الله عز وجل ، واحد وحكمه واخباره عنه بأنه واحد .

« كشف المحجوب »

ص ٣٥٦ :

« كشف الحجاب الثاني في التوحيد »
قوله تعالى : « والهكم اله واحد »
وقوله تعالى : « قل هو الله أحد »
الخ ..

قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« بينا رجل فيمن قبلكم لم يعمل خيرا قط الا التوحيد فقال لأهله اذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني نصفى في البر ونصفى في البحر في يوم رايح ففعلوا ، فقال الله عز وجل للريح اجمعى ما أخذت فاذا هو بين يديه فقال له ما حملك على ما صنعت فقال استحياء منك فغفر له » .

ص ٣٥٧ :

وحقيقت توحيد حكم كردن بود
بريكانكى جيزى بصحت علم بيكانكى
آن ، وجون حق تعالى يكيست بى
قسيم اندر ذات وصفات خود ،
وبى دليل وشريك اندر افعال خود ،
وموحدان ويرا بدين صفت دانند ،
دانش ايشانرا بيكانكى توحيد
خوانند . وتوحيد سه است يكى :
توحيد حق مر حق را وآن علم او بود
بيكانكى خود . وديكر : توحيد حق
مر خلق را وآن حكم وى بود بتوحيد
بنده وآفرينش توحيد اندر دل وى .
وسديكر : توحيد خلق باشد مر حق
را وآن علم ايشان بوحداية خداى
عز وجل .

وقد أورد القشيري مجموعة من أقوال الشيوخ في معنى التوحيد (١) فنقل الهجویری معظمها في فصل خصصه لرموز المشايخ في التوحيد ، واتبع كل قول بشرح من عنده .

ثالثا : بين طبقات الصوفية وكشف المحجوب :

اعتمد الهجویری في القسم الحادی عشر من كشف المحجوب على كتاب طبقات الصوفية وصرح هو نفسه بذلك عند ترجمته لمعروف الكرخي ، فذكر أنه ترجم له في الموضع الذي أورد ذكره فيه ، موافقة لما فعله أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه (٢) .

والهجویری أورد في القسم الحادی عشر أربعاً وستين ترجمة (٣) ، منها : ثلاث تراجم للأئمة : « أبو حنيفة النعمان » و « محمد بن إدريس الشافعي » و « أحمد بن حنبل » .

وسبع تراجم لشيوخ من الصوفية هم : حبيب العجمي ، مالك بن دينار ، حبيب بن سليم الراعي ، أبو حازم المدني ، محمد بن واسع ، عبد الله ابن المبارك المروزي ، داود بن نصير الطائي . وهؤلاء لم يترجم لهم السلمي في طبقات الصوفية .

أما التراجم الأربع والخمسون فهي لشيوخ وردت لهم تراجم في كتاب طبقات الصوفية ، منهم :

- عشرون : من شيوخ الطبقة الأولى .
- ثمانية عشر : من شيوخ الطبقة الثانية .
- ثمانية : من شيوخ الطبقة الثالثة .
- شيخان : من شيوخ الطبقة الرابعة .
- سته : من شيوخ الطبقة الخامسة (٤) .

وقد اعتمد الهجویری في تعريفه بهذه المجموعة من الشيوخ على بعض ما ورد عنهم في كتاب طبقات الصوفية ، فهو يضبط أسماءهم وكنياتهم كما

(١) قابل بين « الرسالة » ج ٢ ص ٥٨٢ — ٥٨٨ وكشف المحجوب ص ٣٦٠ — ٣٦٧ .

(٢) كشف المحجوب ص ١٤١ : الاصل الفارسي ، ص من الدراسة .

(٣) أنظر : ص

(٤) طابق بين فهرس أسماء شيوخ الطبقات الخمس في طبقات الصوفية وأسماء الشيوخ في الباب الحادی عشر من كشف المحجوب ص

جاءت في هذا الكتاب^١ ، ويذكر في التعريف بهم نبذا مما ورد عنهم فيه .
ويضيف في تراجم بعض المشيوخ رواية أو حكاية تواترت عنهم ، وهو غالبا
ما ينقلها عن مجموعة الروايات التي جمعها شيخه أبو الفضل الختلى ،
أو مجموعة الحكايات التي يشير اليها باسم : الحكايات أو حكايات
العراقيين . ثم يذكر قولاً باللغة العربية من الأقوال التي وردت عن صاحب
الترجمة في كتاب طبقات الصوفية ، ويتبعه بترجمة فارسية ، وشرح
للمعنى الصوفي الذي ينطوى عليه .

كذلك يستخدم الهجویری كثيرا من الأقوال التي وردت عن المشيوخ
في طبقات الصوفية عند مناقشته للموضوعات التي يتعرض لها في كتبه ،
فهو يلحق بكل باب فصلا في أقوال المشيوخ ورموزهم في الموضوع الذي يتحدث
عنه . ومعظم هذه الأقوال مما اثر عن هؤلاء المشيوخ وورد ذكره في كتاب
طبقات الصوفية .

وفيما يلي مثل للتطابق بين كشف المحجوب وطبقات الصوفية (١) ،
اخترته عفوا .

(١) أثبت في حواشي الترجمة الاقوال التي ورد ذكرها في طبقات الصوفية .

طبقات الصوفية

ص ٩١ :

ومنهم حاتم الأصم ، وهو حاتم ابن عنوان ويقال : حاتم بن يوسف .
كنيته أبو عبد الرحمن .

وهو من قدماء مشايخ خراسان ،
ومن أهل بلخ .

صاحب شقيق بن ابراهيم . وكان
استاذ أحمد بن خضرويه .

ص ٩٦ :

قال حاتم : الشهوة ثلاثة :

شهوة في الأكل ، وشهوة في الكلام
وشهوة في النظر . فاحفظ الأكل
بالثقة ، واللسان بالصدق ، والنظر
بالعبرة .

ص ١٩٢ :

شاه الكرمانى : ومنهم شاه
الكرمانى ، وهو شاه بن شجاع ،
أبو الفوارس . كان من أولاد الملوك

صاحب أبا تراب النخشبى . وكان
من أجلة الفتيان وعلماء هذه الطريقة
وله رسالات مشهورة والمثلثة التى
سمّاها مرآة الحكماء .

سمعت أبا الحسن الفارسي يقول
... سمعت ... يقول : سمعت
شاه بن شجاع يقول : « لأهل الفضل
فضل ما لم يروه ، فاذا رأوه فلا
فضل لهم . ولأهل الولاية ولاية ما لم
يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم .

كشف المحجوب

ص ١٤٢ :

ومنهم زين عباد وجمال أوتاد أبو
عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم .
رض .

از محتشمان بلخ بود ، واز قدماء
مشايخ خراسان .

مريد شقيق بود ، واستاد أحمد
خضرويه .

از وى مى آيد كه كفت :
الشهوات ثلاث شهوة في الأكل
وشهوة في الكلام وشهوة في النظر
فاحفظ الأكل بالثقة واللسان
بالصدق والنظر بالعبرة .

ص ١٧٤ :

ومنهم شاه شيوخ ، وتغير از
روزكار او منسوخ أبو الفوارس شاه
ابن شجاع الكرمانى از ابناء ملوك
بود .

صحبت أبو تراب نخشبى يافته
بود . ويرا رسالات مشهور اندر
تصوف وكتابى كردست كه انرا مرآة
الحكما خوانند .

اورا كلام عاليست . از وى مى
آيد كه كفت : « لأهل الفضل فضل
ما لم يروه فاذا رأوه فلا فضل لهم .
ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فاذا
رأوها فلا ولاية لهم » .

رابعاً : بين كشف المحجوب وتذكرة الأولياء :

أفاد العطار على نطاق واسع من كتاب كشف المحجوب ، وهو كثيراً ما ينقل عنه عين عباراته ، أو يذكرها مع قليل من التصرف ينحصر في استبدال بعض الكلمات والأفعال القديمة بأخرى حديثة ، وإن كان لا يشير إلى الكتاب أو مؤلفه في المواضع التي ينقل فيها عن كشف المحجوب ، باستثناء موضعين ذكر فيهما اسم الهجویری (١) .

ومما لا شك فيه أن العطار في تراجمه لشيوخ الصوفية يسلك مسلك التفصيل ، حتى أن كثيراً من تراجمه تستغرق الواحدة منها عدداً غير قليل من الصفحات ، وهو يعتمد في هذا على ما ورد في كتب التراجم العربية ، إلا أنه يعتمد أيضاً على كتابي كشف المحجوب وأسرار التوحيد .

وبالرجوع إلى الموازنة التي عقدها بهار (٢) بين تذكرة الأولياء وكشف المحجوب ، وبما أورده أيضاً « محمد عباسي » في مقدمته لكتاب كشف المحجوب (٣) . يمكن الاطلاع على نموذجين لاعتماد العطار على كشف المحجوب ، وإن كان يوجد على غرارهما نماذج كثيرة ، يستطيع الدارس للكتابين أن يلمسهما في سر .

خامساً : بين كشف المحجوب ونفحات الأنس :

ذكرنا من قبل أن نفحات الأنس يقوم أساساً على الترجمة الفارسية لكتاب طبقات الصوفية التي قام بها الشيخ عبد الله الأنصاري ، وأن الجامي قدم لكتابه بمقدمة تشتمل على تسع مقولات في الأصول الصوفية .

وقد اعتمد الجامي في هذه المقولات على مجموعة من كتب التصوف المعروفة العربية والفارسية ، مثل الرسالة القشيرية ، وعوارف المعارف ، وكشف المحجوب ، والتفسير الكبير ، ودلائل النبوة ، وصرح بأنه ينقل عن هذه الكتب ، وأشار إلى كل منها في الموضع الذي ينقل فيه .

وقد نقل الجامي عن كشف المحجوب مرتين :

الأولى : في القول في أصناف الولاية (٤) .

(١) « تذكرة الأولياء » أنظر : ج ١ ص ٢٠٨ ، ج ٢ ص ٦٨

(٢) « سبك شناس » أنظر : ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٩

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسي : ص بيست ودو .

(٤) « نفحات الأنس » أنظر : ص ١٩

والثانية : فى القول فى اثبات كرامات الأولياء (١) .

كما اعتمد الجامى على كشف المحجوب فى تراجم شيوخ الهجويرة ومعاصريه وبعض السابقين عليه ، مثل أبى القاسم الجرجانى (٢) ، وأبى العباس الشقانى (٣) ، وأبى الفضل الختلى (٤) ، و « خواجه » مظفر الكرمانى (٥) ، وأبى القاسم القشيرى (٦) ، وأحمد بن حماد السرخسى (٧) ، وغيرهم ، بل ان ما ورد فى نفحات الأنس عن بعض هؤلاء لا يتعدى نبذا مما ورد عنهم فى كشف المحجوب ، ويمكن التحقق من هذا بالرجوع الى تراجمهم فى كتابى كشف المحجوب ونفحات الأنس ، فى الصفحات المشار اليها فى الحاشية .

غير أن الجامى سلك مسلك العالم الأمين ، فهو يصرح فى كل مرة ينقل فيها عن كشف المحجوب بأنه ينقل عنه ، فيقول :

« صاحب كشف المحجوب كويد » .

أى : يقول صاحب كشف المحجوب :

وقد أفاد أيضا من كشف المحجوب اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث ، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب ، والثانى كتب باللغة العربية واعتمد على الترجمة الانجليزية للكتاب .

أما الأول فهو : « قاسم غنى » الذى اعتمد اعتمادا كبيرا فى كتابه « تاريخ تصوف در اسلام » على كشف المحجوب ، فهو ينقل عنه بمعدل صفحة من كل عشر صفحات من كتابه ، بل انه فيما يختص بفرق الصوفية ، قدم ملخصا لما ذكره الهجويرة فى كشف المحجوب بخصوص هذه الفرق ، وصرح بأنه ينقل عنه .

-
- (١) « نفحات الأنس » أنظر : ص ٢٢
 - (٢) أنظر « كشف المحجوب » ص ٢١١ ونفحات الأنس ص ٣٠٧
 - (٣) « كشف المحجوب » ص ٢١٠ ونفحات الأنس ص ٣١٤
 - (٤) « كشف المحجوب » ص ٢٠٨ ونفحات الأنس ص ٣١٥
 - (٥) « كشف المحجوب » ص ٢١٢ ونفحات الأنس ص ٣٠٨
 - (٦) « كشف المحجوب » ص ٢٠٩ ونفحات الأنس ص ٣١٣
 - (٧) « كشف المحجوب » ص ٢١٦ ونفحات الأنس ص ٣١٧

يقول :

« هجویری که در اواسط قرن بنجم کتاب معروف کشف المحجوب را تألیف کرده باب مخصوص راجع بفرق صوفیة نوشتہ ، کہ ذیلا خلاصہ آن برای مزید فایده نقل میشود(۱) .

وترجمته :

« وقد كتب الهجویری الذی ألف كتابه المعروف كشف المحجوب فی اواسط القرن الخامس ، بابا خاصا بالفرق الصوفیة ننقل فیما یلی خلاصه له من أجل مزید الفائدة » .

كما أفاد قاسم غنی من كشف المحجوب فی الجزء الآخر من كتابه ، والذی جعله علی هیئة قاموس للمصطلحات الصوفیة(۱) ، فهو فی هذا الجزء یعتمد علی تعریف الهجویری لهذه المصطلحات .

وأما الثانی فهو : « أبو العلاء عینی » الذی اعتمد فی كتابه : « التصوف الثورة الروحیة فی الاسلام » علی ترجمة نیکولسون الانجلیزیة لكشف المحجوب ، ونقل عنها كثيرا .

(۱) « تاریخ تصوف در اسلام » ص ۴۳۸
(۲) « تاریخ تصوف در اسلام » أنظر : ص ۴۳۸ — ۴۵۹

الفصل السادس القيمة العلمية للكتاب

تعرضنا في الفصل الرابع للتعريف بمجموعة من كتب التصوف التي سبقت كشف المحجوب والكتب التي جاءت بعده . وبيننا في الفصل الخامس مظاهر التأثير والتأثر بينه وبين هذه الكتب . وسنحاول في هذا الفصل أن نقيم الكتاب في ضوء ما توفر لنا من المعلومات نتيجة لتلك الدراسة المقارنة التي عقدناها في الفصلين السابقين ..

بالنسبة للكتب السابقة على كشف المحجوب :

رأينا أن الكتاب لم يسبق بكتب مؤلفه في موضوعه باللغة الفارسية ، وكل ما تقدم عليج من مؤلفات صوفية كان مكتوبا باللغة العربية . ووجدنا على رأس هذه المؤلفات ثلاثة كتب كانت ولا تزال تعتبر من أهم الكتب المؤلفة في التصوف وهي : « اللمع » و « طبقات الصوفية » و « الرسالة » ..

وإذا أردنا أن نتعرف على قيمة كتاب كشف المحجوب ومنزلته بين هذه الكتب نراه يتميز عليها بمميزات نلخصها فيما يلي :

✳ **أولا :** من حيث المنهج العام والطريقة التي عالج بها المؤلف مواده :

(١) اقتصر الكتاب الأول ،* أي اللمع ، على التعرض لبحث الأصول والعقائد الصوفية . ولكن المؤلف اعتمد في معالجته لهذه الأمور على إيراد أقوال الشيوخ المتقدمين في الموضوع الذي يبحثه ، ولم يضيف إلى ذلك خبراته الشخصية ودراساته ، ولم يكن يدلي بآرائه الشخصية إلا في القليل النادر ..

(ب) اختص الكتاب الثاني ، أي طبقات الصوفية ، بتراجم شيوخ الصوفية السابقين فذكر المؤلف فيه تواريخ حياة هؤلاء الشيوخ وما ورد عنهم من حكايات ، وما أثر عنهم من أقوال وأفعال ،

وما سمعه بنفسه ممن عاصروه . ودوره في هذا كله مقصور على جمع هذه المعلومات وعرضها ..

(ج) جمع الكتاب الثالث ، أى « الرسالة » بين منهجى الكتابين السابقين ، فعالج الأصول المتعلقة بالتصوف في قسم منه ، وتعرض في القسم الثانى لتراجم الشيوخ ، ولكن المؤلف سلك في معظم الأحيان مسلك الإيجاز ، وكان يكتفى بذكر الحكايات والأقوال والتعريفات ، ولم يكن يشارك برأيه في كثير من الموضوعات أو يناقش الآراء التى ينقلها عن غيره ..

ومن ناحية أخرى فإن المادة التى وردت في الرسالة تعتمد الى حد كبير على ما ورد في كتابى اللمع وطبقات الصوفية مما يوضح لنا مدى افادة مؤلفها من سابقه ..

وإذا أتينا بعد ذلك الى كشف المحجوب ، نجد أنه من حيث المنهج العام ، يجمع بين الأصول الصوفية وتراجم الشيوخ ، فقد حذا فيه الهجویری حذو معاصره القشیری ، إلا أنه زاد على ذلك بأنه سلك مسلك المعلم فتناول كل شيء بالإيضاح والتفسير ، فحتى الجزء الخاص بالتراجم يشارك فيه الهجویری برأيه في المسائل التى تعرض عندما يترجم لأولئك الشيوخ .

وعلى الرغم من أن الهجویری استقى مادة كتابه من الكتب السابقة عليه ، ونقل كثيرا من الموضوعات التى ناقشها عن اللمع والرسالة ، إلا أنه لم يقف قط موقف الرواية ، فقد بدت شخصيته واضحة في كتابه نتيجة للمنهج العلمى السليم الذى اختطه لنفسه ، والذى التزمه في الكتاب من أوله الى آخره ، فهو عندما يتعرض لمادة من المواد يدرس عموما الآراء السائدة بالنسبة للموضوع الذى يبحثه ، ويفند هذه الآراء اذا اقتضى الأمر ، ثم يدلى برأيه الخاص الذى توصل اليه من خلال خبرته العلمية وتجاربه الشخصية ، فهو في هذا معلم أكثر منه مؤرخ أو راوية . وكان من نتيجة هذا المسلك أن رأينا كثيرا من المشكل الصوفية والموضوعات الجدلية قد أضحت أقرب فهما نتيجة للإيضاحات التى أضفاها الهجویری عليها ، والتى توصل اليها عن طريق تجربته الخاصة ..

ومن هنا نرى أن كشف المحجوب يعد أكثر أهمية من رسالة القشیری التى ترجع أهميتها الى أنها مجموعة قيمة من الأمثلة والحكايات والأقوال والتعريفات ، كما أنه يتفوق على اللمع والطبقات للسبب الذى أشرنا اليه ..

* ثانيا : من حيث المميزات التى انفرد بها كشف المحجوب :

انفرد كشف المحجوب بميزة ضخمة لم يسبقه اليها كتاب آخر ، وهذه الميزة تتمثل فى القسم الرابع عشر منه ، وهو الباب الخاص بفرق الصوفية ، والتى قسمها مؤلفه الى اثنتى عشرة فرقة ، نسب كلا منها الى مؤسسها ، وشرح المذهب الخاص بها .

يقول نيكولسون :

« ان أبرز باب فى كشف المحجوب ، هو الباب الرابع عشر الذى يتعلق بالمذاهب التى تتبعها مختلف الفرق الصوفية ، والتى عددها المؤلف باثنتى عشرة مدرسة صوفية . وبقدر ما أعلم ، فانه أول كاتب فعل ذلك (١) » .

والواقع ان الهجويرى أول من قسم الصوفية الى هذه الفرق أو المدارس ، فلم يرد فى أى من كتب التصوف السابقة على كشف المحجوب مثل اللمع والتعرف وقوت القلوب وطبقات الصوفية والرياسة ، اشارة الى هذا التقسيم ، والفرقة الوحيدة التى ذكرت كفرقة متميزة لها تعاليم خاصة تزيد على ما للصوفية عامة هى فرقة « الملامتية » التى ألف عنها أبو عبد الرحمن السلمى رسالته المسماة بهذا الاسم (٢) . وقد أطلق الهجويرى على هذه الفرقة اسم : « القصارية » نسبة الى أبى حمدون القصار الزعيم الأول للملامتية .

والهجويرى فى الباب الذى خصصه فى كتابه للفرق الصوفية ، ينظر الى المجال الصوفى العام ويحاول أن يتبين المعالم البارزة فيه ، ويركز هذه المعالم حول كبار الشيوخ الذين كان لهم أتباع وتعاليم روحية اصطبغ بها تصوفهم ، وخلفت أثرها فى مجرى التصوف العام ، لذلك أفرد كل واحد من هؤلاء الشيوخ بكلمة خاصة عالج فيها أخص ما يمتاز به تصوفه وتصوف فرقته ، تاركا مختلف التفاصيل التى يشترك فيها مع غيره .

كما أنه يعرج أحيانا على المسائل التى هى موضع خلاف بين صوفى وآخر ليعرضها عرضا موضوعيا مفصلا ، ويورد أقوال الصوفية الآخرين فيها ، ويسجل رأيه الخاص فى أغلب الأحيان .

(١) انظر « مقدمة الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب » .

(٢) حقق أبو العلا عفيفى هذه الرسالة ونشرها فى كتابه : « الملامتية والصوفية وأهل

الفتوة » القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .

وقد وضح الهجویری بهذا الباب تاریخ المذاهب الصوفیة واتجاهاتها منذ ظهور التصوف حتى عصره . وأخذ عنه كل من جاء بعده وكتب عن الفرق والمدارس الصوفیة .

وبالنسبة لكتب التصوف الفارسیة التي جاءت بعد كشف المحجوب :

فقد تعرضنا فی هذا البحث لثلاثة من هذه الكتب ، تأثرت أكثر من غيرها بكشف المحجوب ، وهی : « أسرار التوحید » و « تذكرة الأولياء » و « نفحات الأنس » .

أما الكتاب الأول ، أی أسرار التوحید ، فقد اختص بشرح حال شیخ من شیوخ الصوفیة ولا شك أنه من هذه الناحیة يعد نموذجا رائعا من حیث تصویره لحیة ذلك الشیخ . وهو وإن مس فی سباقه كثيرا من الأصول الصوفیة ، والمسائل التي تتعلق بالتصوف ، إلا أن هدفه الأساسی هو تسجیل حیاة الشیخ أبی سعید بن أبی الخیر ، ولیس وضع نظام كامل للصوفیة يقوم على أساس علمی وترتیب منطقی على نحو ما ورد فی كشف المحجوب .

وأما الكتابان الآخران ، أی « تذكرة الأولياء » و « نفحات الأنس » ، فهما لا یخرجان عن كونهما كتابین من كتب التذاكر التي تهتم فی الدرجة الأولى بسیر الشخصیات التي تتحدث عنها ، وإن كان هذا لا يمنع من أنها مفيدة من حیث المعلومات التي تمدنا من خلال تصویرها للحیة الروحية لشخصیاتها ، والطريقة التي كانوا یسلكونها فی سیرهم وسلوكهم ، وتنقل لنا ما أثر عنهم من أقوال وتعريفات صوفیة مهمة .

وإذا كان الجامی قد تعرض فی مقدمة « نفحات الأنس » لبعض الأصول الصوفیة ، إلا أنه نقل كل أصل منها عن كتاب بعینه ، وذكر اسم كل كتاب فی الموضع الذي ينقل عنه فيه ، فدوره فی هذا مقصور على النقل . ومن بین الكتب التي نقل عنها نجد اسم كتاب كشف المحجوب (١) .

ونستخلص من ذلك كله أن كشف المحجوب یتمیز على الكتب التي سبقته ، والتي جاءت بعده بأن مؤلفه صاحب منهج خاص فی دراسة التصوف ، فهو لا یكتفی كغيره بروایة أقوال المتصوفة ، أو الترجمة لحیاتهم ، أو ایراد الأصول الصوفیة دون نقاش فیما یدور حولها من آراء ، وإنما یتناول هذه المسائل بالجدل والنقاش حینا ، وبالإيضاح والتفسیر أحيانا ، وتبدو شخصيته واضحة فی كل ما يتعرض له .

(١) « نفحات الأنس » أنظر ص ١٩ - ٢٠ .

الفصل السابع مخطوطات الكتاب، طبعاته الترجمة الانجليزية

مخطوطات « كشف المحجوب » :

توجد مخطوطات كشف المحجوب في مكتبات متفرقة في جميع أنحاء العالم ومن بينها عدة مكتبات أوربية . وان من يرجع الى فهارس «ايتيه» (١) و « ريو » (٢) و « بلوشيه » (٣) يجد وصفا لبعض هذه المخطوطات التي تنتمي من حيث كتابتها الى تواريخ مختلفة .

وقد اعتمد « زوكوفسكى » عند طبعه كتاب كشف المحجوب ، لأول مرة ، على خمس نسخ خطية أشار اليها في مقدمة هذه الطبعة ، وهى :

١ — مخطوطة «فينا» التابعة للمكتبة الملكية فى فينا ، والمحفوطة تحت رقم ٣٣٤ من مجموعة هامر ، وترجع هذه النسخة الى القرن التاسع الهجرى .

٢ — مخطوطة « طشقند » المحفوظة فى المكتبة العمومية فى طشقند ويرجع تاريخ كتابتها الى سنة ١٠٤٦ هـ .

٣ — مخطوطة « سمرقند » ويبدو أنها لا تحمل تاريخا .

٤ — مخطوطة « بطرسبرج » التابعة لجامعة سن ، وتحمل تاريخ ١٠١١ هـ .

٥ — مخطوطة « مؤسسة اللغات الشرقية » بوزارة الخارجية (٤) .

كما أشار « ايتيه » فى فهرسه للمخطوطات الفارسية الذى أعده للمكتبة

(١) «Ethé» : Gat Vol. I.

(٢) «Rieu» : Gat Vol. I.

(٣) «Blechet» : Catalogue des Manuscrits Persians, Vol. 2.

(٤) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة زوكوفسكى ص ٦٢ .

الهندية الى خمس مخطوطات قدم وصفا شاملا لها وقيدها تحت أرقام :
١٧٧٣ ، ١٧٧٤ ، ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ ..

وتوجد نسخة خطية لكشف المحجوب محفوظة في دار الكتب المصرية
ورد ذكرها في فهرس المخطوطات الفارسية تحت رقم ١٧٩٣ (٤) تصوف
فارسي طلعت (وهى نسخة بدون تاريخ وتقع في ٣٨٥ ورقة مكتوبة بقلم
فارسي عادى ، وضم اليها فهرس بخط مخالف (١) .

طبعت كشف المحجوب :

طبع كتاب « كشف المحجوب » عدة مرات نذكر منها :

(١) الطبعة الأولى : طبعة « زوكوفسكى » :

وهى الطبعة التى قام بها المستشرق الروسى « زوكوفسكى »
فحقق وصحح النص الفارسى لكشف المحجوب ، وكتب له مقدمة
قيمة ، وضم اليه فهرس وافية ، غير أن الأجل لم يممهله ، فطبع
الكتاب بعد وفاته ونشر فى « ليننجراد » عام ١٩٢٦م — ١٣٤٤هـ (٢)
فى مائتى وخمسين نسخة فقط (٣) .

(ب) طبعت لاهور :

طبع كشف المحجوب ثلاث مرات على الحجر فى « لاهور » .

الأولى : الطبعة التى اعتمد عليها « نيكولسون » فى ترجمته
للكتاب وطبعت فى لاهور عام ١٩٠٣م (٤)

الثانية : طبعة « أحمد عيشاه » بروفسر اسلامية كالج ،
لاهور ، ١٩٣٣م — ١٣٤٢ هـ ، وتقع فى ٣٢٩ صفحة .

(١) خلط المفهرس فى النسخة رقم ١٧٩٢ بين كتابى « كشف المحجوب » للهجویری فى
التصوف و « كشف المحجوب » لابی یعقوب السجزى فى المذهب الاسماعیلى فأضاف
الكتابین الى الهجویری . وقد بدا الخطأ واضحا عندما نقل العبارة الاولى من
الكتاب فهو يقول : وأوله « أكاه باش كه عقاید علم در حجاب است » فهذه العبارة
بداية كتاب السجزى لا الهجویری . أنظر : فهرس المخطوطات الفارسية .
دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) فهرست کتابهای جابى فارسی ج ١ عمود ١٢٦٥ .

(٣) « كشف المحجوب » أنظر : مقدمة محمد عباسى ص ٣١ .

(٤) Bulletin of the School of Oriental Studies : London, 1929, p. 475.

الثالثة : طبعة بتصحيح « محمد حسين فاضل ديوبندى » لاهور ١٩٣١ م وتقع في ٣٢٨ صفحة .

(ج) طبعة « سمرقند » عام ١٣٣٠ هـ .

(د) طبعات ايران :

الأولى : في طهران ١٣٢٧ هـ ش (١) .

الثانية : طبعة « مؤسسة مطبوعات أمير كبير » المأخوذة عن طبعة زوكوفسكى . تهران ١٣٣٦ هـ ش .

الثالثة : طبعة به تصحيح على قويم ، تهران ١٣٣٧ هـ ش (٢) .

الترجمة الانجليزية لكشف المحجوب :

في الوقت الذى كان فيه « زوكوفسكى » يعمل في اعداد نص دقيق لكشف المحجوب تمهيدا لطبعه كان المستشرق الانجليزى « نيكولسون » يعمل في ترجمة الكتاب نفسه .

وقد اعتمد نيكولسون في ترجمته على طبعة لاهور ١٩٠٣ م (٣) ، وذكر أن هذه الطبعة غير دقيقة ، وخاصة في هجاء الأسماء ، ولكن النص فيها يتفق الى حد كبير مع مخطوطتين في المكتبة الهندية . كما رجع أيضا الى المخطوط الموجود في المتحف البريطانى .

ويقول نيكولسون ان النسخة الأوربية تعتبر كاملة تقريبا ، ولم يحذف منها شيء هام ، وان كان لم يتردد في الاختصار كلما سنحت له الفرصة لذلك (٤) .

وقد قدم نيكولسون لترجمته بمقدمة طيبة في ثمان صفحات ، ونشرت الترجمة في لندن سنة ١٩١١ م ضمن سلسلة جب التذكارية .

(١) « فهرست كتابهای جابى فارسى » ج ١ عمود ١٢٦٥ .
(٢) « فهرست كتابهای جابى فارسى » خانباباشار تهران ١٣٤٢ ش ، ج ٢ عمود ٢٦٢٣
(٣) Bulletin of the School of Oriental Studies, London 1929, p. 475.
(٤) «E.I.W. GIBB MEMORIAL» A Translation of : «The Hashaf Al-Mah-jub» : Reynold A. Nicholson, London 1911, (Preface p. XXIV).

كذلك قام نيكولسون بنشر ترجمة انجليزية للمقدمة الروسية التي كتبها
زوكوفسكى لطبعته لكشف المحجوب ، وقام بترجمتها عن الروسية ،
« سيدنى جيروld » ، ونشرت هذه الترجمة فى دوريات معهد اللغات
الشرقية فى لندن عام ١٩٢٩ م تحت عنوان : « الصوفية الفارسية » (١) .

* * *

القسم الثاني
ترجمة كتاب كشف المحجوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وتمم

« الحمد لله الذى كشف لأولياته بواطن ملكوته ، وقشع لأصفيائه سراير جبروته ، وأراق دم المحبين به سيف جلاله ، وأذاق سر المشتاقين روح وصاله ، هو المحيى لموات القلوب بأنوار ادراكه ، والمنفس لها براحة روح المعرفة بنشر أسمائه . والصلاة على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه من بعده (١) » .

قال الشيخ أبو الحسن على بن عثمان بن أبى على الجلابى ثم الهجویری رضی الله عنه :

سلكت طريق الاستخارة ، ومحوت من قلبى الأغراض التى كانت ترجع الى النفس ، وقمت بحكم ما دعوتنى اليه — أسعدك الله — وعزمت تمام العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، وأسهمت هذا الكتاب « كشف المحجوب » . وقد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب وانى أطلب من الله تعالى العون والتوفيق فى اتمام هذا الكتاب ، وأبرأ من حولى وقوتى فى القول والعمل ، وبالله التوفيق .

فصل : قد كان مرادى من اثبات اسمى فى بداية الكتاب شيئين : أولهما نصيب الخاصة ، والثانى نصيب العامة .

أما ما هو نصيب العامة : فهو أن جهلة هذا العلم عندما يرون كتابا جديدا لا يكون اسم مصنفه مثبتا فى أماكن عدة منه ، فانهم ينسبونه الى أنفسهم ، وبذلك لا يتحقق مقصود المصنف ، لأن المراد من الجمع والتأليف والتصنيف ليس الا احياء اسم المصنف بذلك الكتاب ، فيدعو له القراء والمتعلمون بالخير .

وقد وقعت لى هذه الحادثة مرتين :

الأولى : أن رجلا طلب ديوان شعري وأخذه ، ولم يكن يوجد منه سوى

(١) هذا الجزء من مقدمة المؤلف باللغة العربية . ويلاحظ أن ما يرد بعد هذا بين علامات التنصيص انها هو فى الاصل الفارسي باللغة العربية .

النسخة الأصل . فغيرها جملة ، وأسقط اسمى من أولها ، وأضاع —
تاب الله عليه — تعبى .

والثانية : أنى عملت كاتباً في طريقة التصوف اسمه « منهاج الدين » ،
فمحا اسمى من عنوانه مدع ركيك لا يزن قوله ، وأظهر للعوام أنه عمله ،
ولو أن الخواص كانوا يضحكون منه على هذا القول . ولم يبارك الله له
في ذلك ، ومحا اسمه من ديوان طلاب حضرته .

وأما ما هو نصيب الخاصبة : فهو أنهم عندما يرون كتاباً ، ويعرفون أن
مؤلفه كان عالماً بذلك العلم أو الفن ، ومحققاً ، فأنهم يرعون حقه على نحو
أفضل ، ويكونون أكثر جداً في قراءته ودراسته ، فيتأتى بذلك مراد القارئ
وصاحب الكتاب بصورة أفضل ، والله أعلم بالصواب .

فصل : وأما ما قلته من أنى سلك طريق الاستخارة ، فالمراد منه حفظ
آداب الله عز وجل ، فقد أمر سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
وانتبهين بهذا ، وقال : «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان
الرجيم» (١) . والاستعاذة والاستخارة والاستعانة كلها بمعنى الطلب ،
وتسليم الأمور لله سبحانه وتعالى ، والنجاة من الآفات المختلفة . وقد روى
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، أن النبي كان
يعلمهم الاستخارة كما كان يعلمهم القرآن . فحينما يعلم العبد أن خيرية
الأمور ليست منزلة بكسبة وتدبيره ، لأن الله تعالى أعلم بصلاح العباد ،
وما يصيب العبد من خير أو شر مقدر ، فأى وجه غير التسليم للقضاء وطلب
العون منه ، يدفع عن العبد تأثير النفس وتأمرها في كل أحواله ، ويمن
عليه بخيره وصلاحه .

وعلى هذا : ينبغى على العبد أن يستخير في بداية جميع الأعمال ، عسى
الله تعالى أن يحفظه من الخطر والخلل والآفة ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى محوت من قلبى الأهواء التى ترجع الى
النفس ، فالمراد منه أن كل عمل يدخل فيه الغرض النفسانى تزول منه
البركة ، وينحرف القلب عن الطريق المستقيم الى محل الأعوجاج والانشغال
وهذا لا يخرج عن أمرين : إما أن يتحقق غرضه ، وإما لا يتحقق ، فاذا
تحقق غرضه يكون في ذلك هلاكه ، وليس لباب الجحيم مفتاح غير حصول
هوى النفس . وإذا لم يتحقق غرضه ، فالأغلب أن يكون قد محاه من قلبه
لأن في ذلك نجاته ، ومفتاح باب الجنة ليس سوى منع النفس عن أغراضها ،

(١) سورة « النحل » آية ٩٨

كما قال الله تعالى : « ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى (١) » .
والأغراض النفسية فى الأمور هى أن العبد فى العمل الذك يعمل به يكون
على غير رضا الله تعالى ، ولا يطلب نجات النفس من العقوبة .

وفى الجملة : ان رعونات النفس لا حد لها ، ومراميها فى ذلك خفية .
وسوف يرد فى الكتاب باب فى هذا المعنى فى موضعه ان شاء الله تعالى .

فصل : وأما ما قلته من أنى قمت بحق ما دعوتنى اليه ، وعزمت تمام
العزم على اتمام مرادك من هذا الكتاب ، فقد كان المراد من هذا القول
انك رأيتنى أهلا للسؤال وسألتنى واقعتك ، وطلبت هذا الكتاب ، وكان
مرادك منه الفائدة ، فوجب على لا محالة أداء حق سؤالك . ولما لم
أصل الى اتمام حق سؤالك فى حينه ، وكان يلزم لى تمام العزم والنية ،
لأكون فى حال ابتداء الكتاب وعقد النية على اتمامه قد أدت حكم السؤال
وجوابه . وحين يكون قصد العبد فى ابتداء عمله مقرونا بالنية ، فانه ان
يظهر منه خلل فى ذلك العمل يكن معذورا فيه . ومن ذلك أن النبى صلى
الله عليه وسلم قال : « نية المؤمن خير من عمله » (٢) . والنية فى ابتداء
العمل خير من ابتداء العمل بلا نية .

والنية فى الأمور سلطان عظيم وبرهان صادق ، لأن العبد بالنية يتحول
من حكم الى آخر بدون أن يبدو على ظاهرة أثر لهذا التحول ، كما لو أن
شخصا جاع مدة دون أن ينوى الصيام فهو لا يثاب على ذلك ، وحين ينوى
بقلبه الصيام يصير من المقربين ، بدون أن يبدو على ظاهرة أثر . ومثل
المسافر الذى يرد مدينة ويبقى مدة ، فانه لا يصير مقيما مالم ينو الإقامة ،
واذا نوى صار مقيما . وأمثال هذا كثير ، فالنية عند بدء العمل تكون قياما
بحقه والله أعلم .

فصل : وأما ما قلته من أنى أسميت هذا الكتاب « كشف المحجوب » ،
فان الفرض منه أنه طالما كان اسم الكتاب ناطقا على ما فيه ، فان أهل
البصيرة حين يسمعون اسم هذا الكتاب يعرفون ماذا كان المراد منه .

وأعلم أن أهل العالم كلهم محجوبون عن لطيفة التحقيق الالهية باستثناء
أولياء الله تعالى وجل ، وأعزاء حضرته . ولما كان هذا الكتاب فى بيان طريق
الحق ، وشرح الأقوال ، وكشف حجب البشرية ، فانه لا يناسبه غير هذا
الاسم .

(١) سورة « النازعات » آية ٤٠ ، ٤١

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان عن أنس (مختصر شرح الجامع الصغير للمناوى :
طبع القاهرة ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م ، ج ٢ ص ٣٣١) .

والكشف في الحقيقة هو هلاك للمحجوب، كما أن الحجاب هلاك المكشف، لأنه لا طاقة للقريب بالبعد ، ولا للبعيد بالقرب ، كالحيوان الذي يتولد من الخل فهو يموت في كل ما عداه ، وما يتولد من سواه يهلك في الخل .

وسلوك طريق المعاني صعب جدا الا لمن خلق من أجله . والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « كل ميسر لما خلق له (١) » . وقد خلق الله عز وجل كلا لعمل ، وجعل طريقه سهلا عليه .

أما الحجاب فحجابان : حجاب رينى — نعوذ بالله منه — وهو لا ينكشف أبدا . وحجاب غينى ، وهذا سرعان ما ينكشف .

ولتوضيح ذلك : أن عبدا قد تكون ذاته حجابا للحق فيستوى لديه الحق والباطل ، وعبدا تكون صفته حجابا للحق ، وطبعه وسره يطلبان الحق دائما ، ويفران من الباطل .

فالحاجب الذاتى ، وهو الرينى ، لا ينكشف أبدا . ومعنى الرين والختم والطبع واحد ، كما قال الله تعالى : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (٢) . وقد أظهر حكم ذلك فقال : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (٣) » ، ثم بين علته — فقال — « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم (٤) » . وقال أيضا : « طبع الله على قلوبهم (٥) » .

وحجاب الصفة ، وهو الغينى ، يجوز أن ينكشف وقتا دون وقت ، فتبدل الذات غريب وعجيب في الحكم ، وغير ممكن في الغين . أما تبديل الصفة فنجائز .

ولشيوخ هذه الطريقة في معنى الرين والغين اشارات لطيفة ، كقول الجنيد (٦) رحمه الله : « الرين من جملة الوطنيات ، والغين من جملة الخطرات » . والوطن باق ، والخطر طارئ .

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى في السنن عن أبى حميد الساعدى : « أجهلوا في طلب الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له منها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٧) ورواه أحمد في مسنده والطبرانى في الكبير عن أبى الدرداء : « كل امرئ مهمل لما خلق له » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٥٣) .

(٢) سورة « المطففين » آية ١٤

(٣) سورة « البقرة » آية ٦

(٤) سورة « البقرة » آية ٧

(٥) سورة « النحل » آية ١٠٨

(٦) أبو القاسم الخزاز : أصله من نهاوند ، ومولده ومنشأه بالعراق . كان فقيها تفقه على أبى ثور ، وكان يفتى في حلقته . صاحب السرى السقطلى والحارث المحاسبى وغيرهم . وهو من أئمة المتصوفة وساداتهم ، ومن العلماء ، وكانوا على عهده يلتقبونه =

مثال ذلك : أنه لا يمكن عمل مرآة من أى حجر ، ولو اجتمع كثير من الصقالين . وعندما تصدأ المرآة فانها تصفو بالمصقلة ، لأن الظلام أصلى فى الحجر ، والضياء أصلى فى المرآة . والأصل باق ، ولا بقاء لتلك الصفة العارية .

وقد عملت هذا الكتاب ليكون صقالا للقلوب الأسيرة فى حجاب الغين ويكمن فيها جوهر ونور الحق ، فيكشف عنها الحجاب ببركة قراءة هذا الكتاب ، وتجد الطريق الى حقيقة المعنى . أما أولئك الذين عجن وجودهم من انكار الحق وارتكاب الباطل ، فانهم لا يجدون الطريق قط الى شواهد الحق ، ولا يكون لهم من هذا الكتاب فائدة .

فصل : وأما ما قلته من أنه قد علم مقصودك ، واستقام الكلام فى غرضك فى هذا الكتاب ، فان المراد من هذا القول أنه مالم يعلم مقصود السائل للمسئول فانه لا يتحقق مراد السائل ، لأن السؤال يكون عن اشكال ، واذا لم يحل الاشكال بالجواب ، فانه لا يفيد . ولا يمكن حل الاشكال الا بالعلم بالاشكال .

وأما قولى ان الكلام استقام فى غرضك ، فيعنى أن للسؤال على الجملة جواب على الجملة ، حين يكون السائل عليها بجملة وأخوات سؤاله . ثم ان للمبتدئ حاجة الى التفصيل ، وتحديد الأقسام وبيانها ، وبخاصة ان غرضك — أسعدك الله — كان أن أضع كتابا مفصلا فى الاجابة عن سؤالك ، وبالله التوفيق .

فصل : وأما ما قلته من أنى أطلب التوفيق والعون من الله تعالى : فان الغرض منه أنه ليس للعبد ناصر غير الله ، لأنه هو الذى ينصره على الخيرات ، ويزيده توفيقا .

وحقيقة التوفيق هى موافقة تأييد الله لفعل العبد فى أعمال الصواب . والكتاب والسنة ناطقان على وجود صحة التوفيق ، والأمة مجتمعة على

= « طاووس العلماء » . توفى سنة سبع وتسعين ومائتين . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر من هذا الكتاب ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٠٥ ، وغيات الايمان ج ١ ص ١١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٥ ، نفحات الانس ص ٨٠ ، خزينة الاضياء ج ١ ص ٨١) .

ذلك ، باستثناء طائفة من المعتزلة (١) والقدرية (٢) الذين يقولون ان لفظ التوفيق خال من كل المعانى .

وقد قال فريق من مشايخ الصوفية ان التوفيق هو القدرة على الطاعة عند الاستعمال . فحين يكون العبد مطيعا لله ، يكون له من الله المزيد أيضا ، وتكون قوته أكثر مما كانت عليه من قبل ، وفي جملة الحالات من بعد — ذلك أن ما يكون من سكون العبد وحركته جملة هو فعل الله تعالى وخلقه — فيسمون تلك القوة التى يطيع بها العبد بالتوفيق . وليس هذا الكتاب موضعاً اشرح هذه المسألة ، لأن المراد منه شيء آخر .

(١) « المعتزلة » يسمون : أهل العدل والتوحيد (الملل والنحل على هامش الفصل : ج ١ ص ٥٤) . ويذهب كثيرون الى أن اسم المعتزلة يرجع تاريخه الى انفصال واصل بن عطاء (م : ١٨١ هـ) عن حلقة الحسن البصرى (م : ١١٠ هـ) بعد اختلافهما في مرتكب الكبيرة : هل يبقى مؤمناً ، أم يصير كافراً ؟ وذهب واصل الى أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ، منزلته بين المتزلتين . فطرده الحسن عن مجلسه فاعزل عنه ، وجلس اليه عمرو بن عبيد (م : ١٤٤ هـ) غليل لهما ولأنساعهما معتزلون (وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٧ ، ج ٢ ص ١٧٠) كان أكثر كلام المعتزلة في القدر ولذلك كانوا يسمون في بادئ الامر بالقدرية .

والمعتزلة كانوا فرقا مختلفة : عاش بعضهم في البصرة وبعضهم في بغداد . وكان الغالب عليهم حب المناظرة والاختلاف ، فنجد كل شيخ منهم يعارض سائر الشيوخ ويناقضهم حتى لنجد بين المتأخرين منهم الشيخ أبا هاشم الجبائى (م : ٣٢١ هـ) يعارض أبا عبد الله الشيخ أبا على الجبائى (م : ٣٠٣ هـ) ويخلف معه في مسائل كثيرة . غير أن المعتزلة بالرغم من كثرة ما بينهم من خلاف يتفقون بوجه عام على أصول خمسة من اعتقدها كان معنزلياً ، وهى : القول بالتوحيد ، والعدل ، والوعيد والوعيد ، والمنزلة بين المتزلتين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١) .

على أن أسوا ما تورط فيه المعتزلة : القول بخلق القرآن ، في أيام الخليفة المعتصم (م : ٢٢٧ هـ) والخليفة الواثق (م : ٢٣٢ هـ) وتنكيلهم بخصوصهم ، فأذاقوا الناس العذاب اذا هم لم يقولوا بذلك ، وأقاموا المحاكم بعرض فيها على العلماء والقضاة القول بخلق القرآن فمن لم يقل عذب وأهين ، حتى أن المؤرخين يسمون هذه الفترة ببحنة خلق القرآن . ثم جاء الخليفة الموكل (م : ٢٤٧ هـ) فأبطل هذا القول (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨) . وفى القرن الثالث الهجرى كان أهل السنة ينظرون الى المعتزلة نظرة كراهية واحتقار . وفى أواخر هذا القرن خرج عليهم الاسعري (م : ٣٢٤ هـ) بعد أن كان منهم ، وحاول التوفيق بين مذهب أهل السنة والعقل ، وانتشر مذهبه في العراق في أواخر القرن الرابع الهجرى (وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٧) . والهجو يرمى كصوفى من أهل السنة وقف موقفاً مشدداً من المعتزلة وتصدى لاقوالهم وعارض آراءهم ووصفهم في كتابه بالخروج على الدين ، بل ان الامر بلغ به الى درجة أن كفرهم وأخرجهم من دائرة الموحدين .

(٢) « القدرية » : هم الذين يبحثون في مسألة الاختيار والقدرة الانسانية . وقد اختلفوا فيهم ، فالتبهرستاني لقب المعتزلة بالقدرية وقال ان هذا اللفظ يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى . (الملل والنحل على هامش الفصل ج ١ ص ٥٤) . وقال آخرون انهم كانوا يقولون بأن الله يخلق الخير وأن الشيطان يخلق الشر (ابن قتبية : مختلف الحديث . طبع القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ٥) . وقد حاول القاضي عبد الجبار (م : ٤١٥ هـ) أكبر شيوخ المعتزلة في « الرى » في عصره أن يثبت أن اسم القدرية لا ينبغى أن يطلق على المعتزلة ، بل على القائلين بالقدر خيره وشره من الله (ظهر الاسلام ج ٤ ص ٤٣ ، ٤٤) .

والآن : أعود بمشيئة الله عز وجل الى مقصودك . وقبل أن أبدأ الكلام أذكر أولاً أصل سؤالك ، ومن هنا بدأ الكتاب ، وبالله التوفيق .

صورة السؤال :

قال السائل ، وهو أبو سعيد الهجویری (١) : بين لى على التحقيق طريقة التصوف ، وكيفية مقامات الصوفية ومذاهبهم وأقوالهم ، وأظهر لى رموزهم وإشاراتهم ، وكيف تكون محبتهم لله عز وجل ، وكيفية اظهارها على القلوب ، وما السبب فى حجاب العقول عن كنهها وما هيئتها ، ونفرة النفس من حقيقتها ، وسكينة الروح الى صفوتها . وما يتعلق بهذا من المعاملات .

قال المسئول وهو على بن عثمان الجلابى ، رحمه الله (٢) :

أعلم أن هذا العلم قد اندرس فى الحقيقة فى زماننا هذا ، وبخاصة فى هذه الديار ، حيث انشغل الخلق بأهوائهم ، وأعرضوا عن طريق الرضا . وقد بدت لعلماء هذا العصر وأدعياء هذا الوقت صورة لهذه الطريقة على خلاف أصلها . فاستحضر همتك الأمر قصرت عنه أيدي أهل هذا الزمان وأسرارهم ، باستثناء خواص حضرة الحق ، وانقطع عنه مراد كل أهل الإرادة ، وانعزلت عن وجوده معرفة أهل المعرفة غير خواص حضرة الحق ، واكتفى خاصة الخلق وعامتهم منه بالعبارة ، واشتروا حجابهم بأرواحهم وقلوبهم ، وانقلب الأمر من التحقيق الى التقليد ، واخفى التحقيق وجهه عن أحوالهم ، ورضى العوام بذلك قائلين اننا نعرف الحق ، وفرح الخواص بأن يحسوا التمنى فى قلوبهم ، والهواجس فى نفوسهم ، والميل الى الدار الآخرة فى صدورهم . وهم ، لانشغالهم ، يقولون ان هذا شوق الرؤية ، وحرقة المحبة . وعجز الأدعياء بدعواهم عن كل المعانى ، وكف المريدون عن المجاهدة ، وسموا ظنهم المعلول مشاهدة . وقد عملت قبل هذا كتباً فى هذا المعنى ضاعت كلها . وقد أقتبس الأدعياء الكاذبون بعض أقوال منها لصيد الخلق ، وغسلوا البعض الآخر ولم يبقوا عليه ، لأن لصاحب الطبع رأس مال من الحسد وانكار نعمة الله . وفريق آخر لم يغسلوها ولكن لم يقرأوها . وفريق قرأوها ولم يدركوا معناها ، واكتفوا بعباراتها ليكتبوها ويحفظوها ويقولوا اننا نتكلم فى علم التصوف والمعرفة ، وهم له منكرون . والسبب فى هذا كله أن هذه المعانى كبريت أحمر ، وهو شىء عزيز ، وحين

(١) سبق الإشارة اليه . فى القسم الاول .

(٢) عبارة « رحمه الله » اضافة من الناسخ .

يوجد يكون كيمياء(١) . ووزن دائق منه يحيل كثيرا من النحاس والقصدير
ذهبا أحمر .

وفي الجملة : كل يطلب الدواء الذي يوافق علته ، ولا يلزمه غيره . كما
يقول واحد من الكبار :

(شعر عربى)

فكل من فى فؤاده وجع يطلب شيئا يوافق الوجع

فمن يكون دواء علته أحقر الأشياء لا يلزمه الدر والمرجان ليخلطوهما
بالبلسان(٢) ودواء المسك . وهذا المعنى أعز من أن يكون لكل نصيب منه .

وقد فعل جهال هذا العلم عين هذا من قبل بكتب المشايخ ، حين وقعت
نلك الخزائن المألى بالأسرار الالهية فى أيديهم ، فلم يعرفوا معناها ، وألقوا
بها الى أيدي صناع القلائس الجهلة ، وأعطوها للمجلدين الأدناس ،
فصيروها بطانة للقلائس ، وجلدا لدواوين شاعر أبى نواس(٣) ، وهزل
الجاحظ(٤) . وحين يحط بازى الملك على جدار بيت عجوز فانهم يقصون
ريشه وجناحه لا محالة .

(١) « كيمياء » : الكيمياء فى اصطلاح القدماء المادة التى تضاف الى المعادن الخسيسة
كالنحاس والرصاص فنحيلها ذهباً ، ونسمى أحيانا « الاكير » ، وتطلق أيضا على
علم تحويل هذه المعادن الى ذهب .

(٢) نوع من الزيت يستخرج من نبات يعرف بالبلسم ، ورد ذكره فى كتاب « الابنية عن
حقائق الادوية » لموفق بن على الهروى . وهو كتاب فارسى من مؤلفات القرن الرابع
الهجرى (أنظر : سبك شناسى ج ٢ ص ٢٤) .

(٣) أبو على الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس الحكيم . الشاعر المعروف .
كان جده مولى الجراح بن عبد الله الحكيم والى خرسان ، ونسبته اليه . قيل
أن الخصيب صاحب ديوان الخراج بمصر سأل عن نسبه ، فقال : أغنانى أدبى عن
نسبى فأمسك عنه . من الطبقة الاولى من المولدين ، وشعره عشرة أنواع ، وهو
مجيد فى العشرة . كان المؤمن يقول : لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل
قول أبى نواس :

الا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

توفى أبو نواس سنة خمس وقيل ست وقيل ثمان وتسعين ومائة ببغداد ، ودفن فى
مقابر السويزى . قيل له أبو نواس لذرايبين كانتا تنوسان على عاتقيه (وفيسات
الاعيان ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦) .

(٤) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى اللبثى المعروف بالجاحظ البصرى :
العالم المشهور صاحب التصانيف فى كل فن ، له مقالة فى أصول الدين ، والبه
تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة . كان تلميذاً لأبى اسحاق بن سيار البلخى
المعروف « بالنظام » المنكلم المشهور . من أحسن بصائفه وأمتعها : كتاب
« الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين » . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة
(وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٨٨) .

وقد أوجدنا الله عز وجل في زمان أسمى أهله الهوى شريعة ، وطلب الجاه والرياسة والتكبر عزا وعلما ، ورياء الخلق خشية ، واخفاء الحفيظة في القلوب حلما ، والمجادلة مناظرة ، والمحاربة والسفاهة عظمة ، والنفاق زهدا ، والتمنى ارادة ، وهذيان الطبع معرفة ، وحركات القلب وحديث النفس محبة ، والالحاد فقرا ، والجحود صفوة ، والزندقة فناء ، وترك شريعة النبي صلى الله عليه وسلم طريقة ، وأسموا آفة أهل الزمان معاملة ، حتى احتجب أرباب المعاني بينهم ، على حين صارت الغلبة لهم ، كما حدث في الفترة الأولى لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع آل مروان . وما أجمع ما قاله سلطان أهل الحقائق وبرهان التحقيق والدقائق أبو بكر الواسطي^(١) رحمه الله : « ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الاسلام ولا أخلاق الجاهلية ولا أحكام ذوى المروءة^(٢) » .

ويقول الشبلى^(٣) وفقا لهذا :

(شعر عربى)

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب فكل بعيد الهم فيها معذب

فصل : أعلم — قواك الله — أنى وجدت هذا العالم محلا لبعض الأسرار الالهية ، والمكونات موضعا لودائعه ، والمثبتات مكانا للطائفة في حق أحبائه .

= وكان الجاحظ لسان المعتزلة في عصره ، رد على المشبهة وتكلم في اعجاز القرآن وألف في الاحتجاج للنبوة ونصرة الرسالة ، وفي الطبائع . وتكلم في الخلود في الآخرة .

من أقواله أن أفعال العباد تنسب الى العباد مجازا وانما هي أفعال الطبيعة تظهر فيهم ، الا الإرادة فانها فعل الانسان (ظهر الاسلام ج ٤ ص ١١) . وللجاحظ كتاب « نظم القرآن » (الفهرست ص ٥٧) .

(١) اسمه : محمد بن موسى . من قدماء اصحاب الجنيد وأبى الحسين النورى . أصله من فرغانة ، ويعرف بابن الفرغانى . كان عالما بالاصول وعلوم الظاهر . خرج من العراق وهو شاب ومشايخه في الاحياء ، فتكلم بخراسان بأبيورد ومرو ، وأكثر كلامه بمرو ، ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة . (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٦٥ ، نفحات الانس ص ١٧٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٠٣) .

(٣) أبو بكر الشبلى : اسمه « دلف » ويقال : ابن جحدر . خراسانى الاصل ، بغدادى المولد والمنشأ . تاب في مجلس خير النساج ، وصاحب الجنيد ، وصار أوحده عصره حالا وعلميا . كان عالما فقيها على مذهب مالك . مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٦٠ ، نفحات الانس ص ١٨٠ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٨٦) .

والجواهر والأعراض والعناصر والأجرام والأشباح كلها حجاب تلك الأسرار واثبات كل من هذه في محل التوحيد شرك ، فالله تعالى قد جعل هذا العالم في محل الحجاب ، حتى اطمأنت الطبايع كل منها في عالمه بأمره ، واحتجبت بوجودها عن توحيد الحق، وانشغلت الأرواح في العالم بمزاحها ، وابتعدت بالمقارنة عن محل الخلاص ، حتى صعب على العقول فهم الأسرار الربانية . واحتجبت لطائف القرب عن الأرواح ، حتى احتجب الإنسان بوجوده في مظلة الغفلة ، وصار معيوباً بحجابه في محل الخصوصية ، كقول الله تعالى : « والعصر ان الانسان لفي خسر (١) » وقال أيضاً « انه كان ظلوما جهولا (٢) » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلق الله الخلق في ظلمة ثم ألقى عليه نورا (٣) » .

وقد وقع هذا الحجاب مزاجاً له (للإنسان) في العالم ، لتعلق الطبايع به ، ولتصرف العقل فيه ، حتى صار مكتفياً بجهله ، واشتري بروحه حجابه عن الحق ، لأنه غافل عن جمال الكشف . وأعرض عن تحقيق السريرة الربانية ، واستقر في محل الدواب ، وجفل من محل نجاته . ولم يشم رائحة التوحيد ، ولم ير جمال الأحدية ، ولم يذق ذوق التوحيد ، وعجز بالتقليد عن تحقيق المشاهدة ، ورجع بحرص الدنيا عن إرادة الله ، وقهر النفس الناطقة (٤) بالنفس الحيوانية (٥) المجردة من الحياة الربانية . وأقر حركانه وطباعه جملة في نصيب الحيوانية ، ولا يعرف غير الأكل والنوم ومتابعة الشهوات . وقد أمر الله عز وجل أحبائه بالأعراض عن هذا كله ، وقال : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون (٦) » . لأن سلطان طبعهم أخفى عليهم سر الحق ، وحل بهم الخزلان والحرمان مكان العناية والتوفيق ، وأصبحوا جميعاً متابعين للنفس الأمارة — وهى الحجاب الأعظم ومنبع السوء والشر — كما قال الله تعالى : « ان النفس لأماراة بالسوء (٧) » .

والآن : فلأبدأ بالكتاب ، وأوضح مقصودك في المقامات والحجب ،

.

(١) سورة « العصر » آية ١ ، ٢

(٢) سورة « الاحزاب » آية ٧٢

(٣) لم أحد له سنداً .

(٤) النفس الناطقة : هى الجوهر المجرد عن المادة فى ذواتها ، مقارنة لها فى انفعالها .
(تعريفات الجرجاني ص ١٤٢) .

(٥) النفس الحيوانية : هو كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة . (المصدر السابق) .

(٦) سورة « الحجر » آية ٣

(٧) سورة « يوسف » آية ٥٣

وأبسطها ببيان لطيف ، وأشرط عبارات أهل الصنائع ، وألحق بذلك قدرا من أقوال المشايخ ، وأمدّه بغير الحكايات ، ليتحقق مرادك ، ويعلم من ينظر في هذا العلم من علماء الظاهر وغيرهم : أن لطريق التصوف أصلا قويا وفرعا مثمرا .

وقد حث جميع المشايخ من أهل العلم كل المريدین علی تعلم العلم ، والمداومة عليه ، حتى صاروا حريصين عليه ، ولم يتابعوا الله والهزل أبدا ، ولم يسلكو طريق اللغو ، بعد أن صنف كثير من مشايخ الصوفية وعلمائهم في هذه المعاني ، وأظهروا بالعبارات اللطيفة براهين من الخواطر الربانية ، وبالله العون والتوفيق ، وحسبنا الله ونعم الرفيق .

الباب الأول باب إثبات العلم

قوله تعالى في وصف العلماء : « انما يخشى الله من عباده العلماء (١) »
وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم (٢) » . وقال أيضا : « اطلبوا العلم ولو بالصين (٣) » .

واعلم أن العلم كثير ، والعمر قصير . وليس تعلم كل العلوم ، مثل علم النجوم والطب وعلم الحساب والصناعات البديعية وما يشبه هذا ، فريضة على الناس ، الا بالقدر الذي يتعلق بالشرعية من كل من هذه العلوم ، فالنجوم لمعرفة الوقت في الليل ، والطب للاحتماء ، والحساب للفرائض ومدة الحيض ، وما يشبه هذا ، ففرائض العلم بقدر ما يصح به العمل .

وقد ذم الله عز وجل أولئك الذين يتعلمون العلوم غير النافعة في قوله تعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم (٤) » . والرسول عليه السلام استعاذ وقال : « أعوذ بك من علم لا ينفع (٥) » .

واعلم أنه يمكن عمل الكثير من علم قليل . وينبغي أن يكون العلم مقرونا بالعمل كما قال عليه السلام : « المتعبد بلا فقه كالحمار في الطاحونة (٦) » .

(١) سورة « فاطر » آية ٢٨

(٢) رواه البيهقي في شعب الايمان وابن عبد البر في العلم عن أنس بن مالك : « اطلبوا العلم ولو بالصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » (شرح المناوى للجامع الصغير ج ١ ص ٧٢) .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٠٢

(٥) رواه أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه عن أنس : اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع وعمل لا يرفع ودعاء لا يسمع (شرح المناوى للجامع الصغير ج ١ ص ٧٣) . وقد عرف الغزالي العلم الذى لا ينفع بأنه العلم المذموم ، وان كان العلم لا يذم لعينه وانما يذم في حق العباد لاحد هذه الاسباب الثلاثة :

١ — أن يكون العلم مؤذيا لضرر ما لصاحبه أو غيره .

٢ — أن يكون مضرا بصاحبه في غالب الامر كعلم النجوم .

٣ — الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم . (احياء علوم الدين : أنظر ج ١ ص ٢٦) .

(٦) رواه أحمد في مسنده عن وائلة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٢٥) .

فثبته المتعبدون بلا فقه بحمار الطاحونة ، لأنه مهما يدور يظل في مكانه ولا يقطع أى طريق .

ورأيت طائفة من العوام فضلت العلم على العمل ، وطائفة أخرى فضلت العمل على العلم ، وكلاهما باطل ، لأن العمل بلا علم لا يكون عملاً ، فالعمل يصير عملاً حين يكون موصولاً بالعلم ، ليكون العبد بذلك متجهماً لثواب الحق (١) . مثال ذلك : الصلاة ، فانه ما لم يكن العلم أولاً بأركان الطهارة ، ومعرفة الماء والقبلة وكيفية النية وأركان الصلاة ، فالصلاة لا تكون صلاة . ومادام العمل يصير عملاً بعين العلم ، فكيف يقول جاهل بفضله عنه ؟

وأولئك الذين فضلوا العلم على العمل ، على باطل أيضاً ، لأن العلم بلا عمل لا يكون علماً ، فالتعلم والحفظ والاستيعاب كلها عمل ، لأن العبد مثاب بذلك . ولو لم يكن علم العالم بفعله وكسبه ، لما كان له بذلك أى ثواب .

وهذا كلام طائفتين (٢) ، احدهما : أولئك الذين ينسبون جاه الخلق الى العلم ولا طاقة لهم بمعاملته ، ولم يصلوا الى تحقيق العلم ، فيفضلون العمل عن العلم لأنهم لا يعرفون علماً ولا عملاً ، حتى ليقول جاهل : لا يلزم الاقبال ويلزم الحال (٣) ، ويقول آخر : يلزم العلم ولا يلزم العمل .

(١) يتفق رأى الهجویری فی ضرورة ارتباط العلم بالعمل وإثابة العبد بهما مع رأى أبی طالب المکی حیت یقول : اعلم ان من عمل سعلم أو نطق به فأصاب الحقيقة عند الله تعالى فله أجران : أجر التوفیق ، وأجر العمل . وهذا مقام العارفين . (قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٢٨٠) .

(٢) أورد المؤلف قول الطائفة الاولى فقط .

(٣) يقسم الصوفية العلوم تقسيمات مختلفة ، منها تقسيمهم العلم الى ظاهر وباطن ، وتقسيمهم العلوم الى علوم الدنيا وعلوم الآخرة ، وتقسيمهم العلم الى علم القال وعلم الحال .

أما علم القال فيطلقونه على بعض العلوم الدينية كالفقه وعلم الكلام والجدل ، وأما علم الحال فهو علم التصوف الذى يتعلق بالمقامات والاحوال : كالمحبة ، واليقين ، والمعرفة وغيرها . وهم ينظرون الى العلوم من النوع الاول على أنها من الامور الكسبية التى كسبها الانسان بالتعلم . أما العلوم من النوع الثانى فهي من الامور الذوقية والمواهب الالهية التى يمنحها الله للمقربين من الصوفية ويختصهم بها . يقول الجنيد :

علم التصوف ليس يعرفه	الا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده	وكيف يشهد ضوء الشمس مكثوف

(قوت القلوب : أنظر ج ١ ص ٣٢٤) .

ويُرد عن إبراهيم بن أدهم (١) رحمه الله أنه قال : رأيت حجرا ملقى في الطريق ، وقد كتب عليه : أدركني واقرأ . قل : فأدركته ، ورأيت أنه قد كتب عليه : « أنت لا تعمل بما تعلم ، فكيف تطلب ما لا تعلم ؟ » .

أى : اعمل بما تعلم حتى تعلم أيضا ببركات ذلك ما لم تعلم .

ويقول أنس بن مالك (٢) رضى الله عنه : « هممة العلماء الدراية ، وهممة السفهاء الرواية » ، لأن أخوات الجهل منتقية عن العلماء ، فمن يطلب بالعلم جاه الدنيا وعزها لا يكون عالما ، لأن طلب الجاه والعز من أخوات الجهل . ولا درجة قط في المرتبة مثل العلم ، لأنه حين لا يكون لا يعلم — العبد — أى لطيفة لله تعالى ، وحين يوجد يكون لائقا لجميع المقامات والشواهد والمراتب .

فصل : اعلم أن العلم علمان : أحدهما علم الله تعالى ، والآخر علم الخلق . وعلم العبد يتلشى في جنب علم الله تعالى ، لأن علمه صفته وقائم به (٣) ، ولا نهاية لأوصافه . وعلمنا صفتنا وقائم بنا ، وأوصافنا منتهية ، لقوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا (٤) » .

وفي الجملة : العلم من صفات المدح ، وحده الاحاطة بالمعلوم وتبين المعلوم ، وأفضل حدوده هو أن « العلم صفة يصير الحى بها عالما » . والله عز وجل قال : « والله محيط بالكافرين (٥) » . وقال أيضا : « والله بكل شىء عليم (٦) » .

وعلم الله : هو علم يعلم به جملة الموجودات والمعدومات ، ولا مشاركة للخلق معه ، وهو غير متجزى وغير منفصل عنه . والدليل على علمه

(١) أبو اسحاق إبراهيم بن أدهم : من أهل بلخ . كان من أبناء الملوك فنفى به هاب أيقظه من غفله . صاحب سفيان الثورى والفضيل بن عياض بمكة . ودخل الشام فكان يعمل فيه ويأكل من عمل يده . مات بالشام سنة احدى أو اثنين وستين ومائه (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٧ ، الرسالة ج ١ ص ٥١ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ٥٥ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٤١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٣٦) .

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام ، الانصارى البخارى . خدم النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، وشهد بدرا . مات سنة تسعين أو بعدها . وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٥) .

(٣) يعارض الهجویری هنا رأى المعزلة الذى يقول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته . ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته لا يعلم وقدره وحياة هى صفات قديمة ومعان قائمة به (الملل والنحل على هامش الفصل : أنظر ج ١ ص ٥٥) .

(٤) سورة « الاسراء » آية ٨٥ .

(٥) سورة « البقرة » آية ١٦ .

(٦) سورة « البقرة » آية ٢٨٢ .

ترتيب فعله ، لأن الفعل المحكم يقتضى علم الفاعل ، فعلمه لاحق بالأسرار ومحيط بالظواهر .

وينبغى للطالب أن يعمل الأعمال في مشاهدته ، بحيث يعلم أن — الله — بصير به وبأفعاله .

ترد حكاية ، أنه كان بالبصرة (١) رئيس ذهب الى حديقة له ، فوقعت عينه على جمال امرأة فلاح ، فأرسل الرجل لشغل ، وقال للمرأة : غلقى الأبواب . قالت : غلقت كل الأبواب الا بابا لا أستطيع اغلاقه ! قال : أى باب ذاك ؟ قالت : الباب الذى بيننا وبين الله جل جلاله ! فندم الرجل واستغفر .

حكاية : قال حاتم الأصم (٢) رضى الله عنه : اخترت أربعة من العلوم فنجوت من كل العالم . قيل : ما هى ؟ قال :

أولها : انى عرفت أن لله تعالى حقا لا يستطيع غيرى أن يؤديه ، فانشغلت بأدائه .

وثانيهما : انى عرفت أن لى رزقا مقسوما لا يزيد بحرصى ، فاسترحت من طلب الزيادة .

وثالثها : انى عرفت أن لى طالبا — أى الموت — لا أستطيع الفرار منه فتهيأت له .

ورابعها : انى عرفت أن لى الها جل جلاله مطلع على فخلت منه ، وامتنعت عما لا يليق عمله ، لأنه حين يكون العبد عالما بأن الله تعالى ناظر اليه ، لا يعمل عملا يخجل منه يوم القيامة .

فصل : أما عالم العبد ، فينبى أن يكون فى أمور الله تعالى ومعرفته . وعلم الوقت وما يفيد بموجبه ظاهرا وباطنا فريضة على العبد ، وهو على قسمين :

(١) « البصرة » : اختطها عبة بن غزوان المازنى عامل عمر بن الخطاب . وكانت مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها فى وقت افتتاحها فى ولاية عمر بن الخطاب فى سنة سبع عشرة (البلدان ص ٨٥) .

(٢) حاتم بن عنوان الأصم : ويقال حاتم بن يوسف . كنيته أبو عبد الرحمن . من قدماء مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . صاحب شقيق بن ابراهيم ، وكان أستاذ أحمد بن خضروية . مات سنة سبع وثلاثين ومائتين (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة ج ١ ص ٨٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس ص ٦٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .

أحدهما : الأصول ، والآخر : الفروع . وكل واحد منهما له ظاهر وباطن
فظاهر الأصول : قول الشهادة ، وباطن الأصول : تحقيق المعرفة .
وظاهر الفروع : ممارسة المعاملة ، وباطن الفروع : تصحيح النية .
وقيام كل هذين بدون الآخر محال ، فظاهر الحقيقة بلا باطن :
نفاق ، وباطن الحقيقة بلا ظاهر : زندقة . وظاهر الشريعة بلا باطن :
نفس ، وباطن الشريعة بلا ظاهر : هوس .

ولعلم الحقيقة أركان ثلاثة :

الأول : العلم بذات الله عز وجل ووحدانيته ، ونفى التشبيه عن ذاته
المنزهة جل جلاله .

والثاني : العلم بصفات الله وأحكامها .

والثالث : العلم بأفعال (الله) وحكمته .

ولعلم الشريعة أركان ثلاثة :

الأول : الكتاب .

والثاني : السنة .

والثالث إجماع الأمة .

والدليل على العلم يكون باثبات ذات الله تعالى وصفاته المنزهة وأفعاله،
لقوله تعالى : « فاعلم انه لا اله الا الله (١) » . وقال أيضا : « فاعلموا
أن الله مولاكم (٢) » . وقال أيضا : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل (٣) » .
وقال أيضا : « أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت (٤) » . ومثل هذه
الآيات كثيرة ، وهى كلها دلائل على النظر فى أفعال الله تعالى وتقديس ،
ليعرف بتلك الأفعال الفاعل بصفاته .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من علم أن الله تعالى ربه وأنى
نبيه حرم الله تعالى لحمه ودمه على النار (٥) » .

أما العلم بذات الله تعالى فهو : أن يعلم العاقل والبالغ أن الله تعالى

(١) سورة « محمد » آية ١٩

(٢) سورة « الأنفال » آية ٤٠

(٣) سورة « الفرقان » آية ٤٥

(٤) سورة « الفاشية » آية ١٧

(٥) رواه البزار عن عمران : « من علم أن الله ربه وأنى نبيه موقنا من قلبه حرمه الله
على النار » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣٠٦) .

موجود في قدم ذاته ، ولا حد ولا حدود له . وأنه ليس في مكان أو جهة ، وليست ذاته موجب آفة ، ولا شبيه له من خلقه ، ولا صاحبة له ولا ولد . وكل ما يتصور في الوهم ويقاس في العقل فهو جل جلاله خالقه ، وما لـكه ، وربـه ، لقوله تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١) » .

وأما العلم بصفات الله فهو : أن تعلم بأن صفاته تعالى موجودة به ، فهي ليست هو ، ولا جزءا منه ، هي قائمة به ، وهو قائم بذاته ، ودائم : مثل العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ، لقوله تعالى : « أنه عليم بذات الصدور (٢) » . وقال أيضا : « والله على كل شيء قدير (٣) » . وقال أيضا : « هو الحي لا اله الا هو (٤) » . وقال أيضا : « وهو السميع البصير (٥) » . وقال أيضا : « فعال لما يريد (٦) » . وقال أيضا : « قوله الحق (٧) » .

وأما العلم بأفعال الله فهو : أن تعلم أنه تعالى وتقدس خالق الخلق وخالق أفعالهم ، وأن العالم لم يكن موجودا وصار موجودا بفعله ، وهو مقدر الخير والشر ، وخالق النفع والضر ، لقوله تعالى : « خالق كل شيء (٨) » .

والدليل على اثبات أحكام الشريعة هو : أن تعلم أنه قد جاءنا رسل من الله تعالى بمعجزات ناقضة للعادة ، وأن رسولنا محمدا المصطفى صلى الله عليه وسلم حق ، وله معجزات كثيرة . وأن ما أخبرنا به من غيب وعيان كله حق .

والركن الأول من الشريعة : الكتاب ، لقوله تعالى : « منه آيات محكمات (٩) » .

والثاني : السنة ، لقوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (١٠) » .

-
- (١) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٢) سورة « الشورى » آية ٢٤ .
 - (٣) سورة « البقرة » آية ٢٨٤ .
 - (٤) سورة « غافر » آية ٦٥ .
 - (٥) سورة « الشورى » آية ١١ .
 - (٦) سورة « هود » آية ١٠٧ .
 - (٧) سورة « الانعام » آية ٧٣ .
 - (٨) سورة « الرعد » آية ١٦ .
 - (٩) سورة « آل عمران » آية ٧ .
 - (١٠) سورة « الحشر » آية ٧ .

والثالث : اجماع الأمة ، لقوله عليه السلام : « لا تجتمع أمتى على الضلالة ، عليكم بالسواد الأعظم » (١) .

وفي الجملة : ان أحكام الحقيقة كثيرة ، واذا أراد أحد أن يجمعها كلها لا يستطيع ، لأنه لا نهاية للطائف الحق تعالى .

فصل : اعلم أنه توجد جماعة من الملحدة — لعنهم الله — يسمونهم السوفسطائية (٢) ، يذهبون الى أنه لا يصح العلم بأى شيء ، وأن العلم ذاته غير موجود .

ونقول لهم : هذا العلم الذى تعرفون أنه لا يصح به العلم بأى شيء : صحيح أم لا ؟ فاذا قالوا : نعم ، فقد أثبتوا العلم ، واذا قالوا : لا ، فالشيء الذى لا يصح ، تكون معارضته محالاً . والكلام مع قائل ذلك لا يكون من العقل .

وهناك فريق من الملحدة (٢) الذين ينتمون الى هذه الطريقة يقولون أن علمنا لا يصح بشيء ، فترك العلم أثم لنا من اثباته . وهذا من حمقهم وضلالتهم وجهلهم ، لأن ترك العلم لا يخرج عن اثنتين : إما أن يكون بعلم ، أو بجهل . والعلم لا ينفى العلم ، ولا يكون ضده . وترك العلم بالعلم محال . ويبقى هنا الجهل ، فاذا صح أن نفى العلم يكون جهلاً ، وأن تركه يكون بالجهل ، والجاهل مذموم ، والجهل قرين الكفر ، فان — قولهم هذا — يكون باطلاً ، إذ لا تعلق للحق بالجهل . وهذا مخالف لجميع المشايخ .

ولما سمع الناس هذا القول وعملوا به ، قالوا : ان مذهب جملة أهل التصوف هو هذا ، ومسلكتهم هكذا ، حتى تشوش اعتقادهم ، وعجزوا عن تميز الحق من الباطل . وقد سلمنا الأمور كلها لله تعالى ليظفروا فى ضلالهم ،

(١) رواه ابن ماجه عن أنس : « ان أمتى لن تجتمع على ضلالة فاذا رأيتم اختلافنا فعليكم بالسواد الأعظم » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٥١) .

(٢) « السوفسطائية » : ذكرهم ابن حزم على أنهم مبطلو الحقائق . أنظر « الفصل » ج ١ ص ٨ . وفى « التعريفات » و « أقرب الموارد » : السفسطه والسفسطه — بفتح وكسر السين — (يونانية) قياس مركب من الوهميات ، والغرض من افحام الخصم واسكاه ج سفسطات . السفسطى من يأتى بالسفسطه . السوفسطائية : فرقة منكرون الحسيات والبدهييات وغيرها . (أنظر تعريفات الجرجاني ص ٦٨) .

(٣) « الملحدة » : حيثما ذكر الهجویری اسم الملحدة فإنه يقصد به الصوفية الادعاء الذين أحدثوا فى التصوف أموراً تتنافى مع ما يراه المحققون من الصوفية : من ذلك قولهم بالسلطان من الشرائع وسقوط الكاليف من عبادات وطاعات عن بلفوا مرتبة الولاية ، وغير ذلك مما يتنافى مع الدين والشرع ، ويشير اليه الهجویری فى موضعه .

فان يتمكن الدين منهم ، فانهم يتصوفون تصوفا خيرا من هذا ، ولا يتجنبون حكم الرعاية ، ولا ينظرون الى احباء الله عز وجل بهذه النظرة ، ويحتاطون في احوالهم افضل من هذا .

واذا تعلق قوم من الملاحدة بهؤلاء الأحرار ليخلصوا أنفسهم من الآفات بجمالهم ، وليعيشوا في ظل عزهم ، فلماذا يقيسون الكل عليهم ، ويختارون في معاملتهم المكابرة العيسانية ، ويدوسون قدرهم — في هذا الباب — بأقدامهم ؟

وقد جرت لى مناظرة مع دعى منتسب الى العلم ، أسمى تاج الرعونة عز العلم ، ومتابعة الهوى سنة الرسول عليه السلام ، وموافقة الشيطان سيرة الأئمة ، وقال فى مناظرته : ان الملاحدة اثنتا عشر طائفة ، واحدة منها بين المتصوفة . فقلت له : اذا كان بين المتصوفة طائفة واحدة من هؤلاء ، فان الاحدى عشرة الأخرى بينكم ! وهم يستطيعون أن يحموا أنفسهم من طائفة ، أفضل مما تستطيعون أنتم حماية أنفسكم من الاحدى عشرة .

وكان هذا كله نتيجة لفتور الزمن ، والآفات التى ظهرت . وقد حفظ الله تعالى أوليائه دائما بين قوم ، وجعل أولئك القوم مهجورين بين الخلق من أجلهم . وما أجمل ما قال شيخ المشايخ وشمس المريدين « على بن بندار الصيرفى » (١) رحمة الله عليه : « فساد القلوب على حسب فساد الزمان وأهله » (٢) .

والآن : أورد فصلا فى أقوالهم ليكون تنبيها لمن للحق فى أمره عناية صادقة من منكرى هذه الطائفة ، وبالله التوفيق .

فصل : يقول محمد بن الفضل البلخى (٣) رحمه الله : « العلوم ثلاثة : علم من الله ، وعلم مع الله ، وعلم بالله » (٤) .

(١) أبو الحسن على بن بندار الصيرفى : كان من أجله شيوخ نسابور . صاحب كثيرا من الشيوخ ، وكتب الحديث الكثير ورواه . مات سنة تسع وخمسين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٥٠١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ١١٥) .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (انظر : ص ٥٠٣) .

(٣) أبو عبد الله محمد بن الفضل بن العباس . مريد أحمد بن خضروية . كان من أجله مشايخ خراسان . أصله من بلخ وأخرج منها بسبب المذهب فنزل سمرقند ومات بها سنة تسع عشرة وثلثمائة . (انظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٢ ، الرسالة ج ١ ص ١١٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٧ ، نفحات الانس ص ١١٦) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية مع شرح آخر (انظر : ص ٢١٥) .

فالعلم بالله : هو علم المعرفة الذى عرفه به جميع أوليائه . ولو لم يكن تعريفه وتعرفه لما عرفوه ، لأن كل أسباب الاكتساب المطلق منقطعة عن الحق تعالى . ولا يصير علم العبد علة لمعرفة الحق ، لأن علة معرفته تعالى وتقدس إنما هى أيضا هدايته واعلامه .

والعلم من الله : هو علم الشريعة ، وهو أمر وتكليف منه لنا .

والعلم مع الله : هو علم مقامات طريق الحق ، وبيان درجات الأولياء . فالمعرفة اذن لا تصح بدون قبول الشريعة ، وممارسة الشريعة لا تستقيم بغير اظهار المقامات .

ويقول أبو على الثقفى(١) رحمه الله : « العلم حياة القلب من الجهل ، ونور العين من الظلمة »(٢) .

أى أن العلم حياة القلب من موت الجهل ، ونور لعين اليقين من ظلمة الكفر . وكل من يجهل علم المعرفة قلبه ميت بالجهل ، وكل من يجهل علم الشريعة قلبه مريض بالجهل ، فقلوب الكفار ميتة لأنها جاهلة بالله تعالى ، وقلوب أهل الغفلة عليلة لأنها جاهلة بأوامره .

ويقول أبو بكر الوراق الترمذى(٣) رحمه الله : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد تزندق ، ومن اكتفى بالفقه دون الورع تفسق »(٤) .

والمراد بهذا القول أن تجريد التوحيد بلا معاملة ومجاهدة يكون جبرا ، والموحد يكون جبرى القول وقدرى الفعل ، ليصح مسلكه بين الجبر والقدر .

(١) اسمه محمد عبد الوهاب . لقي أبا حفص الحداد وحيدونا القصار ، كان أميا في أكثر علوم الشرع ، مقدما في كل فن منه . عطل أكثر علومه واستغل بعلم الصوفية وتكلم فيه أحسن الكلام . مات سنة ثمان وعشرين وتلتها . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٣٦١ ، الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٨٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨١ ، نفحات الانس ص ٢٠٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٩٢) .

(٢) ورد بنحوه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٦٤) .

(٣) هو محمد بن عمر الحكيم . أصله من ترمذ وأقام ببلخ . لقي أحمد بن خضرويه وصحبه . وصحب محمد بن سعد بن ابراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خشانم البلخي ، له الكنب المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٢١ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٠٢ ، نفحات الانس ص ١٢٣) .

(٤) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام تبذع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والكلام تفسق ، ومن تفنن في هذه الامور كلها تخلص » . (انظر طبقات الصوفية ص ٢٢٤) .

وهذا حقيقة ما قاله ذلك الشيخ — رحمة الله عليه : « التوحيد دون الجبر وفوق القدر » ، فكل من يكتفى من التوحيد بالعبارة دون المعاملة يصير زنديقا . أما الفقه فيشترط له الاحتياط والتقوى ، وكل من ينشغل بالرخص والتأويلات والتعلق بالشبهات ويحوم حول المجتهدين بلا مذهب ، للترخص ، سرعان ما يقع في الفسق . وهذا كله يتأتى من الغفلة .

وحسنا قال شيخ المشايخ بن معاذ الرازي (١) رحمه الله : « اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلين ، والفقراء المداهنيين ، والمتصوفة الجاهلين » (٢) .

أما العلماء الغافلون ، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قبلة قلوبهم ، واختاروا السهولة من الشرع ، واتخذوا عبادة السلاطين وصيروا بلاطهم مطافهم ، وجعلوا جاه الخلق محرابهم ، وانخدعوا بغرور مهارتهم ، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم ، وأطلقوا لسان طعنهم في الأئمة والأساتذة ، وانشغلوا بقهر علماء الدين بكلام مزيد عليه ، وإذا وضعوا الكونين في كفة ميزانهم لا بظهران ، ومن ثم صيروا الحقد والحسد مذهباً . وجملة القول : أن هذا كله لا يكون علماً ، لأن العلم صفة تنتفى بها كل أنواع الجهل عن الموصوف .

وأما الفقراء المداهنيون ، فهم أولئك الذين حين يكون فعل شخص موافقاً لهواهم ، وإن يكن باطلاً ، فإنهم يمدحونه به ، وحين يعمل عملاً على خلاف هواهم ، وإن يكن حقاً ، فإنهم يذمونه به . وهم بمعاملتهم يطمعون في الجاه من الخلق ، ويداهنونهم على الباطل .

وأما المنصوف الجاهل ، فهو الذي لم يصحب شيخاً ، ولم يتلق الأدب من كبير ، ولم يذق عرك الزمان له ، ويرتدى الأزرق بلا بصيرة ، ويلقى بنفسه بين (الصوفية) ، ويسلك في الخزي طريق الانبساط في صبتهم ، وقد حمّله حمقه على أن يظن الجميع مثله ، ومن ثم يشكل عليه طريق الحق والباطل .

وكان المراد من هذه الطوائف الثلاث التي ذكرها ذلك الموفق ، وأمر المرید

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ . نكلم في علم الرجاء . وله كلام في المعرنة . خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين . وروى الحديث (انظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٧ ، الرسالة ج ١ ص ٩١ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٩٨ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٠)
(٢) ورد في طبقات الصوفية مع تحريف في كلمة « الفقراء » حيث وردت « القراء » (انظر : ص ١١٣) .

بالاعراض عن صحبتهم هو أنهم كانوا كاذبين في دعواهم ، وناقصين في سلوكهم .

يقول أبو يزيد البسطامي (١) رحمه الله : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته » (٢) .

وفي الجملة : ان السير على النار أيسر على الطبع من السير على موافقة العلم ، وعبور الصراط ألف مرة يكون أسهل على قلب الجاهل من تعلم مسألة واحدة من العلم ، وضرب خيمة في الجحيم أحب الى الفاسق من العمل بمسألة من العلم ، فليكن لزاما عليك تعلم العلم ، وطلب الكمال فيه .

وكمال علم العبد يكون جهلا الى جنب علم الله عز اسمه . ويجب أن تعلم كثيرا حتى تعلم أنك لا تعلم (٣) . ومعنى هذا أن العبد لا يستطيع أن يعلم الا علم العبودية ، والعبودية حجاب أعظم عن الألوهية .

ويقول واحد في هذا المعنى :

(شعر عربى)

العجز عن درك الادراك ادراك والوقف في طرقت الأخيار اشراك

فمن لا يتعلم ويصير على الجهل يكون مشركا ، ومن يتعلم ويظهر له معنى في كمال علمه ، ويزول غرور علمه ويعلم أنه لا عاقبة لعلمه سوى العجز في طلب العلم — لأنه لا تأثير للتسميات في حق المعانى — فعجزه هذا عن ادراك العلم ، ادراك للعلم ، والله أعلم .

(١) أبو يزيد طغور بن عيسى بن سروشان . كان جده سروشان مجوسيا فأسلم . فارسی الاصل من أهل بسطام ، ومن أوائل القائلين بالفناء والمروجين لوحدة الوجود ، ومذهبه يقوم على السكر . مات سنة احدى وسنين ومائتين ، وقيل أربع وستين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٦٧ ، الرسالة ج ١ ص ٨٠ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦١ ، ذكر الاولياء ج ١ ص ١٣٤ ، نفحات الانس ص ٥٦ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٩) .

(٢) ورد هذا القول بنصه في طبقات الصوفية ، وزيد عليه : « ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمه الا في تجريد التوحيد » . (انظر : ص ٧٠) .

(٣) في هذا المعنى يقول الشاعر الفارسي أبو شكور البلخي من شعراء العصر الساماني مباهبا بسعة علمه ومزريا بقصور علم البشر :

تا بدانجا رسيد دانش من كه بدانم هي كه نادانم

والمعنى :

لقد بلغ علمى أن أعلم أنى جاهل .

ويعزى مثل هذا القول الى حكماء اليونان ، وكان يردده سقراط .

الباب الثالث باب الفقر

اعلم أن للفقر ، في طريق الله عز وجل ، مرتبة عظمى . وللفقراء خطر كبير ، كما قال الله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » (١) . وقال أيضا : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء » (٢) . وقال أيضا : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » (٣) .

واختار الرسول صلى الله عليه وسلم الفقر ، وقال : « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين » (٤) . وقال أيضا : يقول الله تعالى في يوم القيامة : « أدنوا مني أحبائي . فيقول الملائكة : من أحبائك ؟ فيقول فقراء المسلمين » .

ومثل هذه الآيات والروايات كثير ، الى حد أنها لشهرتها لا يحتاج لإثباتها لصحة الدلائل .

وكان الفقراء والمهاجرون في وقت النبي عليه السلام هم أولئك الذين أقاموا في مسجده في حكم أداء العبودية ، وصحبة النبي عليه السلام ، وأعرضوا عن الأشغال كلية ، وقالوا بترك المعارضة ، واعتمدوا على الله تعالى في رزقهم ، وتوكلوا عليه ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصحبتهم والقيام بحقهم ، قال عز وجل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٥) . وقال أيضا : « ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » (٦) الى حد أن

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣ .

(٢) سورة « النحل » آية ٧٥ .

(٣) سورة « السجدة » آية ١٦ .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک من أبي سعيد (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٣) .

(٥) سورة « الأنعام » آية ٥٢ .

(٦) سورة « الكهف » آية ٢٨ .

كان الرسول عليه السلام حينما يرى واحدا منهم يقول : بأبى وأمى أولئك الذين عاتبنى الله تعالى من أجلهم .

فالله تعالى قد أعطى للفقير مرتبة ودرجة عظمى ، وخص الفقراء بها ، حتى قالوا بترك الأسباب الظاهرة والباطنة ، ورجعوا الى المسبب كلية ، وصار فقرهم فخرا لهم ، الى حد أنهم بكوا لزواله ، وفرحوا لقدمه ، واعتنقوه ، واحتقروا كل شيء عدا أخواته (١) .

أما الفقر فله حقيقة ورسم (٢) : ورسمه الافلاس الاضطرارى ، وحقيقته الاقبال الاختيارى فمن رأى الرسم ركن الى الاسم ، فلما لم يدرك المراد جفل عن الحقيقة . ومن أدرك الحقيقة أعرض عن الموجودات ، وأسرع الى فناء الكل فى رؤية الكل ببقاء الكل : « من لم يعرف سوى رسمه ، لم يسمع سوى اسمه » .

فالفقر هو الذى لا يملك شيئا قط ، وليس له خلل فى شيء ، وهو لا يصير غنيا بوجود الأسباب ، ولا محتاجا الى سبب بعدمها ، فوجود الأسباب وعدمها لدى فقره سواء وان يكن فى العدم أكثر سعادة ، فجائز أيضا ، لأن المشايخ قالوا : كلما يكون الفقير أضيق يدا يكون الحال أكثر فتحا عليه . فوجود المعلوم شؤم للفقير ، الى حد أنه لا يجعل أى شيء فى قيده الا ويكون هو أيضا فى القيد بذلك القدر . فحياة أحباب الحق مع الحق تكون بالألطف الخفية ، والأسرار البهية ، لا بآلات الدنيا الفدارة ، والدار الفجارة ، فالمتاع مناع عن طريق الرضا .

ويرد أنه اتفق لفقير لقاء ملك ، فقال الملك : سلنى حاجة . قال الفقير : أنا لا أسأل عبدا لعبيدى حاجة ! قال الملك : كيف ؟ قال : لى عبدان كلاهما سيد لك : أحدهما الحرص ، والآخر طول الأمل .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « الفقر عز لأهله » ، فالشئ الذى يكون عزا للأهل ، يكون ذلا لغير الأهل . وعزه هو أن الفقير يكون محفوظ

(١) قيل أن رجلا أتى ابراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها منه ، وقال له : تريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ؟ لا أفعل . (الرسالة ج ٢ ص ٥٣٨) .

(٢) يشير بالرسم الى الفقر المادى ، وبالحقيقة الى الفقر المعنوى . والفقر المادى هو النخل من الأسباب ، والفقر المعنوى هو الانفطار الى الله . والفقر الحقيقى هو الذى يفتقر فى وجوده الى الله ، وهو لا يصبح غنيا بوجود الأسباب ، ولا يصير محتاجا بانعدامها ، لأن من طبيعة المخلوق الانفطار الى الخالق سواء ملك شيئا أو لم يملك ، وكل من يدرك هذه الحقيقة يسرع بالنخل عن جميع الأسباب ، ويتجه الى مسبب الأسباب ، الغنى الحقيقى ، ليبقى له الغنى به .

الجوارح من الزلل ، ومحفوظ الحال من الخل ، فلا المعصية والزلل تجرى على جسده ، ولا الخل والآفة على حاله ، لأن ظاهره مستغرق في النعم الظاهرة ، وباطنه منبع للنعم الباطنة . وطالما كانت نفسه روحانية وقلبه ربانيا فليس للخلق اليه حوالة ، ولا لآدم اليه نسبة ، حتى يكون فقيرا من حوالة الخلق ونسبة آدم . وهو لا يصير غنيا بملك هذا العالم في الدنيا ، أو بملك ذلك العالم في الأخرى . والكونان في كفة ميزان فقره لا يزنان جناح بعوضة ، وكلا العالمين لا يتسعان لنفس واحد من أنفاسه .

فصل : وقد اختلف شيوخ الصوفية رحمهم الله في الفقر والغنى ، وأيهما أفضل في صفات الخلق ، لأن الله تعالى غنى على الحقيقة ، وله الكمال جل جلاله في جميع أوصافه .

ويحيى بن معاذ الرازي ، وأحمد بن أبي الحواري (١) ، والحارث المحاسبى (٢) ، وأبو العباس بن عطاء (٣) ، ورويم (٤) ، وأبو الحسن بن شمعون (٥) ، ومن المتأخرين شيخ المشايخ أبو سعيد فضل الله بن محمد

(١) أحمد بن أبي الحواري : من أهل دمشق . كان له أخ يقال له محمد بن أبي الحواري جرى مجراه في الزهد والورع ، وابنه عبد الله بن أحمد من الزهاد ، وأبوه أبو الحواري كان من العارفين الورعين ، فبينهم بيت الورع والزهد . توفي سنة ثلاثين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٩٨ ، الرسالة ج ١ ص ٩٥ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٦ ، نفحات الانس ص ٦٥) .

(٢) كنيته : أبو عبد الله ، كان من علماء مشايخ القوم ، عالما بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والاشارات ، عديم النظر في زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا . بصرى الاصل ، مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين . قال عنه الغزالي : المحاسبى خبر الامة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الاعمال . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٥٦ ، الرسالة ج ١ ص ٧٢ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٢٥ ، نفحات الانس ص ٥١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٢) .

(٣) اسمه : سهل بن محمد . من كبار متايخ الصوفية وعلمائهم . له لسان في فهم القرآن يختص به . كان من أقران الجند ، صاحب ابراهيم المارستانى . مات سنة تسع وثلثمائة (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢٦٥ ، رساله ص ١٣٥ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٧ ، نفحات الانس ص ١٤١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٥) .

(٤) روم بن أحمد بن يزيد . كنيته : أبو محمد . من أهل بغداد . كان مقرئا وفقهيا على مذهب داود . مات سنة ثلاث وثلثمائة . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٨٠ ، الرسالة ج ١ ص ١١٦ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٤ ، نفحات الانس ص ٩٤ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

(٥) ورد اسمه في نفحات الانس : « أبو الحسين بن سمعون » . ترجم له الجامى فذكر أن اسمه محمد بن أحمد بن اسماعيل بن سمعون ، كان يلقب بالناطق بالحكمة . من مشايخ بغداد . توفي سنة ست أو سبع وثمانين وثلثمائة (انظر ترجمته في نفحات الانس ص ٢٣٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١١) .

الميهنى(١) ، رحمة الله عليهم أجمعين ، على أن الغنى أفضل من الفقر ، ويستدلون بأن الغنى صفة للحق تعالى ولا يجوز عليه الفقر ، فالصفة التي تكون مشتركة — في المحبة — بين العبد والله تعالى ، أتم من الصفة التي لا تجوز عليه تعالى وتقدس .

ونقول : ان هذه المشاركة في الاسم لا في المعنى ، لأنه يلزم المماثلة للمشاركة في المعنى ، ولما كانت صفاته قديمة وصفات الخلق محدثة ، فهذا الدليل يكون باطلا .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله بالخير — أقول : ان الغنى اسم لائق بالحق ، ولا يستحق الخلق هذا الاسم . والفقر اسم لائق بالخلق ، ولا يجوز على الحق . ومن يسمونه غنيا على المجاز لا يكون كالغنى على الحقيقة .

والدليل الأوضح هو : أن غنانا يكون بوجود الأسباب ، ونكون نحن مسببين في حال قبول الأسباب ، وهو مسبب الأسباب ، وليس لغناه سبب ، فالمشاركة في هذه الصفة باطلة .

وأيا : لما كانت المشاركة في العين لا تجوز لأحد معه ، فهي أيضا لا تجوز في الصفة ، وبما أنها لا تجوز في الصفة ، فهي لا تجوز في الاسم . وتبقى بعد ذلك : التسمية ، والتسمية علامة بين الخلق ، ولها حد .

فالغنى لله تعالى هو أنه لا حاجة له بأى أحد أو شيء ، ويفعل ما يريد ، وليس لمراده دافع ، ولا لقدرته مانع ، وهو قادر على قلب الأعيان ، وخلق الضدين ، وكان ولا يزال دائما بهذه الصفة .

وغنى الخلق : منال معيشة ، أو وجود مسرة ، أو نجاة من آفة ، أو راحة بمشاهدة ، وهذا كله محدث ومتغير ، وأصل الطلب والحسرة ، وموضع العجز والتذلل .

اذن : فهذا الاسم للعبد مجاز(٢) ، وللحق تعالى حقيقة ، لقوله تعالى :

(١) سبق ذكره في القسم الاول ، ترجمته في الباب الثاني عشر ، تذكرة الاولياء ، ج ٢ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٣٠٠ ، رياض العارفين ص ٤٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) يتفق الامام الغزالي مع الهجویری في رفض اسم الغنى للانسان ويسميه : المستغنى ، ليبقى الغنى اسما لمن له الغنى المطلق عن كل شيء ، ويقول ان المستغنى ان سمي غنيا ، لم يكن هذا الغنى مطلقا عليه الا مجازا . (احياء علوم الدين ج ٤ : انظر ص ١٦٥) .

« يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله » (١) . وقال أيضا : « واللّه الغنى وأنتم الفقراء » (٢) .

وتقول طائفة من العوام أيضا : أننا نفضل الغنى على الفقر لأن الله تعالى خلقه سعيدا في الدارين ، ومن عليه بالغنى . وهذه الطائفة تريد هنا بالغنى كثرة المتاع ، وإدراك الغايات ، ومتابعة الشهوات . ويدللون على هذا بأن الله أمر بالشكر على الغنى ، والصبر في الفقر ، فالصبر يكون في البلاء ، والشكر يكون في النعماء ، والنعماء في الحقيقة أفضل من البلاء .

ونحن نقول : ان (الله) أمر بالشكر على النعمة ، وجعل الشكر علة لزيادة النعمة . وأمر بالصبر على الفقر ، وصبر الصبر علة لزيادة القربة ، لقوله تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » (٣) . وقال أيضا : « ان الله مع الصابرين » (٤) ، فكل من يشكر في نعمة أصلها الغفلة ، نزيده غفلة على غفلة ، وكل من يصبر في فقر أصله البلية ، نزيده قربة على قربة .

أما الغنى الذي يفضلّه المشايخ على الفقر ، فليس مرادهم ما يسميه العوام بالغنى ، لأن هذا الغنى إدراك للنعم ، وذاك إدراك للمنعم ، فإدراك الوصل شيء ، وإدراك الغفلة شيء آخر .

ويقول الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمه الله : « الفقر هو الغنى بالله » ، والمراد بهذا : الكشف الأبدى بمشاهدة الحق (٥) .

ونقول : ان المكاشف ممكن الحجاب ، فإذا حجب (الله) صاحب المشاهدة عن المشاهدة ، فهو : إما أن يحتاج إليها ، أو لا يحتاج . فإذا قال : لا يحتاج ، يكون هذا محالا ، وإذا قال : يحتاج ، نقول : اذا جاء الاحتياج سقط الغنى .

وأیضا : الغنى بالله قائم الصفة وثابت المراد ، وباقامة المراد واثبات أوصاف الآدمية لا يصح الغنى ، لأن عين هذا نفسه غير قابل للغنى ، لأن وجود البشرية عين الحاجة ، وعلامة الحدث عين الاحتياج ، فالباقي الصفة

(١) سورة « فاطر » آية ١٥ .

(٢) سورة « محمد » آية ٣٨ .

(٣) سورة « إبراهيم » آية ٧ .

(٤) سورة « البقرة » آية ١٥٣ .

(٥) في هذا إشارة الى ما حدث بين أبي سعيد بن أبي الخير وأبي مسلم الفارسي عندما دخل على أبي سعيد فوجده جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية فاخرة ، فقال أبو مسلم في نفسه : هذا الرجل يدعى الفقر ؟ فأدرك أبو سعيد ما بجول بخاطره وقال له : « يا أبا مسلم ، في أي دهبان وجدت من كان قلبه قائما في مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ » انظر ترجمة أبي سعيد في الباب الثاني عشر .

هو الغنى ، والفانى الصفة لا يليق لأى اسم . فالغنى بالله : فاعل ، ومن أغناه الله ، مفعول ، والفاعل يقوم بنفسه ، والمفعول يقوم بالفاعل ، والقيام بالنفس صفة البشرية ، والقيام بالحق محو الصفة .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — هكذا أقول : لما صح أن الغنى على الحقيقة لا يصح على بقاء الصفة ، لأن بقاء الصفة — بالأدلة المذكورة — محل العلة وموجب الآفة ، وبما أن فناء الصفة نفسه لا يكون غنى ، لأن كل ما لا يبقى بنفسه لا يسمى ، وبما أنه يلزم للغنى فناء الصفة ، فاذا فنيت الصفة سقط محل الاسم ، فانه لا يقع على هذا الشخص اسم الفقر ولا اسم الغنى .

وأيضا : يفضل كل المشايخ وكثير من العوام الفقر على الغنى ، لأن الكتاب والسنة ناطقان بفضلهم ، وبكثرة من الأمة مجتمعة على ذلك .

وقد وجدت فى الحكايات (١) أنه ذات يوم ، كان يجرى للجنيد وابن عطاء — رحمة الله عليهما — حديث فى هذه المسألة ، فقدم ابن عطاء الدليل على أن الأغنياء أفضل ، لأنهم يحاسبون فى القيامة ، واسماع الحساب يكون كلام الله بلا واسطة فى محل العتاب ، والعتاب يكون من الحبيب للحبيب . فقال الجنيد : اذا كانوا يحاسبون الأغنياء ، فانهم يعتذرون للفقراء ، والعذر أفضل من عتاب الحساب . وهنا لطيفة عجيبة !

ونقول انه فى تحقيق المحبة يكون العذر غربة ، والعتاب مخالفة ، والأحبة فى محل يبدو فيه هذان آفة فى أحوالهم ، لأن العذر يكون عن موجب تقصير صدر من الحبيب فى حق الحبيب ، وعندما يطلب منه الحبيب حقه يعتذر اليه . والعتاب يكون على موجب تقصير جرى من الحبيب فى أمر الحبيب ، وعندئذ يعاتبه الحبيب على ذلك التقصير . وكلاهما محال .

وفى الجملة : الفقراء مطالبون بالصبر ، والأغنياء بالشكر . وفى تحقيق المحبة لا الحبيب يطلب شيئا من الحبيب ، ولا الحبيب يضيع أمر الحبيب .

أذن : « ظلم من سمي ابن آدم أميرا وقد سماه ربه فقيرا » ، فمن أسماه الحق فقيرا فهو فقير ، وان يكن أميرا ، وهلك من يخال أنه غير أسير ، وان يكن مكانه التخت والسرير ، لأن الأغنياء أصحاب صدقة ، والفقراء أصحاب صدق ، ولا يكون الصدق أبدا كالصدقة . ففقر سلبمان

(١) مجموعة من الحكايات من تصنيف بعض شيوخ العراق . والهجويرى ينقل عنها ، ويذكرها مرة باسم : الحكايات ، ومرة باسم : حكايات العراقيين .

فى الحقيقة مثل غنى سليمان ، لأن (الله) قال لأيوب فى شدة صبره :
« نعم العبد » (١) ، وقال لسليمان فى استقامة ملكه : « نعم العبد » (٢) ،
فلما حصل رضا الرحمن جعل فقر سليمان مثل غنى سليمان .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري (٣) رضى الله عنه يقول : نكلم
كل من الناس فى الفقر والغنى ، واختار لنفسه شيئاً ، وأنا أختار ما يختاره
لى الحق ، ويجعلنى فيه ، فاذا جعلنى غنيا لا أكون غافلا ولا تاركا ، واذا
جعلنى فقيرا لا أكون حريصا ولا معرضا .

فالفنى نعمة ، والأعراض فيه آفة ، والفقر نعمة ، والحرص فيه آفة .
والمعانى كلها طيبة ، والمذاهب فيها مخنفة .

والفقر فراغ القلب من الغير ، والفنى انشغال القلب بالغير ، وعندما
يتأتى الفراغ ، فلا الفقر أولى من الغنى ، ولا الفنى أولى من الفقر .

والغنى كثرة المتاع ، والفقر قلة المتاع ، والمتاع كله لله ، فاذا قال الطالب
بترك الملكية ، زالت المشاركة من البينية ، وفرغ من كلا الاسمين .

فصل : ولكل من مشايخ الطريقة رمز فى هذا المعنى ، وأورد بقدر الامكان
أقوالهم فى هذا الكتاب ، ان شاء الله عز وجل .

يقول واحد من المتأخرين : « ليس الفقير من خلا من ازيد ، انما الفقير
من خلا من المراد » .

أى أن يعطيه الله تعالى مالا ، فاذا كان مراده حفظ المال ، يكون غنيا ،
واذا كان مراده ترك المال ، يكون غنيا أيضا ، لأن كلا الأمرين تصرف فى ملك
الغير ، والفقر ترك التصرف .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : « علامة الفقر خوف زوال
الفقر (٤) » .

أى أن علامة صحة الفقر ، أن العبد فى كمال الولاية ، وقيام المشاهدة

(١) سورة « ص » آية ٤٤ .

(٢) سورة « ص » آية ٣٠ .

(٣) سبق ذكره فى القسم الاول (انظر : ص ، انظر ترجمته فى الباب الثانى

عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٩٩ ، نفحات الانس ص ٣١٣ ، خزينة الاصفياء

ج ٢ ص ٢٣٥) .

(٤) ورد فى الرسالة : « تبل لحي بن معاذ : ما الفقر ؟ قال : خوف الفقر » (انظر :

ج ٢ ص ٥٤٠) .

وفناء الصفة ، يخشى الزوال والقطيعة ، ثم يصل به كمال الحال الى حد أنه لا يخشى القطيعة .

ويقول رويم رحمه الله : « من نعت الفقير حفظ سره ، وصيانة نفسه ، وأداء فرائضه (١) » .

أى أن سره يكون محفوظا من الأغراض ، وجسده مصونا من الآفات ، وتكون أحكام الفرائض جارية عليه ، بحيث أن ما يجرى على الأسرار لا يشغل الأظهار ، وما يجرى على الأظهار لا يشغل الأسرار ، ولا تمنعه غلبة ذلك عليه من انفاذ الأمر .

وهذا علامة زوال البشرية ، لأن كل العبد يصير موافقا للحق ، وهذا أيضا يصير بالحق .

ويقول بشر الحافي (٢) رضى الله عنه : « أفضل المقامات : اعتقاد الصبر على الفقر (٣) » .

وهذا الصبر والاعتقاد من جملة مقامات العبد ، والفقر فناء مقامات العبد . فاعتقاد الصبر على الفقر علامة رؤية آفات الأعمال ، وسمة فناء الأوصاف .

أما معنى ظاهر هذا القول ، فهو تفضيل الفقر على الغنى ، والاعتقاد بعدم الاعراض أبدا عن الفقر .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقير لا يستغنى بشيء دون الله (٤) » ، لأنه لا يكون له مراد غيره .

وظاهر اللفظ هو أنك لا تدرك الغنى الا به ، فاذا أدركته صرت غنيا ، ووجودك دونه ، ولن تدرك الغنى الا بترك دونه ، واذا وجدت أنت ، صرت حجابا للغنى ، واذا زلت من الطريق ، كيف تكون غنيا ؟ .

(١) ورد في الرسالة : « نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرائضه ، وصيانة فقره » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٠) .

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان . كنيته : أبو نصر . أصله من مرو وسكن بغداد . من الطبقة الاولى من الصوفية . مات سنة سبع وعشرين ومائتين . (انظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٨ ، طبقات الصوفية ص ٣٩ ، الرسالة ج ١ ص ٦٨ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٩٠ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٠ ، نكحرة الاولياء ج ١ ص ١٠٦ ، نفحات الانس ص ٤٨ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٣٧) .

(٣) ورد بنصه في الرسالة (انظر ج ٢ ص ٥٤١) .

(٤) ورد في الرسالة : « سئل الشبلى عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغنى العبد بشيء دون الحق » (انظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

وهذا المعنى — فى الحقيقة — غامض جدا ، ولطيف عند اهل المعنى .
وحقيقة معنى أن « الفقير لا يستغنى عنه » : أن الفقير هو من
لا يكون له غنى أبدا .

وهو نفس المعنى الذى ذكره ذلك الشيخ (١) حيث قال : همنا أبدى ،
فلا هممتنا تدرك المقصود أبدا ، ولا كليتنا تصير عدما فى الدنيا والآخرة ،
لأنه يلزم لادراك الشئ ، المجانسة ، ولا مجانس للحق . ويلزم للاعراض
عن حديثه الغفلة ، والفقير ليس غافلا .

اذن : قد وقع بلاء دائم ، وعرض طريق مشكل ، وذلك هو محبة من لا سبيل
لأحد الى رؤيته ، ووصاله ليس من جنس مقدور الخلق .

والفناء لا يجرى عليه التبديل ، والبقاء لا يجوز عليه التغير ، فلا الغنى
يصير باقيا حتى يكون الوصل ، ولا الباقي يصير فانيا حتى يكون القرب .
وأمر احبائه من أوله الى آخره هو أنهم صاغوا عبارات مزخرفة لتسلى
قلوبهم ، وبينوا المقامات والمنازل والطريق ، لراحة أرواحهم ، فعباراتهم
منهم واليه ، ومقاماتهم من جنسهم لجنسهم ، والحق تعالى منزله عن
أوصاف الخلق وأحوالهم .

ويقول أبو الحسن النورى (٢) رحمه الله : « نعت الفقير ، السكون عند
العدم ، والبذل عند الوجود (٣) » .

فمن مراده لقمة حين يعجز عن مراده يسكن قلبه ، وحين تظهر اللقمة
يعطيها لمن يراه أوأى منه .

وفى هذا القول معنيان : فسكونه فى حال العدم : رضا ، وبذله فى حال
الوجود : محبة ، لأن الراضى يكون قابلا للخلعة ، وفى الخلعة علامة القرب .
والمحب تارك للخلعة ، لأن فى الخلعة علامة الفراق ، فسكونه فى العدم

(١) ورد فى الهامش أن المقصود بذلك الشيخ : « خواجه » عبد الله الانصارى .
(٢) اسمه : أحمد بن محمد . خراسانى الاصل ، بغدادى المنشأ والمولد . يعرف بابن
البغوى . كان من أقران الجنيد . صاحب سرىا السقطى ، ورأى أحمد بن أبى
الحوارى . توفى سنة خمس وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى
عشر ، طبقات الصوفية ص ١٦٤ ، الرسالة ج ١ ص ١١٢ ، طبقات الشعرانى
ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٤٦ ، نفحات الانس ص ٧٨ ، خزينة
الاصفياء ج ٢ ص ١٦٩) .

(٣) ورد فى « التعرف » : نعت الفقير : السكون عند العدم ، والبذل والايثار عند
الوجود (أنظر : ص ٩٦) ، وورد فى « الرسالة » : نعت الفقير : السكون عند
العدم ، والايثار عند الوجود (أنظر : ج ٢ ص ٥٤٥) .

انتظارا للوجود ، فاذا وجد كان غيره ، وهو لا يستريح مع الغير ، فيقول بتركه .

وهذا هو معنى قول شيخ المشايخ أبى القاسم الجنيد بن محمد : « الفقر : خلو القلب عن الأشكال » ، فحين يخلو القلب عن الانشغال بالشكل والشكل موجود ، فما الوجه سوى طرحه ؟ .

ويقول الشبلى رحمه الله : « الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كل عز (١) » .

والعز نصيب الغير ، والمبتلى فى عين البلاء . وأى خبر للمبتلى عن العز الى أن ينظر من البلاء الى المبتلى ، وعندئذ يصير بلاؤه كله عزا ، وعزه كله وقتا ، ووقته كله محبة ، ومحبته كلها مشاهدة ، حتى أن دماغ الطالب يصبح — بسبب غلبة الخيال — محلا للرؤية ، فيصير مبصرا بلا عين ، وسامعا بلا أذن .

وما أعز العبد الذى يتحمل عبء بلاء الحبيب ، لأن البلاء عز على الحقيقة والنعماء ذل . والعز هو أن يكون — الفقير — حاضرا بالحق ، واذل أن يكون غائبا عنه .

وبلاء الفقر علامة الحضور ، وراحة الغنى علامة الغيبة ، فالحاضر بالحق عزيز ، والغائب عن الحق ذليل ، لأن الأمر الذى يكون بلاؤه المشاهدة ، ورؤيته الأنس يكون التعلق به ، بأى صفة ، غنيمة .

ويقول الجنيد رحمه الله : « يا معشر الفقراء : انكم انما تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله اذا خلوتكم به » .

أى أنه حين يسميكم الخلق فقراء فانهم يوفونكم حقكم ، فكيف تؤدون أنتم حق طريقة الفقر ؟ واذا دعاكم الخلق باسم آخر على خلاف دعواكم ، فلا تروا ذلك منهم ، لأنكم أيضا لا تنصفون دعواكم ، لأنه لا أسوأ ممن يعرف المخلق أنه للحق ولا يكون له ، ولا أسعد ممن يعرف المخلق أنه للحق وهو له ، والأعز (من ذلك) من لا يعرف المخلق أنه للحق وهو له .

ومثل من يعرف المخلق أنه للحق ولا يكون له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يلزمه طبيب آخر .

ومثل من يعرف المخلق أنه للحق وهو له ، كمثل من يدعى الطب ويعالج المرضى ، وحين يمرض يعرف دواء نفسه ويفعله .

(١) ورد فى اللمع (أنظر ص ٢٩٢) .

ومثل من لا يعرف الخلق أنه للحق وهو لاحق ، كمثل من يكون طبيبا
ولا علم للخلق به ، وهو فارغ من الانشغال بالخلق ، ويحفظ نفسه جيدا
بالأغذية الموافقة ، والأشربة الطيبة ، والمفرحات (١) الملائمة ، والأهوية
المعتدلة حتى لا يمرض ، وتكون أعين الخلق كلهم مغمضة عن أحواله .

ويقول بعض المتأخرين : « الفقر عدم بلا وجود » . والعبرة منقطعة
عن هذا القول ، لأن المعدوم لا يكون شيئا ، ولا يمكن التعبير إلا عن شيء .
والصورة هنا أن الفقر ليس بشيء ، ولا تكون عبارات كل أولياء الله تعالى
واجماعهم على أصل يكون في عين ذاته فانيا ومعدوما .

ولا يريدون هنا ، من هذه العبارات عدم العين ، بل عدم الآفة من العين .
وكل أوصاف الآدمي آفة ، وعندما تنتفى الآفة ، يكون ذلك فناء الصفة .
وفناء الصفة يرفع من أمامهم آلة الوصول وعدم الوصول ، فيظهر لهم عدم
السلوك بالعين نفيا للعين ، ويهلكون في ذلك .

ورأيت جماعة من المتكلمين لم يفقهوا صورة هذا المعنى ، وكانوا
يضحكون منه ويقولون : ان هذا الكلام غير معقول . ورأيت جماعة من
المدعين كانوا قد اعتقدوا شيئا غير معقول — ولم يكن أصل الطريقة معلوما
لهم — وكانوا يقولون : الفقر عدم بلا وجود . وكان كلا الفريقين على خطأ:
انكر أحدهما الحق جهلا ، وجعل الآخر الجهل حالا ، وظهر به .

والمراد بالعدم والفناء في عبارات هذه الطائفة — أي الصوفية — فناء
الآلة المذمومة والصفة الرذولة في طلب الصفة المحمودة ، لا عدم المعنى
بوجود آلة الطاب .

وفي الجملة : الفقير في كل معاني الفقر عارية ، وفي كل الأسباب أصل
غريب ، ولكنه طريق الأسرار الربانية ، لتكون أموره من كسبه ، ويكون
للفعل نسبة له ، وللمعاني اضافة إليه . وإذا تخلصت أموره من قيد

(١) مفرحات ج مفرح : اسم دواء كان يطلق عليه (مفرح ياقوت) لعلاج التلب .

يقول الحافظ الشيرازي :

علاج ضعف دل ما بلب حوالت كن كه اين مفرح ياقوت در خزائنه تست

والمعنى :

أحيلي علاج ضعف قلوبنا على شفتيك ، لأن هذال (مفرح ياقوت) في خزانتك .
وفي هذا البيت إشارة لطيفة إلى ما بين اسم الدواء (مفرح ياقوت) ولون الشفتين
المشبهتين بالياقوت ، من المشاركة .

غزليات حافظ شيرازي : تحقيق القزويني وقاسم غنى ص ٢٥ .

كسبه ، تنقطع عنه نسبة الفعل ، وعندئذ يكون هو طريق الشيء الذى يمر عليه ، لا سالك ذلك الطريق ، فهو لا يجلب لنفسه شيئاً ، ولا يدفع عن نفسه شيئاً ، وما يدل عليه كله للغير .

ورأيت فريقاً من المدعين أرباب اللسان ، كان يبدو نفى ظنهم عن ادراك تلك الطريقة نفياً للوجود ، وهذا نفسه عزيز جداً . ورأيت أن نفى مرادهم عن حقيقة الفقر كان يبدو نفياً للصفة فى عين الفقر . ورأيت أنهم كانوا يسمون نفى الحق والحقيقة ، فقراً وصفوة . ورأيت أن اثبات هواهم كان يبدو نفياً لكل . وقد تخلف كل منهم فى درجة من حجب الفقر ، لأنه ظن هذا الحديث علامة كمال الولاية للرجل ، ورائحة هذا الحديث غاية الغايات ، والتولى لعين هذا محل الكمال .

اذن : فلا مناص لطالب هذه الطريقة من سلوك طريقهم ، وطفى مقاماتهم ، ومعرفة عباراتهم ، حتى لا يكون عامياً فى محل الخصوصية ، لأن عوام الأصول عن الأصول معرضون ، وعوام الفروع عن الفروع عاجزون ، وكيف ينسب للأصول من قعد عن الفروع ؟ انه عندما يعجز عن الأصول لا تبقى له نسبة لأى مكان . وقد قلت هذا كله لتسلك طريق هذه المعانى ، وتنشغل برعاية حق هذا .

والآن أورد طرفاً من أصول هذه الطائفة فى باب التصوف ، ثم أجيء بأسامى الرجال ، ثم أبين أحكام الحقائق والمعارف والشرائع ، ثم آتى باختلاف المذاهب ومشايخ المتصوفة ، ثم أشرح بقدر الامكان آدابهم ورموزهم ومقاماتهم ، لينكشف لك وللقراء حقيقة هذا ، وبالله التوفيق .

الباب الثالث باب التصوف

قال الله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » (١) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من سمع صوت أهل التصوف غلا يؤمن على دعائهم كتب عند الله من الغافلين (٢) » .

وقد تكلم الناس في تحقيق هذا الاسم كثيرا ، وألفوا كتباً في ذلك . وقالت جماعة ان الصوفي يسمى بالصوفي لأنه يلبس ثياب الصوف ، وقالت جماعة انهم سموا صوفية لأنهم في الصف الأول ، وقالت طائفة انهم سموا كذلك لأنهم يتولون أهل الصفة ، وقال آخرون ان هذا الاسم مشتق من الصفاء . ولكن هذا الاسم — على مقتضى اللغة — بعيد عن هذه المعاني (٣) .

والصفاء في الجملة محمود ، وضده الكدر . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ذهب صفو الدنيا وبقي كدرها (٤) » .

واسم لطائف الأشياء : صفوها ، واسم أضرارها : كدرها ، فلما هذب أهل هذا الأمر أخلاقهم ومعاملاتهم ، وتبرأوا من آفات الطبيعة ، فأنهم سموا صوفية ، وهو اسم لهذه الطائفة من أسماء الأعلام ، لأن خطر أهله أجل من أن يمكن اخفاء معاملتهم حتى يلزم لاسمهم اشتقاق .

وقد حجب الله عز وجل — في عصرنا هذا — أكثر الخلق عن هذه الطريقة وأهلها ، وأخفى لطائفها عن قلوبهم ، حتى ليظن جماعة أن هذه الرياضة

(١) سورة « الفرقان » آية ٦٣ .

(٢) لم أجد له سندا .

(٣) يقول الكلاباذي ان معاني هذه الاسماء كلها في أسامي القوم ، وان كانت الانساز متغيرة ، لأنها ان أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وان أضيفت الى الصف والصفة ، كانت صفية وصفية . ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصفية والصفية من تناول الألسن . وان جعل مأخذه من الصوف : استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة (التعرف : أنظر ص ٢٤ ، ٢٥) .

(٤) ورد في الرسالة عن أبي جحيفة قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متغير اللون فقال : « ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فاموت اليوم تحفة لكل مسلم » (الرسالة : أنظر ج ٢ ص ٥٥٠) .

هى مجرد صلاح الظاهر دون مشاهدة الباطن ، وتظن جماعة أخرى أن هذا الأمر حيلة ورسم بلا حقيقة وأصل ، الى حد أنهم ارتكبوا المنكر أمام أهل الهزل وعلماء الظاهر ، وفرحوا باخفاء الأمر ، حتى قلدهم العوام ومحووا عن قلوبهم طلب صفاء الباطن ، ووضعوا مذهب السلف والصحابة على الرف .

(شعر عربى)

ان الصفاء صفة الصديق ان أردت صوفيا على التحقيق

لأن الصفاء أصلا وفرعا ، وأصله : انقطاع القلب عن الأغيار ، وفرعه : خلو اليد من الدنيا الغادرة . وهاتان صفتا الصديق الأكبر أبى بكر عبد الله ابن أبى قحافة رضى الله عنه ، لأنه كان امام أهل هذه الطريقة ، فكان من انقطاع قلبه عن الأغيار ، أن كل الصحابة انكسرت قلوبهم برحلة النبى عليه السلام الى الحضرة الأعلى والمكان المصفى ، وسل عمر رضى الله عنه سيفه قائلا : كل من يقول ان محمدا قد مات أقطع رأسه . فخرج الصديق الأكبر وصاح قائلا : ألا من عبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن عبد رب محمد فانه حى لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

ذلك أن من يتعلق بفان يفنى ويصير كل تبعه هباء ، ومن يطلق روحه الى حضرة الباقي فانه حين تفنى النفس ، يبقى قائما بالبقاء .

فمن نظر الى محمد بعين الآدمية ، فانه حين رحل محمد عن الدنيا ، ذهب من قلبه تعظيم العبودية ورحل معه ، ومن نظر اليه بعين الحقيقة استوى لديه ذهابه ووجوده ، لأنه فى حال البقاء رأى بقاءه بالحق ، وفى حال الفناء رأى فناءه بالحق — فأعرض عن المحول وأقبل على المحول — فعظمه بمقدار اكرام الحق له ، ولم يربط سويداء قلبه بأحد ، ولم يفتح سواد عينه على الخلق ، فقد قيل : « من نظر الى الخلق هلك ، ومن رجع الى الحق ملك » ، لأن النظر الى الخلق علامة الهلك ، والرجوع الى الحق علامة الملك .

أما خلو يده من الدنيا الغدارة ، فهو أنه أعطى كل ما كان يملك من مال ومنال ومآل ، وارتدى الكليم ، وجاء الى النبى عليه السلام فقال له النبى

سورة « آل عمران » آية ١٤٤

عليه السلام : « ما خلفت لعيالك ؟ فقال الله ورسوله (١) » فلما تحرر قلبه من التعلق بصفو الدنيا ، أخلى يده من كدرها .

وهذا كله صفة الصوفي الصادق ، وانكار هذا كله انكار للحق ، ومكابرة في العيان .

وقد قلت ان الصفاء ضد الكدر ، والكدر من صفات البشر . والصوفي حقا من اجتاز الكدر ، كما حدث في حال الاستغراق في مشاهدة يوسف عليه السلام وإطف جماله ، فغلبت البشرية على نساء مصر ، وارتدت الغلبة الى العكس ، فلما وصلت غايتها بلغت نهايتها ، ولما بلغت نهايتها تجاوزتها ، ونظرن بفناء بشريتهن فقلن : « ما هذا بشر » (٢) فأشرن اليه ، وعبرن عن حالهن . وكان من ذلك أن قال مشايخ هذه الطريقة رحمهم الله : « ليس الصفاء من صفات البشر ، لأن البشر مذر لا يخلو من كدر » .

فمثال الصفاء لا يكون بالأفعال ، وزوال البشرية لا يكون عن طريق المجاهدة ، ولا نسبة لصفة الصفاء بالأفعال والأحوال ، ولا تعلق لاسمه بالأسماء والألقاب « فالصفاء صفة الأحباب ، وهم شمس بلا سحاب » ، وكل من يفنى عن صفته ويبقى بصفة الحبيب ، فهو الحبيب . وأحوالهم لدى أرباب المعاني عيان كالشمس ، كما سئل حبيب الله محمد المصطفى صلوات الله عليه عن حال حارثة (٣) ، فقال : « عبد نور الله قلبه بالايان (٤) » .

كما قيل : « ضياء الشمس والقمر اذا اشتركا ، أنموذج من صفاء الحب والتوحيد اذا اشتبكا » .

وأى شأن لنور القمر والشمس حيثما يكون نور محبة الجبار وتوحيده حتى يضاف هذا الى ذاك . . . ؟ . أما في الدنيا ، فليس هنالك أظهر من هذين ، لأن العين ترى السماء بنور الشمس والقمر ، والقلب يرى العرش بنور التوحيد والمحبة ، ويطلع على العقبي في الدنيا .

وكل مشايخ الطريقة — رحمهم الله — مجمعون على أنه حين يتخلص العبد من قيد المقامات ، ويخلو من كدر الأحوال ، وينفصل عن جميع الأوصاف

(١) رواه النرمذى عن عمر : « ما تركت لأهلك يا أبا بكر » وقال عنه : حسن وصحيح .

(٢) سورة « يوسف » آية ٣١

(٣) « حارثة بن سراقه » : أحد شهداء بدر من الانصار . (السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٨٠) .

(٤) رواه الحارث بن مالك : « من أراد أن ينظر الى عبد نور الله تعالى الايمان في قلبه فليُنظر الى حارثة » .

— أى أنه لا يتقيد بصفة من صفاته الحميدة ، ولا يراها ويعجب بها — يغيب حاله عن ادراك العقول ، ويتنزه وقته عن تصرف الظنون ، فلا يكون لحضوره ذهاب ، ولا لوجوده أسباب ، « لأن الصفاء حضور بلا ذهاب ووجود بلا أسباب » ، ويكون حاضرا بلا غيبة ، وواجدا بلا سبب وعلة — لأن من تتأتى عليه الغيبة لا يكن حاضرا ، ومن يصير السبب علة وجده لا يكون واجدا — وحين يصل الى هذه الدرجة يصير فانيا فى الدنيا والعقبى ، وربانيا فى جوشن الانسانية ، ويستوى لديه الذهب والمدر ، ويسهل عليه ما يصعب على الخلق من حفظ أحكام التكليف ، كحال حارثة عندما جاء الرسول عليه السلام فسأله : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ! فقال عليه السلام : انظر ما تقول يا حارثة ، ان لكل حق حقيقة ، فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزلت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى حجرها وزهرها ، وفضتها ومدرها ، فأسهرت ليلى ، وأظلمات نهاري ، حتى صرت كأنى أنظر الى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاوون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتصارعون فيها » (١) . وفى رواية : « يتغامزون فيها » . الحديث . فقال — الرسول — « عرفت فالزم . قالها ثلاثا » .

و « الصوفى » اسم يطلقونه على كامى الولاية ومحققى الأولياء ، ويقول أحد المشايخ رحمهم الله : « من صافاه الحب فهو صاف ، ومن صافاه الحبيب فهو صوفى » .

واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أى معنى ، لأن هذا الاسم أعظم من أن يكون له جنس ليشترك منه ، وهم يشتركون الشيء من شىء مجانس له ، وكل ما هو كائن ضد الصفاء ، ولا يشترك الشيء من ضده . وهذا المعنى أظهر من الشمس عند أهله ، ولا يحتاج الى العبارة ، « لأن الصوفى ممنوع عن العبارة والاشارة » . وحين يكون الصوفى ممنوعا عن كل العبارات فان العالم كلهم معبرون عنه ، عرفوا أو لم يعرفوا ، وأى خطر يكون للاسم فى حال حصول المعنى ؟

(١) ورد فى اللمع قول السراج : أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم حيث سأل حارثة فقال : « لكل حق حقيقة فما حقيقة ايمانك ؟ فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظلمات نهاري ، وكأنى أنظر الى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة كيف يتزاوون ، وإلى أهل النار فى النار كيف يتعادون . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم » (اللمع : أنظر ص ٣٠) . وورد فى التعرف : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن ينظر الى عبد نور الله قلبه فليُنظر الى حارثة » (التعرف : أنظر ص ٢٣) .

وهم يسمون أهل الكمال منهم بالصوفي ، ويسمون المتعلقين بهم وطلابهم بالتصوف . والتصوف تفعل وتكلف ، والصفاء هو الفرع الأصلي ، والفرق بينهما ظاهر من حكم اللغة والمعنى ، « فالصفاء ولاية لها آية ، والتصوف حكاية للصفاء بلا شكاية » . والصفاء معنى متلألئ ، وظاهر التصوف حكاية عن ذلك المعنى . وأهله في هذه الدرجة على ثلاثة أقسام ، الأول : الصوفي ، والثاني : المتصوف ، والثالث : المستصوف .

فالصوفي : هو الفاني عن نفسه ، والباقي بالحق ، قد تحرر من قبضة الطبائع ، واتصل بحقيقة الحقائق (١) .

والمتصوف ، هو من يطلب هذه الدرجة بالمجاهدة ، ويقوم نفسه في الطاب على معاملاتهم .

والمستصوف ، هو من تشبه بهم من أجل المنال والجاه وحظ الدنيا ، وهو غافل عن هذين ، وعن كل معنى ، الى حد أن قيل : « المستصوف عند الصوفية كالذباب ، وعند غيرهم كالذئب » .

فالصوفي هو صاحب الوصول ، والمتصوف هو صاحب الأصول ، والمستصوف هو صاحب الفضول .

فمن كان نصيبه الوصول يكون بادرأكه المقصود ، وبلوغه المراد ، بلا مراد من المراد ، وبلا مقصود من المقصود .

ومن كان نصيبه الأصل صار على أحوال الطريقة متمكنا ، وفي لطائفها ساكنا ومستحكما .

ومن كان نصيبه الفضول تخلف عن الكل ، وقعد على عتبة الرسم ، وحجب بالرسم عن المعنى ، وعجز بالحجاب عن وصل الواصل .

وللمشايخ في هذا الأمر رموز كثيرة ، الى حد أنه لا يمكن احصاؤها كلها ، غير أني أذكر طرفا منها في هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ان شاء الله عز وجل .

فصل : يقول ذو النون المصري (٢) رحمه الله : « الصوفي اذا نطق أبان

(١) أي ان الصوفي الحقيقي هو من نخل عن صفاته البشرية ، وتجرد من علانته الدنيوية ، فلما فنى عن ذلك : تهيأ له الاتصال بالحقيقة الالهية ، ووجد البقاء بالله .
(٢) أبو الفيض : ثوبان بن ابراهيم ، وذو النون : لقب . نوى الاصل ، من تسيوخ الصوفية من الطبقة الاولى . كان أوحده وقتها علما وحالا وورعا وأدبا ، توفي سنة خمس وأربعين ومائتين . (أنظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥ ، الرسالة ج ١ ص ٥٤ ، طبقات الشعرائي ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٤٤ ، نفحات الانس ص ٣٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٤٣) .

نطقه عن الحقائق ، وان سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق(١) « .

أى أن قوله كله يكون على أصل صحيح ، وفعله كله تجريدا صرفا .
فحين يتكلم يكون قوله كله حقا ، وحين يصمت يكون فعله كله فقرا .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف نعت أقيم العبد فيه . قيل : نعت
للعبد ؟ أم نعت للحق ؟ فقال : نعت الحق حقيقة ، ونعت العبد رسما(٢) » .

أى أن حقيقة (التصوف) تقتضى فناء صفة العبد ، وفناء صفة العبد
يكون ببقاء صفة الحق ، وهذا نعت الحق . ورسمه يقتضى دوام مجاهدة
العبد ، والمجاهدة صفة العبد .

وإذا أجرئته على معنى آخر ، فهو : أنه لا يصح للعبد أى نعت فى حقيقة
التوحيد ، لأن نعوت الخاق غير دائمة لهم ، وليس نعت العبد سوى
الرسم ، لأن نعته غير باق ، وهو ملك وفعل الحق ، فهو فى الحقيقة للحق .

ومعنى هذا هو أن الله عز وجل أمر العبد بالصيام ، وسمى العبد
صائما بصيامه ، وهذا الصوم يكون للعبد من وجه الرسم ، والله من وجه
الحقيقة ، كما قال الله تعالى : « الصوم لى وأنا أجرى به(٣) » .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف ترك كل حظ
النفس(٤) » .

وهذا يكون على نوعين : أحدهما رسم ، والآخر حقيقة . بمعنى أنه إذا
كان تاركا للحظ ، فان تركه الحظ يكون حظا أيضا ، وهذا هو الرسم .
وإذا كان الحظ تاركا له ، فهذا هو فناء الحظ . وهذا يتعلق بحقيقة
المشاهدة ، فترك الحظ فعل للعبد ، وفناء الحظ فعل لله جل جلاله . وفعل
العبد رسم ومجاز ، وفعل الحق حقيقة .

وبهذا القول وضح قول الجنيد — رحمه الله — السابق لهذا القول .
ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « الصوفية هم الذين صفت
أرواحهم فصاروا فى الصف الأول بين يدى الحق » .

أى أن الصوفية هم أولئك الذين تحررت أرواحهم من كدورة البشرية ،
وصفوا من الآفات النفسية ، وخلصوا من الهوى ، حتى استقروا فى الصف
الأول والدرجة الأعلى مع الحق ، ونفروا من الغير .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٩) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ١٥٨) .

(٣) حديث قدسى رواه الشيخان والترمذى ومالك عن أبى هريرة (الموطأ ص ١٣٣) .

(٤) ورد بنصه فى التعرف (انظر ص ٢٥) ، طبقات الصوفية (انظر ص ١٦٦) .

ويقول أيضا رحمه الله : « الصوفي : الذى لا يملك ولا يملك » . وهذا عبارة عن عين الفناء ، ففانى الصفة لا يكون مالكا ولا مملوكا ، لأن صحة الملك تصح على الموجودات .

والمراد من هذا القول أن الصوفي لا يملك أى شئ من متاع الدنيا وزينة العقبى ، وهو نفسه لا يكون تحت حكم أو ملك نفسه ، وهو يقطع سلطان ارادته عن الغير ، ليقطع الغير عنه طمع العبودية . وهذا قول لطيف لمن يقولون بالفناء الكلى . وسنورد موضع الخطأ فى أقوالهم فى هذا الكتاب ، ليصير معلوما لك أن شاء الله عز وجل .

ويقول ابن الجلاء (١) رحمه الله : « التصوف حقيقة لا رسم له » .

وما هو رسم من المعاملات نصيب الخلق ، والحقيقة خاصة بالحق ، لأن التصوف هو الاعراض عن الخلق ، فلا يكون له رسم لا محالة .

ويقول أبو عمرو الدمشقى (٢) رحمه الله : التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن الكون (٣) .

يقول : التصوف هو أن لا تنظر الى الكون الا بعين النقص ، وهذا هو دليل بقاء الصفة . وأن تغض الطرف عن الكون ، وهذا هو دليل فناء الصفة ، لأن النظر من الكون ، وحين لا يبقى الكون لا يبقى النظر أيضا . وغض الطرف عن الكون هو بقاء البصيرة الالهية ، أى أن من لا يصير مبصرا بنفسه يصير مبصرا بالحق ، لأن كون الطالب يكون طالبا أيضا ، وأمره منه اليه ، وإلا مخرج له عن نفسه ، فواحد يرى نفسه ولكن يراها ناقصة ، وواحد يغض الطرف عن نفسه ولا يراها . ومن يراها ، وان يراها ناقصة ، فرؤيته حجاب ، ومن لا يراها فانه لا يحجب بعدم الرؤية (٤) . وهذا أصل قوى فى طريق الصوفية وأرباب المعانى ، ولكن ليس هنا مكان شرح هذا .

(١) أبو عبد الله بن الجلاء : اسمه أحمد بن يحيى . أصله من بغداد وأقام بالرملة ودمشق . كان من أجلة مشايخ الشام . صاحب أبا تراب النخشبى وذا النون المصرى وأباه يحيى الجلاء . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٧٦ ، الرسالة ج ١ ص ١١٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٦٣ ، نفحات الانس ص ١١٠) .

(٢) من مشايخ الشام . كان عالما بعلوم الحقائق . صاحب أبا عبد الله بن الجلاء وأصحاب ذى النون المصرى . له كتاب فى الرد على من قال بقدوم الأرواح . مات سنة عشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٧٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٠ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية ونفحات الانس هكذا : « التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غرض الطرف عن كل ناقص ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص » (أنظر طبقات الصوفية ص ٢٧٨ ، نفحات الانس ص ١٥٦) .

(٤) خلاصة هذا القول : أن يغض السالك طرفه عن الكون حتى لا تكون رؤيته للكون حجابا له عن الحق .

ويقول أبو بكر الشبلي رحمه الله : « التصوف شرك لأنه صيانة القلب عن رؤية الغير ، ولا غير » .

أي أن رؤية الغير شرك في اثبات التوحيد . وحين لا يكون للغير قيمة في القلب ، تكون صيانتها عن ذكر الغير محال .

ويقول الحصري(١) رحمه الله : « التصوف صفاء السر من كدورة المخالفة » .

ومعنى هذا أنه يحفظ السر عن مخالفة الحق ، لأن المحبة هي الموافقة ، والموافقة ضد المخالفة . وليس للحبيب في العالم كله سوى الحفاظ على أمر المحبوب . وحين يكون المراد واحدا ، فمن أين تكون المخالفة ؟

ويقول محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(٢) رضي الله عنه : « التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف(٣) » .

وحسن الخلق نوعان : أحدهما مع الخلق ، والآخر مع الحق . وحسن الخلق مع الحق هو الرضا بقضائه ، وحسن الخلق مع الخلق هو حمل ثقل صحبتهم لأجل الحق . وكل من هذين يعود على الطالب ، وللحق صفة الاستغناء عن رضا الطالب وسخطه ، وهاتان الصفتان متعلقتان بنظر وحدانيته .

ويقول المرتعش(٤) رحمه الله : « الصوفي لا يسبق همته خطوته البتة »

(١) أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري : بصرى الأصل . سكن بغداد . كان شيخ العراق في وقته ، له لسان في التوحيد يختص به ، ومقام في التجريد مسلم له . صاحب أبا بكر الشبلي وغيره . مات ببغداد سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

(٢) أبو جعفر محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب . قيل أنه سمي بالباقر لأنه بقر العلم ، أي شقته فمعرفة أصله وعرف خفيه . الإمام الخامس من الأئمة الاثني عشر . كان عالما سيدا كبيرا ، يحب أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويقول : من لم يقل له الصديق فلا صدق الله له قولا في الدنيا والآخرة . توفي سنة ثلاث عشرة وقيل سبع عشرة ومائة ، ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه وعم أبيه الحسن بن علي رضي الله عنه . أوصى بأن يكفن في قميصه الذي كان يصلّي فيه . (أنظر ترجمته في الباب الثامن ، تاريخ يعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٢٥ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٣٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٥) .

(٣) ورد هذا القول في الرسالة منسوبا الى الكفائي (أنظر ج ٢ ص ٥٥٤) .

(٤) أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش النيسابوري . صاحب أبا حفص الحداد ، ولقى الجنيد وصحبه . أقام ببغداد حتى صار أحد مشايخ العراق . كان يقيم في مسجد الشونيزية . مات سنة ثمان وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية =

أى أن يكون كله حاضرا ، فيكون الجسد حيث يكون القلب ، ويكون القلب حيث يكون الجسد . ويكون القول حيث تكوم القدم ، والقدم حيث يكون القول . هذه علامة الحضور بلا غيبة ، على خلاف ما يقال من أنه يكون غائبا عن نفسه وحاضرا بالحق ، فنقول : لا ، بل هو حاضر بالحق وحاضر بنفسه .

وهذه العبارة من جمع الجمع ، لأنه ما لم تكن الرؤية بالنفس لا تكون الغيبة عن النفس ، فاذا انعدمت الرؤية يكون الحضور بلا غيبة . وهذا عين قول الشبلى رحمه الله : « الصوفي لا يرى في الدارين مع الله غير الله » . وفي الجملة : ان وجود العبد هو الغير ، وحين لا يرى الغير لا يرى نفسه ، ويفرغ من نفسه كلية في حال نفيه وإثباته .

ويقول الجنيد رحمه الله : « التصوف مبنى على ثمان خصال : السخاء والرضا والصبر والاشارة والغربة ولبس الصوف والسياسة والفقر » .

قال : بناء التصوف على ثمان خصال ، اقتداء بثمانية أنبياء عليهم السلام ، فيقتدى في السخاء بإبراهيم ، لأنه باع به أن ضحى بولده . وفي الرضا بإسحاق لأنه رضى بأمر الله ، فقال بترك روحه العزيزة . وفي الصبر بأيوب لأنه صبر في بلائه بالدود . وفي الاشارة بزكريا لأن الله تعالى قال : « اذ نادى ربه نداء خفيا(١) » وفي الغربة بيحيى ، لأنه كان غريبا في وطنه وإغريبا عن أهله بين أهله . وفي السياسة بعيسى لأنه كان في سياحته من المتجرد بحيث لم يكن يملك الا وعاء ومشطا ، وحين رأى شخصا يشرب بحفنتيهلقى الوعاء ، وعندما رآه يخلل شعره بأصابعه رمى المشط . وفي لبس الصوف بموسى لأن ملابسه كلها كانت صوفا . وفي الفقر بمحمد عليه السلام لأن الله عز وجل بعث اليه بمفاتيح كنوز الأرض وقال له : لا تشق على نفسك ، وهبىء لنفسك من هذه الكنوز متاعا وأسبابا ، فقال : لا أريد ، يا الهى : أشبعنى يوما وأجعلنى يومين(٢) .

= ص ٣٤٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٥٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٤ ،
تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٦ ، خزنة الاصفياء ج ٢
ص ١٩٣) .

(١) سورة « مريم » آية ٣ .

(٢) اشارة الى ما روى عن الرسول عليه السلام أنه قال : « عرض على الدنيا فأبيتها » رواه ابن أبى الدنيا وأحمد والطبرانى عن أبى بويهية .
وما ورد عنه عليه السلام أنه قال : « خيرت بين أن أكون نبيا ملكا أو أكون نبيا عبدا ، فأشار الى جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيا عبدا : أشبع يوما وأجوع يوما » رواه الطبرانى عن ابن عباس ، وابن حبان عن أبى هريرة .

وهذه الأصول فى المعاملة : طيبة جدا .

ويقول الحصرى رحمه الله : « الصوفى لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده(١) » .

أى أن ما يجده لا يفقده أبدا ، وما يفقده لا يجده أبدا . وبمعنى آخر : لا يكون لوجوده عدم ، ولا لعدمه وجود . فاما اثبات بلا نفى ، أو نفى بلا اثبات .

والمراد من كل هذه العبارات هو أنه : أما أن تسقط حال البشرية عن شخص وتفوته الشواهد الجسمانية وتنقطع نسبته عن الكل ، واما أن تظهر البشرية فى شخص وتجتمع تفاريقه فى عين ذاته فيجد قيامه من نفسه بنفسه .

ولم يكن من الممكن ظهور هذا الا فى نبين عليهما السلام : أحدهما موسى — صلوات الله عليه — الذى لم يكن فى وجوده عدم فقال : « رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى(٢) » ، والآخر رسولنا — صلى الله عليه وسلم — الذى لم يكن فى عدمه وجود حتى قيل : « ألم نشرح لك صدرك(٣) » ، فواحد أراد الحلية وطلب الزينة ، والثانى زين ولم تكن له رغبة .

ويقول على بن بندار الصيرفى النيسابورى رحمه الله : « التصوف اسقاط الرؤية للحق ظاهرا وباطنا » .

لأنك اذا نظرت الى المظاهر تجد علامة التوفيق على الظاهر ، فاذا أمعنت النظر فان معاملة المظاهر لاتزن جناح بعوضة فى جنب توفيق الحق تعالى ، فتقول بترك رؤية المظاهر . واذا نظرت الى الباطن تجد علامة التأييد على الباطن ، فاذا دقت النظر فان معاملة الباطن لا تزن ذرة فى جنب تأييد الحق تعالى ، فتقول بترك الباطن ، وترى الكل للحق ، ولا ترى لنفسك شيئا .

ويقول محمد بن أحمد المقرئ(٤) رحمه الله : « التصوف استقامة

(١) ورد هذا القول فى الرسالة وعقب عليه التشرى بقوله : وهذا فيه اشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه : أى اذا غنيت آفاته لا تعود تلك الآفات . وقوله : لا يعدم بعد وجوده ، يعنى : اذا اشتغل بالحق لم يسقط بسقوط الخلق ، فالحادثات لا تؤثر فيه (انظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥٦) .

(٢) سورة « طه » آية ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة « الشرح » آية ١

(٤) أبو عبد الله : محمد بن أحمد المقرئ . صاحب يوسف بن الحسين الرازى وعبد الله الخراز ومظفر القرمسى وروىما والجريوى وابن عطاء . كان أغنى المشايخ وأسماهم خلقا وأعلامهم همة وأتمهم ديناً وورعاً . مات سنة ست وستين وثلثمائة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٥٠٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٩ ، نفحات الانس ص ٢٦٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٣) .

الأحوال مع الحق (١) « . أى أن الأحوال لا تحول سر الصوفى عن الاستقامة فى الحال ، ولا تلقى به فى الاعوجاج ، لأن من يكون قلبه صيدا لمحول الأحوال ، فإن الأحوال لا تنحرف به عن درجة الاستقامة ، ولا تمنعه عن الحق تعالى .

فصل فيما قيل فى المعاملات :

يقول أبو حفص الحداد النيسابورى (٢) رحمه الله : « التصوف كله آداب : لكل وقت أدب ، ولكل مقام أدب ، ولكل حال أدب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الآداب ، فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول (٣) » .

وقريب من هذا المعنى ما قاله أبو الحسن النورى رحمه الله : « ليس التصوف رسوما ولا علوما ولكنه أخلاق (٤) » .

أى أنه لو كان رسوما لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علوما لأمكن الوصول اليه بالتعلم ، ولكنه أخلاق ، فما لم تطلب حكمه من نفسك ، وما لم تصحح معاملاته مع نفسك ، وتنصفه من نفسك ، لا يحصل .

والفرق بين الرسوم والأخلاق هو أن الرسوم فعل يكون بالتكلف والأسباب ، وحين يكون ظاهرها على خلاف باطنها تكون فعلا خاليا من المعنى . والأخلاق فعل محمود بلا تكلف وأسباب ، وظاهره موافق لباطنه ، وخال من الدعوى .

ويقول المرتضى رحمه الله : « التصوف : حسن الخلق » . وهذا على ثلاثة أنواع :

أولها مع الحق : بأداء أوامره بلا رياء .

والثانى مع الخلق : بحفظ حرمة الكبار ، والشفقة على الصغار ، وانصاف الأقران ، والاعراض عن الكل ، وعدم طلب الانصاف .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥١١) .
(٢) أسبه عمرو بن سلمه . من أهل قرية يقال لها كوراباذ على باب نيسابور . صاحب عبيد الله بن مهدى الأبيوردى وعليها النصرابادى ، ورافق أحمد بن خضروية البلخى . توفى سنة نيف وستين ومائتين . (أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٥٥ ، الرسالة ج ١ ص ٩٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٢٢ ، نفحات الانس ص ٥٧ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ١٥٥) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف لطيف (أنظر : ص ١١٩) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية وهنا تحريف لطيف (أنظر : ص ١٦٧) .

والثالث مع النفس : بعدم متابعة الهوى والشيطان .

وكل من يقوم بنفسه في هذه المعاني الثلاثة يكون من ذوى الخلق الحسن . وهذا الذى ذكرته متفق مع قول عائشة الصديقة(١) رضى الله عنها ، حين قيل لها : أخبرينا عن خلق النبى عليه السلام ، فقالت : اقرأ من القرآن قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين(٢) » .

ويقول المرتضى رحمه الله أيضا : « هذا مذهب كله جد فلا تخططوه بشيء من الهزل » .

أى أن مذهب التصوف كله جد فلا تخططوه بالهزل ، ولا تتعلقوا بمعاملات المترسمين ، وفروا من المقلدين ، ذلك أن العوام لما نظروا الى أهل هذا الزمان ورأوا مترسمى الصوفية ، وشاهدوا رقصهم وغناءهم وذهابهم الى أبواب السلاطين ، واختصاصهم من أجل اللقمة والخرقة ، أساءوا الاعتقاد فى الجميع ، وقالوا ان أصل الطريقة هو هذا ، وقد سار المتقدمون أيضا على هذا ، ولم يعلموا أنه زمان الفترة وعهد البلاء . وحين يحمل الحرص السلطان على الجور ، والطمع العالم على الفسق ، والرياء الزاهد على اللئاق ، فإنه لا محالة أيضا من أن يحمل الهوى الصوفى على الرقص والغناء .

واعلم أن أهل الطرق يفسدون ، ولكن أصول الطرق لا تفسد . واعلم أنه اذا أخفى فريق من أهل الهزل هزله فى جد الأحرار ، فإن جدهم لا يصير هزلا .

ويقول أبو على القرمسينى(٣) رحمه الله : « التصوف : الأخلاق المرضية(٤) » .

والفعل المرضي هو أن يكون العبد راضيا عن الحق فى كل الأحوال ليكون راضيا بالرضا .

(١) عائشة ابنة أبى بكر الصديق ، رضى الله عنها ، تزوجها النبى عليه السلام بكرا ولم يتزوج بكرا غيرها ، وكان تزويجه بها بمكة وهى بنت ست سنين ، ودخل بها بالمدينة وهى بنت تسع سنين ، وتبض وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وتكنى أم عبد الله . نوفيت سنة تمان وخمسين وقد قاربت السبعين ، ودفنت بالبقيع . (المعارف ص ٥٩) .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٩٩

(٣) مظفر القرمسينى : من أنشياخ الجبل . صاحب عبد الله الخراز وغيره (انظر ترجمته فى الرسالة ص ١٥٩ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٩٠) .

(٤) ورد هذا القول فى حواشى الرسالة : « التصوف الاخلاق المرضية (انظر الرسالة ج ١ ص ١٥٩) .

ويقول أبو الحسين النورى رحمه الله : « التصوف هو الحرية ،
والفتوة ، وترك التكلف ، والسخاء » .

فالحرية : أن يتحرر العبد من قيد الهوى ، والفتوة : أن يتجرد من رؤية
الفتوة ، وترك التكلف : أن لا يجتهد فى المتعلقات والنصيب ، والسخاء :
أن يترك الدنيا لأهل الدنيا .

ويقول أبو الحسن البوشنجى (١) رحمه الله : « التصوف اليوم اسم
بلا حقيقة ، وقد كان من قبل حقيقة بلا اسم (٢) » .

يعنى : أن هذا الاسم لم يكن موجودا وقت الصحابة والسلف ، وكان
المعنى موجودا فى كل منهم . والآن يوجد الاسم ولا يوجد المعنى .

أى أن المعاملة كانت معروفة ، والدعوى مجهولة ، والآن صارت الدعوى
معروفة ، والمعاملة مجهولة .

الآن : قد أوردت هذا القدر من تعريفات المشايخ وأقوالهم رحمهم الله
فى هذا الكتاب فى باب التصوف هذا ، لينفتح عليك — أسعدك الله —
طريقه ، ونقول للمنكرين : ما مرادكم من انكار التصوف ؟ فان كانوا ينكرون
الاسم المجرد فلا ضير ، لأن المعانى تكون فى حق التسميات غريبة ، وان
كانوا ينكرون عين هذه المعانى ، يكونوا قد أنكروا كل شريعة النبى عليه
السلام وخصاله المحمودة .

وأنا أوصيك أن تراعى حق هذا وتنصفه لتكف الدعوى ، وأن تحسن
الاعتقاد بأهل هذه الطريقة .

وبالله التوفيق ، وعليه التوكل والتصديق .

(١) اسمه على بن أحمد بن سهل . كان من فتيان خراسان ، لقى أبا عثمان وابن عطاء
والجريرى وأبا عمرو الدمشقى . كان من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد ، وعلوم
المعاملات وأحسنهم طريقة فى الفتوة والتجريد . مات سنة ثمان وأربعين وثلثمائة
(أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٥٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٢ ، طبقات
الشعرانى ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٢٥) .
(٢) ورد هذا القول بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٤٥٩) .

الباب الرابع باب في لبس المرقعة

أعلم أن لبس المرقعة شعار المتصوف . وليس المرقعات سنة ، ومن هنا قال الرسول عليه السلام : « عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الايمان في قلوبكم(١) » .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار(٢) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا لعائشة رضى الله عنها : « لا تضيعى الثوب حتى ترقعيه(٣) » وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الايمان .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة(٤) . ويرد عنه أنه قبل أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة .

ويرد عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كان له قميص لا يصل كماه الى أصابعه ، وكان اذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كميته .

وأمر الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بتقصير الثياب في قوله تعالى : « وثيابك فطهر(٥) » . أي : فقصر .

ويقول الحسن البصرى(٦) رحمه الله : رأيت سبعين بدرية يلبسون

(١) رواه الحاكم في المستدرك عن أبي أمامة (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٧) .

(٢) من قول أبي موسى الأشعري : كان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس الصوف ويركب الحمار ويأتى مدعاة الضعيف .

(٣) ورد في تلبس إبليس : « لا تخلعى الثوب حتى ترقعيه » .

(٤) روى عن أبي عثمان النهدي أنه قال : رأيت على عمر قميصا فيه اثنتا عشرة رقعة وهو يخطب (اللمع ص ١٧٣) .

(٥) سورة « المدثر » آية ٤

(٦) أبو سعيد الحسن البصرى . كان والده من أهل ميسان فسبى . شيخ زهاد البصرة ، ويعده المتصوفة منهم . صبغ الحياة الروحية بصبغة الزهد والخوف ، وغلب عليه الخوف كأن النار لم تخلق الا له وحده . توفي سنة عشر ومائة (أنظر ترجمته في الباب العاشر ، المعارف ص ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٢٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٣ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٢٣) .

جميعا ثيابا من الصوف (١) .

والصديق الأكبر رضى الله عنه لبس ثوب الصوف فى حال التجريد .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله . رأيت سلمان (٢) وقد لبس كليما
ذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ،
وهزم بن حيان (٣) رضى الله عنه رأوا أويسا القرنى (٤) وكان يلبس ثوبا من
الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار (٥) وسفيان الثورى (٦) ، رحمة
الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية .

(١) ورد فى التعرف : قال الحسن البصرى : لقد أدركت سبعين بدريا ما كان لباسهم
الا الصوف . (أنظر : ص ٢٣) .

(٢) سلمان الفارسى : كان يكنى أبا عبد الله ، ويقول قوم أنه من أهل أصبهان ويقول
قوم أنه من فارس . لم يشهد بدرا ولا أحدا لأنه كان فى أوقاتها عبدا . وأول
غزاة غزاها ، الخندق سنة خمس من الهجرة . عمر عمرا طويلا ومات فى أول
خلافة عثمان وفى بعض الروايات انه مات فى خلافة عمر رضى الله عنه بالمداين .
وقيل مات سنة ست وثلاثين . (أنظر ترجمته فى المعارف ص ١١٧ ، طبقات
الشعرانى ج ١ ص ١٩ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥١٥) .

(٣) « هرم بن حيان » : هو من عبد القيس وكان من خيار الناس ، وولى الولايات
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان على عبد القيس يتوج يوم قتل شهرك
زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (المعارف ص ١٩٢ ، أنظر ترجمته فى
الباب العاشر) .

(٤) « أويس بن عامر » : ويقال ابن عمرو القرنى . من سادات التابعين ، ويعده
البخارى من الضعفاء . كان يلزم المسجد مع جماعة من أصحابه . قال بعضهم
انه مات بالحيرة ، وقال آخرون : بل مات مع على بن أبى طالب مقاتلا بين يديه
فى صفين . كان يلتقط الكسر من المزابل فيفسلها ويأكل بعضها ويتصدق ببعضها .
قال له هرم بن حيان أوصنى فقال : نوبد الموت اذا نمت ، واجعله نصب عينيك
اذا قمت . (أنظر ترجمته فى الباب العاشر ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١١٨) .

(٥) أبويحيى مالك بن دينار البصرى : من موالى بنى سامة بن لؤى القرشى . كان عالما
زاهدا كثير الورع لا يأكل الا من كسبه . وكان يكتب المصاحف بالأجر . توفى
سنة احدى وثلاثين ومائة بالبصرة . كان يقول : لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت
أنى اذا مت أن أغل فأدفع الى ربى مغفولا كما يدفع العبد الأبق الى مولاه .
(أنظر ترجمته فى الباب الحادى عشر ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ، طبقات
الشعرانى ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢
ص ١٢٣) .

(٦) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق بن عدنان الثورى الكوفى . كان اماما فى
علم الحديث وغيره من العلوم ، وأجمع الناس على امامته وورعه وزهده .
وكانوا يسمونه أمير المؤمنين فى الحديث . توفى بالبصرة سنة احدى وستين ومائة .
قوموا ثيابه التى عليه حتى النعل فبلغت درهما وأربعة دنانق (أنظر ترجمته فى
المعارف ص ٢١٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢١٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٣٨ ،
تذكرة الاولياء ج ١ ص ١٨٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٥) .

ويروى عن الامام الأعظم أبي حنيفة (١) — وهذا مكتوب في كتاب تاريخ المشايخ الذي ألفه محمد بن علي الترمذي (٢) — أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة الى أن رأى الرسول عليه السلام في النوم يقول له : ينبغي لك أن تكون بين المخلوق لأنك سبب احياء سنتي . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس أبدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائي (٣) رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء ابراهيم بن أدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر اليه أصحاب — أبي حنيفة — بعين الاحتقار ، فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا ابراهيم بن أدهم ؟ فقال له أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان امام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ، فقد انشغل بخدمة الله ، وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

واذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ، فمن الجائز أن يكون في الجيش مبارز واحد ، والمحققون في كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون اليهم حينما يشبهونهم في شيء من الأحكام ، لقوله

(١) النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه : الامام الفقيه الكوفي مولى تيم الله بن ثعلبة . كان جده زوطى من أهل كابل وكان رقيقا أعتق ، وان نفى ذلك أحد أحناف أبي حنيفة ، كان عالما زاهدا عابدا ورعا تقيا كثير الخشوع دائم التضرع الى الله تعالى . وكان حجة في الفقه شهد له الشافعي فقال : من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عال على أبي حنيفة . دعى لتولى القضاء مرتين ولكنه رفض . توفي ببغداد سنة خمسين ومائة ودفن في مقبرة الخيزران . تنسب اليه عدة مؤلفات في الفقه أشهرها « الفقه الاكبر » (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢١٦ ، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٣ ، الفهرست ص ٢٨٤ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٠٢ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٤١ ، كشف الظنون ج ٢ عمود ١٢٨٧) .

(٢) أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي المتوفى سنة ٢٨٥ هـ : متكلم سنى من أهل خراسان ، ومتحدث وفقه كوفى . لقي أبا تراب النخشبى وصحب يحيى الجلاء وأحمد بن خضرويه . له تصانيف كثيرة وكرامات مشهورة . كان أستاذا لأبى على الجوزجاني وأبى بكر الوراق (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٢١٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٥٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٩١ ، نفحات الانس ص ١١٨ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٥٠٣) .

(٣) داود بن نصير : أبو سليمان الطائى الكوفى الزاهد . يقال ورث عشرين دينارا فأكلها في عشرين سنة . قيل عن سبب زهده أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له يوما : يا أبا سليمان ، أما الاداة فقد أحكمتها . فقال داود : أى شيء بقى ؟ قال : العمل بها . مات سنة خمس وستين ومائة (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، المعارف ص ٢٢٤ ، الرسالة ج ١ ص ٧٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢١٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٢٨) .

عليه السلام : « من تشبه يقوم فهو منهم(١) » أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر الى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق الى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفية لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنه وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجه على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين — من الصوفية — ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال — هؤلاء — على كشف الأحوال ، والتجرد عن الهوى ، والاعراض عن النفس .

وفريق — ثان — يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكون وسلامة صدره على أظهارهم(٢) ، فيرون ممارستهم للشرعية وحفظهم لأداب الاسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ، ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق — ثالث — تهديه مروءة انسانيته وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مزدانة بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق — رابع — يقوده الى أفعالهم كسل طبعه ورعوته نفسه وطلبه الرياسة بلا آلة ، وارانته التصدر بلا فضل ، وبحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهم(٣) يلائنونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم(٤) شئ من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شئ من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : « كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله(٥) » .

(١) رواه ابن رسلان عن ابن عمر ، والطبرانى فى الاوسط (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٨٩) .

(٢) أظهارهم = ظواهرهم : جمع « ظاهر » .

(٣) « هم » أى الصوفية المحققون .

(٤) قلوبهم : أى قلوب أفراد الفريق الرابع .

(٥) سورة « الجمعة » آية ٥ .

وهذا الفريق هم الأغلب في هذه الأيام . فليكن لزاما عليك اذن أن لا تقصد ما ليس لك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكون بالخرقة ، بل بالحرقة . وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريبا عنها تكون مرقعته رقعة الادبار ومنشور الشقاء يوم النشر ، كما قيل لذلك الشيخ الكبير : « لم لا تلبس المرقعة ؟ قال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل في حمل أثقال الفتوة » . فإذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، وإذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فإن تكن كذلك فهو رياء ، وإن لم تكن فهو نفاق . وهذا طريق صعب ملىء بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، « فالصفاء من الله انعام واکرام ، والصوف من لباس الأنعام » ! فالحيلة حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قرينة ، فهم يعملون ما عليهم ، ويحلون ظاهرهم ، وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة ، وإذا أرادوا إثبات المعصية في تلك الثياب ، فإنهم لا يستطيعون خجلا من الخلق .

وفي الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص . وعز العوام هو أنهم حين يرقدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر اليهم الخلق بعين العوام ويلومونهم بذلك ، فهي « لباس النعم للعوام ، وجوشن البلاء للخواص » ، لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : « المرقعة تميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور » ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح .

وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوظائف لآخر . وأرجوا أن يفلحوا جميعا بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما فهو

معهم(١) « . ولكن ينبغي أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل الى التحقيق أبدا .

واعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يغنى الحجاب الا بدور الأحوال والتربية في المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس بالتكلف غير ممكن . وإذا ظهر فناء الصفة وزالت آفة الطبيعة من الوجود ، فسواء لديه أن سمي بالصوفي أو باسم آخر .

قصة : أما شرط المرقعات فهو أن يعملها — الصوفي — من أجل الخفة والفراغ ، وحيثما يتمزق شيء من الأصل يوضع فوقه رقعة .

وللمشايع ، رحمهم الله ورضى الله عنهم ، في هذا قولان : ففريق يقول أنه لا يشترط مراعاة نظام لحياكة الرقعة ، فتسحب الابرة حيثما تخرج رأسها ، ولا يتكلف في هذا .

وفريق آخر يقولون انه يشترط لحياكة الرقعة الترتيب والاستقامة ورعاية التضريب والتكلف في الاستقامة ، لأنها معاملة الفقراء ، وصحة المعاملة دليل صحة الأصل .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — سألت شيخ المشايخ أبا القاسم الجرجاني(٢) في طوس(٣) : ما أقل ما ينبغي للفقير حتى يكون جديرا باسم الفقر ؟ قال : ينبغي له ثلاث ، ولا أقل منها :

أولا : يجب أن يعرف كيف يخطط الرقعة خياطة مستقيمة .

ثانيا : يجب أن يعرف كيف يسمع الكلام سمعا مستقيما .

ثالثا : يجب أن يعرف كيف يضرب الأرض بقدم مستقيمة .

وعندما رجعنا — أنا وفريق الدراويش الذين كانوا حاضرين معي حين قال هذا — الى الدويرة ، أخذ كل منهم يتصرف في هذا ، وظهر لفريق من

(١) رواه الطبراني في الكبير : « من أحب قوما حشره الله في زمرة » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٧٢) .

(٢) من شبوح الهجوري : انظر ترجمته في الباب الثاني عشر .

(٣) « طوس » من مدن خراسان . وهي من نيسابور على مرحلتين ، وبها قبر الرشيد أمير المؤمنين ، وبها توفي الرضا على بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام (البلدان : ص ٤٤) ، وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقهاء مالا يحصى ، وحسبك بأبي حامد محمد بن محمد الفزالي الطوسي وأبي الفنوح أخيه (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٤٠) .

الجهلة في هذا شره، وقالوا ان الفقر هو عين هذا ، وكان أكثرهم يتسابقون في تجويد حياكة الرقعة ، والدبيب على الأرض بأقدامهم ، ويظن كل منهم في نفسه أنه يعرف سماع الكلام ، في الطريقة . ويحكم أن قلبى كان يميل الى هذا السيد ، لم أشأ أن يضيع كلامه هذا عبثا ، فقلت : تعالوا ليقول كل منا شيئا في هذا القول . فقال كل منهم ما نراهى له ، فلما وصلت النوبة الى قلت : الرقعة المستقيمة هى أن تخاط للفقر لا للزينة ، لأنها اذا خيطت بالفقر كانت مستقيمة ولو لم تكن كذلك . وسماع الكلام مستقيما هو أن يسمع بالحال لا بالمنية ، ويتصرف فيه بالجد لا بالهزل ، وأن يفهم بالروح لا بالعقل . والقدم المستقيمة هى التى توضع على الأرض بالوجد لا باللهو والرسم .

ونقل البعض هذا الكلام للشيخ فقال : أصاب على خير الله .

والمراد من لبس المرقعة لهذه الطائفة هو مؤنة الدنيا ، وصدق الفقر لله تعالى . وقد ورد في الآثار الصحيحة أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يلبس مرقعة حين رفع الى السماء . وقال أحد المشايخ : رأيت في النوم ، بتلك المرقعة من الصوف ، وكان يتلأأ من كل رقعة نور ، فقلت : أيها المسيح ، ما تلك الأنوار على الثوب ؟ قال : انها أنوار اضطرارى ، فقد خطت كل رقعة منها لضرورة ، فصور الله عز وجل كل أذى أصابنى به نورا .

وأىضا : رأيت في ما وراء النهر ، شيخا من أهل الملامة لم يكن يأكل أو يلبس شيئا للآدمى فيه نصيب ، فكان يأكل الأشياء التى يرميها الناس كالكرات العفن والقرع المر والجزر الفاسد وأمثال ذلك ، ويتخذ ملابسه من الخرق التى يلتقطها من الطريق ويطهرها ويصنع منها مرقعة (١) .

وسمعت أنه كان بمرور الروذ (٢) شيخ من المتأخرين من أرباب المعانى قوى الحال طيب السيرة ، كانت العقرب تلد دون كلفة في سجادته وقلنسوته ، لكثرة ما عليهما من الرقع غير المنكفة .

وقد لبس شيخى (٣) رضى الله عنه ثوبا واحدا لمدة ستة وخمسين عاما ، كان يضع عليه رقعا بلا تكلف .

(١) ورد مثل هذا عن أويس القرنى أنه كان يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها في الفرات ثم يخطها فيلبسها (تلبس إبليس ص ١٨٦) .

(٢) « مرو الروذ » : من مدن كورة مرو ، وبين مرو وبينها خمس مراحل : ومرو الروذ افتتحها الاحنف بن قيس في خلافة عثمان سنة احدى وثلاثين (البلدان : ص ٥٦)

(٣) أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى : من شيوخ الهجویری : انظر ص ، ترجمته في الباب الثانى عشر .

ووجدت في حكايات العراقيين أنه كان هنا لك اثنان من الدراويش : أحدهما صاحب مشاهدة ، والآخر صاحب مجاهدة ، لم يلبس أولهما طيلة حياته الا الخرق التي يمزقها الدراويش في السماع ، ولم يلبس الآخر الا الخرق التي يمزقونها في حال الاستغفار من ذنب ، حتى صارت زينة ظاهرهما موافقة لسيرة باطنهما . وهذا من رعاية الحال .

وكان الشيخ محمد بن خفيف(ه) رضى الله عنه يرتدى لمدة عشرين عاما ثوبا من الصوف الغليظ ويعتكف كل عام أربع اربعينيات(٢) ، وكان يؤلف في كل منها كتابا في غوامض علوم الحقائق . وكان يعاصره شيخ من المحققين من علماء الطريقة ، يقيم بالقرب من فارس(٢) ، يدعى محمد بن زكريا ، لم يرتد المرقعة قط ، فسئل الشيخ محمد بن خفيف : ما شرط المرقعة ؟ ولبسها مسلم لمن ؟ فأجاب : شرط المرقعة هو ما يفعله محمد بن زكريا في قميصه الأبيض ، ولبسها مسلم له .

فصل : وأما ترك عادة هذه الطائفة فلا يكون شرطا في طريقهم . وقلة ارتدائهم ثياب الصوف الآن ، له معنيان ، أحدهما : أن الأصواف تشعث ، والأنعام انتقلت في الغارات من مكان الى مكان ، والثاني : أن طائفة من أصحاب البدع اتخذوا رداء الصوف شعارا لهم ، ومخالفة شعار أهل البدع سنة ، ولو كان مخالفة للسنة .

أما التكلف في حياكة الرقعة فيجيزونه ، لأن جاههم قد عظم بين الخلق وكل من الخلق تشبه بهم ولبس المرقعة ، وبدت منهم أفعال ذميمة . ولما تأذوا من صحبة الأضداد ، اتخذوا زينة لا يعرف أحد غيرهم حياكتها ، وجعلوها علامة لمعرفة بعضهم البعض ، واتخذوها شعارا ، حتى ليقال ان درويشا دخل على أحد الشيوخ ، وكان قد جعل خطوط الرقعة التي خاطها على ثوبه مستعرضة ، فهجره الشيخ . وكان معنى هذا أن أصل الصفاء هو رقة الطبع ولطافة المزاج ، ولا يحسن الاعوجاج في الطبع البتة . وكما أن الشعر غير المستقيم لا يحسن في الطبع ، فكذلك الفعل غير المستقيم لا يقبله الطبع .

-
- (١) أبو عبد الله محمد بن خفيف . كان شيخ المشايخ في وقته . صاحب رويما والجريري وأبا العباس بن عطاء . كان عالما بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (أنظر ترجمته في الباب الحادي عشر ، طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٤ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، نفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ٤) .
- (٢) أنظر الابواب من السابع والعشرين الى التاسع والعشرين من عوارف المعارف ، « في خاصية الاربعينية وذكر الفتوح وكيفية الدخول فيها » .
- (٣) فارس : ولاية واسعة واقليم فسيح ، وأول حدودها من جهة العراق أرجان . وفارس اسم البلد وليس اسم الرجل ، وقصبتها شيراز . فتحت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٣٥ - ٨٤٨) .

وطائفة أخرى لا يتكلفون في وجود اللباس وعدمه ، فاذا رزقهم الله عباءة لبسوها ، واذا رزقهم قباء لبسوه ، واذا تركهم عراة بقوا كذلك . وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — قد ارتضيت هذا الطريق ، وفعلت هكذا في أسفاري .

وورد في الحكايات أنه حين جاء أحمد بن خضرويه (١) لزيارة أبي يزيد كان يرتدي قباء ، وحين جاء شاه بن شجاع (٢) لزيارة أبي حفص (٣) كان يلبس القباء . ولم يكن هذا لباسهما المعهود ، فقد كانا في بعض الأوقات يرتديان المرقع ، ويلبسان ثوبا من الصوف في البعض الآخر ، أو البياض حسبما اتفق .

ونفس الأدمى معتادة ، ولها بالعادة ألفة . والنفس اذا اعتادت شيئا صار طبيعة ، واذا ما صار طبيعة صار حجابا ، ولذا قال النبي عليه السلام : « خير الصيام صوم أخى داود (٤) » عليه السلام ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : كان يصوم يوما ويفطر يوما حتى لا يصير الصوم عادة للنفس ، ويحجب بذلك .

وكان في هذا المعنى أحب الأحباء أبو حامد الدوستاتى (٥) المروزي رحمه الله ، فقد كان مريدوه يلبسونه ثوبا ، ثم تكون لشخص اليه حاجة ، ثم كان يأتي من كانت له به حاجة فيتلمس فراغه ، فاذا ما خلا ، نزع عنه ذلك الثوب . ولم يكن يقول لللبسه : لم تلبسنى ؟ ولا لنزعته : لم تخلعه عنى ؟ .

(١) كنيته : أبو حامد . من كبار مشايخ خراسان . صاحب أبا تراب النخشبى وحاتبا الأسم . كان كبيرا في الفنوة ، قال عنه أبو حفص الحداد : ما رأيت أحدا أكبر همة ولا أصدق حالا من أحمد بن خضرويه . توفي سنة أربعين ومائتين (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٠٣ ، الرسالة ج ١ ص ٩٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٥٦ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٨٨ ، نفحات الانس ص ٥٤) .

(٢) كنيته : أبو الفوارس . كان من أبناء الملوك . صاحب أبا تراب النخشبى وأبا عبد الله الزراع البصرى . له رسالات مشهورة ، والمثلثة التى سماها : مرآة الحكماء . مات قبل الثلاثمائة (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٩٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٣١٢ ، نفحات الانس ص ٨٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٥٨) .

(٣) أبو حفص الحداد النيسابورى : سبق الإشارة اليه .

(٤) رواه الشيخان عن ابن عمرو : « أحب الصيام الى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما ، وأحب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ١٦) .

(٥) أشير اليه في أسرار التوحيد (أنظر ص ٢٧٢) .

ويوجد الآن في غزنين(١) — حرسها الله — شيخ يلقب بالمريد ، رضى الله عنه ، لا اختيار له ولا تمييز في لباسه . والحديث في ذلك صحيح .

أما معنى أن أكثر ثيابهم زرقاء ، فمنه : أنهم وضعوا أصل طريقتهم على السفر والسياحة ، ولا يبقى الثوب الأبيض في السفر على حاله ، ويصعب غسله ، ويطمع فيه كل شخص .

ثم ان لبس الأزرق شعار أصحاب الوفاة والمصائب ، وهو لأناس رداء الحزن . والدنيا دار المحنة ، وخربة المصيبة ، ومفازة الغم ، وآفة المبتلين بالفراق ، وحصن البلاء ، فلما رأى المريدون أنهم لم يبلغوا مقصودهم في الدنيا ، لبسوا الأزرق ، وجلسوا في مأتم الوصال .

ومنهم طائفة أخرى لم يروا في المعاملات غير التقصير ، وفي القلب غير الخراب ، وفي الوقت غير الفوت ، فلبسوا الأزرق .

فواحد لبسه على موت عزيز ، والآخر على فوت مقصود ، لأن « الفوت أشد من الموت » .

سأل واحد من مدعى العلم درويشاً : لم لبست هذا الأزرق ؟ قال : لقد بقى عن النبي عليه السلام ثلاثة أشياء ، أولها : الفقر ، والثاني : العلم ، والثالث : السيف .

ظفر السلاطين بالسيف ولم يستعملوه في موضعه .

· واختار العلماء العلم واكتفوا بالتعلم فقط .

واختار الفقراء الفقر وجعلوا منه آلة للغنى . فلبست الأزرق على مصيبة هذه الفئات الثلاث .

ويرد عن المرتعش رحمه الله أنه كان يمر في محله ببغداد(٢) وأحس بالظمأ ، فقصد باباً وطلب الماء . فخرجت إليه فتاة بجرة ماء ، فلما شرب صار قلبه صيدا للساقية . فظل في مكانه حتى جاء رب الدار فقتل له : أيها السيد ، كان قلبى متعطشاً جداً لشربة ماء فسقونى شربة من دارك وسلبوا قلبى ، قال الرجل : تلك ابنتى ، وقد زوجتك إياها . فدخل

(١) « غزنين » أو « غزنه » موطن الهجویری : ارجع الى ما ورد عنها في القسم الاول ص .

(٢) « بغداد » : وسط العراق والمدينة العظمى التى ليس لها نظير في مشارق الارض ومغاربها سعة وكبرا وعماره وكثرة مياه وصحة هواء . انتقل اليها من جميع البلدان الدانية والقاصية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم . يجرى في حافتها النهران الاعظمان دجلة والفرات . بناها أبو جعفر المنصور فاختطها في ربيع الاول سنة احدى وأربعين ومائة (البلدان ص ٢ — ٢٢) .

المرتعى البيت تحقيقا لمراده ، وعقد عليها . وكان صاحب البيت هذا من أثرياء بغداد ، فأرسله الى الحمام ، وألبسه ثيابه ، وخلع عنه المرقعة . ولما أقبل الليل وقف المرتعى للصلاة ، وقرأ الأوراد ، وأخذ الى الخلوة ، فصاح فى أثناء ذلك : هاتوا مرقعتى . فسألوه : ماذا أصابك ؟ قال : نوديت فى سرى : لقد خلعتنا عن ظاهرنا ثوب الصلاح والبرقة بنظرة نظرتها مخالفة لنا ، فاذا نظرت أخرى نزعنا عن باطنك لباس المعرفة .

فالثوب الذى يكون السبب فى ارتدائه التقرب الى الله والموافقة لأوليائه تكون المداومة عليه مباركة ، فاذا كنت تستطيع أن تقى بحقه ، فبها ، والا فإنه ينبغى عليك أن تصون دينك . ولا تجوز الخيانة فى ثياب الأولياء . ولأن تكون مسلما على التحقيق بلا دعوى ، خير من أن تكون وليا على الكذب .

أما لبس المرقعة ، فيستقيم لطائفتين : أولاهما ، المنقطعون عن الدنيا ، والآخرى ، المشتاقون الى حضرة المولى .

وقد جرت السنة فى عادات المشايخ رضى الله عنهم ، على أنه عندما يتصل بهم مريد بحكم التبرك ، فإنهم يؤدّبونه خلال سنوات ثلاث على معان ثلاثة ، فاذا أدى حقها ، فبها والا قالوا ان الطريقة لا تقبله ، فسنة منها لخدمة الخلق ، وسنة ثانية لخدمة الحق ، وسنة ثالثة لمراعاة قلبه .

وهو يستطيع خدمة الخلق عندما يضع نفسه فى درجة الخدم ، وكل الخلق فى درجة المخدمين : أى يخدم الجميع بلا تمييز ، ويراهم خيرا منه ، ويعرف أن خدمتهم واجب عليه ، ولا يرى لنفسه بتلك الخدمة فضلا على الآخرين ، لأن ذلك خسران عظيم ، وعيب ظاهر ، وغبن فاحش ، وداء من الأدواء فى هذا الزمان (١) لا دواء له .

وهو يستطيع أن يخدم الحق جل جلاله حين يقطع حظوظه من الدنيا والعقبى كلية ، ويعبد الحق سبحانه وتعالى عبادة مطلقة من أجله هو ، لأن العبد ما دام يعبد الحق من أجل كفارة الذنوب وإدراك الدرجات فإنه لا يعبد ذاته ، فما بالك بأسباب الدنيا .

وهو يستطيع مراعاة قلبه حين يجمع همته ويرفع عن قلبه الهموم المختلفة ، ويحفظه — فى حضرة الأنس — من مواطن الغفلة .

فاذا توفرت هذه الشروط الثلاثة فى المريد ، يسام له بلبس المرقعة على وجه التحقيق لا التقليد .

(١) زمان المؤلف .

أما من يخلع على المريد المرقعة ، فيجب أن يكون مستقيم الحال ، قد اجتاز جميع عقبات الطريق ، وذاق طعم الأحوال ، وادرك مشارب الأعمال ، وشاهد قهر الجلال ولطف الجمال . ويجب أيضا أن يكون مشرفا على حال مريده ، يعرف الام ينتهى : أهو من الراجعين ، أو الواقفين ، أو الواصلين ، فاذا عرف أنه سوف يرتد يوما عن الطريقة ، يقول له ذلك حتى لا يبدأ ، واذا توقف ، يأمره بالمعاملة ، واذا تحقق من أنه سيصل ، يتعهد بالرعاية .

ومشايع هذه الطريقة هم أطباء القلوب ، وحين يكون الطبيب جاهلا بعلة مريضه فانه يهلكه بطبه ، لأنه لا يعرف تطبيبه ، ويجهل مواطن دائه ، فيجعل غذاءه وشرابه مخالفا لمלתه ، لقوله عليه السلام : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته (١) » ، فالأنبياء عليهم السلام دعوا الخلق على بصيرة ، وجعلوا كل فرد في درجته . ويجب للشيخ أيضا أن يدعو على بصيرة ، وأن يعطى لكل غذاءه ، حتى يتحقق المراد من الدعوة . فاذا لبس شيخ بلغ الكمال في ولايته لله ، مريدا المرقعة بعد هذه السنوات الثلاث من التربية في الرياضة ، فهذا جائز .

وشرط لبس المرقعة لبس الكفن ، لأنهم يقطعون الأمل من لذة الدنيا ، ويطهرون قلوبهم من راحتها ، ويقفون عمرهم كله على خدمة الحق جل جلاله ، ويبرأون تماما من الهوى ، ومن ثم يعز الشيخ المريد بالبأسه الخلعة ، وهو يقوم بحقها ويجتهد تماما في أداء هذا الحق ، ويحرم على نفسه رغباتها .

أما الاشارات في المرقعة ، فقد قيل فيها الكثير ، وقد عمل الشيخ أبو معمر الاصفهاني كتابا فيها . وعوام المتصوفة يغالون في هذا الأمر كثيرا ، وليس مرادنا من هذا الكتاب نقل أقوالهم ، بل كشف المغلق من مراد هذه الطريقة .

وخير الاشارات في المرقعة القول بأن يكون قلبها من الصبر ، وكماها من الخوف والرجاء ، وإبطاها من القبض والبسط ، ووسطها من مخالفة النفس ، وجيبها من صحة اليقين ، وسجافها من الاخلاص .

وخير من هذا ، القول بأن يكون القلب من فناء المؤانسة ، والكمان من الحفظ والعصمة ، والابطان من الفقر والصفوة ، والوسط من الاقامة في

(١) رواه ابن النجار عن أبي رافع : « الشيخ في أهله كالنبي في أمته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٠) .

المشاهدة والجيب من الأمن في الحضرة ، والسجاف من القرار في محل
الوصل . واذا هيأت لباطنك مرقعة كهذه ، فيجب أن تعمل لظاهرك
واحدة أيضا .

ولى كتاب مستقل ، مؤلف في هذا الموضوع ، اسمه : « أسرار الخرق
والملونات » ويلزم للمريد نسخة منه .

أما اذا لبس (المريد) المرقعة ، فانه اذا مزقها في غلبة الحال وتعب
سلطان الوقت فهذا مسلم له ، ويكون له العذر . واذا مزقها في حال الاختيار
والتمييز ، فالأكثر في شرط هذه الطريقة أن لا يسلم له بالاحتفاظ بها ،
أما اذا ما لبسها فانه يكون كأحد أصحاب المرقعات في هذا الزمان ، قد
اكفى بالظاهر دون الباطن .

والحقيقة في تخريق الثياب هي أنهم حين ينتقلون من مقام الى مقام آخر ،
يخلعون الثوب في الحل ، شكرا على وجدان هذا المقام ، ويعدون ثوبا
آخر لباسا لمقام آخر .

والمرقعة لباس جامع لكل مقامات الطريقة والفقر والصنوة . والخروج
من هذا الثوب والتبرؤ منه تبرؤ من الكل ، وان يكن هذا المكان ليس
موضعا لذكر هذه المسألة ، اذ أنها تلزم لباب الخرق والملونات وكشف
حجاب السماع ، وقد أشرت اليها هنا بهذا المقدار حتى لا تخفى هذه
اللطيفة ، وسأفصل هذا الحكم في مكانه ان شاء الله عز وجل .

وقيل أيضا : أنه يجب لمن يقوم بالباس المرقعة من السلطان في الطريقة
ما يجعله اذا نظر الى غريب بعين الشفقة يصير قريبا ، واذا ما لبس
عاصيا المرقعة يصير من أولياء الله .

وفي وقت من الأوقات كنت أسير برفقة شيخى في آذربيجان (١) ، فرأيت
بضعة أفراد من أصحاب المرقعات واقفين على بيدر قمح ، وقد مدوا أذيل
مرقعاتهم ليضع الفلاح فيها القمح ، فالتفت الشيخ اليهم وقرأ : « أولئك
الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (٢) »
قلت : أيها الشيخ ، بأى خزي ابتلوا بهذا البلاء ، وفضحوا على الملأ ؟
قال : لأن شيوخهم كانوا يحرصون على جمع المريدين ، وهم يحرصون على

(١) « آذربيجان » : من ربع المشرق : أول مدنها أردبيل على أربع مراحل من رنجان .
وأهل مدن آذربيجان أخلاط من العجم الآذرية والجاودانية القدم أصحاب مدينة
البذ التي كان فيها بابك ثم نزلتها العرب لما فتحت . وافتتحت آذربيجان سنة الثمن
وعشرين انتحها المغيرة بن شعبة في خلافة عثمان (إبلدان ص ٢٨) .
(٢) سورة « البقرة » آية ١٦

جمع أسباب الدنيا ، وليس حرص بأولى من حرص ، والدعوة بلا أمر
تربية للهوى .

ويرد عن الجنيد رحمه الله أنه رأى بباب الطاق(١) مسيحيا جميلا جدا ،
فقال : اللهم سخر لى هذا لأنه مخلوق طيب جدا ، فلما مرت برهة ، أقبل
المسيحي وقال له : أيها الشيخ ، أعرض على الشهادة ، فعرضها عليه ،
وأسلم ، وصار واحدا من أولياء الله .

وسئل الشيخ أبو على الأسود المروزي(٢) رحمه الله : لباس المرقعة
مسلم لمن ؟ قال : للمشرف على ملك الله تعالى فلا يجرى شيء يومئذ في
الدنيا من الأحكام والأحوال الا ويطلعه الله عليه .

وبعد ، فالمرقعة سمة الصالحين ، وعلامة الطيبين ، ولباس الفقراء
والمتصوفين . وقد جرى الحديث قبل هذا عن حقيقة الفقر والصفوة .
وإذا جعل شخص لباس الأولياء أداة لجمع أسباب الدنيا ، وسترا لآفته ،
فانه لا يضر الأولياء كثيرا . وبالله التوفيق .

(١) « باب الطاق » : سنة كبيرة يندك بالبائس الشرقي . (مسجى البلدان ج ١ ص ٤٤٥)
(٢) « أبو على سياه » (الاسود) : من كبار مشايخ مرو ، كان معاصرا لابی العباس
القصاب وأبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير . صحب أبا على الدقاق ،
وتوفى بمرو سنة أربع وعشرين وأربعمائة . (أنظر ترجمته فى نفحات الانس
ص ٢٩٠) .

الباب الخامس باب اختصارهم في الفقر والصفوة

أما علماء هذه الطريقة فمختلفون في تفضيل الفقر والصفوة ، فالفقر عند جماعة أتم من الصفوة ، وعند جماعة الصفوة أتم من الفقر .

فمن يقدمون الفقر على الصفوة يقولون ان الفقر فناء الكل ، وانقطاع الأسرار ، والصفوة مقام من المقامات ، فاذا حصل الفناء ، تنعدم كل المقامات .

وهذه المسألة تعود الى الفقر والغنى ، وقد جرى الحديث فيهما قبل هذا .

ومن يقدمون الصفوة على الفقر يقولون ان الفقر شيء موجود قابل للاسم ، والصفوة صفاء من جميع الموجودات ، والصفاء عين الفناء ، والفقر عين الغنى ، فالفقر من أسماء المقامات ، والصفوة من أسماء الكمال .

وقد طال الحديث في هذا الأمر في هذه الأيام ، وكل منهم يعبر بعبارة عجيبة ، ويتقول على الآخر اقوالا غريبة ، والخلاف قائم في تفضيل وتقديم وتأخير الفقر والصفوة .

ومن المتفق عليه أن العبارة المجردة ليست الفقر أو الصفوة . وقد صاغوا من العبارة مذهباً ، وأخلوا الطبع من ادراك المعنى ، وتخلوا عن حديث الحق . وهم يسمون نفسى الهوى نفساً للعين ، ويرون اثبات المراد اثباتاً للعين ، فالموجود والمقصود والمنفى والمثبت كله هم ، بقيام أنفسهم وهواهم ، والطريقة منزهة عن ترهات المدعين .

وفي الجملة : ان الأولياء يصلون الى المحل الذى لا يبقى فيه محل ، وتغنى الدرجات والمقامات ، والعبارة تنقطع عن هذا المعنى ، فلا يبقى شرب ولا ذوق ، ولا قمع ولا قهر ، ولا صحو ولا محو ، ومن ثم يطلبون

اسما بالضرورة ليطلقوه على هذا المعنى الذى لا يدخل تحت اسم ولا صفة ، وعندئذ يطلق عليه كل شخص الاسم الذى يكون أكثر تعظيما فى نظره . ولا يجوز التقديم والتأخير فى ذلك الأصل فيقول واحد ان ذاك مقدم ، أو هذا مقدم ، لأن التقديم والتأخير يكون فى الأسماء . وقد بدأ لفريق أن اسم الفقر أكثر تقدما ، فصار فى قلوبهم أعظم ، لأنه يتعلق بالترك والتواضع . وبدأ لفريق أن اسم الصفوة مقدم ، فصار أكثر عظما فى قلوبهم ، لأنه أقرب الى ارتفاع الكدر وفناء الآفات . وكان مرادهم من هاتين التسميتين الاعلام والدلالة على ذلك المعنى الذى تنقطع عنه العبارة ، وكانوا يتحدثون عنه فيما بينهم بالإشارة ، فكشفوا وجوده لأنفسهم باتمام الاعلام . ولا خلاف بينهم سواء عبروا عنه بالفقر أو بالصفوة .

ثم ان أهل العبارة وأرباب اللسان الذين كانوا يجهلون حقيقة هذا المعنى ، تكلموا فى مجرد العبارة ، وقدموا واحدا وأخروا الثانى ، وكلاهما عبارة ، وسارت تلك الجماعة لتحقيق المعانى ، وتخلف هؤلاء فى ظلمة العبارة .

وفى الجملة ، ان هذا المعنى اذا حصل لفرد وجعل منه قبلة قلبه ، فسواء لديه أن سموه فقيرا أو صوفيا ، فكلاهما اسم اضطرارى لذلك المعنى الذى لا يدخل تحت اسم .

ويرجع هذا الخلاف الى زمن أبى الحسن بن شمعون رحمه الله ، فقد كان حينما يكون فى كشف يتعلق بالبقاء يقدم الفقر على الصفوة ، وحينما يكون أيضا فى كشف يتعلق بالفناء يقدم الصفوة على الفقر ، فقال له أرباب المعانى فى ذلك الوقت : لم تقول هذا ؟ قال للطبع مشرب تام فى الفناء والانقلاب ، ومثله أيضا فى البقاء والعلو ، فحينما أكون فى محل يتعلق بالفناء أقدم الصفوة على الفقر ، وحين أكون فى محل يتعلق بالبقاء أقدم الفقر على الصفوة ، لأن الفقر اسم الفناء ، والصفوة اسم البقاء ، لأفنى عن نفسى رؤية البقاء فى البقاء ، ورؤية الفناء فى الفناء ، حتى يفنى طبعى عن الغناء والبقاء .

وهذا كلام طيب من حيث العبارة ، ولكن الفناء يكرن للفناء وليس للبقاء . وكل باق يفنى عن نفسه فهو فان ، وكل فان يبقى بنفسه فهو باق . والفناء اسم محال فيه المبالغة ليقول شخص أن الفناء يفنى ، لأن المبالغة فى نفى أثر وجود ذلك المعنى ، يمكن أن تكون فى الفناء ، وطالما بقى أثر ، فانه لا يكون فناء بعد ، فاذا حصل الفناء ، فان فناء الفناء لا يكون شيئا سوى الاغراب فى عبارة بلا معنى .

وهذه ترهات أرباب اللسان في وقت عبادة العبارة . ولنا من هذا النوع كلام في كتاب « الفناء والبقاء » ، وقد عملته في أيام هوس الصبا وحدة الأحوال ، ولكنني أورد أحكامه في هذا الكتاب على سبيل الحيلة ، ان شاء الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين الفقر والصفوة من حيث المعنى ، أما من حيث المعاملة فهي من قبيل التجرد عن الدنيا ، وإخلاء اليد منها . وترجع حقيقة هذا الى الفقر والمسكنة .

وقد قالت جماعة من المشايخ رحمهم الله : ان الفقير أفضل من المسكين ، لأن الله عز وجل قال : « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله (١) » . فالمسكين صاحب معلوم ، والفقير تارك للمعلوم ، والفقر عز ، والمسكنة ذل ، وصاحب المعلوم ذليل في الطريقة ، فقد قال النبي عليه السلام : « تعس عبد الدرهم وتعس عبد الدينار وتعس عبد الخميصة والقطيفة (٢) » وتارك المعلوم عزيز ، لأن اعتماد صاحب المعلوم على المعلوم ، واعتماد تارك المعلوم على الله تعالى . وإذا اتفق لصاحب المعلوم شغل فانه يسير الى المعلوم ، وإذا اتفق لتارك المعلوم شغل فانه يسير الى الله تعالى .

وقالت جماعة أخرى : ان المسكين أفضل (من الفقير) لأن النبي عليه السلام قال : « اللهم احيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرني في زمرة المساكين (٣) » . وحين ذكر عليه السلام الفقر قال : « كاد الفقر أن يكون كفرا (٤) » . والفقير هو من يتعلق بسبب ، والمسكين هو المنقطع عن الأسباب .

وفي الشريعة — عند طائفة من الفقهاء — أن الفقير صاحب بلغة ، والمسكين مجرد ، وعند طائفة أخرى ، المسكين صاحب بلغة ، والفقير مجرد . ومن هنا يسمى أهل المقامات المسكين صوفيا .

وهذا الاختلاف يرجع الى اختلاف الفقهاء ، رضى الله عنهم ، فالذين يقولون منهم أن الفقير مجرد والمسكين صاحب بلغة ، الفقر عندهم أفضل من الصفوة ، والذين يقولون ان المسكين مجرد والفقير صاحب بلغة ، الصفوة عندهم أفضل من الفقر .

هذه هي أحكام اختلافهم في الفقر والصفوة على سبيل الاختصار ، والله أعلم بالصواب .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٧٣

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

(٣) مكرر : سبق الإنسار اليه .

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس : « كاد الفقر أن يكون كفرا ، وكاد الحسد أن

يكون سبق القدر » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٨) .

الباب السادس باب بيان الملامة

سلكت طائفة من مشايخ الطريقة طريق الملامة (١) ، وللملامة في خلوص المحبة تأثير عظيم ، ومشرب تام ، وقد اختص أهل الحق من بين العالم جميعا بملامة الخلق ، وبخاصة علماء هذه الأمة ، زاد الله من أمثالهم .
والرسول عليه السلام الذي كان قدوة ، واماما لأهل الحقائق ، وقدوة للمحبين ، كان — قبل أن يظهر عليه برهان الحق ويتصل به الوحي —

« أهل الملامة » أو « الملامية » : فرقة من فرق الصوفية ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بمدينة نيسابور بخراسان . ويطلق الجويري على هذه الفرقة اسم : « التصارية » أو « الحدونية » نسبة الى حمدون القصار الموفى سنة ٢٧١ هـ ، وقد وصفه السلمي بأنه شيخ أهل الملامة بنيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة (طبقات الصوفية ص ١٢٣) . وأساس مذهب الملامية يقوم على الملامة .

و « الملامة » هي : لوم الملامتي نفسه ، ولوم الناس له . والمراد بلوم النفس : أن الملامتي لا يرى لنفسه خطا على الإطلاق ، ولا يطمئن اليها ، لأنه يعتقد أن النفس شر محض ، وأنها لا يصدر عنها الا ما يوافق طبعها من رياء ورعونة .
والمراد بلوم الناس : أن الملامتي يرى أن معاملته مع الله سر بينه وبين ربه لا يصح أن يطلع عليه غيره ، فهو حريص على كتمان ذلك السر ، غيور على محبوبه أن يطلع الخلق على صلاته به ، بل ان الملامية خوفا من أن تنكشف أحوالهم وأسرارهم التي يظنون بها على الخلق ، وخشية أن يتسرب الغرور الى نفوسهم اذا ما ظهروا للناس بما يوجب مدحهم ، يتعمدون فعل ما يجلب عليهم سخط الخلق وازدراءهم ، ويجعلهم يطلقون عليهم السنتهم بالذم واللوم . يقول أبو حفص الحداد : « أهل الملامة قوم قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوثانهم ، ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع القرب والمبادات ، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكنوا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم (الملامية والصوفية ص ٨٩) .
واللامية لم يؤلفوا كتباً ، وكل ما أثر عنهم انما هو أقوال لها طابع خاص ، جميعا السلمي في رسالته التي سماها باسمهم . وتعتبر هذه الرسالة أول ما ألف عن الملامية ، وتلا ذلك ما ورد عنهم في كشف المحجوب وعوارف المعارف والفتوحات المكية .

وقد تعرض الملامية لنقد ابن الجوزي فوصفهم بأنهم أسقطوا جاههم عند الله (نلبس ابليس ص ٣٦٣) بينما أشاد بهم السلمي (انظر الملامية ص ٨٧) ووضعهم ابن عربي في أعلى درجات السالكين : (انظر الفتوحات ج٣ ص ٤٦) .
ووقف منهم السيروردي موقفا وسطا ، فهو يصف الملامتي بالاخلاص والصدق ، ولكنه يضع الصوفي في مرتبة أعلى ويصفه بأنه المخلص الخالص (انظر عوارف المعارف ص ٥٤) .

طيب الاسم وعظيما ، وعندما ألبس خلعة المحبة ، أطلق الخلق فيه لسان الملامة ، فقالت طائفة انه كاهن ، وقالت أخرى انه شاعر ، وقال فريق انه كاذب ، وقال آخر انه مجنون ، وأمثال هذا .

وقد ذكر الله عز وجل صفة المؤمن فقال : « ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم (١) » .

وقد جرت سنة اله العالم جل جلاله على أن كل من يكون له علاقة به ، يجعل العالم كله يلومه ، ويحفظ سره عن الانشغال بلومهم . وهذه غيرة الحق الذى يحفظ أحبائه من ملاحظة الغير حتى لا تقع على جمالهم عين ، ويحميهم من رؤيتهم لأنفسهم حتى لا يروا جمال أنفسهم ويعجبوا بها ، ويقعوا في آفة العجب والكبرياء ، فسلط عليهم الخلق ليظيلوا فيهم ألسنتهم ، ومكن منهم النفس اللوامة لتلومهم على كل ما يفعلون ، فإذا فعلوا الشر لامتهم به ، وإذا فعلوا الخير رمتهم بالتقصير . وهذا أصل قوى في طريق الله عز وجل ، لأنه لا يوجد في هذا الطريق آفة أو حجاب أصعب من أن يصير الانسان معجبا بنفسه .

وينشأ أصل العجب من شيئين : أحدهما طلب الجاه لدى الخلق ومدحهم ، وذلك : أن فعل العبد يرتضيه الخلق ، فيمدح نفسه ، ويرى نفسه كفاء ، فيعجب بذلك . والآخر ، أن ينال فعل شخص رضاء شخص آخر فيثنى عليه ، ويعجب بذلك .

وقد سد الله تعالى بفضلله هذا الطريق على أحبائه حتى أن معاملاتهم وان تكن طيبة ، لا يرتضيها الخلق ، لأنهم لا يرونهم رؤية حقيقية ، ومجاهداتهم وان تكن كثيرة ، فانهم لا يرونها بحولهم وقوتهم ، ولا يعجبون بأنفسهم ، حتى حفظوا من العجب بأنفسهم . فمن يرضى عنه الحق لا يرضى عنه الخلق ، ومن يصطفى نفسه لا يصطفيه الحق .

مثال ذلك ابليس ، فقد ارتضاه الخلق ، ولم ترض عنه الملائكة ، وأعجب هو بنفسه . ولما لم يكن مرضيا عنه من الحق ، فقد جر عليه اعجاب الخلق اللعنة .

وآدم صلوات الله عليه ، لم ترض عنه الملائكة وقالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء (٢) » . وهو لم يعجب بنفسه وقال :

(١) سورة « المائدة » آية ٥٤

(٢) سورة « البقرة » آية ٣٠

« ربنا ظلمنا أنفسنا(١) » . ولما كان مرضيا عنه من الحق قال فيه :
« فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا(٢) » ، فعدم رضا الخلق عنه ، وعدم اعجابه
بنفسه ، جلبا له الرحمة ، ليعلم أهل العالم أن المقبول لدينا(٣) مهجور
من الخلق ، والمقبول لدى الخلق مهجور منا . فلا جرم أن تكون ملامة
الخلق غذاء لأحباب الحق ، لأن فيها آثار المقبول ومثرب أوليائه ، لأنها
علامة القرب ، وكما يفرح كل الخلق بقبول الخلق ، يفرحون هم برد
الخلق لهم .

وجاء في أخبار السيد المختار عليه السلام ، وعن جبريل عليه السلام
عن الله عز وجل أنه قال : « أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم غيري إلا
أوليائي » .

فصل : أما الملامة فعلى ثلاثة أوجه : الأول : استقامة السير ، والثاني :
القصد ، والثالث : الترك .

فملامة استقامة السير : هي أن يؤدي فرد عمله جيدا ، ويحافظ على
الدين ، ويرعى المعاملة ، فيلومه الخلق في ذلك . ويكون هذا مذهب
الخلق فيه ، وهو فارغ منهم .

وملامة القصد : هي أن يحصل لفرد جاه كبير بين الخلق ، ويصير
مرموقا بينهم ، ويميل قلبه الى الجاه ، ويتعلق طبعه بهم ، ويريد أن يفرغ
قلبه منهم وينشغل بالحق ، فيتكلف طريق الملامة — حتى في الشيء الذي
ليس فيه ضرر في الشرع — لينفر الخلق منه ، ويكون هذا طريقه مع
الخلق ، وهم فارغون منه .

وملامة الترك : هي أن يكون الكفر والضلال الطبيعي متمكان من
شخص حتى يقول بترك الشريعة واتباعها ، ويقول أن ما يفعله ملامة .
ويكون هذا طريقه فيها .

أما من يكون طريقه الاستقامة ، وعدم مزاولة النفاق ، والكف عن
الرياء ، فلا خوف عليه من ملامة الخلق ، ويكون في كل الأحوال على
مسلكه ، ويستوى لديه أي اسم يسمونه به .

(١) سورة « الأعراف » آية ٢٣

(٢) سورة « طه » آية ١١٥

(٣) أي لدى الحق .

وجدت في الحكايات أن الشيخ أبا طاهر الحرّمي ، كان يركب يوما حمّارا ، وقد أمسك واحد من مريديه بعنان الحمّار ، وكان يسير في السوق ، فصاح رجل يقول : هذا الشيخ زنديق . فلما سمع المريد بذلك القول أراد — بدافع من غيرة ارادته لشيخه — أن يرمي الرجل ، وثار جميع أهل السوق أيضا . فقال الشيخ للمريد : اذا لزمّت الصمت علمت شيئا ، لتخلص من هذه المحن ، فصمت المريد . ولما رجعا الى الخانقاه قال للمريد : أحضر ذلك الصندوق . فلما أحضره ، أخرج منه لفافات من الرسائل ووضعها أمامه وقال له : انظر ، لقد أرسل كل شخص الى رسالة وخاطبني فيها كل بلقب ، فواحد لقبني بالشيخ الإمام ، وآخر لقبني بالشيخ الذكي ، وواحد لقبني بالشيخ الزاهد ، وآخر لقبني بـشيخ الحرمين ، وأمثال هذا ، وهي كلها ألقاب وليست أسماء ، ولست شيئا من هذا كله . وقد قال كل منهم كلاما حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فإن كان ذلك المسكين قد قال كلاما على حسب اعتقاده ، ولقبني بلقب ، فلماذا أثرت كل هذا العداء ؟ .

وأما من كان طريقه القصد في الملامة ، وترك الجاه والرياسة ، والكف عن الانشغال بالخلق ، فإنه يكون كما روي عن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، من أنه كان قادما يوما من بستان نخل — في حال خلافته — وقد حمل على رأسه حزمة حطب ، وكان له أربعمئة غلام ، فقليل له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا ؟ قال : « أريد أن أجرب نفسي » ، هذا حتى لا يمنعه جاهه بين الخلق عن أي عمل . وهذه الحكاية صريحة على اثبات الملامة ، وتوجد حكاية في هذا المعنى عن الإمام أبي حنيفة ، تجدها حيث يرد ذكره في هذا الكتاب .

ويروي أيضا عن أبي يزيد أنه كان قادما من الحجاز (١) ، فنودي في المدينة أن أبا يزيد قد جاء . فخرج الناس جميعا لاستقباله وأدخلوه المدينة باكرام ، ولما انشغل بمجاملتهم ، تخلف عن الحق وتششت ، فلما دخل السوق ، أخرج من كمه رغيفا وأخذ في أكله — وكان هذا في شهر رمضان — فرجع الناس جميعا عنه وتركوه وحده . وكان بصحبته مريد ، فقال له : ألم تر كيف أتى تركت مسألة واحدة من الشريعة فردني الخلق جميعا ؟

(١) « الحجاز » : جبل ممتد حل بين الغور ، غور تهامة ونجد . وقيل سمي الحجاز حجازا لانه فصل بين الغور والشام وبين البادية . وقال الاصمعي في كتاب جزرة العرب : الحجاز اثنتا عشرة دارا (وذكر على رأسها المدينة وخيبر) . (معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٤ — ٢٠٥) .

وأنا على بن عثمان الجلابي — وفقني الله — أقول : لقد كان يلزم للملأمة في ذلك الزمان فعل مستنكر ، والظهور بشيء مخالف للعادة . والآن اذا أراد رجل أن يلام ، قل له : أد ركعتين طويلتين ، أو : زاول دينك كاملا ، فان الخلق جميعا يسمونه بالمرأئي والكاذب .

وأما من كان طريقه الترك ، ويختار ما يخالف الشريعة ويقول اننى أسلك طريق الملأمة ، فتلك ضلالة واضحة ، وآفة ظاهرة ، وجنون صادق — على نحو ما يوجد عليه كثيرون في هذه الأيام ، ومقصودهم من رد الخلق قبول الخلق — لأنه يجب أن يكون الشخص أولا مقبولا من الخلق حتى يطلب ردهم ، ويظهر بفعل يردونه به ، اذ أن تكلف الرد لقبول لم يحصل ، يكون حيلة .

واتفق لى ذات مرة أن أصحاب أحد هؤلاء الأدعياء المبطلين ، فظهر يوما بمعاملة باطلة ، وجعل الملأمة عذرا لها ، فقال له رجل : هذا ليس بشيء ! فرأيته يزفر ، فقات : يا هذا ، اذا كنت تسلك طريق المعاملة وأنت صادق في هذا ، فانكار هذا الرجل لفعلك تأكيد لمذهبك ، وما دام هو يوافقك في طريقك ، فلم الخصومة والغضب ؟ وقصتك هذه أقرب الى الدعوى منها الى الملأمة ، وكل من يدعو الخلق يجب أن يدعوهم بأمر له برهان من الحق ، وبرهانه حفظ السنة . ولما كنت أرى منك ترك الفريضة ظاهرا وأنت تدعو الخلق ، فان هذا الأمر يخرج عن دائرة الاسلام .

فصل : أعلم أن مذهب الملأمة في هذه الطريقة ، نشره شيخ زمانه أبو حمدون القصار (١) ، وله في حقيقة الملأمة لطائف كثيرة . ويرد عنه ، رحمة الله عليه ، أنه قال : « الملأمة ترك السلامة » . واذا تعمد شخص ترك سلامته ، وأحاط نفسه بالبلايا ، وتبرا من المؤلفات والراحات جميعا — أملا في كشف الجلال وطلب المال — حتى ييأس من الخلق برد الخلق ، ويقطع طبع ألفته منهم ، فانه كلما كان أكثر انقطاعا عنهم ، كان أكثر اتصالا بالحق . فكل ما يقبل عليه كل خلق العالم — وهو السلامة — يعرض عنه أهل الملأمة ، لتكون همومهم مخالفة للهموم ، وهمتهم مخالفة

(١) كنيته : أبو صالح . واسمه : حمدون بن أحمد بن عمارة القصار . صاحب سلم ابن الحسين الباروسى ، وأبا تراب النخشبى ، وعليها النصراবাদى . كان عالما فقيها يذهب مذهب الثورى . مات سنة احدى وسبعين ومائتين وودن بنيسابور . (أنظر ترجمته في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٢٣ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

للهم ، ويكونوا وجدانيين في أوصافهم ، كما روى أحمد بن فاك^(١) عن الحسين بن منصور^(٢) أنه سئل : من الصوفي ؟ فقال : وجداني الذات^(٣) .

ويرد عن أبي حمدون أنه سئل عن الملامة فقال : ان طريقها صعب ومغلق على الخلق ، ولكني أقول عنها شيئاً ، فهي «رجاء المرجئة^(٤)» ، وخوف القدرية^(٥)» . وتحت هذا المعنى رمز .

اعلم أن هذا الطبع لا يكون أشد نفورا من حضرة الله تعالى بشيء الا بالقدر الذي يكون كافيا لجاء الخلق ، كأن يقول عنه شخص انه رجل طيب ويمدحه ، فيهبه روحه وقلبه ، ويتخلف به عن الله تعالى . فالخائف يجتهد دائما في أن يكون بعيدا عن موضع الخطر ، وفي هذا الاجتهاد يكون للطالب خطران : أولهما ، الخوف من حجاب الخلق ، والآخر ، منع الفعل الذي أدانه الخلق به ، فيطيلون عليه لسان الملامة ، فلا هو يركن الى جاههم ، ولا هو بقادر على أن يجعلهم مذبذبين بملامته . فينبغي للملامتي اولا ، أن يقطع الخصومة الدنيوية والأخروية عن الخلق بما يقولونه ، وأن يعمل لنجاة قلبه عملا لا هو بالكبيرة ولا بالصغيرة في الشرع ، ليرده الخلق ، حتى يكون خوفه في المعاملة كخوف القدرية ، ورجاؤه في معاملة الملائمين كرجاء المرجئة .

ولا يوجد في حقيقة المحبة شيء أطيب من الملامة ، اذ ليس للملامة الحبيب أثر على قلب الحبيب ، ولا مرور للحبيب الا على حى الحبيب ، وليس للأغيار خطر على قلب الحبيب ، لأن الملامة روضة العاشقين ، ونزهة المحبين ، وراحة المشتاقين ، وسرور المريدين . وهذه الطائفة من الثقليين

(١) أحمد بن فاك بن سعيد : كنيته : أبو الفاك . بغدادى . صاحب الجنيد والنورى .

كان لمبدا للحلاج وخادما له . (أنظر ترجمته في نفحات الانس ص ١٥٢) .

(٢) الحسين بن منصور الحلاج : من أهل بيضاء فارس . نشأ بواسط والعراق ، وقتل ببغداد سنة تسع وثلاثمائة (ارجع الى ما ورد عن الحلاج في القسم الاول ص ، ترجمة الحلاج في الباب الحادى عشر ، طبقات الصوفية ص ٣٠٧ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٤٦ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٨٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٣٥ ، نفحات الانس ص ١٥٠ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٧٨) .

(٣) ورد في الرسالة القشيرية : سئل عن الصوفى فقال : وجداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا . (أنظر الرسالة ج ٢ ص ٥٥١) وعلى هذا تكون العبارة السابقة لهذا القول : ويكونوا وجدانيين في أوصافهم .

(٤) يقول ابن حزم ان فرق المقرين بملة الاسلام خمسة وهم : أهل السنة والمعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج . وأقرب فرق المرجئة الى أهل السنة من ذهب مذهب أبى حنيفة الى أن الايمان هو التصديق باللسان والقلب معا ، أما غلاة المرجئة فطائفتان : احدهما تقول ان الايمان عقد بالقلب فقط وان أظهر الكفر والتثليث بلسانه ، والطائفة الثانية تقول أن الايمان هو القول باللسان وأن اعتقد الكفر بقلبه (انظر : الفصل في الملل ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ ، ج ٤ ص ٢٠٤) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٢٩) .

مخصوصون بملامة الجسد من أجل سلامة القلب ، ولم تكن لأى أحد من الخلائق المقربين والكروبيين والروحانيين هذه الدرجة ، ولم تكن هذه المرتبة أيضا لمن كانوا من الزهاد والعباد أعيان الخلق من الأمم السابقة الا لهذا الفريق من هذه الأمة ، الذين سلكوا طريق انقطاع القلب .

أما عندي ، فطلب الملامة عين الرياء ، والرياء عين النفاق ، لأن المرائى يسلك الطريق الذى يقبله الخلق ، والملامتى يسلك بالتكلف الطريق الذى يرده الخلق . وهذان الفريقان ظلوا فى الخلق ولا مخرج لهم منهم ، حتى تكون طائفة قد خرجت بهذه المعاملة ، والأخرى خرجت بتلك . ولا يخطر على قلب الفقير غير حديث الحق ، وحين يقطع قلبه عن الخلق يكون فارغا من هذين المعنيين ، ولا يقيده شيء .

وقد اتفقت لى ذات مرة صحبة أحد الملامتية فى ما وراء النهر ، وعندما تملكنى فى الصحبة حال من البسط قلت له : يا أخى ! ما مرادك من هذه الأفعال المشوشة ؟ قال : خلو الخلق منى . فقلت له : هؤلاء الخلق كثير ، ولن تجد العمر والزمان والمكانة لاخلاء الخلق منك ، فاخل أنت نفسك من الخلق لتخلص من هذه المشاغل ! ويوجد فريق منشغلون بالخلق ويظنون أن الخلق مشغولون بهم . أن أحدا لا يراك ، فلا تر أنت نفسك ! وآفة حالك من عينك . ثم ، ما شأنك بالغير ؟ من يلزمه طلب الشفاء من الاحتماء ويطلبه من الغذاء ، فليس من الناس .

وهناك أيضا جماعة يمارسون الملامة لرياضة النفس ، لتتأدب نفوسهم باحتقار الخلق لهم ، وينتصفون منها ، لأن أطيب أوقاتهم ما يجدون فيه نفوسهم فى البلاء والمهانة .

ويروى عن السيد ابراهيم بن أدهم رحمه الله أنه سئل : رأيت نفسك قد بلغت المراد أبدا ؟ قال : نعم ، رأيت ذلك مرتين : مرة ، كنت قد ركبت سفينة لم يعرفنى بها أحد ، وكنت ألبس خلقا ، وقد طال شعرى ، وكنت على حال كان أهل السفينة معه يسخرون منى ويهزأون بى . وكان مع القوم مهرج يأتى الى كل لحظة ويشد شعرى وينتزعه منى ، ويستخف بى على سبيل السخرية . وكنت أجد نفسى على مرادى ، وأفرح بذل نفسى ، الى أن بلغ السرور يوما غايته بأن قام المهرج وتبول على !

والمرة الثانية : أتى بلغت قرية فى مطر عظيم ، وقد غلبنى برد الشتاء وابتلت المرقعة على جسدى ، فوصلت الى مسجد فلم يدعونى أدخل هناك . وقصدت مسجدا ثانيا وثالثا حتى عجزت ، وعصف بى البرد ،

فدخلت في موقد حمام ، وبسطت ذيلي على النار ، وتصاعد الدخان من تحتي فاسود ثوبي ووجهي ، فبلغت مرادى في تلك الليلة .

وقد وقعت لى أنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — واقعة ذات مرة ، وقمت بكثير من المجاهدة على أمل أن تحل تلك الواقعة ، فلم تحل . وكانت قد وقعت لى مثل تلك الواقعة من قبل ، فأقمت مجاورا على قبر الشيخ أبى يزيد (البسطامى) الى أن حلت ، فقصدت هنالك هذه المرة أيضا ، وبقيت على قبره مجاورا ثلاثة أشهر ، وكنت أغتسل كل يوم ثلاث مرات ، وأتوضأ ثلاثين مرة ، أملا في كشف تلك الواقعة ، فلم تحل البتة . ونهضت وذهبت الى خراسان (١) ، وبلغت في الليل قرية في ولاية « كمش » (٢) حيث توجد خانقاة بها جماعة من المتصوفة ، وكنت وفقا للسنة المتبعة ، أرتدى مرقعة خشنة ، ولم يكن معى من آلة أهل الرسم غير عصا وركوة ، وبدوت حقيرا جدا في أعين تلك الجماعة ، ولم يعرفنى منهم أحد ، وأخذ كل منهم يقول للآخر انى لست منهم ، وكان ذلك حقا لأنى لم أكن منهم ، ولكن كان لابد من قضاء تلك الليلة في ذلك المكان ! وفي تلك الليلة أجلسونى على سطح ، وذهبوا هم الى سطح أعلى ، وأجلسونى على أرض جافة ووضعوا أمامى خبزا عفنا ، وكانت تصل الى رائحة الأحسية التى كانوا يأكلونها ، وأخذوا يسخرون منى من ذلك السطح العلوى ، فلما فرغوا من الطعام أخذوا يأكلون الخربوزج (٣) ، ويلقون بقشرة فوق رأسى على سبيل المزاح . وكنت أتحمل استخفافهم راضيا وأقول : يا الهى ، لو لم يكونوا يرتدون ثياب أحبائك لما تحملت منهم هذا . وكلما ازدادت سخريتهم بى ازداد قلبى سرورا ، حتى حلت واقعتى بتحمل هذا العبء . وأدركت في الحال لماذا أفسح المشايخ — رحمهم الله — للجهال طريقا بينهم ، ويحتملون عبئهم .

هذه هى أحكام الملامة كاملة أوضحتها . وبالله التوفيق .

(١) « خراسان » : بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق ، وآخر حدودها مما يلى الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها انما هو أطراف حدودها . وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وهى كانت قصبته وبلغ وطالقان ونسا وابدورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون . وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا سنة ٣٠ فى أيام عثمان . ونيسابور أكبر مدن خراسان وقد صارت عاصمة هذا الاقليم منذ اتخذها أمراء الطاهريين عاصمة لهم (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩ وما بعدها) .

(٢) كمش : « قومس » : كورة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهى فى ذيل جبال طيرستان وقصبته دامغان وهى بين الرى ونيسابور . ومن مدنها الشهيرة بسطام (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٣) .

(٣) الخربوزج معرب (خربوزه) نوع من أنواع الشمام حلو المذاق جدا وقوامه من الداخل أصلب من الشمام وأبيض اللون ، أما لون قشره من الخارج فأغبر تغلب عليه الخضرة الداكنة العفرة ، وأجود أنواعه بأصفهان .

الباب السابع باب في ذكر أئمتهم من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين

والآن أذكر طرفاً من أحوال أئمتهم من الصحابة الذين كانوا هداة لهم وقدوتهم في المعاملة ، وأنفاسهم وقوادهم في الأحوال بعد الأنبياء من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم ، ليكون تأكيداً لاثبات مرادك ان شاء الله تعالى عز وجل .

منهم شيخ الاسلام وبعد الأنبياء خير وأفضل الأنام ، خليفة النبي ، وإمام وسيد أهل التجريد، وهادي أرباب التجريد ، والبعيد عن الآفات النفسية، **((أبو بكر عبد الله بن عثمان الصديق (١)))** رضي الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة ، والآيات والدلائل الظاهرة في المعاملات والحقائق . وقد ذكر طرف من أحواله في باب التصوف. ويعدّه المشايخ مقدّم أرباب المشاهدة، لقلة حكاياته ورواياته ، ويعدون عمر رضي الله عنه مقدّم أرباب المجاهدة ، لصلابته ومعاملته .

(١) اسمه عبد الله ، واسم أبيه ، أبو قحافة عثمان ، وكان اسم أبي بكر في الجاهلية ، عبد الكعبة ، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ولقبه عتيقاً . ويقال لقب عتيقاً لجماله ، ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار . وسمى صديقاً ، لتصديقه خبر الاسراء ، فهو : عبد الله ابن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة . وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال له التيمي ، وهو يلتقى مع الرسول عليه السلام عند مرة بن كعب .

وكان أول من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به من أصحابه على بن أبي طالب ثم زيد بن حارثة ثم أبو بكر . وبويع أبو بكر في اليوم الذي قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستيفة بنى ساعده بن كعب بن الخزرج . ثم بويع بيعة العامة . وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال . مات في جهادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة . دفن مع النبي صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة ابنته زوج الرسول صلى الله عليه وسلم . والصوفية يعدون أبا بكر إمامهم وقدوتهم في التجريد . يقول أبو بكر الواسطي « أول لسان الصوفية : ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه إشارة فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء . ويقول السراج في شرح قول الواسطي : انه يشير بهذا الى قول أبي بكر ، عندهما سأله النبي صلى

ومستطور في الأخبار الصحاح ، ومشهور بين أهل العلم ، أن أبا بكر حين كان يصلي بالليل ، كان يقرأ القرآن بصوت خفيض ، وكان عمر عندما يصلي ، يقرأ بصوت جهير . وسأل الرسول عليه السلام أبا بكر : لم تقرأ بصوت خفيض ؟ قال : « أسمع من أناجي » فأنا أعرف أنه غير بعيد عني ، ويستوى لدى سمعه الخفيض والجهير . وسأل عمر ، فقال : « أوقف الوسنان وأطرد الشيطان » ، فدل هذا (عمر) علي المجاهدة ، وذاك (أبو بكر) على المشاهدة . ومقام المجاهدة في جنب مقام المشاهدة مثل قطرة في بحر ، ولهذا السبب قال النبي عليه السلام لعمر : « وهل أنت إلا حسنة من حسنات أبي بكر » فإذا كان عمر — وهو الذي كان به عز الاسلام — حسنة من حسنات أبي بكر ، فانظر كيف يكون العالمون ؟ !!

يرد عنه أنه قال : « دارنا فانية ، وأحوالنا عارية ، وأنفاسنا معدودة ، وكسلنا موجود » .

فعمارة الدار الفانية من الجهل ، والاعتماد على الحال العارية من البله ، وتوطين القلب على الأنفاس المعدودة من الغفلة ، وتسمية الكسل بالدين من الغين ، لأن ما هو عارية يسترد ، وما هو عابر لا يبقى ، وما يأتي تحت العدد ينتهي ، وليس للكسل دواء .

وقد بين لنا رضى الله عنه أنه لا خطر للدنيا والديوى حتى ينبغى شغل خاطر بهما ، لأنك اذا شغلت بالفانى حجبت عن الباقي ، ولما صارت النفس والدنيا حجابا للطالب عن الحق ، أعرض أحباؤه عنهما . ولما عرفوا أن الدنيا عارية ، والعارية ملك لآخر ، كفوا عن التصرف في ملك الآخرين .

ويرد عنه أيضا أنه رضى الله عنه قال في مناجاته : « اللهم أبسط لى الدنيا وزهدنى فيها » وتحت هذا رمز يعنى : أعطنى الدنيا أولا لأشكر ، ثم وفقنى لكى أكف عنها وأعرض عنها من أجلك ، لأكون قد أدركت درجة

= الله عليه وسلم : ايش خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ، فهى اشارة جلية لأهل التوحيد في حقائق التجريد .

وحكى عن الجنيد البغدادي ، أنه قال : أشرف كلمة في التوحيد قول أبى بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته .
(أنظر المعارف ص ٧٣ — ٧٧ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٠٦ — ١١٧ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٢ ، اللمع ص ١٦٨ — ١٧٢ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٧ — ٩) .

الشكر والانفاق ، وكذلك مقام الصبر ، وحتى لا أكون مضطرا في الفقر ،
فيكون الفقر لى باختيارى .

وهذا رد شيخ المعاملة الذى قال : من يكون فقره اضطرارا فهو أتم
ممن يكون فقره اختيارا ، لأنه اذا كان فقره اضطراريا كان هو صنعة للفقر ،
واذا كان فقره اختيارا كان الفقر صنعة له ، وعندما يكون كسبه منقطعا
عن جلب الفقر فانه يكون أفضل من أن يجعله لنفسه درجة بالتكلف .

ونقول : ان صنعة الفقر تكون أظهر عند من تستولى ارادتها على قلبه
في حال الغنى ، الى حد أن يصرف عن محبوب آدم وذريته ، ألا وهو الدنيا ،
وليس ذلك الذى تستولى على قلبه في حال الفقر الرغبة في الغنى الى
حد أنها تدفعه الى أعتاب الظلمة والفساد من أجل المال ، فصنعة
الفقر هى الانتقال من الغنى الى الفقر ، لا طلب الرياسة في الفقر .

والصديق الأكبر رضى الله عنه — وهو المقدم على كل الخلق بعد الأنبياء
ولا يجوز أن يتقدمه أحد — قد قدم الفقر الاختيارى على الفقر الاضطرارى .
وكل مشايخ المتصوفة على هذا ، الا ذلك الشيخ الذى ذكرنا حجه
ومقالته ورددنا عليه . ثم ان الصديق الأكبر أكد هذا ، ودلل عليه بالدليل
الواضح .

روى عنه الزهرى أنه حين بويع بالخلافة ، اعتلى رضى الله عنه المنبر
وخطب ، وقال في أثناء الخطبة : « والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما
ولاليلة قط ، ولا كنت فيها راغبا ، ولا سألتها الله قط في سر ولا علانية ،
وما لى فى الإمارة من راحة » .

وحين يوصل الله عز وجل العبد الى كمال الصدق ، ويكرمه فى محل
التمكين ، فانه ينتظر وارد الحق ليرى على أى صفة يجىء ويمضى عليها ،
فاذا جاء الأمر له بالفقر يكون فقيرا ، واذا جاء الأمر بالغنى يكون غنيا ،
فلا يتصرف فى هذا ولا يختار ، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى البداية .
ولا يكون له غبه أيضا الا التسليم ، كما فعل فى النهاية ، فبه اقتداء هذه
الطائفة فى التجريد والتمكين ، والحرص على الفقر ، وترك الرياسة ،
من بعد أن أصبح املم دين المسلمين عامة ، وامام أهل هذه الطريقة خاصة ،
رضى الله عنه .

ومنهم : قائد أهل الايمان وفقير أهل الاحسان ، امام أهل الحقائق ،

وغريق بحر المحبة ، أمير المؤمنين « أبو حفص عمر بن الخطاب (١) » رضى الله عنه ، صاحب الكرامات المشهورة والفراسات المذكورة ، خصه الله بالفراسة والصلابة ، وله لطائف في هذه الطريقة ، وحقائق في هذا المعنى ، كما قال عليه السلام : « الحق ينطق على لسان عمر (٢) » . وقال أيضا عليه السلام : « قد كان في الأمم محدثون فان يك في أمتي فعمر (٣) » . وله في هذه الطريقة رموز لطيفة كثيرة لا يمكن حصرها كلها في هذا الكتاب .

ويرد عنه أنه قال : « العزلة راحة من خطاء السوء » . والعزلة على نوعين ، أولهما : الاعراض عن الخلق ، والآخر : الانقطاع عنهم .

(١) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، وينسب الى عدى فيقال العدوى ، ويكنى أبا حفص . وكان يدعى الفاروق لأنه أعلن الاسلام ونادى به والناس يخفونه ، ففرق بين الحق والباطل . وكان المسلمون يوم أسلم تسعة وثلاثين رجلا وامرأة ببكة فكلهم عمر أربعين . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . عهد اليه أبو بكر واستخلفه بعده . وكان أول عمل قام به ، رد سبائا أهل الردة الى عشائهم وقال : انى كرهت أن يصير السبى سنة على العرب . وحج بالناس عشر سنين متوالية ، ثم صدر الى المدينة ، فقتله (فيروز أبو لؤلؤة) غلام المغيرة بن شعبه في أواخر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين ، وقبر في حجرة عائشة رضى الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنهما . وكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال .

سن عمر قيام شهر رمضان وكتب بذلك الى البلدان . سمي أمير المؤمنين ، وكان يسمى خليفة رسول الله . وكتب اليه أبو موسى الأشعري « لعبد الله عمر أمير المؤمنين » وجرت عليه . كان في وجهه خطان من كثرة البكاء ، وكان يحب الصلاة في وسط الليل ، وكان يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرات فيبكي حتى يسقط ثم يلزم بيته حتى يعاد ، يحسبونه مريضا .

كان في أعلى درجات الصديقين وظهرت عليه دلائل ذلك ، وهو ما ذكر عنه من أنه كان يخطب فصاح فقال في وسط خطبته : يا سارية الجبل ! وسارية في عسكر على باب نهاوند . فسمع صوت عمر رضى الله عنه وأخذ نحو الجبل وظفر بالعدو . وقيل لسارية : كيف علمت ذلك ؟ قال : سمعت صوت عمر رضى الله عنه يقول : يا سارية ! الجبل ! الجبل ! وكان رضى الله عنه يقول : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت .

ويقول السراج : لأهل الحقائق أسوة وتعلق بعمر ، رضى الله عنه ، بمعاني . خص بذلك عمر من اختياره لبس المرتعة والخشونة ، وترك الشهوات واجتناب الشبهات ، واطهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحقق الباطل ، ومساوات الاقارب والاباعد في الحقوق ، والتمسك بالأشد في الطاعات وغير ذلك مما روى عنه وبيانه يطول .

(أنظر ترجمته في : المعارف ص ٧٧ - ٨٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١١٧ - ١٣٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤١٦ ، اللبع ص ١٧٣ - ١٧٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٤ - ١٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٩ - ١٣) .

(٢) رواه الحكيم عن الفضل بن عباس : « الحق بعدى مع عمر حيث كان » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٥٩) .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبى هريرة : « قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم أناس محدثون فان بك في أمتي أحد منهم فهو عمر بن الخطاب (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٢) .

والاعراض عن الخلق هو اختيار مكان خال ، وتجنب صحبة الأجناس بالظاهر ، والركون الى النفس لرؤية الأعمال ، وتخليص النفس من مخالطة الناس ، وتأمين الخلق من شرك .

أما الانقطاع عن الخلق فيكون بالقلب ، وليس لصفة القلب أى تعلق بالظاهر ، فحين ينقطع الشخص بقلبه عن الخلق وصحبته ، لا تكون له دراية بالمخلوقات حتى يستولى التفكير فيهم على قلبه ، ومن ثم فإن هذا الشخص وإن يكن بين الخلق ، فإنه يكون وحيدا ، وتكون همته فريدة عنهم . وهذا مقام عال وبعيد جدا وصحيح . وكانت هذه صفة عمر رضى الله عنه ، الذى أشار الى راحة العزلة ، وإن كان بالظاهر فى ولاية الامارة والخلافة .

وهذا دليل على أن أهل الباطن وإن خالطوا الخلق فى الظاهر ، فإن قلوبهم تكون متعلقة بالحق ، ويكونون راجعين اليه فى كل حال ، ويعدون ذلك القدر من صحبتهم للخلق بلاء من الحق . وهم لا يتحولون عن الحق تعالى بصحبتهم للخلق ، لأن الدنيا لا تصفوا أبدا لأحباب الحق ، ولا تنهأ أحوالها ، كما قال عمر رضى الله عنه : « دار أسست على البلوى بلا بلوى محال » .

وكان عمر رضى الله عنه من خواص أهل الرسول عليه السلام وأصحابه ، وكان مقبولا فى حضرة الحق تعالى بجميع أفعاله ، الى حد أن جاء جبريل عليه السلام عندما أسلم عمر وقال للرسول عليه السلام : « يا محمد قد أستبشر أهل السماء اليوم بإسلام عمر » . وبه اقتداء هذه الطائفة فى لبس المرتعة والصلابة فى الدين من بعد أن صار رضى الله عنه اماما للخلق فى كل شىء .

ومنهم أيضا : جوهر كنز الحياء ، وأعبد أهل الصفاء ، والمتعلق بأعنان الرضا ، والتمكن على طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه : « أبو عمرو عثمان بن عفان (١) » رضى الله عنه . ذو الفضائل الواضحة ، والمناقب الظاهرة فى جميع المعانى .

(١) هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة ، ويجقع نسبه مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد مناف ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته : رقية وأم كلثوم . سعى ذا النورين لجمعه بينهما . وهو من المهاجرين الأولين ، هاجر الى الحبشة وهاجر الى المدينة . اشترى بشر رومة فى المدينة ، وكان ليهودى يبيع ماءها للمسلمين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : من يشتري رومة فيجعلها للمسلمين بصرب بدلوه فى دلائهم وله بها مشرب فى الجنة ؟ فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها =

ويروى عبد الله بن رباح وأبو قتادة — رضى الله عنهما — أنه في يوم حرب الدار ، كنا عند عثمان رضى الله عنه ، فلما اجتمع الغوغاء على بابه ، شهر غلمانة السلاح ، فقال لهم : عثمان : كل من لا يخلع السلاح فهو حر منى . وخرجنا خوفا على أنفسنا ، فلاح الحسن بن على في الطريق ، ورجعنا معه ، ودخلنا على عثمان لنرى لم أقبل الحسن رضى الله عنه ، فلما دخل الحسن ، حياه وعزاه على تلك البلية ، وقال : يا أمير المؤمنين ! أنا لا أستطيع أن أسل السيف على المسلمين بدون أمرك وأنت امام القوم ، فمرنى أن أدفع عنك بلاء هؤلاء القوم . فقال له عثمان : « يا ابن أخى ! ارجع واجلس في بيتك حتى يأتى الله بأمره ، فلا حاجة لنا في اهراق الدماء » .

وهذا علامة التسليم في حال ورود البلاء ، في درجة الخلّة ، كما حدث لابراهيم عليه السلام عندما أشعل النمرود النار وألقى به فيها ، فقد جاءه جبريل عليه السلام وقال : « هل لك من حاجة » قال : « أما اليك ، فلا » فقال : فسل الله . قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » ، فعثمان في مكان الخليل ، والغوغاء في مكان النار ، والحسن في مكان جبريل . ولكن ابراهيم عليه السلام قد نجا من البلاء ، وعثمان رضى الله عنه هلك في البلاء .

= فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين . فكان يوم له ويوم لعثمان . فإذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين ، فقال اليهودى لعثمان : أفسدت على فاشترى النصف الآخر فاشتراه بثمانية آلاف درهم . بويح في غرة محرم سنة أربع وعشرين وهو ابن تسع وستين سنة . وكانت أيامه اثنتى عشرة سنة وحج بالناس أباه كلها الا السنة الأولى . حوصر أربعين يوما وقتل في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل أن الذين قتلوه : محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى خذيفة وابن حزم . فلما دخلوا عليه من دار بنى حزم ضربه أحدهم بمشقص في وجهه فسال الدم على المصحف في حجره . ثم أخذ محمد ابن أبى بكر بلحيته ... ودفن بالبقيع ليلا وأخفوا قبره . ويقول السراج ان عثمان رضى الله عنه خص بالتمكين ، والتمكين من أعلى مراتب المحققين . ومما يتعلق به أهل الحقائق بعثمان ، ما روى عنه من أنه حمل حزمة حطب من بعض بسائنه ، وكان له عدة ممالك ، فقيل له : لو دفعتها الى بعض عبيدك ؟ فقال : انى قد استطعت أن أفعل ذلك ، ولكن أردت أن أجرب نفسى هل يعجز عن ذلك وهل تكره ذلك ؟ فدل على أنه كان لا يدع اقتصاد نفسه ، وكان يفقد رياضة نفسه لئلا يسكن الى ما جمع الله من الاموال لانه ليس في ذلك كفره .

ومما يدل على تخصيصه بالتمكين والثبات والاستقامة ما روى عنه أنه يوم قتل لم يبرح موضعه ، ولم يأذن لاحد بالقول ، ولا وضع المصحف من حجره الى أن قتل ، رضى الله عنه ، وسال الدم على المصحف وتلطح بالدم ووقع الدم على موضع الآية : « فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » . (انظر ترجمته في المعارف ص ٨٢ — ٨٥ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٣٩ — ١٥٢ ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ ، اللمع ص ١٧٦ — ١٧٨ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ١٥ ، خزينة الاصفاء ج ١ ص ١٣ — ١٥) .

والنجاة تعلق بالبقاء ، وللهلاك تعلق بالفناء ، وقد ذكرت طرفنا من الحديث في هذا المعنى من قبل .

فاقتداء هذه الطائفة بعثمان رضى الله عنه في بذله المال والحياة ، والتسليم في الأمور ، والاخلاص في العبادة . وهو على الحقيقة امام حق في الحقيقة والشريعة ، وطريقته في المحبة ظاهرة . وبالله التوفيق .

● ومنهم ابن عم المصطفى ، وغريق بحر البلاء ، وحريق نار الولاء ، وقدرة الأولياء والأصفياء ، ((أبو الحسن على بن أبي طالب (١))) كرم الله

(١) هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ويكنى أبا الحسن ، ابن عم الرسول عليه السلام وزوج ابنته فاطمة . ببيع بيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مقتل عثمان بأربعة أيام . وبائع له بالمدينة طلحة والزبير . وسار الى البصرة سنة ست وثلاثين وفيها كانت واقعة الجمل بينه وبين طلحة والزبير وعائشة . وقتل طلحة وعزم من كان معهم . ورجع الزبير فقتل بوادي السباع . وأحيط بعائشة فأخذت ، ودخل على البصرة فباعه أهلها . وأرسل عائشة الى المدينة ووجه معها سبعين امرأة من عد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة ، ثم انصرف على بعد ذلك الى الكوفة واستعمل على البصرة عبد الله بن عباس . وتبأ لحرب معاوية فسار بأهل العراق ، وأقبل معاوية في أهل الشام ومن اتبعه فكانت موقعة صفين ثم الحكم . ولم يزل في حرب الى أن قتل رحمه الله ولم يحج لشغله بالحروب . وكان مقتله في رمضان سنة أربعين ، وقاتله عبد الرحمن بن ملجم ، ودفن بالكوفة عند مسجد الجماعة في قصر الامارة . وكانت ولايته خمس سنين الا ثلاثة أشهر .

ويقول السراج : لأمر المؤمنين على رضى الله عنه خصوصية من بين جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني جليلة واشارات لطيفة ، والفاظ مفردة ، وعبادة وبيان للتوحيد والمعرفة والايمان ، والعلم وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية : من ذلك أنه سئل : بهم عرفت ربك ؟ فقال : عرفني نفسه ، لا تشبه صورته ، ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه ، امام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشئ ولا من شئ ولا في شئ ولا شئ . سبحانه من هو هكذا ولا هكذا غيره .

وسأله رجل عن الايمان فقال : الايمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات ، فان صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الاحوال والمقامات .

وذكر عنه أنه وقف على باب خزانة الأموال وقال : يا صفراء ويا بيضاء غري غري . ويقال أنه كان اذا جاء وقت الصلاة ينزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانه عرضها الله تعالى على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأنسفن منها وحملها الانسان ، فلا أدري أحسن أداء ما احتملت أم لا ؟

وكان رضى الله عنه يقول : القلوب أوعية وخيرها أوعا . ويقول : التقوى هي نرك الاصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة .

وكان الجنيد يقول : رضوان الله عليه أمير المؤمنين على لولا انشغاله بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة ، ذاك امرؤ أعطى العلم اللدنى . والعلم اللدنى هو العلم الذى خص به الخضر عليه السلام .

(انظر : المعارف ص ٨٨ - ٩٠ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٥٤ - ١٨٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢ - ٤٥ ، اللمع ١٧٩ - ١٨٢ ، طبقات الشمرانى ج ١ ص ١٥ - ١٧ ، خزينة الاصفياء ط ص ٥ - ٢٦) .

وجهه . وله في هذه الطريقة شأن عظيم ، ودرجة رفيعة . وكان له حظ تام في دقة التعبير عن أصول الحقائق الى حد أن قال الجنيد رحمه الله : « شيخنا في الأصول والبلاء على المرتضى » رضى الله عنه .

أى أن عليا رضى الله عنه هو امام هذه الطريقة في العلم والمعاملة ، فأهل الطريقة يطلقون على علم الطريقة اسم الأصول ، ويسمون تحمل البلاء فيها بالمعاملات .

ويحكى أن رجلا ذهب اليه وقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصنى . فقال له : « لا تجعلن أكبر شغلك بأهلك وولدك ، فان يكن أهلك وولدك من أولياء الله ، فان الله لا يضيع أوليائه ، وان كانوا أعداء الله ، فما همك وشغلك لأعداء الله » .

وهذه المسألة تتعلق بانقطاع القلب عما دون الحق جل جلاله ، لأنه يحفظ عباده كما يريد متى كان يقينهم صادقا ، كما ترك موسى عليه السلام ابنه شعيب عليه السلام في حال قاسية وأسلم أمرها الله ، وكما حمل إبراهيم هاجر وإسماعيل عليهما السلام الى واد غير ذى زرع ، وأسلم أمرهما لله جل جلاله ، ولم يجعلهما أكبر شغلتهما ، وربطتا قلوبهما بالحق تعالى حتى تحقق مرادهما في الدنيا والآخرة في حال انعدام المراد ، بتسليم الأمور لله عز وجل .

وهذا شبيه بما قاله على كرم الله وجهه لسائل كان قد سأله : ما أظهر الكسب ؟ قال : « غناء القلب بالله » .

وكل قلب يكون غنيا بالله تعالى لا يصيره عدم الدنيا فقيرا ، ووجودها لا يسره . وترجع حقيقة هذا الى الثقل والصفوة ، وقد مر ذكرهما . فأهل هذه الطريقة يقتدون به في حقائق العبارات ودقائق الاشارات ، والتجرد عن معلوم الدنيا ، والنظر في تقدير الحق .

ولطائف كلامه أكثر من أن تحصي ؛ ومنهجى في هذا الكتاب هو الاختصار ، وبالله التوفيق .

الباب الثامن باب في ذكر أئمتهم من أهل البيت

وأهل بيت النبي عليه السلام هم أولئك الذين اختصوا بطهارة الأصل ،
ولكل منهم في هذه المعاني قدم راسخة ، وكانوا كلهم قدوة هذه الطائفة ،
الخواص منهم والعوام . وأبين طرفا من أحوال طائفة منهم ، ان شاء
الله عز وجل .

● منهم فلذة كبد المصطفى ، وريحانة قلب المرتضى ، وقرّة عين الزهراء :
« أبو محمد الحسن بن علي (١) » كرم الله وجهه ، كان ذا نظر صائب في
هذه الطريقة ، وحظ وافر في دقائق العبارات ، الى حد أنه عندما أوصى
قال : « عليكم بحفظ السرائر فان الله تعالى مطلع على الضمائر » .

وحقيقة هذا أن العبد مخاطب بحفظ الأسرار مع الحق ، وحفظ الأظهار
من مخالفة الجبار .

(١) كان يكنى أبا محمد ، ببيع بعد وفاة أبيه في رمضان سنة أربعين ، ووجه عماله
الى السواد والجبل ، ودعا بعبد الرحمن بن ملجم وقتله . وقدم معاوية العراق ،
وكان الحسن عليلا وقد تفرق عنه أصحابه فلما رأى أنه لا قوة به ، صالح معاوية ،
وصعد المنبر وقال : « أيها الناس ! ان الله هداكم بأولنا وحقق دماءكم بآخرنا ،
وقد سالت معاوية ، وأن أدري لعله فتنة لكم ومنازع الى حين » . ودخل معاوية
الكوفة بعد صلح الحسن . ومات الحسن في ربيع الاول سنة إحدى
وأربعين وهو ابن خمس وخمسين سنة ، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وبقي خليفة بالحجاز واليمن والعراق نحو سبعة
أشهر .

ويقال ان معاوية حرض عليه امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس ، فدس اليها
انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بهائة ألف درهم وزوجتك يزيد :
فكان ذلك الذي بعثها على سمه ، فلما مات وفي لها معاوية المال وأرسل اليها :
أنا نحب حياة يزيد ولولا ذلك لو فينا لك بزويجه .

كان رضى الله عنه يقول : انى لأستحي من ربى عز وجل أن ألقاه ولم أمش
الى بيته فمشى عشرين مرة الى مكة من المدينة على رجله . وكانت الجنائب تقاد
معه . وخرج من ماله لله تعالى مرتين . وكان اذا اشترى أحد حائطا ثم افتقر
البائع يرد عليه الحائط ويردنه بالثمن معه . وما قال قط لسائل : لا . ولما
نزل الموت به بعد شربه السم ، قال أخرجوا فرائى الى صحن الدار ، فأخرج ،
فقال : اللهم انى أحسب نفسى عندك فانى لم أصب بمثلها ، ثم قبض .

(انظر : المعارف ص ٩٢ ، اليعقوبى ج ٢ ص ١٩١ ، مروج الذهب ج ٢ ص ٥٠ -
٥٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٢٦) .

ويرد عنه أنه عندها غلب شأن القدرية ، وتشئت مذهب الاعتزال في الدنيا ، كتب الحسن البصري رضى الله عنه الى الحسن بن على رضى الله عنهما ، كتابا قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : السلام عليك يا ابن رسول الله وقرّة عينه ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فانكم معشر بنى هاشم كالفلك الجارية في اللجج ، ومصايح الدجى ، وأعلام الهدى ، والأئمة القادة الذين من تبعهم نجا كسفينة نوح المشحونة التى يأول اليها المؤمنون ، وينجو فيها المتمسكون . فما قولك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند حيرتنا فى القدر ، واختلافنا فى الاستطاعة ؟ لتعلمنا بما تأكد عليه رأيك ، فانكم ذرية بعضها من بعض ، بعلم الله علمتم ، وهو الشاهد عليكم ، وأنتم شهداء الله على الناس . والسلام » .

وعندما وصل الكتاب كتب الجواب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد انتهى الى كتابك عن حيرتك وحيرة من زعمت من أمتنا ، والذى عليه رأى أن من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله فقد فجر . ان الله لا يطاع باكره ولا يعصى بغلبة ، ولا يهمل العباد من الملكة ، لكنه المالك لما ملكهم والقادر على ما غلبه قدرتهم ، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا ولا لهم عنها مثبطا ، فان أتوا المعصية وشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبينها ، فعل ، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها اجبارا ولا الزمهم اياها اكرها ، باحتجاجه عليهم أن عرفهم ومكنهم وجعل لهم السبيل الى أخذ ما دعاهم اليه وترك ما نهاهم عنه . ولله الحجة البالغة . والسلام » .

أى أن انكار التقدير مذهب القدر ، وحمل المعاصى على الله مذهب الجبر ، فالعبد مختار فى كسبه بقدر ما حباه الله عز وجل من استطاعة ، والدين بين الجبر والقدر .

ولم يكن مرادى من هذا الكتاب أكثر من كلمة ، غير أنى أوردته كله لأنه غاية فى الفصاحة والعدوبة . وقد أوردت كل هذا لكى أبرهن على أنه رضى الله عنه كان فى علم الحقائق والأصول الى حد أن اشارة الحسن البصري — مع علو مكانته فى العلم — كانت اليه .

ووجدت فى ثلحايات أن اعرابيا جاء من البادية ، وكان جالسا على بابه فى الكوفة ، فسبه وسب أمه وأباه . فنهض وقال له : يا أعرابى ،

إذا كنت جائعاً يحضر لك الطعام ، وإذا كنت ظمآنًا يؤنى لك بالماء ،
والا ماذا ألم بك ؟ وكان الاعرابى يقول له : أنت كذا ، وأمك كذا ، وأبوك
كذا . فأمر الحسن رضى الله عنه غلامه فأحضر بكرة دنائير ، وقال له :
فيها الاعرابى ! أسألك المَعذرة ، فلم يبق بييتنا أكثر من هذا والا ما منعناك
إياه . فلما سمع منه الاعرابى هذا قال : أشهد أنك ابن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ! وقد جئت هنا لتجربة حلمك .

وهذه صفة محققى المشايخ ، رضوان الله عليهم ، الذين يستوى لديهم
مدح الخلائق وذمهم ، ولا تغيّرهم الجفوة فى القول ، والله أعلم .

● ومنهم شمع آل محمد ، المجرّد من العلائق ، سيد زمانه ، ((أبو عبد الله
الحسين بن أبى طالب (١))) رضى الله عنهما . كان من الأولياء المحققين
وقبلة أهل البلاء ، وقتيل صحراء كربلاء (٢) . وجميع أهل الطريقة متفقون
على صحة حاله لأنه كان متابعاً للحق ما دام الحق ظاهراً ، فلما فقد
الحق شهر سيفه ، ولم يهدأ حتى جعل روحه العزيزة فداء الشهادة لله
عز وجل . والمرسول فيه اشارات خصه بها ، كما روى عمر بن الخطاب

(١) « أبو عبد الله » كنيته . وورد عنه أنه لما مات معاوية طولب (الحسين) بالبيعة
لبزيد بالمدينة ، فسأمت التأخير وخرج الى مكة . وكتب أهل العراق اليه ووجهوا
الرسول ، فوجه اليهم مسلم بن عقيل وكتب اليهم وأعلمهم أنه أثر كتابه . فلما
قدم مسلم بن عقيل بالكوفة بايعه أهلها . وخرج الحسين من مكة يريد العراق ،
وكان يزيد قد ولى على العراق عبيد الله بن زياد وكب اليه يقول : قد بلغنى
أن أهل الكوفة قد كتبوا الى الحسين فى القدوم عليهم وأنه قد خرج من مكة متوجهاً
نحوهم . وقد بلى بلدك من بين البلدان وأيامك من بين الايام ، فان قلت والارجعت
الى نسبك والى أبيك عبيد فاحذر أن يفوتك » . وسار الحسين الى العراق وفى
الطريق أتاه الخبر بقتل مسلم بن عقيل فأراد أن يرجع ، فبعث اليه عبيد الله
بالحر بن يزيد فمنعه ، ثم بعث اليه بعمر بن سعد بن أبى وقاص فى جيش فلقى
الحسين فى كربلاء وقتل . وكان الذى قتله رجل من مزحج واجتزأ رأسه وانطلق به
الى ابن زياد فبعث به الى يزيد ومعه الرأس . وكان مقتله يوم عاشوراء سنة
أحدى وستين وهو ابن ست وخمسين . وحملت رأسه الى مصر ودفنت بالمشهد
المشهور بها ومضى الناس أمامها حفاة من مدينة غزا الى مصر تعظيماً لها .
قبل له رضى الله عنه : ما سمعت من رسول الله ؟ قال : سمعته يقول : أن
الله يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها . وعقلت عنه أنه يكبر فأكبر خلفه فاذا
سمع بكبرى أعاد التكبير حتى يكبر سبعاً . وسمعته يقول : من يطع الله يرفعه ،
ومن يعص الله يضعه ، ومن يخلص نيته لله يزيّنه ، ومن يثق بما عند الله يفنيه ،
ومن يعزز على الله يذله .

وقال بعضهم : سمعت الحسين يقول : الصدق عز والكذب عجز ، والسر
أمانة ، والجوار قرينة ، والمعونة صداقة ، والعمل تجربة ، والخلق الحسن
عبادة ، والصمت زين ، والشح فقر ، والسخاء غنى ، والرفق لب .
(انظر : المعارف ص ٩٣ ، اليعقوبى ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٨ ، مروج الذهب
ج ٢ ص ٨٦ - ٩٠ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢١ ، خزينة الاصفاء ج ١
ص ٢٨ - ٣٠) .

(٢) « كربلاء » : الموضع الذى قتل فيه الحسين بن على رضى الله عنه فى طرف البرية
عند الكوفة . (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٩) .

رضى الله عنه ، قال : جنئت النبی علیه السلام يوما ، فرأيتہ كان قد أركبه على ظهره ، ووضع جبلا في فمه ووضع طرفه في يد الحسين ، حتى كان الحسين يسير وهو عليه السلام يسير خلفه على ركبتيه ، فلما رأيت هذا قلت : « نعم الجمل جملك يا أبا عبد الله » . فقال النبی علیه السلام : « نعم الراكب هو يا عمر » .

وله كلام لطيف في طريقة الحق ، ورموز كثيرة ومعاملات طيبة . ويروى عنه أنه قال : « أشفق الاخوان عليك دينك » ، لأن نجاة المرء تكون في متابعة الدين ، وهلاكه في مخالفته ، فالرجل العاقل هو الذي يكون عند أمر المشفقين ، ويدرك أنهم يشفقون عليه ، ولا يسير الا متابعا لهم . والأخ الحق هو الذي يبدي النصيحة ، ولا يفلق باب الشفقة .

ووجدت في الحكايات أن رجلا جاءه يوما وقال : يا ابن رسول الله عز وجل ! أنا رجل فقير ولى أطفال ، وأريد منك قوت ليلتي ! فقال له الحسين : أجلس فان لنا رزقا في الطريق الينا ، فانتظر حتى يحضروه . ولم يمض كثير حتى جىء اليه بخمس صرر من عند معاوية ، في كل منها ألف دينار ، وقالوا ان معاوية يعتذر لك ويقول : أنفق هذا المقدار على أتباعك ، الى أن تأتيك بعده معونة أوفى . فأشار الحسين رضى الله عنه أن اعطوها لذلك الفقير ، فأعطوه الصرر الخمس ، واعتذر اليه قائلا : لقد بقيت كثيرا ، ونلت قليلا ، ولو كنا نعرف أنه هذا المقدار لما حملناك على الانتظار ، فاعذرنا لأننا من أهل البلاء ، وقد تخلفنا عن كل راحت الدنيا ، وفقدنا مرادنا فيها ، ويجب أن نعيش لمراد الآخرين .

ومناقبه أشهر من أن تخفى على أحد من هذه الأمة ، والله أعلم .

● ومنهم أيضا : وارث النبوة ، وسراج الأمة ، السيد المظلوم ، والامام المحروم ، زين العباد ، وشمع الأوتاد : « **أبو الحسن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب (١)** » رضى الله عنه . كان أكرم وأعبد أهل زمانه ، وهو مشهور بكشف الحقائق والنطق بالحقائق .

(١) الامام الرابع من الأئمة الاثني عشر ويكنى بزين العابدين وهو على الاصغر ، وأما الأكبر فقتل مع الحسين . وليس للحسين رضى الله عنه عقب الا من ولد زين العابدين هذا . أمه بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس . قال عنه الزهرى : ما رأيت قرشيا أفضل منه . وكان يثنى على أبى بكر وعمر وعثمان وبترحم عليهم ، ويصلى كل يوم ليلة ألف ركعة . قيل توفي سنة أربع وتسعين أو اثنتين وتسعين للهجرة بالمدينة ودفن بالبقيع في قبر عمه الحسن بن على رضى الله عنه ، وقيل توفي سنة نسع وتسعين وهو ابن ثمان وخمسين سنة . قال أبو خالد الكابلي : سمعت على ابن الحسين يقول : « من عفا عن محارم الله كان عابدا ، ومن رضى بقسم الله كان غنيا ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلما » . (أنظر المعارف ٩٤ ، اليعقوبى ج ٣ ص ٤٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٢٠ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٥ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٣٠) .

سئل : من أسعد أهل الدنيا والآخرة ؟ قال « من إذا رضى لم يحمله رضاه على الباطل ، وإذا سخط لم يخرجه سخطه من الحق » . وهذا من أوصاف الكمال للمستقيمين ، لأن الرضا بالباطل باطل ، والكف عن الحق في حال الغضب باطل ، ولا يكون المؤمن مبطلا .

ويروى عنه أنه حين قتل الحسين بن علي مع أولاده ، رضوان الله عليهم ، في كربلاء ، لم يبق سواه ، لأنه كان قيما على النساء ومريضا — وكان أمير المؤمنين الحسين رضى الله عنه يدعو عليا الأصغر — فلما حملوهم على أبل عارية الى دمشق (١) لدى يزيد بن معاوية — أخزاه الله — قال له رجل : « كيف أصبحت يا علي ، ويا أهل بيت الرحمة ؟ قال : أصبحنا من قومنا بمنزلة قوم موسى من آل فرعون : يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا فلا ندري صباحنا من مساءنا ، وهذا من حقيقة بلائنا » ، ونحن نشكر الله جل جلاله على نعمائه ، ونحمده على بلوائه .

ورد في الحكايات أن هشام بن عبد الملك بن مروان (٢) ذهب للحج عاما ، وكان يطوف بالكعبة . وأراد أن يقبل الحجر ، فلم يجد طريقا اليه لكثرة الزحام ، فصعد المنبر وخطب . وفي أثناء الخطبة دخل زين العابدين على ابن الحسين المسجد بوجه مقمر ، وخذ منور ، وثوب معطر وطاف بالببيت . فلما اقترب ، ألقى الناس الحجر تعظيما له حتى يقبله . فلما رأى ذلك رجل من أهل الشام (٢) ، قال لهشام : يا أمير المؤمنين ! لم يفسحوا لك الطريق الى الحجر وأنت أمير ، فمن كان ذلك الفتى الجميل الذي جاء

(١) « دمشق » : مدينة جليلة قديمة . وهي مدينة الشام في الجاهلية والاسلام . ونهرها الأعظم يقال له بردا ، افتتحت في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة (البلدان ص ٨٧) . وقد روى عن كعب الاحبار أن أول حائط وضع في الارض بعد الطوفان حائط دمشق وحران (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٨٩) .

(٢) هشام بن عبد الملك بن مروان ، كان يكنى أبا الوليد . بويع بعد يزيد بن عبد الملك ويقال وافته بالخلافة وهو بقرية يقال لها الزيتونة من الجزيرة فجاءه البريد فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى جاء دمشق ، وكان ذلك في رمضان سنة خمس ومائة . وفي عهده قتل زيد بن علي الشهيد سنة مائة واحد وعشرين وتحركت الشيعة في خراسان وظهر أمرهم . كانت ولايته عشرين سنة الا خمسة أشهر وتوفي بالرصافة سنة خمس وعشرين ومائة وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . (انظر : اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ — ٦٨ ، المعارف ص ١٥٩ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٠)

(٣) « الشام » : سميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات . وقال آخرون سميت بالشام بسام بن نوح وذلك أنه أول من نزلها فجعلت السين نينا .

أما حدها من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية ، وأما مرضها فمن =

فتفرق الناس جميعا عن الحجر وأخلوا المكان ؟ فقال هشام : لا أعرفه —
 مخافة أن يعرفه أهل الشام ويتولون اليه ، ولا يرغبون في أمارته — وكان
 الشاعر الفرزدق (١) هناك فقال : أنا أعرفه ، قالوا : من هو يا أبا فراس ؟
 أخبرنا لأننا رأينا هتئ مهيبا جدا . فقال الفرزدق : أنصتوا لأرتجل لكم
 نسبه .

(شعر عربى)

<p>والحل يعرفه والبيت والحرم هذا التقى النقى الطاهر العلم وابن الرضى على خيركم قدم الى مكارم هذا ينتهى الكرم عن نيلها عرب الاسلام والعجم وفضل أمته دانت له الأمم كالشمس ينجاب اشراقها الظلم ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم فما يكلم الا حين يبتسم من كف أروع فى عرينه شم طابت عناصره والخيم والشيم يستو كفان ولا يعرفهما العدم عنه الغيابة والاملاق والظلم ولا يدانيهم قوم وان كرموا والأسد أسد الشرى والبأس يحتلم كفر وقربهم منجا ومعتصم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم</p>	<p>هذا الذى تعرف البطحاء وطأته هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا ابن فاطمة الزهراء ويحكم اذا رآته قريش قال قائلها ينمى الى ذروة العز التى قصرت من جده دان فضل الانبياء له ينشق نور الدجى عن نور طلعتة يكاد يمسكه عرفان راحته يغضى حياء ويغضى من مهابتة فى كفه خيزران ريحها عبق مشتقة من رسول الله نبعته كتبا يديه غياث عم نفعهما عم البرية بالاحسان فانقشعت لا يستطيع جواد بعد غايتهم هم الغيوث اذا ما أزمة أزمتم من معشر حبههم دين وبعضهم ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم</p>
---	--

= جبل طىء من نحو القبلة الى بحر الروم .. وبها من أمهات المدن حلب وحماة
 وحمص ودمشق وبيت المقدس .. وهى خمسة أجناد : جند مسربن وجند دمشق
 وجند الاردن وجند فلسطين وجند حمص (معجم البلدان ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٤٤)
 وقد بدى بفتح الشام سنة ثلاث عشرة وتم فتح مدنها سنة سبع عشرة (فتوح
 البلدان ج ١ ص ٢٥ - ٤٤) .

(١) « الفرزدق » : أبو فراس همام الفرزدق ، ويقال هميم بالتصغير . الشاعر
 المشهور وصاحب جرير وهما الشعاران المعروفان بالمهاجاة . وقد جمع لهما كتاب
 يسمى « النقائض » وهو من الكتب المشهورة . وتوفى الفرزدق بالبصرة سنة عشر
 ومائة قبل جرير بأربعين يوما وقيل ثمانين يوما . وقيل لما مات الفرزدق وبلغ
 خبره جرير بكى وقال : أما والله أنى لا أعلم أنى قليل البقاء بعده ، ولقد كان
 نجما واحدا ، وكل واحد منا مشغول بصاحبه ، وقلما مات ضد أو صديق
 الا وتبعه صاحبه .

قيل التقى الحسن البصرى والفرزدق فى جنازة فقال الفرزدق للحسن البصرى : =

وقال في مدحهم أبياتا كثيرة كهذه ومدحه ومدح أهل بيت النبي عليه السلام ، فغضب عليه هشام وأمر بحبسه بعسفان — وهو موضع بين مكة (١) والمدينة (٢) — ونقلوا هذا الخبر بعينه الى (زين العابدين) فأمر فحملوا اليه اثني عشر ألف درهم ، وقال : قولوا له : يا أبا فراس ، اعذرنا لاننا معسرون لانملك أكثر من هذا والا أرسلناه لك . فأعاده الفرزدق وأرسل يقول : يا ابن رسول الله ، لقد قلت شعرا كثيرا قبل هذا من أجل المال ، وذكرت في تلك المدائح الكذائب ، فقلت هذه الأبيات ، لكفارة بعضها ، من أجل الله ومحبة رسول الله وأولاده . فلما أبلغوا زين العابدين الرسالة قال : ارجعوا وأعيدوا اليه المال ، وقولوا له : يا أبا فراس ، اذا كنت تحبنا فانك لا تترضى أن نستعيد شيئا وهبناه وأخرجناه من ملكنا . وعندئذ قبل الفرزدق المال .

ومناقب هذا السيد أكثر من أن يمكن جمعها ، والله أعلم .

● ومنهم : الحجة على أهل المعاملة ، وبرهان أهل المشاهدة ، أمام أولاد النبي ، والمختار من نسل على ، ((أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب)) كرم الله وجهه ، ورضى عنهم . ويقال أيضا أنه كان يكنى بأبي عبد الله (٣) ، ويلقب بالباقر .

= أتدرى ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس . فقال الحسن : كلا ، لست خيرهم ولست بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله منذ ستين سنة . (انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٤ ، ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٠٢) . وقد وردت هذه الحكاية والقصيدة في وفيات الأعيان في ترجمة الفرزدق . ونجد هنا اختلافا في ترتيب بعض الابيات ، وتحريفا في بعض المفردات . (انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٠) .

(١) « مكة » المكرمة : تقع بين جبال عظام . وهي أودية ذات شعاب فجبالها المحيطة بها أبو قبيس الجبل الأعظم منه تترق الشمس على المسجد الحرام ، وقيقعان وفاضح والمحصب وثور عند الصفا وحراء وثبير وتفاحة والمطانح والفلق والحجون وسقر . لها من الشعاب كثير يقع المسجد الحرام بين جياذ وقيقعان . وقد زاد في بنائه وتوسيعه — حتى صارت الكعبة في وسطه — الخليفة المهدي في سنة أربع وستين ومائة (انظر : البلدان ص ٧٨ — ٨٠) .

(٢) « المدينة » المنورة : كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة في مستوى من الأرض عذبه بركة جبلية وذلك أن لها جبلين أحدهما : أحد والآخر . غير ، وأهلها المهاجرون والانصار والتابعون وبها قبائل العرب . وقد انتقل اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب معانها واختلط الناس بها الخطط وكانوا قبل ذلك متفرقين واتصل البنيان بعضه ببعض حتى صارت مدينة . ومن المدينة الى مكة عشر مراحل عامرة أهلة (انظر : البلدان ص ٧٦ — ٧٨) .

(٣) هذه الكنية ليست له وإنما لابنه جعفر الصادق (انظر : تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٥) .

كان مخصوصا بدقائق العلوم ، ولطائف الاشارات في كتاب الله عز وجل ، وكانت له كرامات مشهورة ، وآيات زاهرة ، وبراهين نيرة .

ويقال ان ملكا قصد هلاكه يوما ، وأرسل اليه رجلا ، فلما دخل عليه اعتذر له الملك ، وقدم له هدية ، وردده بالاحسان ، فقيل له : أيها الملك ! لقد كنت تقصد اهلاكه ، ورأيك معه على حال آخر ، فماذا حدث ؟ قال : لما دخل على رأيت أسدين عن يمينه ويساره ، وكنا يقولان لى : اذا قصدته بسوء أهلكناك .

ويرد عنه أنه قال في تفسير قول الله عز وجل « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (١) » قال : « كل من شغلك عن مطالعة الحق فهو طاغوتك » ، فتبين بأى شيء حجبت وتخلفت ، وتخل عنه لتحظى بالكشف . والمحجوب ممنوع ، والممنوع ينبى أن لا يدعى القربة .

يروى عنه واحد من خواصه أنه حين كان يمضى هزيع من الليل ، ويفرغ من أوراده ، كان يرفع صوته مناجيا ويقول : يا الهى وسيدى ! أقبل الليل ، وانتهت ولاية تصرف الملوك ، وظهرت النجوم فى السماء ، ونام جميع الخلق ، وهدأت أصوات الناس ونامت أعينهم ، وجفلوا عن أبواب بنى أمية واختفت رغائبهم ، وأغلق بنوا أمية أبوابهم ووكلوا بها حراسهم ، وتخلى كل ذى حاجة اليهم عن حاجته . يا الهى أنت الحى ، العليم ، البصير ، لا تجوز عليك سنة ولا نوم ، ومن لا يعرفك بهذه الصفة لا يستحق نعمتك . أنت يا من لا يردك شيء عن شيء ، ولا يتطرق الخل الى بقائك ليلا ونهارا ، أبواب رحمتك مفتوحة لمن يدعوك ، وخزائنك كلها فداء من يثنى عليك ! أنت الاله الذى لا يجوز عليك رد سائل حين يدعوك مؤمن ، ولا راد لسائل بابك من خلق الارض والسماء ، يا الهى حين أذكر الموت والقبر والحساب ، كيف أسعد القلب بالدنيا ؟ وحينما أذكر الكتاب كيف أقر بشيء من الدنيا ؟ وحين أذكر ملك الموت كيف أقبل نصيبا من الدنيا ؟ فأنا أطلب منك يا الهى لأنى أعرفك ، وأبحث عنك لأنى ادعوك أن تمنحنى فى حال الموت راحة تخلو من العذاب ، وفى حال الحساب عيشا بلا عقاب . كان يقول كل هذا ويبكى ، حتى قلت له ذات ليلة : ياسيدى وسيد آبائى ! الأم تبكى والأم تصيح ؟ قال : يا صديقى ، لقد ضاع ليعقوب ولد فبكى حتى كف بصره وابيضت عيناه ، وأنا فقدت ثمانية عشر فردا مع أبى — أى الحسين وقتلى كربلاء — فلا أقل من أن تبيض عيناي على فراقهم .

(١) سورة « البقرة » آية ٢٥٦ .

وهذه المناجاة في العربية فصيحة جدا ، ولكنى جئت بمعانيها بالفارسية تجنباً للاطالة حتى لا تتكرر ، ثم أجيء بها في موضع آخر ، ان شاء الله رب العالمين .

● ومنهم سيف السنة ، وجمال الطريقة ، ومعبّر المعرفة ، ومزين الصفوة ، « أبو محمد (١) جعفر بن (محمد بن) علي بن الحسن بن علي » الصادق (٢) ، رضوان الله عليهم أجمعين . كان عالي الحال وحسن السيرة مزين الظاهر وعامر السريرة . وله اشارات جميلة في كل العلوم . وهو مشهور بين المشايخ ، رضى الله عنهم أجمعين ، بدقة كلامه ووقوفه على المعاني . وله كتب معروفة في بيان الطريقة .

يروى عنه أنه قال : « من عرف الله أعرض عما سواه » ، لأن معرفته هي عين الإنكار للغير ، فأنكار غيره هو معرفته ، ومعرفة غيره هي إنكاره ، والعارف منقطع عن الخلق ومتصل بالحق ، وليس للغير في قلبه من القدر ما يجعله يلتفت اليهم ، أو يجعل لوجودهم كبير خطر يعقد ذكركم في خاطره .

ويروى عنه أيضاً أنه قال : « لا يصح العبادة الا بالتوبة » ، فقدم التوبة على العبادة ، لأن الله تعالى قدم التوبة على العبادة في قوله تعالى : « التائبون العابدون (٣) » ، لأن التوبة بداية المقامات ، والعبودية نهاية المقامات . ولما ذكر الله جل جلاله العصاة أمر بالتوبة وقال : « وتوبوا الى الله جميعاً (٤) » ولما ذكر الرسول عليه السلام ، ذكره بالعبودية وقال : « فأوحى الى عبده ما أوحى (٥) » .

(١) كنيته : « أبو عبد الله » (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥) .
(٢) الامام السادس من الائمة الاثنى عشر : « جعفر الصادق » : ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم .
وأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه . لقب بالصادق لصدقه في مقالته . وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل . ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق ، وهي خمسمائة رسالة . توفي سنة ثمان وأربعين ومائة ودفن بالبقيع في قبر أبيه وجده . دخل عليه سفيان الثوري يوماً فرأى عليه جبة من خز ، فقال له : أنتم في بيت النبوة تلبسون هذا ؟ فقال : ما تدري أدخل يدك ، فإذا تحته مسح من شعر خشن .

(انظر ترجمته في : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١١٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ١٠٥ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٩٠ ، خزينة

الاصفياء ج ١ ص ١٢٦) .

(٣) سورة « التوبة » آية ١١٢

(٤) سورة « الزور » آية ٣١ .

(٥) سورة « النجم » آية ١٠

ووجدت في الحكايات أن داود الطائي رحمه الله جاء اليه وقال : يا ابن رسول الله ! عظمى ! فقد أسود قلبي . قال : يا أبا سليمان ! أنت زاهد زمانك ، فما حاجتك الى عظمى ؟ . قال : يا ابن رسول الله ! ان لك على جميع الخلق فضلا ، وعظمتك لكل الخلق واجب . قال : يا أبا سليمان ، انى أخشى أن يتعلق بى جدى يوم القيامة قائلا : لم لم تؤد حق متابعتى ؟ فهذا الأمر لا يكون بالنسبة الصحيحة ولا بالنسب القوى ، وانما بالمعاملة الحسنة في حضرة الحق تعالى . فبكى داود وقال : يا الهى ! اذا كان من طينته معجونة بماء النبوة ، وتركيب طبيعته من أصل البرهان والحجة ، جده الرسول ، وأمه البتول ، بهذه الحيرة ، فمن يكون داود حتى يعجب بمعاملته ؟ .

ويرد عنه أيضا أنه كان قد جلس يوما بين مواليه وأخذ يقول لهم : تعالوا لنبايع ونتعاهد على أن كل من يفوز منا يوم القيامة يشفع للجميع . فقالوا : يا ابن رسول الله ! ما حاجتك الى شفاعتنا ، وجدك الشفيع لجميع الخلق ؟ قال : انى أخجل بأفعالى هذه أن أنظر الى وجه جدى يوم القيامة .

وهذا كله من رؤية عيوب النفس ، وهى صفة من صفات الكمال . وجميع المتمكنين في حضرة الله عز وجل من الأولياء والأنبياء والرسائل كانوا على هذا . والرسول عليه السلام قال : « اذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه وعيوب الدنيا (١) . » . وكل من يخفض رأسه من قبيل تواضع العبودية ، يرفع الله تعالى شأنه في الدنيا والآخرة .

واذا ذكرت أهل البيت جميعا ، وأحصيت مناقبهم فردا فردا لا يكفى هذا الكتاب ، بل أن كتبنا كثيرة لا تحتمل عشر عشر منها ، فهذا المقدار كاف لقوم يكون لعقولهم لباس الادراك ، من مريدى ومنكرى هذه الطريقة .

والآن ، أورد ذكر أصحاب صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الإيجاز والاختصار ، في هذا الكتاب . وقد ألفت قبل هذا كتابا وأسميته « منهاج الدين » ، بينت فيه مناقب كل منهم بالتفصيل ، ولكنى سأذكر هنا أسماءهم وكنياتهم بمفردها ، ليتم مقصودك — أعزك الله — وبالله التوفيق .

(١) رواه أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس ، والبيهقى في شعب الإيمان عن أنس : « اذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه (اشرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦) . »

الباب التاسع باب في ذكر أهل الصفة

أعلم أن الأمة — زاد الله من عددهم — مجتمعة على أنه كان للنبي عليه السلام فريق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يلزمون مسجده ، وهبوا أنفسهم للعبادة ، وكفوا أيديهم عن الدنيا ، وأعرضوا عن الكسب . وأن الله عز وجل عاتب النبي عليه السلام من أجلهم ، فقال عز من قائل : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي (١) » وكتاب الله عز وجل ناطق بفضائلهم ، وللرسول عليه السلام في مناقبهم أقوال كثيرة بلغتنا في ذكرهم رحمة الله عليهم أجمعين ، وقد ذكرت طرفا منها في مقدمة هذا الكتاب .

ويروى عن ابن عباس (٢) رضي الله عنه ، عن النبي عليه السلام ، قال : « وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى فقرهم وجهدهم ، وطيب قلوبهم ، فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتي على النعت الذي أنتم عليه ، راضيا بما فيه فإنه من رفاقي في الجنة » .

نذكر منهم : مؤذن حضرة الجبار ، ومختار محمد المختار : « بلال بن رباح (٣) » رضي الله عنه .

(١) سورة « الانعام » آية ٥٢ .
(٢) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم : ابن عم النبي عليه السلام وصاحبه ، وحبر الأمة ونقيها . مات سنة ثمان وستين بالطائف (انظر : المعارف ص ٥٣ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٢) .
(٣) بلال بن رباح : كان من مولدى مكة لرجل من بنى جمح ، فأسر ، فاشتراه أبوبكر بخمس أواق فأعتقه . وكان يعذب في الله . وشهد بدرا والمشاهد كلها . وهو أول من أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قبض رسول الله أتى أبا بكر فاستأذنه الى الشام فأذن له ، فلم يزل مقيما بها . ولم يؤذن بعد النبي ، فلما قدم عمر الى الشام لقيه فأمره فأذن فبكى عمر والمسلمون . مات بدمشق سنة عشرين (المعارف ص ٧٦) .

ومنهم : حبيب الله الحكيم ، ومحرم أحوال النبی : « أبو عبد الله سلمان الفارسی » رضی الله عنه .

ومنهم : قائد المهاجرين والأنصار ، والمتوجه الى الله الغفار : أبو عبيده عامر بن عبد الله بن الجراح (١) رضی الله عنه .

ومنهم : مختار الأصحاب وزينة الأرباب : « أبو اليقظان عمار بن ياسر (٢) » رضی الله عنه .

ومنهم : كنز العلم ، وخزينة الحلم : « أبو مسعود عبد الله بن مسعود الهذيلي (٣) » رضی الله عنه .

ومنهم المتمسك بباب الحرمة ، المبرأ من العيب والأمة : « عتبة بن مسعود (٤) » : أخو عبد الله ، رضی الله عنه .

ومنهم : سالك طريق العزلة ، والمعرض عن عصائب الزلة : « المقداد ابن الأسود » رحمه الله .

ومنهم : راعى مقام التقوى ، الراضى بالبلاء والبلوى : « خباب بن الأرت (٥) » رضی الله عنه .

(١) أبو عبيدة بن عبد الله الجراح نسبة الى جده . اسمه عامر وهو من بنى الحارث ابن فهر بن مالك بن النضر . وبنو فهر هم قريش ومن فهر تفرقت قبائلها . وأمه من بنى الحارث بن فهر وقد أسلمت وزوجها . قال فيه الرسول : لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة . شهد بدرًا . ومات سنة ثمان عشرة بالشام ودفن بغورييسان (انظر : المعارف ص ١٠٨ ، اللع ص ١٨٦ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ١٧) .

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك بن عنس ، وعنس من مذحج من اليمن ، وياسر قدم من اليمن الى مكة وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي وزوجه أبو حذيفة أمة له اسمها سمية . ولم يزل ياسر وعمار ابنه مع حذيفة الى أن مات وجاء الاسلام فأسلم ياسر وعمار وسمية . وسمية أم عمار أول شهيدة في الاسلام ، قتلها أبو جهل بحربة . وشهد عمار صفين مع علي بن أبي طالب فقتل ودفن هناك ، وصلى عليه علي (انظر : المعارف ص ١١١) .

(٣) من بنى عامر بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . وكان من حلفاء بنى زهرة . شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وبسعة الرضوان وجميع المشاهد . وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر وصدرًا من خلافة عثمان ، ثم صار الى المدينة فتوفي بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع . (انظر المعارف ص ١٠٩ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ١٨) .

(٤) كان قديم الاسلام . ولم يرو عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئًا ، ومات في خلافة عمر . وكان له ابن يقال له عبد الله ويكنى أبا عبد الرحمن مات بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان . وكان كثير الحديث والفتيا ، فقيها (انظر المعارف ص ١٠٩) .

(٥) من بنى سعد بن زيد مناة من تميم . ويكنى أبا عبد الله . أصابه سباء فبيع بمكة فاشترته أم سباع الخزاعية فاعتقته . كان رجل فتيا . وابنه عبد الله بن خباب هو الذي قتله الخوارج فسال دمه كأنه شراك نعل . مات بالكوفة سنة سبع وثلاثين ، وهو أول من قبره على بالكوفة وصلى عليه . (انظر المعارف ص ١٣٨ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ١٨) .

ومنهم : قاصد باب الرضا ، وطالب اللقاء في الفنا : « صهيب بن سنان (١) » رضى الله عنه .

ومنهم : درج السعادة ، وبحر القناعة : « عتبة بن غزوان (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : أخو الفاروق والمعرض عن الكونين والمخلوق : « زيد بن الخطاب (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب المجاهدات في طلب المشاهدات : « أبو كبشة (٤) » مولى رسول الله ، رضى الله عنه .

ومنهم : العزيز التائب ، وعن كل الخلق آيب : « أبو مرثد كناز بن حصين الغنوى (٥) » رضى الله عنه .

ومنهم عابر طريق التواضع ، وسالك محجة التقاطع : « سالم مولى حذيفة اليماني (٦) » رضى الله عنه .

(١) صهيب بن سنان بن مالك . بدرى ، وجميع المدنيين يثبتون نسبه في النمر بن قاسط . وأمه سلمى من مازن تميم . وقال بعضهم . كان أبوه سنان عاملا لكسرى وكانت منازلهم بأرض الموصل فآغرت الروم على تلك الناحية فسبوا صهيبا وهو غلام صغير فنشأ بالروم ، فابتاعته كلب منهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان واعتقه ، وبعث به الى النبی صلى الله عليه وسلم . كان مزاحا ، قال له النبي : أأكل تمرًا وبك رمد ؟ فقال : يا رسول الله انما أمضع بالناحية الاخرى ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم منه . توفي بالمدينة سنة ثمان وثلاثين ، ودفن بالبقيع (المعارف ص ١٤ - ١٥) .

(٢) عتبة بن غزوان بن الحرث بن جابر من بنى مازن أخى سليم بن منصور بن عكرمة . من المهاجرين الاولين ، وهو ممن شهد بدرا وكان من الرماة المذكورين ، وهو الذى افتتح الابلّة واختط البصرة وأمر محجن بن الازرع فاخطط مسجد البصرة . قدم المدينة في الهجرة ، وتوفي في طريق مكة بمعدن بنى سليم في خلافة عمر سنة سبع عشرة . (المعارف ص ١١٩) .

(٣) زيد بن الخطاب : أمه أسماء من بنى أسد بن خزيمة ، وكان اسلامه قبل اسلام عمر . شهد بدرا وكان بينه وبين عمر درع فجعل كل واحد منهما يقول والله لا يلبسها غيرك . ثم شهد يوم أحد فصبر في أربعة أنفس ولم يهرب فيمن هرب . وشهد يوم مسيلمة سنة اثنى عشرة فقتل . (المعارف ص ٧٨) .

(٤) أبو كبشة : اسمه « سليم » . من مولدى أرض دوس ، ويقال من مولدى مكة . ابتاعه رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقه . توفي أول يوم استخلف فيه عمر ابن الخطاب . (المعارف ص ٦٤) .

(٥) أبو مرثد كناز بن حصين : من غنى ولذا يسمى بالغناوى . كان تربا لحزمة بن عبد المطلب ، وأخى الرسول عليه السلام بينه وبين عبادة بن الصامت . وأخى بين ابنه مرثد وبين ابن الصامت أخى عبادة . مات في خلافة أبى بكر سنة اثنى عشرة ، وقتل مرثد في حياة الرسول يوم الرجيع شهيدا وكان أمير السرية . (المعارف ص ١٤٣) .

(٦) سالم مولى حذيفة اليماني : كان يكنى أبا عبد الله . وهو بدرى ، وأخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى بكر . وكان ولاء سالم لامرأة أبى حذيفة . استشهد يوم اليمامة ولا عقب له . (المعارف ص ١١٨) .

ومنهم : الخائف من العقوبة ، والهارب من طريق المخالفة : « عكاشة ابن محصن (١) » رضى الله عنه .

ومنهم : زين المهاجرين والأنصار ، وسيد بنى قار : « مسعود بن الربيع القارى » رضى الله عنه .

ومنهم : حافظ أنفاس النبى ، وباب كل الخيرات : « عبد الله بن عمر (٢) » رضى الله عنه .

ومنهم : شبيه عيسى فى الزهد ، وبدرجة موسى فى الشوق : « أبو ذر جندب بن جنادة (٣) » رضى الله عنه .

ومنهم : المقيم فى الاستقامة ، والمستقيم فى المتابعة : « صفوان بن البيضاء » رضى الله عنه .

ومنهم : صاحب الهمة والخالى من التهمة : « أبو الدرداء عويمر بن عامر (٤) » رضى الله عنه .

ومنهم : شرف كيمياء الدين ، وصدق در التوكل : « عبد الله بن بدر الجمهى » رضى الله عنه .

(١) عكاشة بن محصن بن حرنان : من أسد خزيمة . بدرى يكنى أبا محض ، واخته أم قيس بنت محصن التى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم بآبن لها قد اعقلت عليه بالعذرة ، والعذرة وجع الحلق ، كان عكاشة من أجمل الرجال وبشره الرسول بالجنة بغير حساب ، وقتل ببزاخة فى خلافة أبى بكر . (المعارف ص ١١٩) .

(٢) عبد الله بن عمر : كان يكنى أبا عبد الرحمن ، وأسلم مع اسلام أبيه بمكة وهو صغير ، وشهد المشاهد بعد يوم بدر وأحد ، وبقي الى زمن عبد الملك ، ويقال مات بمكة ودفن بفتح ، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة . (المعارف ص ٨٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٠) .

(٣) أبو ذر الغفارى : يقال اسمه جندب بن السكن ، ولقبه برير . وقال آخرون : جندب بن جنادة . وعن حفص بن المعتمر قال : جئت وأبو ذر أخذ بقلعة باب الكعبة وهو يقول : أنا أبو ذر الغفارى ، من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعت رسول الله يقول : مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا . وهو من غفار ، وغفار قبيلة من كنانة . أسلم أبو ذر بمكة ولم يشهد بدرا ولا أحدا ولا الخندق لانه حين أسلم رجع الى بلاد قومه ، فأقام حتى مضت هذه المشاهد ، ثم قدم المدينة . وكان عثمان سيره الى الربرة فمات بها سنة اثنتين وثلاثين . (المعارف ص ١١٠) .

(٤) عويمر بن عامر بن الحرث بن الخزرج : كان آخر أهل داره اسلاما ، وكان قبل اسلامه تاجرا . مات بالشام سنة اثنتين وثلاثين (انظر ترجمته فى : المعارف ص ١١٦ ، اللمع ص ١٨١ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ١٩)

ومنهم : المتعلق بباب الرجاء ، ومختار رسول مالك الملك : « أبو لبابة ابن عبد المنذر (١) » رضى الله عنه .

وإذا ذكرتهم جميعا يطول بنا الكلام . وقد ألف الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى (٢) رضى الله عنه — وكان نقال الطريقة وراوى أقوال المشايخ — كتابا منفردا فى تاريخ أهل الصفة (٣) ذكر فيه مناقبهم وفضائلهم وأسماءهم وكنياتهم ، ولكنه ذكر من جملتهم « مسطح بن أثاثة ابن عباد » (٤) ، وأنا أبغضه لأنه كان هو البادىء بافك أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

أما « أبو هريرة (٥) » و « ثوبان (٦) » و « معاذ بن الحارث » و « سائب ابن الخلد » و « ثابت بن الوديعة » و « أبو عبيس عويم بن ساعد »

(١) أبو لبابة الانصارى ، مكى بنت له كانت تحت زيد بن الخطاب . اسمه بشير ، ويقال رفاعه بن المنذر . توفى بعد مقتل عثمان وقبل قتل على (المعارف ص ١٤٢)
(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمى النيسابورى ، العربى الاصل ، المعروف بأبى عبد الرحمن السلمى . اشتهر بنسبه الى السلميين وهم قبيلة والدته ، فهو حفيد أبى عمرو بن نجيد السلمى . تتلمذ على عدد كبير من شيوخ الحديث والصوفية ، وعلى رأسهم جده أبو عمرو بن نجيد ، والدراقتنى وأبو نصر السراج الطوسى . كان مريدا لأبى القاسم النضرابادى وتسلم منه الخرقه . وتلمذ عليه عدد كبير من كبار الصوفية منهم الصوفى الفارسى أبو سعيد أبى الخير ، وأبو القاسم القشيرى . ألف السلمى كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير والتصوف ، والذى اشتهر به هو تأليفه فى التصوف المعروف بطبقات الصوفية . توفى سنة اثنى عشرة وأربعمائة ، ودفن فى نيسابور .
(انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٣١١) .

(٣) كتاب تاريخ أهل الصفة : نقل عنه أبو نعيم الاصبهانى فى حلية الاولياء . ويسميه حاجى خليفة : « تاريخ أهل الصفوة » . (انظر : « كشف الظنون » ج ١ عمود ٢٨٦) .

(٤) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف ، ويكنى أبا عباد . شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها . وكان أبو بكر يجرى عليه . وهو الذى قدف عائشة رضى الله عنها ، وتوقف أبو بكر عن الاتفاق حتى نزلت الآية : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » فقال أبو بكر : والله لأحب أن يغفر الله لى فارجع الى مسطح نفقته التى كان ينفقها عليه (المعارف ص : ١٤٣)
(٥) أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه ، فمنهم من قال هو عبد الله بن عمرو ، وقال غيره هو عبد الرحمن ، وقيل عبد شمس . كان من قبيلة من اليمن يقال لها دوس وهو دوس بن عدثان من الازد . قال أبو هريرة : نشأت يتيما وهاجرت مسكينا ، وكنت أجيرا لبصرة بنت غزوان لطعام بطنى . وكان يكنى بأبى هريرة بهرة كان يلعب معها . وكان قدومه المدينة سنة سبع والنبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ، فسار الى خيبر حتى قدم مع النبي . توفى بالمدينة سنة تسع وخمسين . لما حضرته الوفاة بكى فتيل له فى ذلك فقال : أبكى على بعد سفرى وقلة زادى وانى أصبحت على مهبط جنة أو نار لا أدري أيهما يأخذ بى . (انظر : المعارف ص ١٢٠ ، اللمع ص ١٨٨ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٢٠) .

(٦) ثوبان : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا عبد الله ، وهو من أهل السراة . أصابه سبب فاشتراه النبي وأعتقه ، ولم يزل معه حتى قبض ثم تحول الى الشام فنزل حمص ومات سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية (المعارف ص ٦٤) .

و « سالم بن عمير بن ثابت » و « أبو اليسر كعب بن عمرو بن وهب بن معقل (١) » و « عبد الله بن أنيس (٢) » و « الحجاج بن عمرو الأسلمى » رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد كانوا منهم وان تعلقوا من حين لحين بسبب ، ولكنهم كانوا جميعا بدرجة واحدة . وفي الحقيقة كان قرن الصحابة خير القرون ، وفي كل درجة كانوا فيها ، كانوا أحسن الخلق وأفضلهم في كل فن ، بعد أن وهبهم الله سبحانه وتعالى صحبة النبي عليه السلام ، وحفظ أسرارهم من جميع العيوب ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٣) » وقال الله تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان (٤) » .

والآن أثبت ذكر بعض من التابعين ، في هذا الكتاب ، لتتم الفائدة ، وتتصل القرون بعضها ببعض ، ان شاء الله العزيز .

-
- (١) أبو اليسر كعب بن عمرو : من الأنصار . أسره العباس بن عبدالمطلب يوم بدر ، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم . توفي سنة خمس وخمسين في خلافة عثمان . (المعارف ص ١٤٢) .
- (٢) عبد الله بن أنيس الأنصاري : كان يكنى أبا يحيى ويعرف بالجهني ، وجهنة من قضاة . اختلفوا في بدر هل شهدا أم لا . وهو الذي يقال فيه : ليلة الجهني ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن ينزل من باديته الى مسجده فيصلي فيه ليلة ثلاث وعشرين ، فكان يدخل المسجد ليلة ثلاث وعشرين اذا صلى العصر ، ثم لا يخرج عنه الا لحاجة حتى يصلى الصبح ثم يخرج الى أهله ، فليل ليلة الجهني . وهو الذي روى عن الرسول في ليلة القدر أنه قال : التمسوها الليلة ، وكانت ليلة ثلاث وعشرين . مات بالمدينة في خلافة معاوية . (المعارف ص ١٢١) .
- (٣) رواه أحمد في مسنده عن ابن مسعود . (شرح اجماع الصغير ج ٢ ص ١٣) .
- (٤) سورة «التوبة» آية ١٠٠ .

الباب العاشر باب في ذكر أئمتهم من التابعين والإرصار رضوان الله عليهم أجمعين

● منهم شمس الأمة ، وشمع الدين والملة :

« أويس القرني » رضى الله عنه . كان من مشايخ أهل التصوف ، ومعاصرا للرسول عليه السلام ، غير أنه منع من رؤية الرسول عليه السلام بشيئين ، أولهما : غلبة الحال ، والثاني : حق الوالدة .

وقال عنه النبي عليه السلام للصحابة : يوجد رجل من قرن (١) اسمه أويس يشفع يوم القيامة لعدد من أمتي مساو لأغنام ربيعة ومضر . والتفت الى عمر وعلى رضى الله عنهما وقال لهما : انظراه ، وهو رجل عنين ، متوسط القامة ، غزير الشعر ، توجد على جنبه الأيسر شامة بيضاء في حجم الدرهم ، وبكفه بياض كالبرص ، وهو يشفع في عدد من أمتي مساو لعدد ربيعة ومضر ، وحين تريانه أبلغاه سلامي ، وقولا له أن يدعو لأمتي .

ولما قدم عمر مكة بعد وفاة النبي عليه السلام ، وكان معه أمير المؤمنين على ، قال في خطبته : يا أهل نجد (٢) قوموا ، فنهض أهل نجد ، فقال : أيوجد بينكم رجل من قرن ؟ قالوا : نعم ، وأرسلوا اليه بنفر . فاستخبرهم أمير المؤمنين عن أويس فقالوا : يوجد رجل مجنون يدعى أويسا ، لا يرد الأماكن العامرة ، ولا يصاحب الناس ، ولا يأكل ما يأكله الناس ، ولا يعرف الترح والفرح : يبكي حين يضحك الناس ، ويضحك حين يبكون . فقال :

(١) « قرن » بفتح القاف والراء : بطن من مراد - اليمنى العابد . والنسبة اليها :

قرني (معجم البلدان ج ٤ ص ١) .

(٢) « نجد » : نجد الحجاز ونجد اليمن . وجنوبى نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد

اليمن ، وبين النجدين وعمان برية ممتنعة (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٥١) .

أريده . قالوا : انه بالصحراء على مقربة من ابلنا . فنهض الأميران .
رضى الله عنهما وذهبا اليه . ووجداه واقفا يصلى ، فجلسا حتى فرغ من
الصلاة وسلم عليهما وأراهما علامتى جنبه وكفه فعرفاه ، وطلبا منه الدعاء ،
وأبلغاه سلام النبى عليه السلام ، وأوصياه بالدعاء للامة . وظلا معه
بعض الوقت الى أن قال لهما : عودا الآن فان القيامة قريب ، ومن ثم تتعذر
رؤيتنا ، حيث لا رجعة ، لأنى الآن مشغول باعداد عدة الطريق الى
القيامة .

ولما رجع أهل قرن الى بلدهم صارت له حرمة وجاه بينهم ، وغادرها
الى الكوفة(١) . وقد رآه هرم بن حيان رضى الله عنه يوما ، ولم يره
أحد بعد ذلك ، الى أن وقعت الفتنة والحرب مع أمير المؤمنين على
كرم الله وجهه ، فجاءه وكان يحارب معه أعداءه حتى استشهد في موقعة
صفين(٢) : « عاش حميدا ومات شهيدا » .

ويروى عنه أنه قال : « السلامة فى الوحدة » ، لأن قلب المنفرد عن
الناس يكون متحررا من التفكير فى الغير ، ويأثسا من الخلق فى جميع
الأحوال ، ليسلم من كل آفاتهم ، ويعرض عنهم جميعا .

أما اذا ظن أحد معنى الوحدة أن يعيش المرء منفردا ، فهذا محال ،
لأنه طالما يصحب الشيطان قلبه ويكون للنفس سلطان على صدره ، وتخطر
الدنيا والعقبى على فكره ، ويجول التفكير فى الخلق فى رأسه ، لا تكون
هناك وحدة بعد ، لأن عين الشئ والتفكير فى الشئ كلاهما واحد .
والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه . وعلى ذلك فالوحيد اذا صاحب
لا تراحم الصحبة وحدته ، والمشغول لا تكون العزلة سبب فراغه ،
فالانقطاع عن الانس لا يكون بالانس . ومن يكون له انس بالحق تعالى
لا تضر مخالطة الانس أنسه ، ومن يأنس بالانس لا يخطر الانس على
قلبه ، ولا يدري شيئا عن الانس مع الحق ، لأن الوحدة صفة عبد صاف
سمع قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده(٣) » .

• ومنهم أيضا شيخ الصفاء ومعدن الوفاء :

-
- (١) « الكوفة » : اختطها سعد بن أبى وقاص الزهرى سنة سبع عشرة وهو عامل
عمر بن الخطاب . وهى أول مدينة اختطها المسلمون بالعراق (البلدان ص
٤ ، ٧٣) .
- (٢) « صفين » موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربى . وكانت
موقعة صفين بين على رضى الله عنه ومعاوية سنة ١٩ هـ (معجم البلدان ج ٣
ص ٤٠٢) .
- (٣) سورة « الزمر » آية ٣٦ .

((هرم بن حيان)) رضى الله عنه ، كان من عظماء الطريقة ، ذا حظ موفور في المعاملة . وقد أكثر من صحبة الصحابة وكرامهم . وقصد زيارة أويس ، ولما سار الى قرن كان (أويس) قد غادرها ، فرجع يائسا . ولما عاد الى مكة علم أنه بالكوفة ، فذهب اليها ولم يجده . وظل هناك مدة طويلة ، فلما أراد أن يرحل عنها الى البصرة لقيه في الطريق على شاطئ الفرات (١) يتوضأ ، وقد ارتدى مرقعة ، فعرفه . ولما تنحى (أويس) عن الشاطئ ومشط ذقنه ، تقدم اليه هرم وسلم عليه ، فقال له : عليك السلام يا هرم بن حيان . فسأله : كيف عرفت أنى هرم ؟ قال : عرفت روحى روحك . وجلسا معا برهة ، وصرفه .

قال هرم : لقد حدثني كثيرا عن الأميرين — أى عمر وعلى رضوان الله عليهما — وقال لى ان عمر روى له عن الرسول عليه السلام قوله عليه السلام : « انما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته الى ما هاجر اليه (٢) . ثم قال : « عليك بحفظ قلبك » . وفي رواية : « عليك بقلبك » . أى : عليك بحفظ قلبك من التفكير في الغير .

ولهذا الكلام معنيان ، أولهما : أن يجعل القلب متابعا للحق بالمجاهدة ، والثانى : أن يجعل نفسه متابعا للقلب بالمشاهدة ، وكلاهما أصل قوى .

وجعل القلب متابعا للحق شأن المريدين الذين يردون القلب عن ممارسة الشهوة وموانسة الهوى ، فتنتقطع عنه الأفكار غير الملائمة ، الى حد أنه لا يبقى له فكر آخر سوى ذكر الحق .

وجعل النفس متابعة للقلب شأن الكاملين الذين ينور الحق تعالى قلوبهم بنور جماله ، ويحررها من جميع الأسباب والعلل ، ويبلغها أعلى الدرجات ، ويخلع عليها خلعة القرب ، ويتجلى عليها بالطائفة ، ويتولاها بالمشاهدة والقرب ، ومن ثم يجعل البدن موافقا للقلب .

فالطائفة الأولى أصحاب قلوب ، وهؤلاء مغلوبو قلوب ، وصاحب القلب هو مالك القلب وباقي الصفة ، ومغلوب القلب فاني الصفة .

(١) « الفرات » (نهر) : الفرات معرب عن لفظه ، وله اسم آخر وهو «فراز رود» لأنه بجانب دجلة ، والجنينة تسمى بالفارسية « فراز » و « رود » = نهر (معجم البلدان ج ٣ ص ٨٤٠)
(٢) رواه الشيخان عن عمر ، ومالك في الموطأ .

وحقيقة هذه المسألة مردها الى قوله عز وجل : « الا عبادك منهم المخلصين » (١) — بفتح اللام — والمخلص بكسر اللام هو الفاعل وباقي الصفة . والمخلص يفتح اللام هو المفعول وفانى الصفة . وسأورد هذه المسألة أكثر شرحا في مكان آخر ، ان شاء الله تعالى .

والحقيقة ان فانى الصفة أعظم من هؤلاء الذين يجعلون الجسد موافقا للقلب ، لأن قلوبهم تكون محولة في حضرة الحق وقائمة في مشاهدة الحق أكثر من باقى الصفة الذين يجعلون القلب موافقا للأمر بالتكلف .

وبناء هذه المسألة قائم على أصل الصحو والسكر والمجاهدة والمشاهدة ، والله أعلم بالصواب .

● ومنهم أيضا : امام العصر وفريد الدهر :

أبو علي الحسن بن أبي الحسين البصري « رحمه الله . وهناك فريق يجعلون كنيته « أبا محمد » ، وآخرون يجعلونها « أبا سعيد » . وله قدر كبير وشأن عظيم عند أهل هذا العلم (أى علم التصوف) بل كل العلوم . وكان لطيف الاشارة في المعاملة .

وقد قرأت في الحكايات ان أعرابيا جاءه وسأله عن الصبر ، فقال له : الصبر نوعان : أولهما : الصبر في المصائب والبليات ، والثانى : الصبر عن المنهيات . فقال الأعرابى : أنت زاهد ما رأيت أزهد منك . فقال الحسن : يا أعرابى ! أما زهدى فكله رغبة ، وأما صبرى فكله جزع . فقال الأعرابى : فسر لى هذا الكلام ، فقد اضطرب اعتقادى . فقال له : صبرى في البلاء أو الطاعة ناطق بخوفى من نار جهنم ، وهذا عين الجزع . وزهدى في الدنيا رغبة في الآخرة ، وهذا عين الرغبة ، بخ بخ لمن كان يأخذ نصيبه في الوسط . حتى يكون صبره خاصا بالحق جل جلاله لا خوفا من جهنم ، وزهده مطلقا للحق عم نواله لا للوصول الى الجنة . وهذا دليل على صحة الاخلاص .

ويروى عنه أيضا ، رحمه الله ، أنه قال : « صحبة الاشرار تورث سوء الظن بالأخيار » .

وهذا قول جد محكم ، واليق لأهل زماننا هذا الذين كلهم منكر لأعزاء حضرة الحق جل جلاله . وقد حدث ذلك لأنهم يصحبون المستصوفة

(١) سورة « الحجر » آية ٤٠ .

وأهل الرسم ، ويرون أعمالهم قائمة على الخيانة ، والسنتهم تفيض كذبا وغيبة ، وسعيهم منصرفا الى استماع « الدوبيتات (١) » المليئة بالهزل والبطلان ، وأعينهم مملوءة باللهو والشهوة ، وكل همتهم جمع الحرام والشبهة . ويظنون أن هذه هى معاملة المتصوف ، وأن مذهب المتصوفة هكذا . وليس الأمر كذلك ، بل فعلهم كله طاعة ، ولسانهم ذاكرا للحق والحقيقة ، وآذانهم محل استماع الشريعة ، وأعينهم موضع جمال المشاهدة ، وهمتهم كلها جمع في محل الرؤية . فاذا ظهر قوم قد سلكوا طريق الخيانة ، فخيانة الخائنين تعود اليهم لا الى أحرار الدنيا وسادات الزمان هؤلاء . واذا صاحب أحد أشرار قوم فان ذلك يرجع الى شره ، لأنه لو كان فيه خير لصاحب الأخيار ، اذ الجنس أميل الى الجنس (٢) . فملازمة كل امرئ عليه ، لأنه يصحب صنوه وكفأه .

والمنكرون على الصوفية هم أشر خلق الله جل جلاله وأرذلهم ، لأن صحبتهم كانت مع أشرهم وأرذلهم ، فلما لم يدركوا هوى ومرادا أنكروا عليهم . أو أنهم اقتدوا بهم فلما هلكوا ، لم يتجهوا الى هؤلاء الأخيار والأعزاء على الله تعالى ، فينظروا بعين الرضا الى أخيارهم ، ويشترخوا صحبتهم بأرواحهم وقلوبهم ، ويختاروا من العالم طريقهم ، وينالوا ببركاتهم مقصودهم في الدارين وينقطعوا عن الكل . وقد قيل في هذا المعنى : (بيت من الشعر العربى)

فلا تحقرن نفسى وأنت حبيبها * فكل امرئ يصبو الى من يجانس

● **ومنهم :** رئيس العلماء ، وقدوة الفقهاء : **((سعيد بن المسيب))** (٣) رحمه الله . كان عظيم الشأن ، رفيع القدر ، عزيز القول ، حميد الصدر ، وله مناقب كثيرة في فنون العلم : من فقه وتوحيد وحقائق وتفسير وشعر ولغة وغير ذلك .

(١) « الدوبيت » : شعر مكون من أربع شطرات ، وهو نوع من الرباعيات يترنم به الصوفية في حلقات السماع .

(٢) العبارة فى الاصل : « الجنس مع الجنس أثر » .

(٣) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن مخزوم القرشى المدنى . أحد الفقهاء السبعة بالمدينة . كان سيد التابعين ، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، سمع سعد بن أبى وقاص الزهرى وأبى هريرة رضى الله عنهما ، ولقى جماعة من الصحابة وسمع منهم . ودخل على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن . أكثر روايته المسند عن أبى هريرة ، وكان زوج ابنته . ضربة عبد الملك بن مروان وألبسه المسوح وطاف به أسواق المدينة حين امتنع عن مبايعته ، ومنع من مجالسته . كان يقول لنفسه اذا دخل الليل : تومى يا مأوى كل شر ، والله لادعنك تزحفى زحف البعير . قيل توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين للهجرة وقيل سنة خمس ومائة (انظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٣ - ١٩٤ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٠٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٤) .

ويقولون أنه كان رجلاً عياراً^(١) المظهر زاهد الطبع ، لا زاهد المظهر عيار الطبع . وهذه طريق محمودة في الطريقة ، ومقبولة لدى جميع المشايخ رضى الله عنهم .

ويروى عنه أنه قال : « أرض باليسير من الدنيا مع سلامة دينك ، كما رضى قوم بكثيرها مع ذهاب دينهم » . أى أن الفقر مع السلامة خير من الغنى مع الغفلة ، لأن الفقير إذا نظر في قلبه لا يجد فيه التفكير في الزيادة ، وإذا نظر في يده يجد القناعة . والغنى حين ينظر الى قلبه يجد فيه التفكير في زيادة الدنيا ، وعندما ينظر في يده يرى الدنيا المليئة بالشبهات .

اذن فرضاء الأحباب بربوبية الله بلا غفلة خير من رضاء الغافلين بالدنيا المليئة بالغرور والآفة والحسرة والندامة والزلّة والمعصية .

وحينما يحل البلاء يقول الغافلون : الحمد لله اذ أنه لم يحل بالجسد ، ويقول الأحباب : الحمد لله أنه لم يحق بالدين . وإذا كان الجسد في بلاء ، فما دام القلب في اللقاء ، يطيب للجسد البلاء . وحين يكون القلب في الغفلة فانه وان يكن الجسد في النعمة ، فانه لا تكون نعمة ، بل نقمة . وفي الحقيقة فان الرضا بقليل الدنيا هو كثير الدنيا ، والرضا بكثير الدنيا هو قليل الدنيا ، لأن قليلها مثل كثيرها .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه كان جالساً في مكة وجاء اليه رجل وقال له : أخبرنى عن حلال ليس فيه حرام ، وحرام ليس فيه حلال . فقال رضى الله عنه : « ذكر الله حلال ليس فيه حرام ، وذكر غيره حرام ليس فيه حلال » ، لأن النجاة في ذكره والهلاك في ذكر غيره ، والله أعلم بالصواب .

(١) العيار : هو الرجل الكثير المجيء والذهاب ، الذكى ، الكثير الطواف . وقيل الذى يتردد بلا عمل . ومنه العيار من الرجال ، الذى خلى نفسه وهواها لا يردعها ولا يزجرها (أقرب الموارد) .

الباب الحادى عشر باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين إلى يومنا

منهم شجاع الطريقة ، والمتمكن فى الشريعة ، « حبيب العجمى (١) » ،
رضى الله عنه . كان على الهمة ، جليل القدر ، وله فى مراتب الرجال
قيمة وخطر عظيم .

وكانت توبته فى البداية على يد حسن البصرى ، فقد كان فى أول عهده
يقرض بالربا ، ويعيث فسادا ، ووهبه الله عز وجل بكمال لطفه التوبة
النصوح ، ومن عليه بالتوفيق ، حتى أناب إلى حضرته جل جلاله ، وتعلم
قدرا من العلم .

وعن الحسن (البصرى) أن لسانه كان أعجميا ، ولم يكن جاريا على
العربية . وقد خصه الله تعالى وتقدس بكرامات كثيرة إلى حد أن الحسن
مر يوما بباب صومعته وقت صلاة العشاء ، وكان قد أقام الصلاة ووقف
يصلى ، فدخل الحسن ولم يقتد به ، لأن لسانه لم يكن جاريا على قراءة
القرآن . ولما نام (الحسن) رأى الله سبحانه وتعالى فى منامه ، فقال :
يا الهى يا ذا الجلال ! فيم يكون رضاؤك ؟ فقال : يا حسن ، كنت قد أدركت
رضاءنا فلم تعرف قدره . فقال : يا الهى تعاليت ! ما هو ؟ قال : لو أنك
صليت خلف حبيب بالأمس ، ولم يردك عن صحة نيته انكار عبارته ،
لكننا رضىنا عنك .

(١) ورد عنه أن أحمد بن حنبل والشافعى كانا قد اجتمعا يوما ، فدخل عليهما حبيب .
فقال أحمد : سأسأله سؤالا ، فقال الشافعى : لا تفعل ، فهو رجل عجيب
فقال أحمد : لا مناص إلى من ذلك . ولما اقترب حبيب منهما سأله : ما قولك
فى حق رجل فاته صلاة من الصلوات الخمس ولا يعرف أى واحدة هى ، ماذا
يجب عليه أن يفعل ؟ قال حبيب : هذا تلب غفل عن الله فليؤدب ، وينبغى عليه
أن يقضى الصلوات الخمس . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٩) .

ومن المعروف بين هذه الطائفة أنه عندما فر الحسن من رجال الحجاج (١) ، دخل صومعة حبيب ، فلما جاءوا اليها قالوا : يا حبيب ، هل رأيت الحسن؟ قال : نعم ، قالوا : أين ؟ قال : هاهو في صومعتي ، فدخلوا الصومعة فلم يروا أحدا ، وظنوا أن حبيبا يهزأ بهم ، فأغلظوا له قائلين : انك تكذب . وأقسم لهم قائلان : اني أقول الصدق ، وها هو في صومعتي . فدخلوا الصومعة ثانية وثالثة ولم يجدوه ، فانصرفوا . وخرج الحسن وقال : يا حبيب اني أعرف أن الله تعالى لم يظهرني لأولئك الظلمة ببركاتك ، فلماذا قلت لهم : انه هنا ؟ قال : يا أستاذ ! انه لم يكن ببركاتي ان الله لم يظهر لك لهم ، بل كان ببركات الصدق ، ولو كنت كذبت لفضحوني ، أنا وأنت (٢) .

وله من هذا القبيل كرامات كثيرة .

سئل : فيم يكون رضاء الله تعالى ؟ . قال : « في قلب ليس فيه غبار النفاق » . ذلك أن النفاق خلاف الوفاق ، والرضا عين الوفاق ، ولا تعلق للمحبة بالنفاق ، ومحلها الرضا ، فالرضا صفة الأحاب ، والنفاق صفة الأعداء . وهذا قول عظيم أبيه ان شاء الله في موضع آخر .

● ومنهم بقية أهل الانس ، وزين جملة الجن والانس :

«مالك بن دينار» رضى الله عنه . كان صاحب الحسن البصرى ، ومن كبار هذه الطريقة ، وله كرامات كثيرة مشهورة ، وفي الرياضة خصال مذكورة .

وكان دينار عبدا ، وقد ولد (مالك) في حال عبودية أبيه .

(١) الحجاج بن يوسف الثقفى . كان يكنى أبا محمد . ولى شرط أبان بن مروان في بعض ولايات أبان فلما خرج بن الزبير أوفده عبد الملك بن مروان مع جيش من أهل الشام لقتاله فحاصره وقتله وصلبه . وولاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنوات . وفي سنة ٧٤ هـ . ولاه عبد الملك العراق فوليه عشرين سنة وأصلحها وذل أهلها . وتوفي سنة ٩٥ هـ في عهد الوليد عبد الملك (انظر : المعارف ص ١٧٣ ، البعقوبى ج ٣ ص ١٧ - ٣٤) .

(٢) وردت هذه الحكاية على لسان أبى طالب المكى ، قال : « حدثونا أن الحسن رحمه الله اختفى عند حبيب العجمي من الحجاج ، فسعى به فدخل عليه الشرط ففزع الحسن وذهب ليتسور الحائط ويهرب ، فقال له حبيب : أبا محمد ، اقم حتى تبصر ، فقال : فدخل الشرط فقالوا أين الحسن ؟ قيل لنا انه عندك . فقال : هل ترون شيئا ؟ ففتشوا الدار كلها وخرجوا وهم لا يرونه ، فقال له الحسن : كيف لم ينظروا الى ؟ قال : لانك كنت عند الله فلم يروك ، ولو كنت عندى لبصروك . قال له الحسن : اني رأيتك لما دخلوا همهمت بشيء ، فهل ذكرت اسم الله الاعظم ؟ قال : لا ، ولكن قلت : اللهم اجعله عندك حتى لا يبصروه » (قوت القلوب ج ١ ص ١٣٧) .

وكانت بداية أمره أنه ذات ليلة ، شاء صبح السعادة الالهية أن ينثر شعلة من أنواره على روح مالك بن دينار ، وكان في تلك الليلة مشغولاً بالطرب بين جماعة من رفاقه ، ولما ناموا جميعاً أيقظ الحق جل جلاله بخته ، فانبعث من خلال العود الذي كان يضرب عليه صوت جميل يقول : « يا مالك مالك أن لا تتوب ؟ » . فكف يده عن هذا كله ، وجاء الى الحسن وتاب على يديه توبة نصوحاً .

وبلغ من منزلته أنه ركب ذات مرة سفينة ، فضاع فيها جوهرة ، وكان يبدو أكثر القوم نكراً (١) ، فاتهموه بسرقتها . ورفع رأسه الى السماء ، فخرج في الحال كل ما في البحر من السمك على الماء ، وقد أمسكت كل سمكة بفمها جوهرة ، فأخذ من كل ذلك جوهرة وأعطاها للرجل ، ووضع قدمه على الماء وسار عليه في يسر حتى خرج الى الساحل .

يرد عنه أنه قال : « أحب الأعمال الى (٢) الاخلاص في الأعمال » .

ذلك أن العمل يصير عملاً بالاخلاص ، والاخلاص للعمل بمنزلة الروح للجسد . وكما أن الجسد بلا روح يكون جماداً ، كذلك الشخص الذي يؤدي العمل بالظاهر ألف عام لا يصير عمله عملاً ما لم يربط الاخلاص به .

أما الاخلاص فهو من جملة الأعمال الباطنة ، والطاعات من جملة الأعمال الظاهرة . والأعمال الظاهرة تتم بالأعمال الباطنة ، والأعمال الباطنة تكتسب قيمتها بالأعمال الظاهرة ، فلو أن انساناً أخلص بقلبه ألف عام فانه ما لم يعمل بالاخلاص لا يكون اخلاصه اخلاصاً . وإذا عمل أحد بالظاهر ألف عام فانه ما لم يتصل الاخلاص بعمله لا يصير عمله عملاً .

● ومنهم الفقير الخطير ، وعلى سائر الأولياء الأمير :

((أبو حاتم حبيب بن سليم الراعي (٣))) رضى الله عنه . كان عظيم المنزلة بين المشايخ ، وله جملة الأحوال آيات وبراهين كثيرة نيره . وكان صاحب سلمان الفارسي رضى الله عنه . ويروى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « نية المؤمن خير من عمله » .

وكان صاحب أغنام ، يقيم على شاطئ الفرات ، ويسلك طريق العزلة . ويروى أحد المشايخ قائلًا : مررت به فوجدته يصلى ويحرس غنمه ذئب !

(١) أى مجهولاً من الجميع أكثر من أى شخص آخر : إذ النكر بمعنى الجهل .

(٢) فى الاصل « على » .

(٣) لم ترد له ترجمة فى الكتب التى رجعت اليها .

فقلت : فلأزر هذا الشيخ فانى أرى فيه آية كبرى . وبقيت لحظة حتى فرغ من الصلاة ، وسلمت عليه ، فقال : يا بنى ! لأى أمر جئت ؟ قلت : لزيارتك . قال : خيرك الله . قلت : أيها الشيخ ! انى أرى الذئب موافقا للغنم ! فقال : لأن راعى الغنم موافق للحق . قال هذا ، وكان لديه وعاء خشبى ! تحت حجر ، تفجرت فيه عينان : احداهما لبن ، والأخرى عسل . فقلت له : يا شيخ ! بم نلت هذه الدرجة ؟ قال : بمتابعة محمد عليه الصلاة والسلام . يا بنى ! لقد كان قوم موسى يخالفونه ، ومع هذا حباهم الصخر الماء ، ولم يكن موسى فى درجة محمد ، وبما انى متابع لمحمد ، فقد حبانى الله العسل واللبن ، فلا عجب . فقلت له : عظمى ! قال : « لا تجعل قلبك صندوق الحرص وبطنك وعاء الحرام » ، لأن هلاك الخلق فى هذين ، ونجاتهم فى حفظهما .

وكان لشيخى — رضوان الله عليه — روايات كثيرة عنه ، ولكن ليس من الميسر فى هذا الوقت أكثر من هذا ، لأن كتبى بقيت فى حضرة غزنين — حرسها الله — وأنا فى ديار الهند ، فى بلدة لها نور^(١) من توابع الملتان ، أسير بين أناس ليسوا من جنسى ، والحمد لله رب العالمين .

● **ومنهم الشيخ الصالح ، وبصلاحه الصالح ، « أبو حازم المدنى »^(٢)** رحمه الله ، كان قدوة لبعض المشايخ ، وله فى المعاملات حظ وافر وخطر كبير ، وفى الفقر قدم ثابتة ونفس صادق ، وفى المجاهدات مسلك كامل .

ويروى عنه عمرو بن عثمان المكى^(٣) رضى الله عنه — وكلامه فى كل القلوب مقبول ، وفى كثير من الكتب مسطور — انه قيل له : « ما مالك ؟ قال : « الرضا عن الله والغناء عن الناس » .

وكل من يرضى بالحق يستغنى لا محالة عن الخلق . والكثر الأكبر للمرء : رضاء الله تعالى وتقدس .

(١) « لاهور » .

(٢) يسميه فريد الدين العطار ، أبا حازم المكى . (انظر ترجمته فى تذكرة الاولياء ج ١ ص ٥٦) .

(٣) عمرو بن عثمان بن كرب : كنيته أبو عبد الله . كان ينتسب الى الجنيد فى الصحبة ، وصحب أبا سعيد الخراز وغيره ، روى عن محمد بن اسماعيل ويونس بن عبد الأعلى وسليمان بن سيف الحرانى وغيرهم . مات ببغداد سنة احدى وتسعين ومائتين (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٠ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ١٢١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٦ ، نفحات الانس ص ٨٤ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ١٧١) .

والإشارة — هنا — الى الغناء بالله جل جلاله ، فكل من يغنى به يستغنى عن غيره ، ولا يعرف طريقا الى غير حضرته ، ولا يعرف غيره في الخلا والملا ، ولا يدعو غير ، ولا يعرف معزا ومذلا غيره .

ويقول واحد من المشايخ : دخلت عند « أبى حازم » فوجدته نائما ، وبقيت برهة حتى أستيقظ ، فقال : رأيت النبی عليه الصلاة والسلام في هذه الساعة في المنام ، وقد حملنى اليك رسالة وقال : ان رعاية حق الأم أفضل من الحج ، فعد واطلب رضا قلبها . فرجعت من عنده ، ولم اذهب الى مكة . ولم أسمع منه أكثر من هذا .

● **ومنهم داعى أهل المجاهدة ، والقائم في محل المشاهدة ، « محمد بن واسع (١) »** رضى الله عنه ، الذى لم يكن له مثيل في زمانه ، وكان قد أدرك صحبة كثير من الصحابة والتابعين ، ورأى طائفة من الشيوخ المتقدمين .

وكان رضى الله عنه ذا حظ واف في هذه الطريقة ، وأنفاس عالية وإشارات كاملة في الحقائق .

ورد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه » . وهذا مقام المشاهدة ، لأن العبد في غلبة محبة الفاعل عليه يصل الى درجة أنه ينظر في فعله فلا يرى الفعل ، ويرى الكل فاعلا . كما ينظر شخص الى الصورة فيرى المصور .

وحقيقة هذا ترجع الى قول الخليل عليه السلام الذى قال : لكل من القمر والشمس والنجم : « هذا ربى (٢) » ، وكان ذلك في حال غلبة الشوق ، لأنه كان يرى كل ما يراه في صفة محبوبه ، فالأحبة حين ينظرون الى العالم يرونه مقهور قهر الله وأسير سلطانه ، فيتلاشى وجود العالم في جنب قدرة فاعله ، ويصير في ذل قوله تعالى « كن (٣) » لا شيء . وهم ينظرون فيه بعين الاشتياق ، فلا يرون المقهور ويرون القاهر ، ولا يرون

(١) محمد بن واسع بن جابر الأزدي ، أبو بكر البصري الزاهد . روى عن أنس بن مالك والحسن البصري . توفي سنة عشرين ومائة ، وقيل ثلاث وعشرين ومائة . كان يلبس الصوف ، فدخل يوما على قتبية بن مسلم فقال له قتبية : ما دعاك الى لبس الصوف ؟ فسكت ، فقال : ألكمك فلا تجيبني ؟ فقال : أكره أن أقول انى زاهد فأزكى نفسى ، أو فقير فأشكو ربى عز وجل (أنظر ترجمته في المعارف ص ٢٠٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٢٩ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٤٨) .

(٢) إشارة الى الايات : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ من سورة « الانعام » .

(٣) إشارة الى الآية : « واذا قضى أمرا فانه يقول له كن فيكون » سورة « البقرة » آية ١١٧ .

المفعول ويرون الفاعل ، ولا يرون المخلوق ويرون الخالق . وسأوضح هذا في باب المشاهدة ان شاء الله تعالى .

وهنا يخطيء فريق اذ يقولون : ان الرجل قال : « رأيت الله فيه » ، وهذا يقتضى المكان والتجزئة والحلول ، وهو كفر محض ، لأن المكان يكون جنس المتمكن ، واذا قدر شخص أن المكان مخلوق ، فلا بد وأن يكون المتمكن مخلوقا أيضا ، واذا قدر أن المتمكن قديم ، فلا بد وأن يكون المكان قديما أيضا .

وبهذا القول يحصل نوعان من الفساد : فاما أن يقال ان الخلق قديم ، أو أن الخالق محدث ، وهذان كلاهما كفر . فرؤيته هذه (أى رؤية الله فى الأشياء) بمعنى رؤية آياته وأدلتها وبراهينه فيها ، بالمعنى الذى ذكرته أولا .

وفى هذا المعنى رموز لطيفة أجيء بها فى موضعها ان شاء الله تعالى .

● **ومنهم** امام العالم ومقتدى الخلق وشرف الفقهاء وعز العلماء : **((أبو حنيفة النعمان بن ثابت الخزاز))** رضى الله عنه ، كان له فى العبادات والمجاهدات قدم ثابتة ، وثأن عظيم فى أصول الطريقة .

قصد فى بدلية حاله العزلة ، وتبرا من جملة الخلق ، وأراد أن ينسلخ عنهم — لأنه كان قد طهر قلبه من ريائهم وجاههم ، وهذبه للحق الحق — الى أن رأى فى منامه ليلة أنه كان يجمع عظام النبى عليه السلام من لحدده ويتخير بعضها من بعض ، فهب من نومه فزعا من ذلك ، وسأل واحدا من أصحاب محمد بن سيرين (١) فقال له : ستصل فى علم النبى عليه السلام وحفظ سنته الى درجة عظيمة بحيث تتصرف فيها وتميز الصحيح من المسقيم .

وهرة أخرى رأى النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، وقال له : يا أبا حنيفة ! لقد جعلت سببا لاهياء سنتى فلا تقصد .

(١) أبو بكر محمد بن سيرين البصرى . كان من سبى ميسان . روى عن أبى هريرة وعدد الله بن عمر وغيرهم . وروى عنه قتادة بن دعامة وخالد بن الحذاء وغيرهم . أحد فقهاء البصرة صاحب الحسن البصرى ثم تهاجرا فى آخر الأمر فلما مات الحسن لم يشهد ابن سيرين جنازته . كانت نه اليد الطولى فى تعبير الرؤيا . توفى سنة عشر ومائة بالبصرة بعد الحسن البصرى بمائة يوم .
١ أنظر ترجمته فى المعارف ص ١٩٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣ .

وكان أستاذا لكثير من المشايخ مثل : ابراهيم بن أدهم ، والفضيل ابن عياض ، وداود الطائي ، وبشر الحافي وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ومدون لدى العلماء أنه في عهد أبي جعفر المنصور (١) ، فكروا في أن ينصبوا رجلا من بين أربعة قاضيا ، أولهم الامام الأعظم أبو حنيفة ، وثانيهم سفيان (٢) وثالثهم مسعر بن كدام (٣) ، ورابعهم شريك (٤) ، رحمة الله عليهم ، وكان هؤلاء الأربعة من فحول علماء الدهر ، وبعثوا رسولا لاحتضارهم جميعا . وأثناء سيرهم في الطريق قال أبو حنيفة رضي الله عنه : سأتفرس في كل منا فراسة في ذهابنا هذا ! قالوا : يستصوب ، قال : أنا أدفع عن نفسي هذا القضاء بحيلة ، ويفر سفيان ، ويتصنع مسعر الجنون ، ويصير شريك قاضيا .

وفر سفيان في الطريق ، ولجأ الى سفينة وقال : جبئوني لأنهم يريدون قطع رأسي ، وذلك بتأويل الخبر الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « من جعل قاضيا فقد ذبح بغير سكين (٥) » ، فأخفاه الملاح . وحمل الثلاثة الى المنصور ، فقال أولا لأبي حنيفة رحمه الله : ينبغي أن تتولى القضاء ! فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل غير عربي ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمي . فقال أبو جعفر : هذا

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . الخليفة العباسي . بويح في اليوم الذي توفي فيه أبو العباس سنة ١٣٦ هـ ، وكان حاجا فأخذ له عمه عيسى بن علي البيعة على من حضر من الهاشميين والقواد بالأنبار ووافاه الخبر بذلك بايعه أبو مسلم ومن حضر من القواد . قتل أبا مسلم سنة ١٣٧ هـ . وبائع ابنه المهدي بولاية العهد سنة ١٤٧ هـ . توفي عند وصوله مكة وهو حاج سنة ١٥٨ هـ ودفن بها . (انظر تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٠٠ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) مسعر بن كدام — بكسر الكاف — طلبه أبو جعفر المنصور ليوليه القضاء فقال له : مهلا يا أمير المؤمنين . ان أهلى يطلبون حاجة بدرهم ، فأقول لهم أنا أشتري لكم ، فيقولون لا نرضى بشرائك . فاذا كان أهلى لا يرضون بشرائي لهم حاجة بدرهم ، (فكيف) يوليني أمير المؤمنين القضاء ؟ فأعفاه . دخل عليه سفيان الثوري في مرض موته فقال له : ما هذا الجزع يا مسعر ؟ والله لو ددت أني مت الساعة . فقال : انك اذا لوائت بعملك يا سفيان ! لكني والله كأني على شاق جبيل لا أدري أين أهبط . فبكى سفيان وقال : أنت أخوف لله عز وجل مني يا أخى . توفي بالكوفة سنة خمس وخمسين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات الشعرائي ج ١ ص ٤٦) .

(٤) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن أبي شريك النجفي . تولى القضاء بالكوفة أيام المهدي ثم عزله موسى الهادي ، وتولاه بالأهواز . توفي بالكوفة سنة سبع أو ثمان وسبعين ومائة . (انظر ترجمته في المعارف ص ٢٢٢ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٥) .

(٥) رواه أحمد في مسنده ، وابن داود ، وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة : « من جعل قاضيا بين الناس فقد ذبح بغير سكين » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٩١)

العمل لا يتعلق بالنسب ، وينبغي له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان .
فقال : أنا لا أليق لهذا العمل ، وفي هذا القول اذ قلت : لا أليق ،
لا يخرج عن اثنتين : اذا قلت الصدق ، فقد قلت بنفسى : لا أليق . واذا
كذبت ، فالكاذب لا يليق للقضاء بين المسلمين ، وأنت لا تجيز أن تأتى
بكاذب وتجعله خليفتك ، وتكل اليه أموال المسلمين وفروجهم ، وأنت
خليفة الله . قال هذا ونجا .

وعندئذ تقدم مسعر رحمه الله وأمسك بيد الخليفة وقال له : كيف
حالك وأولادك ، وكيف حال دوابك ؟ فقال الخليفة : أخرجوه فإنه مجنون .

وقالوا لشريك : يجب أن تتولى القضاء . فقال : أنا رجل سوداوى
ورأسى خفيف ! فقال له المنصور : عالج نفسك بالعصائد الموافقة والأنبذة
المثلثة ليكتمل عقلك . وعندئذ أسند القضاء الى شريك . وقاطعه أبو حنيفة
رضى الله عنه ، ولم يكلمه قط . وهذه علامة على كمال حاله ، لمعنيين :
أولهما : صدق فراسته فى كل منهم ، وثانيهما : سلوكه طريق السلامة
وصحة الملامة ، واقصائه الخلق عن نفسه ، وعدم الاغترار بجاههم .

وهذه الحكاية دليل قوى على صحة الملامة ، اذ أقصى هؤلاء الشيوخ
الثلاثة الكبار أنفسهم عن الخلق بالحيلة . واليوم ، لا ينظر جملة العلماء
الى هذا الجنس من المعاملة ، لأنهم ركنوا الى أهوائهم ، ونفروا من
طريق الحق ، وجعلوا ديار الأمراء قبلتهم ، وصيروا دور المظلمة بيتهم
المعمور ، وجعلوا بساط الجبابة موازيا (لمنزلة) قباب قوسين أو أدنى
وينكرون كل ما يخالف هذه المعانى .

ذات مرة كان أحد مدعى الامامة والعلم قد قال فى حضرة غزوين —
حرسها الله — ان لبس المرقعة بدعة ! فقلت : ان الثياب الدبيقية
الدبيجية والدبيقية (١) ، وكلها مصنوعة من الأبريسم (٢) المحرم على
الرجال ، أخذها من الظلمة وجمعها من الحرام بالالاحاح واللجاج ، حرام
مطلق ، وهم يلبسونها ولا يقولون انها بدعة ، فلماذا يكون الثوب الحلال،
من المكان الحلال ، المشتري بمال حلال بدعة ؟ ولو لم تكن رعونة الطبع
وضلالة العقل مسيطرة عليك ، لقلت كلاما أكثر اتزاناً من هذا . والثياب
الأبريسمية حلال للناس ومباحة للمجانين ، فإذا أقررت بأحد هذين فقد
عذرت نفسك ، والا فنعوذ بالله من عدم الانصاف .

(١) نسبة الى دبيق بلد بمصر واليه نسب الثياب الدبيقية . أقرب الموارد .

(٢) نوع من الحرير

ويقول الامام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه : حينما حضرت نوفل ابن حيان رضى الله عنه الوفاة رأيت فى النوم أن القيامة قامت ، وجملة الخلق يحاسبون ، ورأيت النبى عليه السلام واقفا متشمرا على حوضه ، والمشايخ وقوفا عن يمينه ويساره ، ورأيت شيخا حسن الوجه يجلس رأسه شعر أبيض وقد وضع خده على خد النبى ، ورأيت أمامه نوفا واقفا ، فلما رآنى أقبل على وسلم ، فقلت له : اسقنى فقال : حتى أستأذن النبى عليه السلام . فأشار اليه النبى عليه السلام بأصبعه فأعطانى الماء ، فشربت منه وسقيت أصحابى ، ولم ينقص من ذلك القدر شىء قط . وقلت : يا نوفل ! من الشيخ الذى على يمين النبى ؟ قال : انه ابراهيم خليل الرحمن ، والآخر أبو بكر الصديق . وهكذا كنت أسأله وهو يعتقد على أصبعى ، حتى سألته عن سبعة عشر شخصا رضوان الله عليهم أجمعين ، فلما استيقظت وجدت على أصبعى سبع عشرة عقدة .

ويقول يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه : رأيت النبى عليه الصلاة والسلام فى النوم ، فقلت له : أين أطلبك ؟ قال : عند علم أبى حنيفة ، رضى الله عنه .

وله فى الورع طرف كثيرة ومناقب مشهورة أكثر من أن يحتملها هذا الكتاب .

وأنا على بن عثمان الجلابى — وفقنى الله — كنت بالشام يوما نائما على رأس قبر بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فرأيت نفسى بمكة فى النوم واذا بالنبى صلى الله عليه وسلم قد دخل من باب بنى شيبه وقد احتضن شيخا كما يحتضنون الأطفال بشفقة ، فخرجت اليه وقبلت يديه وقدميه . وكنت أتعجب متسائلا : من يكون ذاك ، وما تلك الحال ؟ فأطلع عليه السلام — بحكم اعجازه — على باطنى وفكرى ، وقال لى : هذا امامك وامام أهل ديارك . ولى وأهل بلدى أمل كبير بذلك الحلم .

وصدق هذا الحلم : لأنه كان أحد هؤلاء الذين كانوا فانين عن أوصاف الطبع وباقين بأحكام الشرع وقائمين به . ولما كان مرشده هو النبى صلى الله عليه وسلم — فانه وان يكن قد مضى — فقد كان باقى الصفة ، وباقى الصفة : أما مخطيء أو مصيب ، وبما أن مرشده كان النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه يكون فانى الصفة ببقاء صفة النبى عليه الصلاة والسلام ، ولما كان الخطأ لا يجوز على النبى عليه الصلاة والسلام ، فانه لا يجوز كذلك على القائم به . وفى هذا رمز لطيف .

ويقال انه عندما حصل داود الطائى رحمه الله العلم ، وصار مصدرا
وقدوة ، جاء أبا حنيفة رضى الله عنه ، وقال له : ماذا أفعل الآن ؟ فقال
له : عايك بالعمل فان العلم بلا عمل كالجسد بلا روح .

والعلم — فديتك — ما لم يقترن بالعمل ، فانه لا يصفو ولا يخلص
عهده ، وكل من يقتنع بالعلم المجرد لا يكون عالما ، لأن العالم لا يقتنع بمجرد
العلم ، فعين العلم تقتضى العمل ، كما تقتضى عين الهداية المجاهدة .
وكما أن المشاهدة لا تكون بدون المجاهدة ، فان العلم لا يكون بدون العمل ،
لأن العلم مواريث العمل ، وتخريج العلم النافع وفتوحه يكون ببركات العمل .
ولا يمكن بأى معنى فصل العمل عن العلم ، كما لا يمكن فصل نور الشمس
عن عين الشمس .

وقد أوردنا في بداية الكتاب بابا مختصرا في العلم ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم سيد الزهاد وقائد الأوتاد : ((عبد الله بن المبارك المروزي (١)))**
رضى الله عنه . كان من محتشمى القوم ، وعالما بجملة أحوال
وأسابغ الطريقة والشرعية . وكان أمام الوقت في عصره ، وأدرك كثيرا
من الشيوخ وصحبهم ، واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ،
وأخذ عنه العلم . وله تصانيف مذكورة وكرامات مشهورة في كل فن من
فنون العلم .

والسبب في ابتداء توبته هو أنه كان قد فتن بجارية ، وذات ليلة نهض
من بين السكارى ، وصحب أحدهم ، ووقف تحت جدار المعشوقة ، وصعدت
هى الى السطح ، ووقف كلاهما في مشاهدة أحدهما الآخر حتى الفجر .
وعندما سمع عبد الله أذان الفجر ظنه أذان العشاء ، فلما طلع النهار
عرف أنه كان طول الليل مستغرقا في جمال المعشوقة ، فكان له من هذا
زاجر ، فقال لنفسه : خسئت يا ابن المبارك اذ وقفت طوال الليل على
قديمك موافقة لهواك ، ولا تمل ، ولو أن اماما قرأ في الصلاة سورة طويلة
لجننت ! فأين معنى الايمان في مقابل هذه الدعوى ؟ (٢) . وعندئذ تاب

(١) كان يقيم بخراسان ، وكانوا يقدمونه في الأدب على سفيان ، وكان سفيان الثوري
يقول : جهدت جهدى على أن أداوم ثلاثة أيام في السنة على ماعليه ابن المبارك
فلم أقدر . وكان يقول : سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية ، لأن سلطان الرعية
لا يجمع الناس الا بالعصا ، والزاهد ينفر من الناس فيتبعونه . توفي سنة احدى
وثمانين ومائة . (انظر ترجمته في طبقات الشعرائى ج ١ ص ٤٧ ، تذكرة الأولياء
ج ١ ص ١٧٩) .

(٢) أورد القشيري هذه الحكاية ضمن ترجمة الفضيل بن عياض وذكر أنها كانت السبب
في توبة الفضيل . انظر ترجمة الفضيل : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ .

واشتغل بالعام وطلبه ، حتى وصل الى درجة أن أمه دخلت عليه البستان يومها فمرأته نائما وقد أمسكت حية كبيرة بغصن ريحان في فمها وكانت تذب عنه الذباب .

ثم رحل عن مرو (١) وذهب الى بغداد وظل بها مدة في صحبة المشايخ . وذهب الى مكة وجاور هناك أيضا مدة ، ورجع الى مرو فتولاه أهلها ورتبوا له درسا . وفي ذلك الوقت كان نصف أهل مرو يتابع الحديث والنصف الآخر يسلك طريق الرأي ، كما هو الحال اليوم ، وكانوا يسمونه : « رضى الفريقين » بحكم أنه كان موافقا لكل منهما . وقد اختصم فيه كلا الفريقين . واتخذ هنالك رباطين : أحدهما لأهل الحديث ، والثاني لأهل الرأي ، وما يزال هذان الرباطان قائمين حتى اليوم ، ويسيران على قاعدة ذلك الأصل .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت راهبا قد هزل من المجاهدة ، وانحنى عوده من خشية الله ، فسألته : يا راهب ! كيف الطريق الى الله ؟ قال : لو عرفت الله لعرفت الطريق اليه ! ثم قال : أعبد من لا أعرفه وتعصى من تعرفه .

أى أن المعرفة تقتضى الخوف ، وأراك آمنا ، والأمن كفر . والجهل يقتضى الكفر ، وأجد نفسى خائفا . قال ابن المبارك : فصارت لى هذه عظة ، ومنعتنى عن كثير مما لا ينبغى عمله .

ويروى عنه أنه قال : « السكون حرام على قلوب أوليائه » . أى أنها مضطربة في الدنيا في حال الطلب ، ومضطربة في العقبى في حال الطرب ، ولا يجوز لها السكون في الدنيا بغيبتها عن الحق ، ولا ينبغى لها القرار في العقبى بحضور الحق وتجليه ورؤيته ، فالدنيا لها كالعقبى ، والعقبى كاللدينا ، لأن سكون القلب يقتضى أمرين : إما ادراك المقصود ، أو الغفلة عن المراد ، وادراك المراد لا يجوز في العقبى والدنيا حتى يسكن القلب عن خفتان المحبة . والغفلة حرام على أحبائه حتى يسكن القلب عن حركات الطلب . وهذا أصل قوى في طريق المتحققين ، والله أعلم بالصواب .

(١) « مرو » : هى أجل كور خراسان . افتتحها حاتم بن النعمان الباهلى وهو من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان ويقال ان الأحنف بن قيس حضر فتحها وذلك فى سنة احدى وثلاثين (البلدان ص ٤٦) .

● ومنهم ملك أهل الحضرة وسلاطان ولاية الوصل :
« أبو على الفضيل بن عياض » (١) رضى الله عنه . كان من جملة صغاليك القوم
وكبارهم ، وله فى المعاملات والحقائق حظ وافر ونصيب كامل ، وكان أحد
مشاهير هذه الطريقة ، وممدوحا بكل الألسن بين الملل ، وأحواله عامرة
بالصدق والاخلاص .

وكان فى بداية أمره عيارا يقطع الطريق بين مرو وباورد (٢) . وكان يميل
كل الميل الى الصلاح ، وفى طبعه همة وفتوة ، بحيث اذا كان فى القافلة
امراة لم يكن يحوم حولها ، ولا يأخذ بضاعة من رجل ذى رأس مال قليل ،
وكان يترك لكل رجل شيئا بنسبة رأس ماله . الى أن جاء وقت خرج فيه
تاجر من مرو فقالوا له : خذ معك حارسا لأن الفضيل على الطريق .
قال : سمعت أنه رجل يخشى الله وذو بصيرة ، فلا خوف . وصحب معه
قارئاً ، وأركبه جملاً لیتلو القرآن ليلاً ونهاراً ، الى أن بلغت القافلة مكاناً
كان الفضيل رحمه الله يكمن فيه . واتفق أن قرأ القارئ قوله تعالى :
« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله (١) » ، فبدت رقعة فى قلبه
رضى الله عنه ، وأظهرت العناية الأزلية سلطان ألفتها لروحه ، فتأب
عن ذلك العمل ، وكتب رسائل الى خصومه سرتهم .

وذهب الى مكة وظل بها مدة ، وأدرك بعض أولياء الله تعالى . ورجع
الى الكوفة واتصل بالامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصحبه مدة ،
وحصل العلوم . وله روايات عالية ومقبولة بين أهل الحديث ، وكلام رفيع
فى حقائق النصوص والمعرفة .

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « من عرف الله حق معرفته عبده بكل
طاقته » . ذلك أن كل من يعرفه يعرفه بالانعام والاحسان والرافة والرحمة ،
فاذا عرفه أحبه ، فاذا أحبه أطاعه قدر طاقته ، لأن اطاعة أوامر الأحبة
لا تكون شاقة ، وكل من يكون أكثر محبة يزداد حرصه على الطاعة . وكثرة
المحبة من حقيقة المعرفة ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :
نهض النبى عليه السلام ذات ليلة من الفراش ، فتصورت أنه ذهب الى

(١) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمى . خرساني من ناحية مرو من قرية
يقال لها « قندين » . ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد . مات سنة سبع وثمانين ومائة .
ورد عنه أنه قال : لا ينبغي لحامل القرآن أن يكون له الى الخلق حاجة لا الى
الخلفاء فمن دونهم ، ينبغي أن تكون حوائج الخلق كلهم اليه . (انظر ترجمته
فى طبقات الصوفية ص ٦ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٥٧ ، وفيات الاعيان ج ١
ص ٤١٥ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٥٤ ، تذكرة الاولياء ج ١ ص ٧٤ ، نفحات
الانس ص ٣٧) .

(٢) « باورد » بفتح الواو وسكون الراء : وهى أبيورد : بلد بخراسان بين سرخس
ونس (معجم البلدان ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) سورة « الحديد » آية ١٦ .

حجرة أخرى فنهضت ، وكنت أسير على اثره حتى وجدته في المسجد واقفا في الصلاة ، وكان يبكي ، الى أن أذن بلال لصلاة الفجر وهو في الصلاة ، فلما أدى صلاة الفجر ورجع الى الحجرة رأيت كلا قدميه متورمتين وأطراف أصابعها مشققة ، وكان يسيل منها سائل أصفر ، فبكيت وقلت : يا رسول الله ! لقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فلماذا تشق على نفسك كثيرا ، دع هذا لشخص غير مأمون العقوبة ! قال : يا عائشة ! هذا كله من فضل الله ومنته ولطفه ونعمته جل جلاله ، أفلا أكون عبدا شكورا (١) ؟

وقد قبل صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج خمسين صلاة ولم يستثقلها ورجع الى الله بكلام موسى ، وعاد بخمس صلوات ، وذلك لأنه لم يكن في طبعه شيء مخالف للأمر قط ، لأن المحبة الموافقة .

ويروى عنه رضى الله عنه أنه قال : « الدنيا دار المرضى والناس فيها مجانين ، وللمجانين في دار المرضى الغل والقيد » . وغلنا هوى نفوسنا ، وقيدنا معصيتنا .

روى الفضل بن الربيع (٢) ، رحمه الله ، قال : ذهبت الى مكة مع هارون الرشيد (٣) ، فلما حججنا قال لى هارون : أهنا رجل من رجال الله فنزوره ؟

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة ، والشيخان عن عائشة : « حتى تنفطر قدماه » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٠١) .

(٢) أبو العباس الفضل بن الربيع بن يونس : حاجب الرشيد ، ووزير الأمين . سعى بانبرامكة وتمكن بالمجالسة من الرشيد فأوغر قلبه عليهم . وزر للرشيد بعد البرامكة ومات الرشيد والفضل مستمر على وزارته . كان في صحبة الرشيد عند وفاته فقرر الأمور للأمين ، ولم يعرج على المأمون وهو بخراسان . خاف من المأمون ان انتهت الخلافة اليه ، فزين للأمين أن يخلع المأمون من ولاية العهد ويجعلها لابنه موسى ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الى أن سير المأمون جيشا من خراسان مقدمه طاهر ابن الحسين ووزيره الفضل بن سهل ، وأخرج الأمين جيشا من بغداد بإشارة وزيره الفضل بن الربيع مقدمه على بن عيسى بن ماهان ، فالتقى الجيشان وقتل على بن عيسى ، ولما اضطربت أحوال الأمين وقويت شوكة المأمون ، استتر الفضل ابن الربيع ثم ظهر لما ادعى ابراهيم المهدي الخلافة ببغداد واتصل به ابن الربيع ، فلما اختل حال ابراهيم استتر ابن الربيع ثانيا ، ولم يزل بطالا الى أن مات . توفي سنة ثمان ومائتين . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٥٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٥ ، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤١٢) .

(٣) الخليفة العباسى هارون الرشيد بن محمد المهدي . تولى الخلافة يوم أن توفي أخوه موسى سنة ١٧٠ هـ . وكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة . ولما أفضت اليه الخلافة دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ! أنت أجلسنى في هذا المجلس ببركتك وبمنك ، وقد قلدتك الأمر . ودفع خاتمه اليه . بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥ هـ . وكان الغالب على الرشيد — صدرا من خلافته — يحيى بن خالد بن برمك وابناه جعفر والفضل ، ثم بطش بهم فقتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومثل بجثته ، واعتقل أباه وأخوته وصادر أملاكهم . ونكل بالعلويين . توفي سنة ١٩٣ هـ في طوس في قرية يقال لها « سناباد » (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٣٩ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها) .

فقلت : نعم ؟ هنا عبد الرزاق الصنعاني (١) . قال : خذني اليه . فلما ذهبنا اليه وتحدثنا برهة ، أشار الى هارون أن أسأله أعليه دين ؟ فسألته ، فقال : نعم ! فأمر فقصوا دينه . وخرجنا من هناك وقال — هارون — يا فضل ! ان قلبى ما يزال يتطلب رجلاً أكبر من هذا . فقلت : هنا سفيان بن عيينة (٢) ، قال : امض لنذهب اليه . ولما دخلنا وتحدث معه برهة وأردنا العودة ، أشار الى ثانية أن أسأله ، فقال : نعم ، على دين ، فأمر فقصوا دينه . وخرجنا من هنالك فقال : يا فضل ! لم يحصل مقصودى بعد . فتذكرت أن الفضيل بن عياض رحمة الله عليه ورضي الله عنه موجود ، فصحبته اليه . وكان يقيم في غرفة يتلو القرآن . وطرقنا الباب ، فقال : من ؟ قلت : أمير المؤمنين . فقال رضى الله عنه : « مالى ولأمر المؤمنين » . قلت : سبحان الله ، ألم يرو عن النبى عليه السلام أنه قال : « ليس للعبد أن يذل نفسه في طاعة الله ، فقال : بلى ، أما الرضا فعز دائم عند أهله » . وعندئذ نزل وفتح الباب ، وأطفا المصباح ، ووقف في ركن ، فكان هارون يبحث عنه حتى وقعت يده عليه ، فقال : آه من يد لم أر أنعم منها اذا نجت من عذاب الله . فغلب هارون البكاء وظل يبكى حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال له : عظمى ! قال : يا أمير المؤمنين ! قد كان أبوك عم المصطفى صلوات الله عليه فطلب اليه أن : اجعلنى أميرا على قوم ، « قال : يا عم ، بك نفسك » . يعنى : « لأن تكون لحظة في طاعة الله ، خير من طاعة الخلق لك ألف عام ، « لأن الامارة يوم القيامة الندامة » .

قال هارون : زد في عظتى ؟ قال : لما نصب عمر بن عبد العزيز (٣) للخلافة،

(١) « عبد الرزاق الصنعاني » : أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميرى الصنعاني البيمى : من رواة البخارى ، ولد سنة ١٢٠ هـ — ٧٣٧ م ، وتوفى سنة ٢١١ هـ — ٨٢٦ م . من مؤلفاته : تزكية الارواح ، تفسير القرآن ، الجامع الكبير ، كتاب السنن في الفقه ، كتاب المغازى . قال فيه مؤلف « قاموس الاعلام » : كان من مشاهير العلماء والمحدثين .. وكان الناس يقصدونه من كل فج عميق لغزارة علمه ، وكان يروى عنه المشاهير مثل سفيان بن عيينة وأحمد بن حنبل .

ومما هو جدير بالذكر أن أبا بكر الصنعاني من الشيوخ الذين ألصق بهم البعض قصة « شيخ صنعان » التى وردت في الرسالة الفارسية « تحفة الملوك » المنسوبة الى الامام الغزالي ، وفي المنظومة الرمزية « منطق الطير » للشاعر الصوفي الفارسي « فريد الدين العطار » . (أنظر : « بحث في حقيقة شيخ صنعان » أحمد ناجى القيسى : بغداد ١٣٨٤ هـ — ١٦٥ م) .

(٢) سفيان بن عيينة بن أبى عمران الهلالي . أحد أئمة الاسلام . قال الشافعى عنه : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز . مات سنة ثمان وتسعين ومائة . (« خلاصة تذهيب الكمال » ص ١٢٤) .

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . الخليفة الاموى الزاهد العابد العادل : استخلف في صفر سنة تسع وتسعين ، وتوفى بدبر سمعان من أعمال حمص في رجب سنة احدى ومائة . وكانت خلافته ثلاثين شهرا . وقبره في هذا الموضع لم يتعرض لنهبه كقبور غيره من بنى أمية . كان في نهاية النesk والتواضع ، ترك لعن على عليه السلام على المناير وجعل مكانه : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها) .

استدعى سالما بن عبد الله ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن كعب القرظي (١) .
رحمهم الله وقال : لقد ابتليت بهذه البلية ، فما تدبيري ؟ فأنى أرى هذا بلاء
مهما يظنه الناس نعمة . فقال واحد منهم : اذا أردت أن يكون لك الفوز
والنجاة غداة القيامة فاعتبر شيوخ المسلمين كأبيك ، وشبابهم كأخوتك ،
وأطفالهم كأبنائك ، وحينئذ عاملهم كما تعامل أباك وأخاك وولدك في دارك ،
لأن جميع ديار الاسلام بيتك ، وأهلها عيالك : « فزر أباك ، وأكرم أخاك ،
وأحسن الى والدك » .

ثم قال الفضيل : يا أمير المؤمنين ، انى أخشى على وجهك الجميل أن
يبتلى بنار جهنم ، فآخس الله تعالى ، وأدحقه خيرا من هذا .

وقال له هارون بعد ذلك : أعليك دين ؟ قال : نعم ، دين الله على وهو
طاعته ، فاذا قضيته نجيتنى من الويل . فقال : يا فضل ، اتكلم عن دينك
للخلق . فقال : الحمد والثناء والشكر لله جل جلاله ، اذ لدى منه نعم
كثيرة ، وليس لى منه أى شكوى حتى أشكوه الى عباده . وعندئذ وضع
هارون أمامه صرة ذهب بها ألف دينار وقال له : اصرف هذا فى وجه من
الوجوه . فقال الفضيل : يا أمير المؤمنين ! ان عطائى هذه لم تفدك قط ،
ومن هنا أخذت فى الجور وبدأت الظلم . قال : أى ظلم فعلت ؟ قال الفضيل :
أنا أدعوك الى النجاة وأنت توقعنى فى الهلاك ، أفلا يكون هذا ظلما ؟ فبكى
هارون ، وخرج من عنده وقال : يا فضل بن الربيع ! ان الملك حقا هو
الفضيل .

وهذا كله دليل صولته فى الدنيا وأهلها ، وحقارة زينتها فى قلبه ، وتركه
التواضع لأهل الدنيا من أجل الدنيا .

وله مناقب أكثر من أن يستوعبها الفهم .

● ومنهم سفينة التحقيق والكرامة ، وخزانة الشرف فى الولاية :
« أبو الفيض ذو النون بن ابراهيم المصرى (٢) » رضى الله عنه ، كان صبيا
نوبيا اسمه « ثوبان » ، وكان من أخيار القوم وكبار هذه الطريقة وعياريها ،
سلك طريق البلاء ، وسار فى طريق الملامة .

وكان أهل مصر جميعا متحيرين فى شأنه ، ومنكرين عليه فى حياته . ولم
يعرف أحد من أهل مصر جمال حاله الى وقت وفاته . وفى تلك الليلة التى

(١) سالم بن عبد الله ورجاء بن حيوة ومحمد بن كعب القرظي : من الفقهاء فى أيام
عمر بن عبد العزيز . (تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٥١) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

فارق فيها الدنيا ، رأى سبعون رجلا النبی علیه السلام فی النوم یقول :
ان حبیب الله ذا النون یزعم المجيء وقد جئت لاستقباله . وحين مات ظهر
مكتوبا علی جبینہ : « هذا حبیب الله ، مات فی حب الله ،
قتیل الله » . فلما حملوا جنازته ، تجمعت طيور السماء وظللت
جنازته ، فتحير أهل مصر جميعا ، وتابوا عما كانوا قد ارتكبوه معه من
جفاء .

وله طرف كثيرة وكلمات طيبة فی حقائق العلوم ، كقوله : « العارف كل
یوم أخشع ، لأنه فی كل ساعة أقرب (١) » .

ومن یكن الأقرب تكن حیرته أكثر لا محالة ، وخشوعة أوفر ، لأنه صار
علیما بهیئة الحق وسلطانہ ، فقد استولى جلال الحق علی قلبه فلا یرى
نفسه بعيدا عنه وعن وصله ، فیزداد خشوعا علی خشوع ، كما قال موسى فی
حال مکالمته : « یا رب ! أين أطلبك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم » ، والیائسين
من صلاحهم . قال : یا الهی تعالیت ، لا قلب أكثر یأسا وانكسارا من قلبی !!
فقال : فأنا حیث أنت .

فمدعی المعرفة بلا وجل وخشوع جاهل لا عارف . وحقیقة المعرفة
علامة علی صدق الارادة ، والارادة الصادقة صارمة للأسباب ، وقاطعة
للعبد عما سوى الله عز وجل ، كقول ذی النون رضی الله عنه : « الصدق
سیف الله فی أرضه ، ما وضع علی شیء الا قطعه (٢) » ، والصدق رؤية
المسبب لا اثبات السبب ، فاذا ثبت السبب انتقی حکم الصدق وسقط .

وقرأت فی الحکایات أن (ذا النون) كان ذات یوم راكبا سفينة مع
أصحابه للنزهة فی النیل ، كعادته أهل مصر ، وكانت سفينة أخرى قادمة
وبها جماعة من أهل الطرب یعبثون ، فكبر ذلك علی تلاميذه ، فقالوا : أيها
الشیخ ! ادع لیغرق الله هؤلاء جميعا ، وينقطع عن الخلق شؤونهم . فنهض
ذو النون رحمه الله ورفع یدیه وقال : یا الهی جل جلالك ! كما حبوت
هؤلاء فی الدنيا عیشا طیبا ، امنحهم فی الآخرة أيضا طیب العیش ! فتعجب
المريدون من قوله . ولما اقتربت السفينة ووقعت أعین ركبها علی ذی
النون ، بكوا ، وحطموا أعوادهم ، وتابوا وأنابوا الی الله . فقال رحمه الله
لتلاميذه : ان طیب عیش الآخرة توبة الدنيا ، أما رأیتم أن المراد كله قد
حصل ؟ وبلغتم أنتم وإياهم مرادكما دون أن یصیب أحدا أذى ؟

(١) ورد بنصه فی طبقات الصوفیة (انظر : ص ٢٦) .

(٢) ورد بنصه فی طبقات الصوفیة (انظر : ص ٢٣) .

وكان ذلك من غاية شفقة الشيخ على المسلمين . وقد اقتدى في هذا بالنبى عليه السلام ، اذ كان كلما زاد الكفار من جفائهم لا يغضب ، وكان يقول : « اللهم أهد قومي فانهم لا يعلمون » .

ويرد عنه أنه قال :كنت قادما من بيت المقدس(١) قاصدا مصر ، فرأيت في الطريق شيخا مهيبا من بعيد ، فخطر بقلبي أن أسأله سؤالا . فلما اقترب منى ، رأيته عجوزا بيدها عكاز ، وعليها جبة من صوف . فقلت : من أين ؟ قالت : من الله ! قلت : الى أين ؟ قالت : الى الله ! وكان معى دينار فأخرجته لأعطيه لها ، فلوحت بيدها في وجهى وقالت : ياذا النون ! ان الصورة التى تصورتها عنى من ركافة عقلك . اننى أعمل لله ، ولا آخذ شيئا من سواه ! وكما أنى لا أعبد غيره ، فانى لا آخذ (شيئا) من غيره .

وفى هذه الحكاية رمز لطيف ، اذ قالت العجوز : أنا أعمل لله ، فهذا دليل صدق المحبة ، لأن الخلق فى المعاملة نوعان :

فريق يعملون ويخالون أنهم يعملون من أجل الله ، وهم فى الحقيقة يعملون من أجل أنفسهم ، ومهما يكن أربهم منقطعا دنيويا ، فانهم — على كل حال — يرجون ثواب الآخرة .

والفريق الآخر ، انقطعت عن معاملاتهم ارادة الثواب (وخشية) العقاب فى الآخرة ، والرياء والسمة فى الدنيا . وكل ما يعملونه انما يعملونه من أجل تعظيم أمر الحق جل جلاله . ومحبة الحق تعالى تقتضيهم ترك نصيبهم ، فى طاعته . ويخيل لهؤلاء — وهم لا يدرون — أن كل ما يعملونه من أجل الآخرة هو أيضا لهم ، ولا يعرفون أن نصيب المطيع فى الطاعة أكثر من راحة العاصى فى المعصية ، لأن راحة العاصى فى المعصية ساعة ، وراحة المطيع فى الطاعة دائمة .

وأى فائدة لله تعالى وتقديس من مجاهدة الخلق ، وأى ضرر عليه فى تركها ؟ ولو عمل كل الخلق بصدق أبى بكر ، فمرد ذلك اليهم . وان عملوا

(١) « بيت المقدس » أو « القدس » : مدينة على فضاء وسط الجبال ، والمسجد الأقصى فى طرفها الشرقى نحو القبلة . يقدسها المسلمون والنصارى واليهود ، فاليها كان مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالقرب منها ولد المسيح ، وفيها بكى اليهود . فتحت صلحا فى عهد عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٥٩٠ — ٦٠٢) وقيل فتحت سنة خمس عشرة أو ستة عشرة . ولما دخل عمر ببيت المقدس كشف عن الصحراء وأمر ببناء مسجد عليها (الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٤٠ — ٤٢) .

بكذب فرعون ، فضير ذلك عليهم ، لقوله تعالى : « ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم(١) » : وقوله تعالى : « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه(٢) » .

والخلق انما يطلبون لأنفسهم الملك الأبدى ، ويقولون اننا نعمل من أجل الله . أما سلوك طريق محبته فشيء آخر ، انهم (الأحبة) يراعون في اطاعتهم للأمر حصول أمر الحبيب ولا يتطلعون لشيء آخر . وسوف يرد في هذا الكتاب أمثال هذا القول في باب الاخلاص ، ان شاء الله تعالى .

● ومنهم أمير الأمراء ، وسالك طريق اللقاء :

« أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور(٣) » رضى الله عنه . كان أوحده زمانه ، وسيد أقرانه في عصره ، وملك ملوك الرجال . وكان يريد « الخضر » عليه السلام ، أدرك كثيرا من قدماء الشيوخ ، واختلط بالامام الأعظم أبي حنيفة رضى الله عنه ، وتعلم منه العلم .

وكان في بداية أمره . أمير بلخ(٤) ، فلما أراد الحق تعالى أن يكون سلطان عالم ، خرج يوما للصيد ، وانفصل عن عسكره ، وركض خلف غزال ، فأنطقه الله عز وجل له ، فقال بلسان عربى فصيح : « ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ » . وكان هذا القول دليلا له ، فتأب(٥) وكف يده تماما عن ممالك الدنيا ، وسلك طريق الزهد والورع ، وأدرك الفضيل بن عياض وسفيان الثوري وصحبهما .

(١) سورة « الاسراء » آية ٧ .

(٢) سورة « العنكبوت » آية ٦ .

(٣) سبق الإشارة اليه

(٤) « بلخ » مدينة مشهورة بخراسان ، على الشاطئ الجنوبي لنهر جيحون على رافده دهلس . منها الى فرغانة ثلاثون مرحلة مشرقا ، والى الري ثلاثون مرحلة مغربا ، والى سجستان ثلاثون مرحلة مما يلى القبله ، والى كابل وقندهار ثلاثون مرحلة (أنظر : « البلدان » ص ٥٣) افتتح بلخ الاحد فبن قيس من قبل عبد الله بن عامر في زمن عثمان (معجم البلدان ج ١ ص ٧١٣) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية أن أبا عبد الله السنجاري قال له : يا أبا اسحاق ! خبرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ قال : كان أبى من ملوك خراسان ، وكنت شابا فركبت الى الصيد ، فخرجت يوما على دابة لى ومعى كلب ، فأثرت أرنباً أو ثعلباً ، فبينما أنا أطلبه اذ هتف بى هاتف لا أراه فقال : يا ابراهيم ، ألهذا خلقت أم بهذا أمرت . ففزعت ووقفت . ثم عدت فركضت ثانية ، ففعل بى مثل ذلك ثلاث مرات . ثم هتف بى هاتف من قربوس السرج : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أصرت . قال : فصادفت راعيا لأبى يرعى الغنم فأخذت جبته الصوف فلبستها ، ودفعت اليه الفرس وما كان معى ، وتوجهت الى مكة . فبينما أنا فى البادية اذا برجل يسير . ليس معه اذاء ولا زاد . فلما أسمى وصلى المغرب حرك شفتيه بكلام لم أفهمه ، فاذا أنا بآناء فيه طعام وآناء فيه شراب ، فأكلت وشربت . وكنت معه على هذا أياما . وعلمنى اسم الله الأعظم ثم غاب عنى وبقيت وحدى . فبينما أنا ذات يوم مستوحش من الوحدة ، دعوت الله به فاذا أنا بشخص آخذ بحجزتى وقال : سل تعط . فراعنى قوله ، فقال : لا روع عليك ولا بأس عليك . أنا أخوك الخضر (أنظر : طبقات الصوفية ص ٢٩) .

ولم يأكل طيلة عمره الا من كسب يده . وله معاملات ظاهرة وكرامات مشهورة ، وفي حقائق التصوف كلمات بديعة ولطائف نفيسة . قال عنه الجنيد رحمة الله : « مفاتيح العلوم ابراهيم » .

ويروى عنه أنه قال : « اتخذ الله صاحبا وذر الناس جانبا(١) » .

والمراد من هذا القول أنه حين يصح اقبال العبد على الحق تعالى ، ويخلص في توليه ، فان صحة اقباله على الحق تقتضى الاعراض عن الخلق ، لأنه لاشأن قط لصحبة الخلق مع حديث الحق . وصحبة الحق هي الاخلاص في انفاذ أمره ، والاخلاص في طاعته من خلوص محبته ، وخلوص مخبة الحق يتأتى من معاداة النفس والهوى ، لأن كل من يعرف الهوى ينفصل عن الله عز وجل ، وكل من ينقطع عن الهوى يسكن الى الله . فأنت في الحق ، كل الخلق ، فاذا أعرضت عن نفسك فقد أعرضت عن الجميع . ومن يعرض عن الخلق ويقبل على نفسه فانه يكون كما لو أن الخلق جميعا على صواب فيما هم فيه بحكم التقدير ، وقد صار لك معك شأن .

وبناء استقامة الظاهر والباطن للطالب في شيئين : أحدهما ، ما ينبغى معرفته ، والآخر : ما ينبغى عمله .

وما ينبغى معرفته : هو رؤية تقدير الحق من خير أو شر ، لأنه في كل الملك لا يسكن أى متحرك ولا يتحرك أى ساكن الا بالحركة التى يخلقها الله تعالى فيه ، والسكون الذى يضعه الله تعالى فيه .

وما ينبغى عمله : هو انفاذ الأمر ، وصحة المعاملة وحفظ التكليف ، فلا يصير تقديره بأى حال حجة لترك أمره .

والاعراض عن الخلق لا يستقيم ما لم تعرض عن نفسك ، واذا أعرضت عن نفسك فانه يلزم كل الخلق لحصول مراد الحق ، واذا أقبلت على الحق تعالى فأنت تلزم لاقامة أمره . اذن ، فلا وجه للركون الى الخلق .

وان أردت أن تركز الى شىء بدون الحق ، فاركن الى الغير(٢) ، لأن الركون الى الغير رؤية للتوحيد ، والركون الى النفس اثبات للتعطيل ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ٣٧) .

(٢) أى : الى غير نفسك .

ولهذا السبب كان شيخ الشيوخ أبو الحسن بن سالبة (١) رحمه الله يقول :
«لأن يكون المريد في حكم هرة خير من أن يكون في حكم نفسه ، لأن صحبة
الغير تكون من أجل الله ، وصحبة النفس تكون من أجل تربية الهوى .
وسيتأتى الكلام في هذا المعنى في موضعه من هذا الكتاب ان شاء الله
تعالى .

وقرأت في الحكايات أن ابراهيم بن أدهم قال : لما وصلت البادية ، أقبل
شيخ وقال لى : يا ابراهيم ! أتعرف أى مكان هذا حتى تسير بغير زاد
ولا راحلة ؟ .

قال : فعرفت انه الشيطان . وكان معى أربعة دوانق ، كنت قد بعثت
بها زنبيلًا فى الكوفة ، فأخرجتها من جيبى وقذفت بها ، ونذرت أن أصلى
بكل ميل أربعمئة ركعة . وبقيت فى البادية أربعة أعوام ، وكان الحق تعالى
يبعث الى بالرزق عند الحاجة ، دون عناء . واتفق لى فى ذلك الوقت
صحبة الخضر عليه السلام ، وعلمنى اسم الله الأعظم ، وعندئذ فرغ
قلبى كلية من الغير .

وله مناقب كثيرة ، وبالله التوفيق .

● **ومنهم سرير المعرفة ، وتاج أهل المعاملة : « بشر بن الحارث الحافى (٢) »**
رضى الله عنه ، كان ذا شأن كبير فى المجاهدة ، وحظ واف فى المعاملة ،
أدرك صحبة الفضيل بن عياض ، وكان مريدا لخاله على بن خثرم (٣) ،
وعالما بعلم الأصول والفروع .

وكانت بداية حاله أنه كان يسير ذات يوم ثملا فى الطريق فوجد قطعة
ورق فتناولها بتعظيم ، ورأى مكتوبا عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم (٤) » ،
فعطرها ووضعها فى مكان طاهر . ورأى الله تعالى فى تلك الليلة فى النوم
يقول له : يا بشر ! طيبت اسمى ، فبعزتى لأطيبين اسمك فى الدنيا والآخرة ،
فلا يسمع أحد باسمك الا وتسرى فى روحه راحة . وعندئذ تاب وسلك
طريق الزهد .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) عبد الرحمن بن على بن خثرم بن هلال بن ماهان بن عبد الله . وكان عبد الله
يسمى « يعفور » فأسلم على يد على بن أبى طالب فسماه عبد الله . وبشر ابن
الحارث وعبد الرحمن فى القرابة متساويان ، وكان الحارث وخثرم أخوين من أب
وأم . (أنظر : طبقات الصوفية ص ٣٩ حاشية ١) . وورد فى الرسالة أنه ابن
أخت على بن خثرم (أنظر : الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٨) .

(٤) سورة « الفاتحة » آية ١ .

ولم يكن — من شدة الغلبة في مشاهدة الحق — ينتعل شيئا قط ،
فسئل عن علة ذلك فقال : الأرض بساطة ، وأنا لا أجز أن أدوس بساطه
وبين قدمي والأرض واسطة . وهذا من غرائب معاملاته ، اذ غدا النعل
حجابا له في جميع همته بالحق ! .

ويرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون عزيزا في الدنيا ، شريفا في الآخرة ،
فليجتنب ثلاثا : لا يسأل أحدا حاجة ، ولا يذكر أحدا بسوء ، ولا يجيب
أحدا الى طعامه » .

أما كل من يعرف الطريق الى الله تعالى فلا يطلب من الخلق حاجة ،
اذ أن الحاجة الى الخلق دليل عدم المعرفة ، لأنه لو كان عارفا بقاضى
الحاجات لما طلب حاجة من (مخلوق) مثله : « استعانة المخلوك بالمخلوق .
كاستعانة المسجون بالمسجون » (١) .

وأما كل من يسئ القول الى أحد ، فهذا تصرف في حكم الله تعالى ،
لأن ذلك الشخص وفعله من خلق الله عز وجل ، فعلى من ترده ؟ ومن يعيب
الفعل يكن قد عاب الفاعل ، (وذلك) بخلاف ما أمر به (الله) من ذم الكفار
موافقة له .

وأما قوله : تعففوا عن طعام الخلق ، فذلك لأن الرازق هو الله جل
جلاله ، فاذا جعل مخلوقا سبب رزقك ، فلا تنظره ، وأعلم أن ذلك رزقك
الذى أوصله الله تعالى اليك ، وليس ملكا له . واذا خال أنه له ، وامتن
إيه عليك ، فلا تجبه ، اذ ليس لأحد على أحد منة في الرزق ، لأن الرزق
عند أهل السنة والجماعة غذاء ، وعند المعتزلة ملك ، والله هو الذى يمد
الخلق بالأغذية لا المخلوق . ولجاز هذا القول معنى آخر ، والله أعلم .

● ومنهم فلك المعرفة ، وملك المحبة :

« أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (٢) » رضى الله عنه ، كان من جلة
المشايخ وأكبرهم حالا وأعظمهم شأنا ، الى حد أن قال الجنيد رحمه الله :
« أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة » .

(١) ورد في الأصل : استعانة المخلوق الى المخلوق كاستعانة المسجون الى المسجون .
ورد في طبقات الصوفية كما أثبتته وهو الأصح . (أنظر طبقات الصوفية ص ١٢٦) .
سبق الإشارة اليه
(٢) سبق الإشارة اليه .

وكان جده مجوسيا ، وأبوه أحد عظماء بسطام(١) ، وله في أحاديث النبي عليه السلام روايات عالية .

كان أحد الأئمة العشرة المعروفين ، ولم يكن لأحد قبله في حقائق هذا العلم كل تلك الاستنباطات التي له . وكان في كل الأحوال محبا للعلم ومعظما للشريعة برغم ما يقال من أن فريقا يرمونه بالاحاد .

وكان وقته في البداية مبينا على المجاهدة وممارسة المعاملة . ويرد عنه انه قال : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشد على من العلم ومتابعته . ولولا اختلاف العلماء لبقيت ، واختلاف العلماء رحمة الا في تجريد التوحيد(٢) » .

والحقيقة أن الطبع أميل الى الجهل منه الى العلم ، ويمكن عمل الكثير بالجهل دون مشقة ، ولا يمكن الخطوة واحدة بالعلم دون عناء ، وصراط الشريعة أدق وأخطر كثيرا من صراط الآخرة . فيجب عليك أن تكون في كل الأحوال بحيث اذا تخلفت عن الأحوال الرفيعة والمقامات الخطيرة وسقطت ، أن تسقط في ميدان الشريعة . واذا زايك كل شيء يجب أن تبقى معك المعاملة ، لأن أعظم الآفات للمريد ترك المعاملة . وكل دعاوى المدعين تتلاشى في ممارسة الشريعة ، ويتعري أمامها كل أرباب اللسان .

ويرد عنه رحمه الله أنه قال : « الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة ، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم(٣) » .

أى أن الجنة ، وان تكن كبيرة ، مخلوقة . ومحبته : صفته ، وليست مخلوقة ، وكل ما يبقى للمخلوق مما هو مخلوق ، لاخطر له . والأحباب محجوبون بالمحبة ، ذلك أن وجود المحبة يقتضى الثنائية ، والثنائية لا تتأتى في أصل التوحيد ، وطريق الأحباب من وحدانية الى وحدانية .

وفي طريق المحبة تتأتى علة المحبة ، وآفة ذلك أنه يلزم في المحبة مريد ومراد ، فأما أن يكون المريد الحق والعبد المراد ، وأما أن يكون المراد الحق والعبد المريد . فاذا كان المريد الحق والمراد العبد ، فان وجود العبد

(١) « بسطام » بكسر الياء ثم السكون : بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق الى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين . فتحت مع الرى وقومس على يد نعيم بن مقرن في عهد عمر بن الخطاب سنة تسع عشرة أو ثمانى عشرة (معجم البلدان ج ١ ص ٦٢٣) .

(٢)(٣) وردا بنصهما في طبقات الصوفية . (أنظر ص ٧٠) .

يثبت في مراد الحق . واذا كان المرید العبد والمراد الحق فلا سبيل لطلب
وارادة المخلوق اليه . ويبقى هنا في كلا الحالين ، آفة وجود المحب .

اذن ففناء المحب في بقاء المحبة أصح وأتم من قيامه ببقاء المحبة .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : صرت مرة الى مكة ، فرأيت البيت
مفردا ، فقلت : حجبى غير مقبول ، لأننى رأيت أحجارا كثيرة من هذا الجنس .
وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد
بعد . وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ، ولا بيت . فنوديت في
سرى أن : يا أبا يزيد ! اذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركا .
واذا لم تر العالم كله ورأيت نفسك كنت مشركا . وعندئذ تبت ، وتبت أيضا
عن رؤية وجودى .

وهذه حكاية لطيفة في صحة حاله ، وعلامة طيبة لأرباب الأحوال ،
والله أعلم .

● ومنهم أئام الفنون وجاسوس الظنون :

« أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى (١) » رضى الله عنه . كان عالما
بالأصول والفروع ، وكان جميع أهل العلم في زمانه يتولونه ويقتدون به . وقد
عمل كتابا في أصول التصوف اسمه « الرعاية (٢) » . وله تصانيف أخرى
كثيرة غيره .

وكان في كل فن على الحال عظيم الهمة ، وكان شيخ مشايخ بغداد
في وقته .

يروى عنه أنه قال : « العلم بحركات القلوب في مطالعة الغيوب ، أشرف
من العمل بحركات الجوارح » .

والمراد بهذا أن العلم محل الكمال ، والجهل محل الطلب . والعلم في
الرواق أفضل من الجهل في البلاط ، لأن العلم يبلغ بالرجل درجة الكمال ،
والجهل لا يتخطى به الاعتبار .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) ذكره السلمى باسم : « الرعاية لحقوق الله » (أنظر طبقات الصوفية ص٥٦) .
وذكر باسم : « الرعاية في التصوف » في كشف الظنون ج ١ عامود ٩٠٨ ، هدية
العارفين ج ١ عامود ٢٦٤ . وقد نشر كتاب الرعاية لحقوق الله في سلسلة جب
التذكارية سنة ١٩٤٠ .

ومما هو جدير بالذكر أن هناك كتابا باسم : « الرعاية بحقوق الله » أشار اليه
الهجویری ونسبه الى محمد بن خضرويه (أنظر : كشف المحجوب ص ٤٣٩) :

والعلم — فى الحقيقة — أعظم من العمل ، لأنه يمكن معرفة الله تعالى بالعلم ، ولا يمكن ادراكه بالعمل . ولو كان للعمل بغير العلم طريق اليه ، لكان النصارى والرهبان فى شدة اجتهادهم : فى المشاهدة ، ولكان عصاة المسلمين : فى المغايبة .

اذن ، فالعمل صفة العبد ، والعلم صفة الله تعالى .

وقد أخطأ بعض رواة هذا القول ، وهم يروون كلا — الكلمتين (أى العلم والعمل) : « العمل » ويقولون — ان المحاسبى يقول — « العمل بحركات القلوب أشرف من العمل بحركات الجوارح(١) » وهذا محال ، لأن عمل العبد لا يتعلق بحركات القلب . واذا كانوا يريدون بهذا ، فكرة ومراقبة أحوال الباطن ، فهذا ذاته ليس غريبا ، لأن الرسول عليه السلام قال : « تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » .

وفى الحقيقة : أعمال السر أفضل من أعمال الجوارح ، وتأثير أعمال الباطن أتم من تأثير أعمال الظاهر ، ولذلك قيل : « نوم العالم عبادة ، وسهر الجاهل معصية » لأن سر (العالم) مغلوب فى النوم واليقظة ، وعندما يغلب السر ، يغلب الجسد أيضا ، فالسر المغلوب بغلبة الحق أفضل من النفس الغالبة بحركات الظاهر والمجاهدة .

ويرد عنه رحمة الله أنه قال يوما لدرويش : « كن لله والا فلا تكن » يعنى : أبق بالحق ، أو افن عن وجودك .

أى : كن مجتمعا بالصفوة أو مفترقا بالفقر ، وابق بالحق أو افن عن نفسك . أو : كن على تلك الصفة حيث يقول الحق تعالى : « اسجدوا لآدم(٢) » ، أو على تلك الصفة حيث يقول : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا(٣) » ، فإذا كنت لنفسك باختيارك فقيامك بنفسك ، وان لم تكن باختيارك فقيامك بالحق . وهذا المعنى لطيف والله أعلم بالصواب .

● ومنهم الامام المعرض عن الخلق وطلب الرياسة ، والمنقطع عن الخلق بالعلزلة والقناعة : (أبو سليمان داود بن نصير الطائى(٤)) « رضى الله

(١) ورد على هذا النحو فى طبقات الصوفية : أنظر ص ٥٩ .

(٢) سورة « البقرة » آية ٣٤ ، سورة « الأعراف » آية ١١ ، سورة « الكهف » آية ٥٠ ، سورة « طه » آية ١١٦ .

(٣) سورة « الإنسان » آية ١ .

(٤) سبق الإشارة اليه .

عنه . كان من كبار المشايخ وسادات أهل التصوف ، منقطع النظر في زمانه . ونلميذ الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، ومن أقران الفضيل وابراهيم بن أدهم وغيرهما ، ومريد حبيب الراعى رضى الله عنه .

وكان فى كل العلوم ذا حظ وافر ، وفى درجة عليا . وفى الفقه فقيه الفقهاء . اختار العزلة ، وأعرض عن طريق الرياسة والدنيا ، وسلك طريق الزهد والتقوى ، وله مناقب كثيرة ، وفضائل مذكورة ، فقد كان عالما فى المعاملات ، وكاملا فى الحقائق .

يرد عنه أنه قال لمريد من مريديه : « ان أردت السلامة سلم على الدنيا ، وان أردت الكرامة كبر على الآخرة » .

أى أن هذين المحلين حجاب ، وكل الفراغ منوط بهما ، فكل من يريد أن يفرغ بالجسد ، قل له : أعرض عن الدنيا ، وكل من يريد أن يفرغ بالقلب قل له : انزع من قلبك ارادة العقبى .

ومشهور فى الحكايات أنه كان يخالط محمد بن الحسن ، ويقصى عنه أبا يوسف ، فقل له : كلاهما عظيم فى العلم ، فلماذا تغز أحدهما وتقصى عنك الآخر ؟ قال : لأن محمد بن الحسن أقبل على العلم وهو صاحب دنيا ونعم كثيرة ، وصير العلم سبب عز دينه وذل دنياه ، وأبا يوسف أقبل على العلم من الذل والفقر ، وصير العز سبب جاهه وجماله وعزه ، فمحمد ليس مثله .

ويروى عن معروف الكرخى رحمه الله أنه قال : لم أر أحدا كانت الدنيا أهون فى عينيه مما كانت فى عين داود الطائى ، فلم تكن الدنيا وأهلها جميعا لديه بمقدار جناح بعوضة ، وكان ينظر الى الفقراء بعين الاحترام وان كانوا ملأى بالآفات . وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

❦ ومنهم شيخ أهل الحقائق ، والمنقطع عن جملة العلائق :

« أبو الحسن سرى بن المفلس السقطى (١) » رحمه الله . كان خال الجنيد ، وعالما بجملة العلوم ، وذا شأن عظيم فى التصوف .

(١) قال عنه السلمى : انه أول من نكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، وكان امام البغداديين وشيخهم فى وقته . مات سنة احدى وخمسين ومائتين . (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٤٨ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٤ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٠ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٩ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٧٤ ، نفحات الانس ص ٥٣) .

وكان رحمه الله أول من خاض في ترتيب المقامات وبسط الأحوال ،
وأكثر مشايخ العراق (١) من مريديه . رأى حبيبا الراعى وصحبه ، وكان
مريد معروف الكرخي .

كان يتجر في سوق بغداد ، وعندما احترق السوق قالوا له : احترق
دكانك . فقال : فرغت من قيده . ولما نظروا ، لم يكن دكانه قد احترق
واحترقت كل الدكاكين من جهاته الأربع ! فلما رأى ذلك ، وهب الفقراء
كل ما يملك ، واختار طريق التصوف .

سئل : كيف كانت بداية حالك ؟ قال : مر حبيب الراعى بدكاني ذات
يوم ، فأعطيته كسرة قائلا : أعطها للفقراء ؟ فقال لى : خيرك الله ! ومنذ
ذلك اليوم الذى سمعت فيه دعاءه هذا ، زایلنى الفلاح الدنيوى .

ويرد عنه أنه قال : « اللهم مهما عذبتنى بشيء فلا تعذبنى بذل
الحجاب (٢) » ، لأنه حين لا أكون محجوبا عنك ، يسهل على بذكرك
ومشاهدتك العذاب والبلاء ، ومتى أكون محجوبا عنك يصبح نعيمك الأبدى
هلاكا لى ، بذل حجابك .

ذلك أن البلاء الذى يكون فى مشاهدة المبلى لا يكون بلاء بل يكون نعمة ،
والنعمة فى حجاب المبلى هى البلاء الحقيقى ، لأنه لا يوجد فى الجحيم
بلاء أشد من الحجاب ، ولو كان أهل الجحيم فى الجحيم مكاشفين لله
تعالى ، لما خطرت الجنة لعصاة المؤمنين ، لأن رؤية الحق عز اسمه تمنح
الروح من المسرات ما ينسيها عذاب الجسد ، ويشغلها عن بلاء البدن .
ولا يوجد فى الجنة نعمة أتم من الكشف ، لأنه لو كانت كل تلك النعم ومئات
من أمثالها حاصلة لهم (٣) وهم محجوبون عن الله لتصاعد الهلاك من قلوبهم
وأرواحهم .

اذن ، فسنة الله تعالى أنه يجعل قلوب أحبائه بصيرة به فى جميع الأحوال
حتى تستطيع تحمل جميع المشقات والرياضات والبلايا بشرابه ، ويكون
دعائهم : أن كل ألوان العذاب أحب إلينا من حجابك ، لأنه حين ينكشف
جمالك لقلوبنا ، لا نبالى بألوان العذاب . والله أعلم .

(١) « العراق » : العراق المشهور : بلاد ، والعراقان : الكوفة والبصرة . قال قطرب
أنها سُمى العراق عراقا لأنه دنا من البحر . وقال الخليل : العراق شاطئ البحر
وسمى العراق عراقا لأنه على شاطئ دجلة والفرات (معجم البلدان ج٣ ص ٤٢٨) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية : اللهم ما عذبتنى بشيء (أنظر ص ٥١) .
(٣) أى لأهل الجنة .

● ومنهم قائد أهل البلوى ، وأساس الزهد والتقوى :

«أبو على شقيق بن إبراهيم الأزدي(١)» رضى الله عنه . كان عزيز القوم ومقتداهم ، وعالما بجميع علوم الشرع والمعاملات والحقائق ، وله مؤلفات كثيرة في فنون العلم . صاحب إبراهيم بن أدهم ، ورأى كثيرا من المشايخ وأدرك صحبتهم .

يرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « جعل الله أهل طاعته أحياء في مماتهم وأهل المعاصي أمواتا في حياتهم(٢) » .

أى أن المطيع يكون حيا وإن يكن ميتا ، لأن الملائكة تثنى على طاعته إلى يوم القيامة ، وثوابه مؤبد ، فهو باق في فناء الموت ببقاء الله .

ويرد عنه أن شيخا جاءه وقال : يا شيخ ! ذنوبى كثيرة وأريد أن أتوب ؟ فقال له : تأخرت ! قال : كلا ، بل بكرت ! فقال له كيف ؟ قال : كل من يأتى — للتوبة — قبل الموت وإن يكن جاء متأخرا فهو مبكر .

ويقال : كانت بداية حاله أنه كان قد حدث في سنة من السنين قحط في بلخ ، وكان الناس يأكلون بعضهم ، وكان المسلمون مهمومين ، فرأوا غلاما كان يضحك ويمرح في السوق ، فقال له الناس : لم تضحك ؟ ألا تخجل من أن كل الناس في حزن وأنت تفرح الى هذا الحد ؟ فقال : لا هم لى قط ، فأنا عبد لسيد يملك قرية ، وقد أخلى قلبى من شغلى . فقال شقيق رضى الله عنه : يا الهى تعاليت ! ان هذا الغلام فرح كل هذا الفرح بسيد يملك قرية ، وأنت مالك الملك ، وقد تكفلت بأرزاقنا ، وقد وكلنا بقلوبنا كل هذا الحزن !! وانصرف عن شغل الدنيا ، وسلك طريق الحق ، ولم يهتم برزقه قط . وكان لشدة تواضعه يقول دائما : أنا تلميذ غلام ، وما أدركته أدركته به .

وله مناقب كثيرة ، والله أعلم .

(١) كنيته « أبو على » أو « أبو موسى » . من مشاهير مشايخ خراسان ، من أهل بلخ . له لسان في التوكل ، وقيل انه أول من تكلم في علم الأحوال بكورة خراسان .

يقول الجامى انه توفى سنة أربع وسبعين ومائة في « الختل » وقبره بيا . (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٦١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٧٧ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ١٩٦ ، نفحات الانس ص ٤٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٣) .

(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ٦٦) .

• ومنهم شيخ وقته ، والمجرد لطريق الحق :

« أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني (١) » رضى الله عنه ، كان عزيز القوم ، وريحانة القلوب ، اختص بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة ، وكان عالما بعلم الوقت ، ومعرفة آفات النفس وبصيرا بكمائنها ، وله كلام لطيف في المعاملات وحفظ القلوب ورعاية الجوارح .

ويرد عنه أنه قال : « اذا غلب الرجاء على الخوف ففسد الوقت (٢) » ، لأن الوقت رعاية الحال ، ومادام العبد يرعى الحال لا يستولى الخوف على قلبه ، فاذا زال ذلك ، يصير تارك الرعاية ويفسد وقته ، واذا غلب الخوف على الرجاء يبطل توحيده ، لأن غلبة الخوف من اليأس ، واليأس من الحق شرك . فحفظ التوحيد في صحة رجاء العبد ، وحفظ الوقت في صحة خوفه ، واذا تساويا : يحفظ التوحيد والوقت ، ويكون العبد مؤمنا بحفظ التوحيد ، ومطيعا بحفظ الوقت .

وتعلق الرجاء ينصرف الى المشاهدة التى يكون فيها الاعتقاد جملة ، وتعلق الخوف ينصرف الى المجاهدة التى يكون فيها الاضطراب جملة ، والمشاهدات مواريث المجاهدات .

ومعنى هذا أن كل الآمال تتولد من اليأس : وكل من يقنط من فلاحه بعمله ، يقوده قنوطه الى النجاح والفلاح يكرم الحق تعالى وتقديس ، ويفتح عليه باب الانبساط ، وينجو قلبه من آفات الطبع ، وتنكشف له جميع الأسرار الربانية ، كما يقول أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله : كنت أؤدى الصلاة فى الخلوة ذات ليلة ، وشعرت بكثير من الراحة فى تلك الأثناء ، وفى اليوم التالى حدثت أبا سليمان بذلك ، فقال : أنت رجل ضعيف لأن الخلق لا يزالون أمامك ، فأنت فى الخلاء على حال وفى الملاء على حال آخر . وليس فى الدنيا والآخرة شئ قط له من الخطر ما يمنع العبد عن الحق ، وحين يجلون العروس على الملاء ، فانهم يفعلون ذلك ليراها الخلق ، ويكون لها مزيد من العز بمشاهدة الخلق . ولكن ينبغى أن لا ترى نفسها بغير ذلك القصد ، حتى لا يكون لها من مشاهدة الخلق مذلة . فلو رأى الخلق عز طاعة المطيع فلا ضير عليه ، وانما الضرر يكون فى رؤيته لطاعته ، فان فى ذلك هلاكه . والله أعلم .

(١) عبد الرحمن بن عطية ، ويقال : عبد الرحمن بن أحمد بن عطية . وهو من أهل « داريا » : قرية من قرى دمشق . مات سنة خمس عشر ومائتين . أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٧٥ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٦ ، ونيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٢٩ ، نفحات الانس ص ٣٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٧٦) .

● ومنهم المتعلق بحضرة الرضا ، وربيب على بن موسى الرضا :
« أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي (١) رضى الله عنه ، كان من قدماء
المشايخ وسادتهم ، معروفا بالفتوة ، ومذكورا بالورع والانابة .

وكان ينبغي تقديم ذكره عن هذا الترتيب — ولكنى ذكرته في هذا الموضع
موافقة لشيخين : أحدهما صاحب نقل ، والآخر صاحب تصرف : أولهما
الشيخ المبارك أبو عبد الرحمن السلمى رحمه الله ، الذى كتبه على
هذا الترتيب ، والثانى : الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه
الذى ذكره فى كتابه على هذه الجملة ، فأثبتته فى هذا الموضع — لأنه كان
استاذ السرى السقطى ، ومريد داود الطائى .

يرد عنه أنه قال : « للفتيان ثلاث علامات : وفاء بلا خلاف ، ومدح
بلا جود ، وعطاء بلا سؤال (٢) .

أما الوفاء بلا خلاف ، فهو أن العبد فى العبودية يحرم على نفسه المخالفة
والمعصية .

وأما المدح بلا جود فهو أن يثنى على شخص لم ير منه احسانا .

وأما العطاء بلا سؤال فهو أن لا يميز فى العطاء عند الميسرة ، وعندما
يعرف حال أحد لا يسأله . وهذا كله يكون من الخلق للخلق .

وهذه الصفات الثلاث عارية فى الخلق جميعا ، لأنها صفات الحق جل
وعلا ، وأفعال له مع عباده : لأنه فى الوفاء لا يخالف أحبائه ، فمهما خالفوه
فى وفائهم ، يزدجل جلاله لطفه بهم . وعلامة وفائه أن العبد دعاه فى الأزل
بلا فعل ، وهو لا يصدده عنه اليوم بمعصيته .

والمدح بلا جود لا يفعله غيره ، لأنه جل جلاله فى غير حاجة الى فعل
العبد ، ويثنى على العبد على قليل من الفعل . له الحمد فى الآخرة
والأولى .

(١) معروف بن فيروز ، ويقال معروف بن على . كان بعد اسلامه يحجب لعل ابن
موسى الرضا ، فازدحم الشيعة يوما على باب على بن موسى فكسروا أضلع
معروف ، فمات ودفن ببغداد وقبره يستثنى به . يقول البغداديون : سببر
معروف ترياق مجرب . توفى سنة مائتين ، وقيل سنة احدى ومائتين . (أنظر
ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ٨٣ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٦٠ ،
(ونياب الاعيان ج ١ ص ١٠٤ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٥٧ ، تذكرة الاولياء
ج ١ ص ٢٦٩ ، نفحات الانس ص ٣٨) .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٨٩) .

والعطاء بلا سؤال لا يستطيعه غيره ، لأنه كريم يعلم حال كل فرد ،
ويحقق مقصود كل واحد دون سؤال .

وإذا كرم الله عز وجل العبد وعظمه وخصه بقربه ، وفعل معه هذه
الأمور الثلاثة ، وهو يجتهد بقدر إمكانه أن يعامل الخلق هذه المعاملة ،
فإنهم عندئذ يطلقون عليه اسم الفتوة ، ويثبتون اسمه في زمرة الفتيان .
وكانت هذه الصفات الثلاث لإبراهيم عليه السلام على الحقيقة ،
وسأورد هذا في موضعه إن شاء الله عز وجل .

● ومنهم زين العباد وجمال الأوتاد :

« أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم (١) » رضى الله عنه . كان من
محتشمى بلخ ، ومن قدماء مشايخ خراسان . مريد شقيق ، وأستاذ أحمد
ابن خضرويه رحمه الله . ولم يخط في كل أحواله من البداية الى النهاية
خطوة بغير صدق ، حتى قال الجنيد عنه : « صديق زماننا حاتم الأصم » .

وله كلام عال في دقائق رؤية آفات النفس ورعونات الطبع ، وتصانيف
مشهورة في علم المعاملات .

يرد عنه أنه قال : « الشهوات ثلاث : شهوة في الأكل ، وشهوة في
الكلام ، وشهوة في النظر . فاحفظ الأكل بالثقة ، واللسان بالصدق ،
والنظر بالعبارة (١) » .

فكل من يتوكل في الأكل ينجو من شهوة الأكل ، وكل من يتحدث بلسان
الصدق ينجو من شهوة اللسان ، وكل من يرى بعين الصواب ينجو من
شهوة العين .

وحقيقة التوكل من صدق معرفته ، لأنك إذا عرفت صدقت بمنحه
الرزق ، ومن ثم يتكلم (العبد) بصدق المعرفة ، وينظر بصدق المعرفة ،
فلا يكون أكله وشربه غير المحبة ، ولا تكون عبارته غير الوجد ، ولا يكون
نظره غير المشاهدة .

(١) ذكر في الرسالة : حاتم بن عنوان الأصم . ويقال حاتم بن يوسف الأصم .
مات بقرية من قرى ما وراء النهر اسمها « واشجرد » سنة سبع وثلاثين ومائة .
(أنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ٩١ ، الرسالة القشيرية ج ١ ص ٨٩ ،
طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٤ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٤٤ ، نفحات الانس
ص ٦٤ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٣٩) .
(٢) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ٩٦) .

وعندما تصح معرفة العبد يكون أكله حلالا ، وعندما يصح كلامه يتحدث بذكره ، وعندما يصح نظره يشاهده ، لأن أكل غير ما أعطاه باذنه لا يحل ، وذكر أحد سوى ذكره في الثمانية عشر ألف عالم لا يصح ، والنظر الى غير جماله وجلاله في الموجودات لا يجوز . فاذا أخذت منه وأكلت باذنه فلا شهوة ، واذا تحدثت عنه وتكلمت باذنه فلا شهوة ، واذا رأيت فعله ورأيت باذنه فلا شهوة . وأيضا ، اذا أكلت بهواك فانه وان يكن حلالا يكن شهوة ، واذا تكلمت بهواك فانه وان يكن ذكرا يكن كذبا وشهوة ، واذا نظرت بهواك فانه وان يكن استدلالا يكن وبالا وشهوة .

وهو أعلم .

● ومنهم الامام المطلبى ، وابن عم النبى : « أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعى (١) » رضى الله عنه ، كان من كبار وقته ، وأماما في جميع العلوم ، ومعروفا بالفتوة والورع ، وله مناقب كثيرة ومشهورة ، وكلام عال .

وكان أولا تلميذ الامام مالك (٢) طالما كان بالمدينة ، فلما قدم العراق اختلف الى محمد بن الحسن رضى الله عنه .

وكان فى طبعه دائما الميل الى العزلة ، ويطلب تحقيق هذه الطريقة ، حتى اجتمع عليه قوم واقتدوا به ، وكان منهم أحمد بن حنبل ، ثم انشغل بطلب الجاه ومزاولة الامامة وتخلف عنه .

وكان محمود الخصال فى جميع الأحوال ، وفى بداية حاله كان فى قلبه قسوة على المتصوفة ، الى أن رأى سليما الراعى وتقرب اليه . وكان بعد ذلك طالبا للحقيقة أينما ذهب .

(١) أحد الائمة الأربعة . يلتقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النسب فى عبد مناف . ولد بغزة وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقرأ القرآن ، ورحل الى الامام مالك بالمدينة . أقام بمصر أربع سنوات وتوفى بها سنة أربع ومائتين . كان كثير المناقب ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام وكلام الصحابة وآثارهم واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة ما لم يجتمع فى غيره حتى قال أحمد بن حنبل عنه : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى . (أنظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٧ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٤٠ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٠٩ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٥٠) .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر . أحد الائمة الأربعة ، وامام دار الهجرة ، قال عنه الشافعى : « مالك حجة الله تعالى على خلقه » . وقال ابن وهب : سمعت مناديا ينادى بالمدينة : « ألا لا يفتى الناس الا مالك بن أنس وابن أبى ذئب » . ضرب سبعين سوطا لفتوى لم توافق السلطان . توفى سنة تسع وسبعين ومائة وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالبقيع (أنظر ترجمته فى : المعارف ص ٢١٨ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٩ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٤٢ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٤٦) .

يرد عنه أنه قال : « اذا رأيت العالم يشتغل بالرخص فليس يجيء منه شيء » .

أى أن العلماء قبله كل أصناف الخلق ، فلا يجوز أن يتقدمهم أحد فى أى معنى ، ولا يمكنهم السير فى طريق الحق بغير الاحتياط والمبالغة فى المجاهدة ، وطلب الرخص شأن من يهرب من المجاهدة ويريد أن يخفف على نفسه ، فطلب الرخص درجة العوام حتى لا يخرجوا عن دائرة الشريعة ، وممارسة المجاهدة درجة الخواص ليجدوا ثمرة ذلك فى أسرارهم ، العلماء خواص ، وحين يرضى الخاص بدرجة العام لا يتأتى منه شيء .

وطلب الرخص أيضا تخفيف للأمر ، والعلماء أحباء الحق تعالى ، والحبيب لا يخفف أمر الحبيب ولا يختار أدنى درجاته ، وإنما يحتاط فى ذلك .

يروى أحد المشايخ قائلا : رأيت الرسول عليه السلام فى النوم فقلت له : يا رسول الله ! روى لى عنك أن الله عز وجل أوتادا وأولياء فى الأرض . فقال : لقد صدقت الراوى عنى هذا الخبر . قلت : يا رسول الله ! يلزمنى أن أرى واحدا منهم . فقال : محمد بن ادريس واحد منهم .

وله مناقب كثيرة غير هذا .

❦ ومنهم شيخ أهل السنة ، وقاهر أهل البدعة : « أبو عبد الله أحمد ابن حنبل (١) » رضى الله عنه . اختص بالورع والتقوى . وكان حافظا لحديث النبى عليه السلام . وكانت هذه الطبقة بجملتها من الفريقين تتبرك به .

(١) الامام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، من بنى شيبان بن ذهل . ولد فى بغداد سنة أربع وستين ومائة . كان امام المحدثين ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الحديث ما لم يتوفر لغيره . وقيل انه كان يحفظ ألف ألف حديث . كان من أصحاب الامام الشافعى وخواصه ، ولم يزل مصاحبه الى أن ارتحل الشافعى الى مصر وقال فى حقّه : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل . دعى الى القول بخلق القرآن فلم يجب فضرب وحبس وكان ضربه فى سنة عشرين ومائتين فى عهد المعتصم ، ولم يزل يعذب الى أن مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، فاشتد الامر عليه وقال لا أسكن بلد الحد فيه . ثم ساء منسياً ثم يترجم الى سبلة ولا شيرى سى من التوانى روى الموصى نزع المحنة عن أحمد وأمر بإحضاره وإكراهه وإمازازه ، وكتب الى الواثق برفع المحنة وإظهار السنة وأن القرآن غير مخلوق ، وخمدت المعتزلة . توفى ببغداد سنة أربعين ومائتين ودفن بمقبرة باب حرب (انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٣ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢١٤ ، خزينة الأصفياء ج ١ ص ٦٤) .

وكان قد أدرك صحبة المشايخ الكبار مثل ذى النون المصرى ، وبشر الحافى ، وسرى السقطى ، ومعروف الكرخى وأمثالهم رضى الله عنه .
كان ظاهر الكرامات وصحيح الفراسات ، وكل ما ينسبه اليه اليوم بعض المشبهة^(١) إنما هو محض افتراء وموضوع ، وهو برىء من كل ذلك .
وله اعتقاد فى أصول الدين ومرضى من كل العلماء .

ولما غلب المعتزلة فى بغداد قالوا : يجب أن يكلف بأن يقول ان القرآن مخلوق . وكان شيخا وضعيفا ، فشدوا ذراعية على العقابين^(٢) وضربوه ألف سوط وهم يقولون : قل ان القرآن مخلوق ! فلم يقل . وفى أثناء ذلك حل رباط أزراره وكانت يده مغلولتين فظهرت يدان أخريان وعقدتا الأزار ، فلما رأوا هذا البرهان تركوه . وقد مات متأثرا بتلك الجراح .

وفى أواخر عهده جاء اليه قوم وقالوا له : ماذا تقول فيمن ضربوك ؟ فقال : ماذا أقول ، لقد ضربونى من أجل الله لأنهم ظنوا انى على باطل ، فان يكونوا على حق ، فأننى لن اختصمهم يوم القيامة لمجرد جرح .

وله كلام عال فى المعاملات . وكل من كان يسأله عن مسألة كان يجيبه عنها اذا كانت من المعاملات ، ويحيله على بشر الحافى اذا كانت من الحقائق ، كما حدث أن جاء اليه رجل ذات يوم وقال : « ما الاخلاص ؟ قال : الاخلاص هو التخلص من آفات الأعمال » . قال : « ما التوكل ؟ قال : الثقة بالله » . قال : « ما الرضا ؟ قال : تسليم الأمور الى الله » . قال : « ما المحبة ؟ » قال : سل عن هذه بشرا الحافى ، فانه طالما كان حيا لا أجيب عن هذا .

وكان أحمد بن حنبل رحمه الله ممتحنا فى جميع الأحوال : فى حال حياته

(١) المشبهة صنفان : صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره ، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره . وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى .
والمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره منهم السبئية الذين سموا عليا الها وشبهوه بذات الله ، والبيانىة أتباع بيان بن سميعان الذى زعم أن معبوده انسان من نور على صورة الانسان فى أعضائه ، وأنه يفتنى كله الا وجهه . ومنهم المفيرية أتباع المفيرة بن سعيد الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صورة حروف الهجاء . ومنهم النصورية والخطابية والحلولية والمقنعية والبنسامة والمشبهة المنسوبية الى داود الجواربى .

وأما المشبهة لصفات الله بصفات المخلوقين فأصناف : منهم الذين شبهوا ارادة الله تعالى بارادة خلقه ، ومنهم الذين شبهوا كلام الله بكلام خلقه ، ومنهم الزرارية الذين قالوا ان جميع صفات الله من جنس صفاتنا . (« الفرق بين الفرق » أبو منصور البغدادى : القاهرة ١٩٤٨ أنظر : ص ١٢٨ — ١٤١) .

(٢) آلة للتعذيب يوثق عليها المجرمون .

بطعن المعتزلة ، وفي حال مهماته باتهامات المشبهة ، الى حد أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقفوا على حالة يتهمونهم ، وهو برىء من ذلك ، والله أعلم .

● ومنهم سراج الوقت والمشرق على آفات المقت : « أبو الحسن أحمد بن أبي الحوارى (١) » رضى الله عنه ، كان من أجلة مشايخ الشام ، وممدوح جملة المشايخ ، الى حد أن قال الجنيد : « أحمد بن أبي الحوارى ريحانة الشام » .

وله كلام عال واشارات لطيفة في فنون علم هذه الطريقة ، وروايات صحيحة من حديث النبی علیه السلام . وكان اليه رجوع أهل وقته في وقعاتهم .

وكان مرید أبی سليمان الدارانی رضى الله عنه ، وقد صحب سفيان ابن عيينه (٢) ومروان بن معاوية الفزازي (٣) والنباجي (٤) وأخذ عن كل منهم أدبا وفائدة .

ويرد عنه أنه قال : « الدنيا مزيلة ومجمع للكلاب ، وأقل من الكلاب من عكف عليها ، فان الكلب يأخذ منها حاجته وينصرف عنها ، والمحِب لها لا يزول عنها بحال (٥) » .

هكذا كان من حقارة الدنيا لدى همة ذلك الشهم أن شبهها بالمزيلة وشبه أهلها بأقل من الكلاب ، وعلل ذلك بأن الكلب حين يأخذ حاجته من المزيلة ينصرف عنها ، أما أهل الدنيا فقد عكفوا دائما على جمع أسبابها ولا يرجعون أبدا عن محبتها وجمعها .

وهذه علامة على انقطاعه عن الدنيا وأخواتها ، واعراضه عن أصحابها . والانقطاع عن الدنيا مجال طيب ، وروضة ناضرة .

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) مروان بن معاوية الفزازي : كان واسع الرواية جدا ، وكان ثقة ثبتا حافظا . مات فجأة سنة ثلاث وتسعين ومائة (خلاصة تذهيب الكمال ص ٢١٩) .

(٤) سعيد بن يزيد النباجي : كنيته أبو عبد الله . من قدماء المشايخ من أقران ذي النون المصري ومن أساتذة أحمد بن أبي الحوارى ، يحكى عنه أحمد بن أبي الحوارى وغيره حكايات وأحوالا (أنظر ترجمته في «نفحات الانس» ص ٩١) .

(٥) ورد في طبقات الصوفية : « والمحِب لا يزايلها بحال » (أنظر ص ١٠٢) .

وقد طلب العلم في البداية ، وبلغ درجة الامامة ، ثم حمل كتبه والقى بها في البحر وقال : « نعم الدليل أنت ، وأما الاشتغال بالدليل بعد الوصول محال » ، لأن الدليل انما يكون طالما كان المريد في الطريق ، فاذا لاحت الحضرة فما قيمة السدة والطريق ؟

وقد قال المشايخ انما يكون هذا في السر ، ومن قال في هذا الطريق : « وصلت ، فقد فصل ، لأن الوصول تخلف ، فالشغل شغل ، والفراغ فراغ ، والوصول وصول .

والنسبة تكون في الشغل والفراغ لأنهما صفتان للعبد ، أما الوصل فهو عناية الحق واراادته الأزلية لخير العبد ، وهذا لا يتأتى بشغل العبد أو فراغه ، فلا أصول لوصله ، ولا تجوز عليه — سبحانه وتعالى — الملازمة والقرب والمجاورة ، ووصلة كرامة للعبد ، وهجرة اهانة له ، ولا يجوز على صفاته التغير .

ويقول على بن عثمان الجلابي رضى الله عنه : من المحتمل أن يكون مراد ذلك الشيخ الكبير في لفظ الوصول : الوصول الى طريق الحق ، اذ أن طريق الحق ليس في الكتب ليعبر عنه ، لأنه حين يتضح الطريق تنقطع العبارات ، فالعبارات تكون لها القوة في غياب المقصود ، فاذا حصلت المشاهدة تلاشت العبارات . واذا كانت الألسنة قليلة في صحة المعرفة ، فمن الأولى أن تضيع (المعرفة) من عبارات الكتب .

وقد فعل غيره من المشايخ عين هذا ، مثل شيخ المشايخ أبى سعيد فضل الله بن محمد الميهني وغيره ، حين ألقوا بكتبهم في البحر(١) . وقد قلد فريق من المترسمين الأحرار في ذلك ، لكسلهم وجهلهم . ويبدو أن أولئك الأحرار لم يكونوا يريدون بذلك غير انقطاع العلائق ، وترك الالتفات ، وفراغ القلب مما دون الحق . وهذا لا يصح الا من سكر الابتداء ، وحرارة الصبا ، لأن المتمكن لا يحجبه الكونان حتى تحجبه قطعة ورق ، فاذا ما انقطع القلب عن العلائق فما قيمة قطعة ورق .

وأما من مراده بغسل الكتب نفى العبارات عن تحقيق المعنى — كما

(١) ورد في أسرار التوحيد أن الشيخ أبى سعيد عين ندما تحول عن دراسة علوم الدين واعتنق الصوفية جمع كتبه ومذكراته ودفنها وشيد فوقها دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه ونما في وقت قصير وصار شجرة كبيرة . واعتاد أهل ميهنة عند ولادة الأطفال وغسل الموتى أن يستعملوا بعض أغصان هذه الشجرة أملا في الحصول على البركة .

(أنظر « أسرار التوحيد » الترجمة العربية ص ٦١) .

ذكرنا — فالأولى أن تنتفى العبارات من اللسان ، لأن مافى الكتاب عبارة مكتوبة ، وما على اللسان عبارة جارية ، وليست عبارة أولى من عبارة .

ويخيل لى أن أحمد بن أبى الحوارى رحمه الله ، لم يجد مستمعا فى غلبة حاله ، فشرح حاله على الورق ، ولما اجتمع له من ذلك شيء كثير ولم يجده جديرا بالنشر ، ألقى به فى الماء وقال : « نعم الدليل أنت » ، أما وقد تحقق مرادى فمن المحال أن أنشغل عنه بك .

ويحتمل أيضا أن يكون قد اجتمعت لديه كتب كثيرة ، وكانت تمنعه عن الأوراد والمعاملات وتشغله ، فأزال الشغل من أمامه ، وطلب فراغ القلب للمعنى ، وقال بترك العبارات .

● ومنهم قائد الفتيان وشمس خراسان : « أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي (١) » رضى الله عنه . كان مخصوصا بعلو الحال وشرف الوقت . وكان فى زمانه مقتدى القوم ، ومرضيا لدى الخاص والعام ، سلك طريق الملامة ، وارتدى ثياب الجنود .

وكان لفاطمة زوجه شأن عظيم فى الطريقة ، فقد كانت ابنة أمير بلخ ، ولما رغبت فى التوبة بعثت رسولا الى أحمد تقول : اطلبنى من أبى ، فلم يجبها ، فأرسلت اليه تقول : يا أحمد ! لم أكن أظنك ذلك الرجل الذى يقطع طريق الحق ، فكن دليلا هاديا لا قاطعا . فأرسل أحمد رجلا وطلبها من أبيها ، فأعطاهما لأحمد بن خضرويه بحكم التبرك . وقالت فاطمة بترك الانشغال بالدنيا ، واستراحت بحكم العزلة مع أحمد ، الى أن قصد زيارة السيد بايزيد فرافقته فاطمة . ولما أقبلت على بايزيد رفعت البرقع عن وجهها ، وكانت تتحدث معه بجرأة ، فتعجب أحمد من ذلك ، واستولت الغيرة على قلبه ، فقال : يا فاطمة ! أى جرأة تلك التى كانت لك مع بايزيد ؟ فقالت : لأنك أنت محرم طبيعتى وهو محرم طريقتى ، والدليل على هذا أنه فى غنى عن صحبتى وأنت محتاج الى .

وكانت دائما جريئة مع بايزيد ، حتى وقعت عينه يوما على يدها فوجدها مخضوبة بالحناء ، فقال : يا فاطمة ! لم الخضاب بالحناء ؟ قالت : يا بايزيد لقد كنت أتبسط معك طالما لم تكن رأيت يدي وحنائى ، والآن وقد وقعت عينك على يدي فقد صارت صحبتنا حراما .

(١) سبق الإشارة اليه .

ورجعا من عند بايزيد ، وأقاما في نيسابور (١) . وكانت علاقة أهل نيسابور ومشايخها بأحمد طيبة .

وعندما جاء يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله من الري (٢) الى نيسابور ، وقصد بلخ ، أراد أحمد أن يدعوه ، فشاور فاطمة فيما ينبغي لدعوة يحيى ، فقالت : يلزم كثير من البقر والخراف والحوائج والتوابل ، وكثير من الشمع والعطر ، ومع كل هذا يلزم أيضا ذبح عشرين حمرا . فسألها أحمد : ما معنى ذبح الحمير ؟ قالت : حين يكون كريم ضيفا ببيت كريم أما يجب أن تعرف كلاب الحى ذلك ؟

وقال أبو يزيد رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى رجل من الرجال مخبوء تحت لباس النسوان فلينظر الى فاطمة » .

ويقول أبو حفص الحداد رحمة الله : « لولا أحمد بن خضرويه ماظهرت الفتوة » .

وكان له كلام عال ، وأنفاس مهذبة ، وتصانيف مشهورة في كل فن من فنون المعاملات والأدب ، ونكت لا يحصى في الحقائق .

ويرد عنه أنه قال : « الطريق واضح ، والحق لا يح ، والداعى قد أسمع ، فما التحير بعدها الا من العمى (٣) » .

أى أن البحث عن الطريق خطأ ، لأن طريق الحق واضح كالشمس الساطعة ، فابحث عن نفسك أين أنت ، فان وجدتتها فاسلك الطريق ، لأن الحق أظهر من أن يجيء تحت طلب الطالب .

(١) « نيسابور » : عاصمة اقليم خراسان . وهى بلد واسع كثير الكور ، فمن كور نيسابور الطبرسين وقوهستان ونساواً بيورد وأبرشهر وجام وياخرز وطوس . ومن نيسابور الى مرو عشر مراحل ، والى هراة عشر مراحل والى جرجان عشر مراحل والى الدمغان عشر مراحل والى سرخس ست مراحل (البلدان ص ٤٥) .

(٢) « الري » : على جادة طريق خراسان ، واسم مدينة الري « الحمديّة » وسميت بهذا الاسم لأن المهدي نزلها في خلافة المنصور لما توجه الى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي ، وبنائها وبها ولد الرشيد لأن المهدي أقام بها عدة سنين . افتتح الري قرصه بن كعب الأنصارى في خلافة عمر ابن الخطاب سنة ثلاث وعشرين (البلدان ص ٤٢) وورد في معجم البلدان أن الذى فتحها زيدا الخيل الطائى في عهد عمر بن الخطاب سنة عشرين من الهجرة (معجم البلدان ج ٢ ص ٨٩٢) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٠٥) .

ويرد عنه أنه قال : « استر عز فقرك » . أى لا تنقل لأحد اننى فقير حتى لا ينكشف سرك ، لأنه كرامة عظيمة من الله تعالى .

ويرد عنه أيضا أنه قال : دعا فقير فى شهر رمضان واحدا من الأغنياء ، ولم يكن فى منزله غير رغيف يابس ، فلما عاد الغنى أرسل اليه صرة ذهب ، فلم يقبلها ، وقال : هذا جزاء من يكشف لك سره ، أو يعتبر الأغنياء أهلا لعز الفقر .

وهذا لصحة صدق فقرة ، والله أعلم .

● ومنهم مام المتوكلين ونخبة أهل زمانه : « أبو تراب عسكر بن حصين النخشبى (١) » رضى الله عنه . كان من أجلة مشايخ خراسان ومن ساداتهم ، ومشهورا بالفتوة والزهد والورع ، وله كرامات كثيرة وعجائب لا تحصى رآها فى البادية .

وكان من كبراء سياحى المتصوفة ، قطع بوادى كثيرة على التجرد ، وكانت وفاته فى بادية البصرة . وبعد بضع سنوات جاء جماعة فوجدوه واقفا على قدميه ووجهه الى القبلة ، وقد أسلم الروح ، ويبس . وقد وضع ركوة أمامه وأمسك بيده عصا . ولم يحم حوله أى سبع من السباع (٢) .

يرد عنه أنه قال : « الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل (٣) » لأن التصرف فى هذه الثلاثة شغل . وقد بقى أهل العالم جميعا فى بلاء هذه الثلاثة لأنهم يتكلفون ، وهذا من وجهة المعاملة ، ولكن من وجهة التحقيق ، فغذاء الفقير الوجد ، ولباسه التقوى ، ومسكنه الغيب ، لأن الله عز من قائل قال : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (٤) » . وقال تعالى أيضا : « وريثا ولباس التقوى (٥) » . وقال الرسول عليه السلام : « الفقر وطن الغيب (٦) » . فحين يكون

(١) يقال له : عسكر بن محمد حصين . تفقه على مذهب الامام الشافعى ، وأخذ عنه الامام أحمد بن حنبل . صاحب أبا حاتم العطار البصرى وحاشا الأسم البلخى . توفى سنة خمس وأربعين ومائتين (أنظر ترجمته فى : طبقات الصوفية ص ١٤٦ ، الرسالة ج ١ ص ٩٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٩٨ ، نفحات الانس ص ٥١) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية والرسالة من وفاته أنه نهشته السباع .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية بنصه (أنظر ص ١٤٩) .

(٤) سورة « الجن » آية ١٦ .

(٥) سورة « الأعراف » آية ٢٦ .

(٦) لم أجد له سندا .

غذاؤه ومشربه من شراب القربى ، ولباسه التقوى والمجاهدة ، ووطنه الغيب وانتظار الوصل : يكون طريق الفقر واضحا ومعاملاته لا ثمة ، وهذه درجة الكمال .

● **ومنهم** لسان المحبة والوفاء ، وزين الطريقة والولاء : « أبو زكريا بن معاذ الرازي (١) » رضى الله عنه ، كان على الحال ، حسن السيرة ، وكانت له في حقيقة الرجاء في الحق تعالى قدم ثابتة : حتى ليقول عنه الحصرى رحمه الله : كان لله تعالى رجلان يسميان يحيى ، أحدهما من الأنبياء والثانى من الأولياء ، فأما يحيى بن زكريا عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس كل مدعى الخوف من فلاحهم ، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طريق الرجاء على نحو مرغ أيدى أدعياء الرجاء في التراب . قالوا : حال يحيى بن زكريا عليه السلام معروف ، فكيف كان حال يحيى هذا ؟ قال : بلغنى أنه لم تكن له جاهلية ، ولم تجر عليه كبيرة ، وكان جادا في المعاملة والرياضة ، فلم يكن لأحد من الأصحاب طاقتة .

قليل له : أيها الشيخ ، مقامك مقام الرجاء ، ومعاملتك معاملة الخائفين . قال : أعلم يابنى أن ترك العبودية ضلالة ، وأن الخوف والرجا قائمتا الايمان ، فمحال أن يقع أحد في الضلالة بممارسة ركن من أركان الايمان . فالخائف يعبد خشية القطيعة ، والراجى أملا في الوصل ، ومالم توجد العبادة لا يصح الخوف ولا الرجاء ، فإذا حصلت العبادة يكون الخوف والرجا جملة عبادة ، وحيثما تجب العبادة لا تفيد العبارة .

وله في هذه المسائل تصانيف كثيرة ، ونكت وإشارات بديعة . وكان أول من اعتلى المنبر بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة . وأنا أحب كلامه جدا لأنه رقيق في الطبع ، ولذيذ في السمع ، ودقيق في الأصل ، ومفيد في العبارة .

يرد عنه أنه قال : « الدنيا دار الأشغال ، والآخرة دار الأهوال . ولا يزال العبد بين الأشغال والأهوال ، حتى يستقر به القرار أما الى الجنة وأما الى النار (٢) » . بخ بخ لذلك القلب الذى نجا من الاشتغال بالدنيا ، وأمن أهوال الآخرة ، وقطع همته عنهما ، واتصل بالحق .

وكان مذهب : تفضيل الغنى على الفقر . وحين تجمعت عليه فى الرى ديون كثيرة قصد خراسان ، فلما بلغ بلغ احتجزه الناس فيها ، فتكلم هناك مدة ، ونصحهم ووعظهم . وقدم له الناس مائة ألف درهم فضة ، فلما

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٠) .

رجع ليعود الى الرى قطع عليه اللصوص الطريق ، وأخذوا منه المال كله ، فجاء الى نيسابور مجردا ، وكانت وفاته بها .

وكان عزيزا فى كل الأحوال ، وحيدا بين الخلق .

● ومنهم شيخ مشايخ خراسان ، ونادرة كل الدنيا والزمان : « أبو حفص عمر بن سالم النيسابورى (١) ، الحداد » رضى الله عنه . كان من كبار النجوم وسادتهم ، وممدوح كل المشايخ ، صاحب أبا عبد الله الأبيوردى ، ورافق أحمد بن خضروية ، وجاءه شاه بن شجاع من كرمان (٢) للزيارة ، وذهب (أبو حفص) الى بغداد لزيارة المشايخ .

ولم يكن له نصيب من العربية ، فلما جاء بغداد قال المريدون لبعضهم البعض : انه لشين أن يلزم لشيخ شيوخ خراسان ترجمان ليترجم كلامه . فلما ورد مسجد الشونيزيه ، اجتمع حوله المشايخ جملة ، وكان معهم الجنيد ، فكان يتحدث اليهم بعربية فصيحة بحيث حاروا جميعا من فصاحته ، وسألوه : ما الفتوة ؟ قال فلتبدأوا بواحد منكم ، ولتتكلّموا ! فقال الجنيد : « الفتوة عندي ترك الرؤية واسقاط النسبة » . فقال أبو حفص : « ما أحسن ما قال الشيخ ! ولكن الفتوة عندي أداء الانصاف وترك مطالبة الانتصاف (٣) » ، قال الجنيد رحمه الله : « قوموا يا أصحابنا فقد زاد أبو حفص على آدم وذريته » ، فى الفتوة .

ويقال انه فى بداية حاله كان قد فتن بجارية ، ففيل له ان بمدينة نيسابور يهوديا ساحرا ، ولديه احتيال أمرى هذا . فذهب اليه أبو حفص ، وشرح له حاله ، فقال له اليهودى : ينبغى لك أن تكف عن الصلاة أربعين يوما وليلة ، وألا تحوم حول الحق وأعمال الخير والنية الحسنة ، لأحتال لك ، ويتحقق مرادك ، ففعل . ولما انقضت الأربعون يوما ، صنع له اليهودى الطلسم ، ولم يتحقق المراد . فقال اليهودى : لا محالة أنه قد مر عليك شيء ، ففكر جيدا جدا . فقال أبو حفص : أنا لا أعلم أنه قد جرى على ظاهرى وباطنى شيء من أعمال الخير ، ولا أذكر الا انى كنت قادما فى الطريق فأبعدت حجرا بقدمى حتى لا ترتطم به قدم انسان . فقال له اليهودى : لا نغضب ذلك الاله الذى أضعت أمره أربعين يوما ، ولم يضع هذا المقدار من تعبك ! فغاب ، وأسلم اليهودى .

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) « كرمان » : ولاية مشهورة ، وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . فتحت فى عهد عمر بن الخطاب (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٦٣) .

(٣) ورد بنصه فى طبقات الصوفية . (أنظر ص ١١٨) .

وظل يعمل حدادا حتى صار الى باورد ، ورأى ابا عبد الله الباوردي ، وعاهده على أن يكون مريدا له . ولما عاد الى نيسابور كان هناك رجل كفيف يقرأ القرآن يوما بالسوق ، وكان قد جلس على باب دكانه ، فغلبه السماع وغاب عن نفسه ، وأدخل يده في النار وأخرج حديدة محمأة دون ملقط ، فلما رآه تلاميذه صاحوا قائلين : يا أستاذ ، يدك ! يدك ! وزايلهم صوابهم ، فلما عاد أبو حفص الى حال صحوه ، كف يده عن الكسب ، ولم يأت أيضا الى الدكان .

ويرد عنه أنه قال : « تركت العمل ثم رجعت اليه ، ثم تركت العمل فلم أرجع اليه (١) » ، لأن كل شيء يكون تركه بتكلف العبد وكسبه . تركه أولى من فعله في صحة هذا الأصل ، إذ أن جملة الاكتساب محل الآفة ، والقيمة للمعنى الذي يأتي من الغيب بلا تكلف ، وفي كل محل يحصل الاختيار ويتصل به العبد ، تزول عنه لطيفة الحقيقة .

اذن ، فالترك والأخذ لا يصحان أبدا على العبد ، لأن العطاء والزوال من الله تعالى وتقدس ، وبتقديره ، فإذا جاء العطاء من الحق ، جاء الأخذ ، وإذا جاء الزوال ، جاء الترك ، وإذا كان هكذا ، فالقيمة له لأن الأخذ والترك به ، لا أن العبد جالب ودافع لهما بالاجتهاد .

وإذا قال المرید ألف سنة بقبول الحق ، فإنه لا يكون كما يقول الحق بقبوله لمحة ، لأن الاقبال الذي لا يزال ، منعقد في القبول الأزلي ، والسرور السرمدي في السعادة السابقة ، ولا سبيل للعبد الى الخلاص الا بخلوص عناية الحق . والعبد الكثير العزة هو الذي يدفع المسبب الأسباب عن حاله ، والله أعلم .

❁ ومنهم قدوة أهل الملامة ، والراضى بالبلاء من السلامة : « أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصاص (٢) » رضي الله عنه ، كان من قدماء المشايخ ومتورعيهم ، وكان على أعلى درجة في الفقه والعلم ، وذهب مذهب الثوري .

وكان (في الطريقة) مرید أبي تراب النخشبى ، ومن أتباع على النصرابادى وله رموز رفيقة في المعاملات ، وكلام دقيق في المجاهدات .

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١١٨) ..

(٢) « أبو صالح حمدون » : شيخ أهل الملامة في نيسابور ، ومنه انتشر مذهب الملامة . توفي سنة احدى وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة الحيرة . (أنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ص ١٢٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٣ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٧ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣١ ، نفحات الانس ص ٦٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٠) .

ويروى أنه لما عظم شأنه في العلم ، جاءه أئمة وكبار نيسابور ، وقالوا له : ينبغي اعتلاء المنبر وعظة الخلق ليكون كلامك فائدة للقلوب . قال : لا يجوز لى الكلام . قالوا : لماذا؟ قال : لأن قلبي متعلق بالدنيا وجاهاها ، فلا يفيد كلامي ولا يؤثر في القلوب ، والكلام الذى لا يؤثر في القلوب يكون استخفافا بالعلم أو استهزاء بالشرعية . والكلام مسلم به لمن يكون في صمته خلل الدين ، فاذا تكلم ارتفع الخلل .

وسئل : ما بال كلام السلف أنفع للقلوب من كلامنا ؟ قال : « لأنهم تكلموا لعز الاسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفس ، وطلب الدنيا ، وقبول الخلق » (١) ، فمن تكلم وفق مراد الحق تعالى وينطق بالحق ، يكون في ذلك الكلام قهر وسطوة تؤثر على الأسرار ، ومن يتكلم وفق مراد نفسه ، يكون في كلامه من الهوان والذل مالا يكون للخلق منه فائدة ، وصمته خير من كلامه ، فخير للمرء أن يتجنب الكلام .

وأنا أعرف أن ذلك العظيم قد دفعهم عن نفسه تركا للجاه والشهرة .

● ومنهم الشيخ ذوالوقار ، والمشرف على الخواطر والأسرار : « أبو السرى منصور بن عمار » (٢) رضى الله عنه ، كان من عظماء المشايخ في الدرجة ، ومن كبرائهم في المرتبة ، محبوبا من العراقيين ، ومقبولا من الخرسانيين . وكان أحسن الكلام في الموعظة كلامه ، والطف البيان بيانه ، وكان يعظ الناس بفنون العلم والروايات والدرايات والأحكام والمعاملات . وبعض المتصوفة يبالغون في أمره مبالغة تفوق الحد .

يرد عنه أنه قال : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب الزاهدين أوعية القناعة ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع » (٣) .

وفي هذا عبرة هي : أن الله تعالى أودع في كل عضو خلقه معنى متجانسا ، كما خلق الأيدي محل البطش ، والأرجل محل المشي ، والأعين محل النظر ، والأذان محل السمع ، واللسان محل النطق ، وهى لا تختلف كثيرا في ظهور هذه المعانى وخفائها . وأما القلوب ، فقد أودع في كل منها معنى

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (انظر : ص ١٢٥) .

(٢) أصله من مرو ، من قرية « داندانقان » وقيل من « أبيورد » وقيل من « بوشنج » . أقام بالسصرة ، وكان من أحسن الناس كلاما في الموعظة ، وأسند الحديث (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٣٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٠١ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣٣٥ ، نفحات الانس ص ٦١) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية على هذا النحو : « سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل ، وقلوب الفقراء أوعية القناعة ، وقلوب المتوكلين أوعية الرضا » (انظر ص ١٣٥) .

مختلفا ، و ارادة مغايرة ، وهوى مختلفا : فجعل قلبا محلا للمعرفة ، وآخر موضعا للضلالة ، وثالثا موضعا للقناعة ، وهكذا . ولا شيء قط يكون فيه اعجوبة الخالق أظهر منها في القلوب .

ويرد عنه أيضا أنه قال : « الناس رجلان : عارف بنفسه فشغله في المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته » (١) ، فالعبادة رياضة للعارفين بأنفسهم ، ورياسة للعارفين بالحق ، فهذا يعبد لينال درجة ، وذاك يعبد وقد نال كل شيء ، وشتان ما بين المنزلتين : عبد قائم بالمجاهدة ، وآخر قائم بالمشاهدة .

ويرد عنه أنه قال : « الناس رجلان : مفتقر الى الله فهو في أعلى الدرجات على لسان الشريعة ، وآخر لا يرى الافتقار لما علم من فراغ الله من الخلق والرزق والأجل والحياة والسعادة والشقاوة ، فهو في افتقاره اليه واستغنائه به » (٢) ، فذاك الفريق في افتقاره ، محجوب عن رؤية التقدير برؤية الافتقار ، وهذا الفريق في تركه لرؤية افتقاره ، مكاشف ومستغن به ، فأحدهما مع النعمة ، والآخر مع المنعم ، فمن يكن مع النعمة في رؤية النعمة فهو فقير وان يكن غنيا ، ومن يكن مع المنعم ومشاهدته فهو غنى وأن يكن فقيرا . والله أعلم .

● ومنهم ممدوح الأولياء ، وقدوة أهل الرضا : « أبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكي (٣) » رضى الله عنه ، كان من أعيان القوم وساداتهم ، وعالما بعلوم الشريعة والأصول والفروع والمعاملات . عمر طويلا ، وصاحب القدماء ، وأدرك أتباع التابعين . وكان من أقران بشر والسرى ، ومريد الحارث المحاسبى ، وكان قد رأى الفضيل وصحبه .

وكان ممدوحا بكل الألسن ، وله أقوال عالية ، ولطائف سامية في فنون علم هؤلاء القوم .

يرد عنه — رضى الله عنه — أنه قال : « أنفع الفقر ما كنت به متجملا ، وبه راضيا (٤) » . أى أن جمال الخلق جميعا في اثبات الأسباب ، وجمال الفقير في نفي الأسباب واثبات المسبب ، والرجوع اليه ، والرضا بأحكامه ،

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٦) .
(٢) ورد في طبقات الصوفية مع اختلاف يسير في ترتيب الكلمات (أنظر ص ١٣٥) .
(٣) من الطبقة الأولى من الصوفية ، ومن أساتذة أحمد بن أبى الحوارى . وكان أبو سليمان الداراني يسميه : جاسوس القلب لحدة فراسته (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٠٠ ، طبقات الشعرائى ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١ ، نفحات الانس ص ٦٢) .
(٤) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٣٨) .

لأن الفقر فقد السبب ، والغنى وجود السبب . وفقد السبب يكون مع الحق ، وصاحب السبب يكون مع نفسه . فصار السبب محل الحجاب ، وترك الأسباب محل الكشف ، وجمال الدنيا والآخرة في الكشف والرضا ، وسخط كل العالم في الحجاب .

وهذا بيان واضح في تفضيل الفقر ، والله أعلم .

● **ومنهم** سالك طريق الزرع والتقوى ، وهو في الأمة بزهد يحيى : **((أبو محمد عبد الله بن خبيق (١)))** رضى الله عنه ، كان من زهاد القوم ومتورعيهم في كل الأحوال ، وله روايات عالية في الحديث .

وكان على مذهب الثورى في الفقه والمعاملة وحقيقتها ، ورأى أصحابه وصحبهم ، وله في معاملات هذه الطريقة أقوال لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « من أراد أن يكون حيا في حياته ، فلا يسكن الطمع في قلبه (٢) » ليتحرر من الكل ، لأن الطماع ميت في قيد طمعه ، فالطمع في القلب كالطبع على القلب ، والقلب المختوم ميت لا محالة ! بخ بخ للقلب الذى يموت عما سوى الحق ويحيا بالحق ، لأن الله تعالى خلق الذل ، والطمع ذل . وخلق الذكر ، والذكر عز .

كما قال أيضا : « خلق الله تعالى القلوب مساكن الذكر فصارت مساكن الشهوات ، ولا يمحو الشهوات الا خوف مزعج أو شوق مقلق (٣) » ، فالخوف والشوق قائمتا الايمان ، وحين يكون القلب محل الايمان يكون قرينه القناعة والذكر ، لا الطمع والغفلة . فقلب المؤمن لا يكون طماعا ولا متابعا للشهوات ، لأن الطمع والشهوة نتيجة الوحشة ، والمستوحش لا علم له بالله ولا بالايمان ، لأن الايمان أنس بالحق ووحشة من غيره ، كما قيل : « الطماع مستوحش منه كل واحد » . والله أعلم .

● **ومنهم** شيخ المشايخ في الطريقة ، وأمام الأئمة في الشريعة ، **((أبو القاسم الجنيدي بن محمد بن الجنيدي القواريري (٤)))** رضى الله عنه ، كان مقبولا لدى

(١) عبد الله بن خبيق بن سابق الأنطاكي — وفي طبقات الشعراني : عبد الله ابن حنيف — من زهاد الصوفية . أصله من الكوفة ، ولكنه من الناقلة الى أنطاكية . وطريقته في التصوف : طريقة النورى (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ١٤١ ، الرسالة ج ١ ص ٩٩ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٦٦ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣ ، نفحات الانس ص ٦٦) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية : « من أراد أن يعيش غنيا في حياته فو يسكن الطمع في قلبه » (أنظر ص ١٤٤) .

(٣) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٤٤) .

(٤) سبق الإشارة اليه

أهل الظاهر وأرباب القلوب ، وكاملا في فنون العلم ، ومفتيا واماما لأصحاب
أبى ثور في الأصول والفروع والوصول والمعاملات . وله أقوال عالية وأحوال
كاملة ، فكل أهل الطريقة متفقون على امامته ، ولا مجال لاعتراض واعراض
فيه لأى مدع أو متصرف .

وكان ابن أخت السرى السقطى ومريده . سئل السرى يوما : هل يكون
لمريد درجة أعلى من درجة الشيخ ؟ قال : نعم . وبرهان هذا ظاهر ،
فللجنيد درجة فوق درجتى . وكان هذا القول من ذلك الشيخ العظيم
تواضعا ، وما قاله قاله بالبصيرة ، ولا رؤية لأحد لما فوقه ، فالرؤية
تتعلق بما تحت ، وقوله دليل واضح ، فقد رأى الجنيد فوق درجته ، وهو
وان رآه — حين رآه — فوق ، فهو تحت .

ومشهور أنه في حال حياة السرى قال المريدون للجنيد : فليكلما الشيخ
ليكون في ذلك راحة لقلوبنا ، فلم يجبههم ، وقال : ما دام شيخى موجودا
فأنا لا أتكلم . الى أن كان نائما ذات ليلة فرأى النبى عليه السلام في النوم
يقول : يا جنيد ! كلم الخلق ، لأن كلامك سبب راحة قلوب الخلق ، وقد
صير الله تعالى كلامك سبب نجاة عالم . فلما استيقظ وقر في قلبه أن
درجته جاوزت درجة السرى ، وقال لقد جاءنى من الرسول صلوات الله
عليه الأمر بالدعوة . ولما كان الصباح ، أرسل السرى مريدا وقال له :
حينما يسلم الجنيد من صلاته ، قل له : انك لم تتحدث الى المريدين بناء
على قولهم ، ورددت شفاعة شيوخ بغداد ، وأرسلت لك رسالة أيضا فلم
تتكلم . والآن قد أمرك الرسول عليه السلام فأطع أمره ! قال الجنيد رضى
الله عنه : فذهب ذلك الخاطر من رأسى ، وأدركت أن السرى في كل الأحوال
مطلع على ظاهرى وباطنى ، وأن درجته فوق درجتى ، لأنه مشرف على
أسرارى ، وأنا لا علم لى بأحواله . وذهبت اليه وطلبت منه المغفرة ،
وسألته : كيف عرفت أنى رأيت النبى عليه السلام في النوم ؟ قال : قد
رأيت الله تعالى وتقدس في النوم ، وقد قال لى : انى أرسلت الرسول
— عليه السلام — ليقول للجنيد : عظ الخلق ، ليتحقق منه مراد أهل
بغداد .

وفي هذه الحكاية دليل واضح على أن الشيوخ — بأى صفة يكونون —
مشرفون على أحوال مريديهم .

وللجنيد كلام عال ، ورموز لطيفة .

يرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « كلام الأنبياء نبأ عن الحضور ، وكلام الصديقين اشارة عن المشاهدات » (١) ، فصحة الخبر من النظر ، وصحة المشاهدة من الفكر . ولا يمكن الاخبار الا عن عين ، والاشارة لا تكون عن عين ، فكمال ونهاية الصديقين ، بداية للأنبياء . والفرق واضح بين الولي والنبي وتفضيل الأنبياء على الأولياء ، خلافا لما ينزع اليه فريقان من الملاحدة ممن يؤخرون الأنبياء في الفضل ويقدمون الأولياء .

ويرد عنه أنه قال : تمنيت وقتا ما أن أرى إبليس — عليه اللعنة — وذات يوم كنت واقفا بباب المسجد ، فإذا بشيخ يقبل من بعيد متجها الى ، فلما رأيته أحسست وحشة في قلبي ، فلما اقترب منى قلت : من أنت أيها الشيخ ، اذ لا طاقة لعيني برؤية وجهك من الوحشة ، ولا طاقة لقلبي بالتفكير فيك من الهيبة ؟ قال : أنا الذى تتمنى مشاهدتى . قلت : يا ملعون ! ما منعك أن تسجد لآدم ؟ قال : يا جنيد ! كيف تصور أنى أسجد لغيره ؟ قال الجنيد : فتحيرت في كلامه ، فنوديت في سرى أن : « قل له : كذبت ، ولو كنت عبدا لما خرجت عن أمره ونهييه . فسمع النداء من قلبي ، فصاح وقال : أحرقتنى بالله ! وغاب » .

وفى هذه الحكاية دليل على حفظه وعصمته ، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظ أوليائه في كل الأحوال من كيد الشيطان .

ويرد عنه أن مريدا من مريديه مرض قلبه يوما وظن أنه بلغ درجة ، فأعرض عنه ، وجاء ذات يوم لتجربته . وكان (الجنيد) بحكم اشرافه مطلعا على مراده . وسأله (المريد) سؤالا ، فقال له الجنيد : أتريد جوابا عباريا أم معنويا ؟ قال : كلاهما : فقال الجنيد : ان أردت العباري ، فلو أنك جربت نفسك لما احتجت الى تجربتى ولما جئت الى هنا للتجربة . وان أردت المعنوى ، فقد عزلتك من ولايتك . فأسود وجه المريد في الحال وصاح : لقد ضاع من قلبي راحة اليقين ! وانشغل بالاستغفار ، وكف عن الفضول . وعندئذ قال له الجنيد : انك لم تعرف أن أولياء الله تعالى هم أولياء الأسرار ، ولا طاقة لك بتجربتهم . ونفخ عليه ، فعاد الى مراده ، وتاب عن التصرف في المشايخ رحمهم الله . والله أعلم .

● ومنهم ملك أهل التصوف ، والمبرا من آفة التكلف : « أبو الحسن أحمد ابن محمد النورى (٢) » رضى الله عنه ، كان له أحسن المعاملات وأبين

(١) ورد في طبقات الصوفية : « كلام الأنبياء نبأ عن حضور ، وكلام الصديقين اشارات عن مشاهدات » (أنظر ص ١٦٢) .

(٢) سبق الاشارة اليه

الكلمات ، وأظرف المجاهدات . وله مذهب خاص فى التصوف ، وتوجد فرقة من المتصوفة يقال لها « النورية » يقتدون به ، ويتولونه .

وجملة المتصوفة اثنتا عشرة فرقة ، منهم فرقتان مردودتان ، وعشر مقبولة .

وأولى الفرق المقبولة : المحاسبية ، والثانية : القصارية ، والثالثة : الطيفورية ، والرابعة : الجنيدية ، والخامسة النورية : والسادسة : السهلية ، والسابعة : الحكيمية ، والثامنة : الخرازية ، والتاسعة : الخيفية ، والعاشر السيارية . وهؤلاء جملة من المحققين وأهل السنة والجماعة .

أما الفرقتان المردودتان ، فواحدة منهما : الطولية المنسوبة الى الحلول والامتزاج ، واليهم ينتمى السالمية والمشبهة . والأخرى : الحلجيون المردودون لتركهم الشريعة والحادهم ، واليهم ينتمى الاباحيون والفارسيون . وسوف أورد فى هذا الكتاب — فى موضعه — بابا فى الفرق بين الفرق ، وأبين اختلاف تلك الفرق العشر ، واختلاف هاتين الفرقتين ، لتتم الفائدة ان شاء الله تعالى .

أما طريق (النورى) فكان محمودا فى ترك المداهنة ، ورفع المسامحة ، ودوام المجاهدة .

ويرد عنه أنه دخل على الجنيد وراه جالسا فى الصدر ، فقال له : « يا أبا القاسم ! غششتهم فصدروك ، ونصحتهم فرمونى بالحجارة » . لأن المداهنة توافق الهوى ، والنصيحة تخالفه ، والانسان يعادى من يخالف هواه ، ويحب من يوافقه .

وكان أبو الحسن النورى رفيقا للجنيد ومريدا للسرى ، وقد رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وأدرك صحبة أحمد بن أبى الحوارى .

وله فى طريقة التصوف اشارات لطيفة وأقاويل جميلة ، وفى فنون العلم نكت عالية .

يرد عنه أنه قال : « الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره جمع به » (١) . أى أن كل من همته مجتمعة بالحق تعالى فهو مفترق عن غيره ، وكل من هو مفترق عن غيره مجتمع به ، فجمع الهمة بالحق تعالى ، افتراق عن التفكير فى المخلوقات ، فاذا صح الأعراض عن المكونات ، صح

(١) ورد بنصه فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٦) .

الاقبال بالحق ، واذا صح الاقبال بالحق ، صح الاعراض عن الخلق ،
لأن الضدين لا يجتمعان .

وورد في الحكايات أن (النورى) فى وقت ما ، ظل يصرخ لمدة ثلاثة أيام
وليل فى بيته ، واقفا فى مكان واحد ! فأخبروا الجنيد ، فنهض وذهب اليه ،
وقال : يا أبا الحسين ! اذا كنت تعرف أن الصراخ يفيد معه ، فأخبرنى
لأصرخ أنا أيضا ، وان كنت تعرف أنه لا يفيد ، فارض بالتسليم ليسعد
قلبك . فكف النورى عن الصراخ وقال : ما أحسنك معلما لنا يا أبا
القاسم !

ويرد عنه أنه قال : « أعز الأشياء فى زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ،
وعارف ينطق عن حقيقة » (١) .

أى أن العلم والمعرفة كلاهما عزيزان فى هذا الزمان ، لأن العلم بلا عمل
لا يكون علما ، والمعرفة بلا حقيقة لا تكون معرفة . وقد دل الشيخ بهذا
الكلام على زمانه ، ولئن كان ذلك عزيزا فى كل الأوقات ، فهو اليوم أعز .
وكل من ينشغل بطلب عالم وعارف تتشوش أوقاته ، ولا يجد (طلبته) ،
فيجب أن ينشغل المرء بنفسه ليرى كل العالم عالما ، وأن يرجع عن نفسه
الى الله ليرى كل العالم عارفا ، لأن العالم والعارف عزيزان ، والعزير صعب
المنال ، والشئ الذى يصعب ادراكه ، طلبه اضاعه للعمر . فيجب طلب
العلم والمعرفة من نفسك ، والعمل والحقيقة من ذاتك .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من عقل الأشياء بالله فرجوعه
فى كل شئ الى الله » (٢) ، لأن الاقامة ملك ، والملك بالمالك ، فالاستراحة
تكون فى رؤية المكون لا فى رؤية الكون ، لأن (العبد) اذا اعتبر الأشياء
علة للأفعال يتألم دائما ، ورجوعه الى كل شئ يكون منه شركا ، لأنه
يرى أسبابا للفعل ، والسبب لا يقوم بنفسه ، بل هو قائم بالسبب ،
فاذا رجع الى مسبب الأسباب ، نجا من الانشغال .

● ومنهم مقدم السلف ، والخلف من السلف :

((أبو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيرى)) (٣) رضى الله عنه ، كان من
قدماء الصوفية وأجلتهم ، والأوحد فى زمانه ، وقدره رفيع فى كل القلوب .

(٢٤١) وردا بنصهما فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٦٩) .
(٣) سعيد بن اسماعيل بن سعيد بن منصور الحيرى النيسابورى . أصله من الرى .
كان فى وقته أوحد المتأين فى سيرته ، ومنه انشرت طريقة التصوف بنيسابور ،
ومات بها سنة ثمان وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٧٠ ،
الرسالة ج ١ ص ١٠٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦٩ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ٥٥ ، نفحات الانس ص ٨٧) .

وكان قد صحب في البداية يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، ثم كان في صحبة شاه بن شجاع الكرماني مدة ، وذهب معه الى نيسابور لزيارة أبى حفص الحداد ، فتوقف عنده ، وقضى عمرا في صحبته .

ويروى الثقة عنه أنه قال : كان قلبى دائما يطالب الحقيقة في حال الطفولة ، وينفر من أهل الظاهر . وكنت أعتقد أن للشرعية ، لا محالة ، سرا غير الظاهر الذى تجرى عليه العامة ، حتى أدركت البلوغ . وكنت يوما بمجلس يحيى بن معاذ رضى الله عنه ، فأدركت ذلك السر ، وتحقق مقصودى ، فتعلقت بصحبته ، الى أن جاء جماعة من عند شاه بن شجاع وتحدثوا عنه ، فوجدت قلبى مائلا لزيارته . فقصدت كرمان من الرى . وكنت أطلب صحبة (شاه) فلم يأذن لى ، وقال : ان طبعك ربيب الرجاء . وقد صحبت يحيى ، وله مقام الرجاء ، والشخص الذى أشرب مشرب الرجاء لا يتأتى منه سلوك الطريقة ، لأن تقلد الرجاء يورث الكسل . فتضرعت اليه كثيرا وبكيت ، وأقمت عشرين يوما على أعتابه حتى أذن لى وقبلنى . ولبثت في صحبته مدة ، وكان رجلا غيورا ، الى أن خطر له قصد نيسابور لزيارة أبى حفص ، فذهبت معه . وفي اليوم الذى دخلنا فيه على أبى حفص كان شاه يلبس قباء ، فلما رآه أبو حفص نهض على قدميه ، وتقدم اليه وقال : « وجدت في القباء ما طلبت في العباء » . وبقيت هناك وقد استولت صحبة أبى حفص على كل همى ، ومنعتنى حشمة شاه بن شجاع من مداومة خدمته ، ورأى أبو حفص في تلك الارادة . وكنت أتضرع الى الله أن ييسر لى صحبة أبى حفص دون أن يتأذى منى شاه بن شجاع ، الى أن قصد شاه العودة ، فانتعلت نعلى موافقة له ، وقلبى كله عند أبى حفص ، الى أن قال رضى الله عنه لشاه مباسطا : اترك صحبة هذا الصبى هنا ، لأنى مسرور منه . فالتفت شاه الى وقال : « أجب الشيخ » . ورحل هو ، وبقيت هنالك حتى رأيت ما رأيت من العجائب في صحبة أبى حفص رضى الله عنه ، وكان له مقام الشفقة .

وقد أجاز الله عز وجل أبا عثمان من ثلاثة مقامات بثلاثة شيوخ ، وهذه الاشارات الثلاثة التى أشار اليها في نفسه هى : مقام الرجاء بصحبة يحيى ابن معاذ ، ومقام الغيرة بصحبة شاه بن شجاع ، ومقام الشفقة بصحبة أبى حفص .

ويجوز ان يصل المرید الى المنزل بحبس أو بسبت أو بأختر من هذه الصحبة ، ويصير كل شيخ وصحبة ، سبب كشف مقام له . ولكن الأفضل أن لا يشوب المشايخ بمقامه ولا يستهدف نهاياتهم في ذلك المقام ، ويقول : كان هذا نصيبى من صحبتهم ، ولكنهم كانوا فوق هذا ، ولم يكن لى منهم

نصيب أكثر من هذا ، ويكون هذا أقرب الى الأدب ، لأنه لا شأن أبداً
للبالغى طريق الحق بالمقامات والأحوال .

وكان (أبو عثمان) السبب في انتشار التصوف في نيسابور وخراسان .
وقد صحب الجنيد وروينا ويوسف بن الحسين ومحمد بن الفضل رحمة
الله عليهم . ولم يدرك أى من المشايخ من قلوب شيوخه ذلك الحظ الذى
أدركه .

وقد وضع له أهل نيسابور منبرا ليتحدث اليهم بلسان التصوف وله
كتب عالية ، وروايات متينة في فنون علم الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « حق لمن أعزه الله بالمعرفة أن لا يذله بالمعصية » (١) .
ويكون تعلق هذا بكسب العبد ومجاهدته على دوام رعاية أمور الحق .
وإذا كان هنالك رأى على هذا المعنى ، فهو : أن الله عندما يعز شخصاً
بالمعرفة فإنه لا يذله بالمعصية ، لأن المعرفة عطاؤه ، والمعصية فعل العبد ،
ومن يعز بعطاء الحق لا يذل بفعل نفسه ، مثل آدم عليه السلام الذى
أعزه (الله) بالمعرفة ، ولم يذله بزلته .

● ومنهم : سهيل المعرفة ، وقطب المحبة :

((أبو عبد الله أحمد بن يحيى بن الجلاء)) (٢) رضى الله عنه . كان من
كبار القوم ، وسادات الوقت ، وصاحب طريق حسن وسيرة مرضية .
صحب الجنيد ، ورأى أبا الحسن النورى وجماعة من كبار الصوفية رضى
الله عنهم . وله كلام عال في الحقائق ، وإشارات لطيفة .

يرد عنه أنه قال : « همة العارف الى مولاه فلم يعطف الى شىء سواه » (٣)
لأنه لا يكون للعارف شىء قط غير معرفته ، فحين يكون رأس مال قلبه المعرفة
يكون مقصود همته الرؤية ، لأن تششت الهمم يثمر الهموم ، والهموم ترد
عن حضرة الحق .

ويحكى عنه أنه قال : رأيت ذات يوم نصرانيا حسن الوجه ، فتحيرت
في جماله ، وتوقفت قبله ، فمر على الجنيد رحمه الله ، فقلت : يا أستاذ !
لن يحرق الله تعالى مثل هذا الوجه بنار الجحيم ! فقال رضى الله عنه :

(١) ورد بنصه في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٧٣) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : « سمت همم العارفين الى مولاهم ، فلم تعكف على
شىء سواه ، وسمت همم المريدين الى طلب الطريق اليه ، فأفنوا نفوسهم في الطلب .
(أنظر : ص ١٧٩) .

يا بنى ! هذه سويقة النفس التى تحملك على هذا ، لا نظرة العبرة ، لأنك اذا نظرت بالعبرة فى كل ذرة من الموجودات ، فهذه الأعجوبة موجودة . ولكن سرعان ما تعذب بهذا الخزى ! قال : فلما انصرف عنى الجنيد نسيت القرآن فى الحال ، وظللت سنوات اطلب العون من الله تعالى ، وتبت حتى استعدت القرآن . والآن لا أجرؤ على الالتفات الى شئ أو اضيع وقتى فى النظر الى الأشياء .

● ومنهم : وحيد العصر وامام الدهر :

((أبو محمد رويم بن أحمد)) (١) رضى الله عنه ، كان من جملة أجلة المشايخ وساداتهم ، ومن أصحاب سر الجنيد وأقرانه ، وعلى مذهب داود (٢) فقيه الفقهاء رضى الله عنه .

كان ذا حظ وافر فى علم التفسير والقراءات ، ولم يكن فى ذلك الزمان مثيله فى فنون العلم . وقد بلغ منزلته بعلو الحال ورفعة المقام والسفر الطويل بالتجريد ، والرياضات الشديدة فى التفريد .

وفى آخر عمره أخفى نفسه بين أصحاب الدنيا ، واعتمد عليه فى القضاء ، وكانت درجته أكمل من أن يحجب بذلك ، حتى قال عنه الجنيد : نحن الفارغين مشغولون ، ورويم المشغول فارغ .

وله تصانيف فى هذه الطريقة فى السماع ، وبخاصة الكتاب الذى أسماه « غلط الواجدين » ، وأنا مفتون به .

ويرد أن رجلا جاء اليه يوما وقال : « كيف حالك ؟ » فقال : « كيف حال من دينه هواه ، وهمته دنياه ، ليس بصالح تقى ، ولا بعارف نقى » (٣) .

وقد أشار بهذه الإشارة الى عيوب نفسه ، لأن الدين يكون لدى النفس هوى ، ومتابعو النفس قد أسموا الهوى دينا ، ومتابعة الهوى ممارسة للشريعة ، وكل من يكون على مرادهم وان يكن مبتدعا فهو لديهم دين ، وكل من يسير على خلاف هواهم وان يكن متقيا فهو لديهم لا دين له . وهذه الآفة شائعة فى زماننا ، فنعوذ بالله من صحبة من تكون هذه صفته .

أما ذلك الشيخ فقد أشار على التحقيق الى زمان السائل . ويجوز

(١) سبق الإشارة اليه .

(٢) داود بن علي بن خلف : امام أهل الظاهر . ولد بالكوفة سنة مائتين أو اثنتين ومائتين . كان أحد أئمة المسلمين وهداتهم ، واليه انتهت رئاسة العلم ببغداد . أصله اصفهان ، ومولده بالكوفة ومنشؤه ببغداد وبها قبره . مات سنة سبعين ومائتين . (طبقات الشافعية ج ٢ ص ٤٢ وما بعدها) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٤) .

أيضا أنه — فى تلك الحال — قد ترك لنفسه ، حتى عبر عن وصف وجوده وأنصف صفته .

● ومنهم : بديع العصر ، ورفيع القدر :

((أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازى)) (١) رضى الله عنه . كان من كبار أئمة وقته ، وقدماء الشيوخ فى زمانه . عمر طويلا ، وكان مريدا لذى النون المصرى ، وصحب كثيرا من الشيوخ وخدمهم جميعا .

يرد عنه أنه قال : « أذل الناس الفقير الطموع ، والمحـب لمحبوبه » (٢) . أى أن الفقراء الطماعين هم أذل الناس ، كما أن الفقراء الصادقين أشرفهم . والطمع يلقى بالفقر فى ذل الدنيا والآخرة ، لأن الفقراء أنفسهم حقراء فى نظر أهل الدنيا ، فإذا طمعوا صاروا أحقر . فالغنى بالعز أتم من الفقر بالذل . والطمع ينسب الفقير الى الكذب الصرف .

ثم أن المحب كذلك ، يكون بالنسبة لمحبوبه أذل الخلق طرا ، لأن المحب يرى نفسه فى مقابل محبوبه حقيرا ، وهو يتواضع له ، وهذا أيضا من نتائج الطمع ، وعندما ينقطع عنه الطمع يصير ذله كله عزا . وطالما كانت زليخا طامعة فى يوسف ، كانت تزداد كل لحظة ذلا ، وعندما انقطع عنها الطمع ، رد الله تعالى اليها جمالها وشبابها .

وقد جرت السنة على أن اقبال المحب يقتضى اعراض المحبوب ، فإذا كتم المحب المحبة فى صدره ، وفرغ بصرف المحبة من الحبيب ، وسكن الى المحبة ، فلا محالة أن يقبل عليه الحبيب . والمحب عزيز فى الحقيقة ما لم يطمع فى الوصل ، وعندما يطمع فيه ولا يدركه يصير عزه ذلا . وكل محب لا يشغله وجود المحبة عن وصال الحبيب وفراقه ، تكون محبته معلولة .

● ومنهم : شمس سماء المحبة ، وقدوة أهل المعاملة :

((أبو الحسن سمنون بن عبد الله الخواص)) (٣) رضى الله عنه . كان

(١) شيخ الرى والجبال فى وقته . كان أوحـد فى طريقته فى إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الاخلاص . وكان عالما دينيا . مات سنة أربع وثلثمائة . وروى الحديث . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٨٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٦ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٢ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٣١٦ ، نفحات الانس ص ٩٧) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ١٨٩) .

(٣) سمنون بن عبد الله : أبو الحسن الخواص ، ويقال كنيته أبو القاسم . سـمى نفسه سمنون الكذاب لكتـمه عسر البول بلا تضرر . صاحب سريا السقطى ومحمد ابن على القصاب وأبا أحمد القلانسى وكان يتكلم فى المحبة بأحسن كلام . من كبار مشايخ العراق . مات بعد الجـنيد ، أى بعد سنة سبع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ١٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٢ ، طبقات =

منقطع النظير في زمانه ، وذا شأن عظيم في المحبة . وكان جميع المشايخ يعظمونه ويسمونه « سمنون المحب » ، وأسمى هو نفسه : « سمنون الكذاب » !

وقد عانى متاعب كثيرة من (غلام الخليل) (١) . فقد شهد عليه عند الخليفة بأشياء غير صحيحة ، وكان الشيوخ جميعا يتألمون لذلك .

وكان (غلام الخليل) هذا ، رجلا مرأيا ويدعى الزهد والتصوف . وصير نفسه — بمكره وشعوذته — معروفا عند الخليفة وأهل السلطان ، وباع — مثل الكثيرين في عصرنا — الدين بالدنيا . وقد آلى على نفسه التشهير بالمشايخ والدراويش لدى الخليفة ، وكان مراده أنه طالما هجر المشايخ ، ولم يتبرك بهم أحد ، بقى جاهه على حاله ! بنح بنح لسمنون وغيره من المشايخ الذين لم يتصد لهم أكثر من واحد بهذه الصفة ! واليوم ، في هذا الزمان ، يوجد لكل رجل محقق مائة ألف (غلام الخليل) ! ولكن لا ضير ، فالعقبان أولى بالجيف .

ولما كبر جاه سمنون في بغداد وتقرب كل شخص إليه ، تألم من ذلك (غلام الخليل) وأخذ في اختلاق الأوضاع ، حتى وقعت عين امرأة على جمال سمنون ، وعرضت المرأة نفسها عليه ، فأبى . وذهبت هذه المرأة الى الجنيد قائلة : قل لسمنون أن يتزوجني ، فغضب منها الجنيد وزجرها . فذهبت الى (غلام الخليل) واتهمت (سمنون) بتهمة مما نتهم به النساء الرجال ، واستمع (غلام الخليل) اليها كما يسمع الأعداء ، وأخذ في السعاية ، وغير عليه الخليفة حتى أمر بقتله . فلما أحضروا السياف ، واستؤذن الخليفة ، انعقد لسانه حين اصدار الأمر ! ولما جن الليل ، نام فرأى في النوم من يقول له : ان زوال روح سمنون رهين بزوال ملكك ! وفي اليوم التالي اعتذر لسمنون ورده مكرما (٢) .

وله كلام عال واشارات دقيقة في حقيقة المحبة .

واتفق أنه حين كان قادما من الحجاز ، أن قال له أهل فيد (٣) : حدثنا ، فاعتلى المنبر ، وكان يتحدث ولاستمع له ، فالتفت الى القناديل وقال : انى أتحدث اليك ! فاصطكت كل تلك القناديل وتحطمت .

=الشعراني ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٨٣ ، نفحات الانس ص ١٠٠ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٧٢) .

(١) أحمد بن محمد بن خالد بن مرداس . ولد بالبصرة ، وتوفي ببغداد سنة ٢٦٢ هـ . كان مشهورا بالورع والتقوى ، لكنه كان مكروها من أهل عصره الذين رموه بالرياء (ميزان الاعتدال : ص ٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية في اللمع ، وهنا بعض الاختلاف (انظر اللمع ص ٤٩٨) .

(٣) « فيد » : هي المدينة التي ينزلها عمال طريق مكة ، وأهلها طيء ، وهي في سفح جبلهم المعروف بسلمى (البلدان ص ٧٦) .

ويرد عنه ، رضى الله عنه ، أنه قال : « لا يعبر عن شيء إلا بما هو أرق منه ، ولا شيء أرق من المحبة فبم يعبر عنها ؟ » (١) .

والمراد من هذا : أن العبارة منقطعة عن المحبة ، لأن العبارات صفة المعبر ، والمحبة صفة المحبوب ، فعبارة هذا لا تستطيع ادراك حقيقة ذاك . والله أعلم بالصواب .

● **ومنهم : سلطان الشيوخ ، ومن التغير عن عهده منسوخ :**

((أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرمانى)) (٢) ، رضى الله عنه . كان من أبناء الملوك ، وفريدا في عصره ، صاحب أبا تراب النخشبى ، وأدرك كثيرا من المشايخ . وقد ذكر طرف من حاله في ذكر أبى عثمان الحيرى .

وله في التصوف رسالات مشهورة ، وعمل كتابا يسمى « مرآة الحكماء » ، وله أقوال عالية .

ويرد عنه أنه قال : « لأهل الفضل فضل مالم يروه ، فاذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولاية مالم يروها ، فاذا رأوها فلا ولاية لهم » (٣) . والمراد من هذا القول أنه حيثما يوجد الفضل والولاية تسقط عنهما الرؤية ، وعندما تحدث الرؤية يسقط معناهما ، لأن الفضل صفة لا يراها الفضل ، والولاية صفة لا تراها الولاية . فاذا قال شخص : أنا فاضل ، أو : أنا ولى ، فإنه لا يكون فاضلا ولا ولى .

وورد في آثاره أنه لم ينم لأربعين عاما ، وعندما نام رأى الله سبحانه وتعالى في النوم ، فقال : يا الهى ! كنت أطلبك بسهر الليل فرأيتك في النوم ! فقال : يا شاه ! لقد أدركت في النوم بغيتك بسهرك الليل ، ولو كنت نمت هنالك ، لما رأيت هنا . والله أعلم .

● **ومنهم سرور القلوب ونور الأسرار :**

((عمرو بن عثمان المكى)) (٤) رضى الله عنه . كان من كبراء أهل الطريقة وساداتهم ، وله تصانيف مشهورة في حقائق هذا العلم .

وكان ينتسب الى الجنيد بعد أن رأى أبا سعيد الخراز وصحب النباجى ، وكان امام الوقت في الأصول .

(١) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٦) .
(٢) سبق الإشارة اليه .
(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ١٩٣) .
(٤) سبق الإشارة اليه .

يرد عنه أنه قال : « لا يقع على كيفية الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين (١) » . وكل ما تستطيع عبارة العبد التصرف فيه لا يكون سرا للحق ، لأن كلية تكلف العبد منقطعة عن الأسرار الربانية .

ويقال انه حين جاء عمرو الى أصفهان ، اتصل بصحبته حدث ، وقد منعه أبوه من صحبة عمرو الى أن مرض . ومضت مدة ، ونهض الشيخ يوما وذهب لعيادته مع جماعة من الدراويش ، فأشار الحدث الى الشيخ ليقول للقوال أن ينشد شعرا ، فقال عمرو للقوال : أنشد . فقال :

(شعر عربى)

مالى مرضت فلم يعــدنى عايد منكم ويمرض عبدكم فأعود

فلما سمع المريض ، نهض وجلس ، وقل لهب المرض وسلطانه ، وقال : زدنى . فأنشد القوال :

وأشد من مرضى على صدودكم وصدود عبدكم على شديد

فنهض المريض وقد زايله ألمه (٢) ، وأذن له والده بصحبة عمرو ، وتاب عما كان يهجنس في قلبه ، وصار ذلك الحدث من عظماء الطريقة .

● ومنهم : مالك القلوب ، وماحى العيوب :

((أبو محمد سهل بن عبد الله التستري)) (٣) رضى الله عنه . كان امام وقته ، ممدوحا بكل الألسن ، وله رياضات كثيرة ، ومعاملات طيبة ، وكلام لطيف فى الاخلاص وعيوب الأفعال .

ويقول عنه علماء الظاهر : « هو جمع بين الشريعة والحقيقة » . وهذا خطأ ، لأن أحدا لا يفرق بينهما ، فالشريعة ليست سوى الحقيقة ، والحقيقة ليست سوى الشريعة . وهم يقولون هذا بحكم أن عبارات ذلك الشيخ أسهل فى الإدراك ، وأيسر فى الفهم على الطبائع . وبما أن الحق تعالى قد جمع بين الحقيقة والشريعة ، فمحال أن يفرق بينهما أولياؤه .

(١) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف بسيط (أنظر ص ٢٠٢) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٣) سهل بن عبد الله بن يونس ، صاحب خاله محمد بن سوار ، وشاهد ذا النون المصرى سنة خروجه الى الحج بمكة . توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٠٦ ، الرسالة ج ١ ص ٨٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٦١ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٨ ، تذكرة الأولياء ج ١ ص ٢٥١ ، نفحات الانس ص ٦٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ١٦٤) .

واذا حصل الفرق ، فلا محالة أن يتأتى رد واحدة منهما وقبول الأخرى .
ورد الشريعة الحاد ، ورد الحقيقة شرك .

وهذا الفرق الذى يفرقونه ليس لتفريق المعنى ، بل لإثبات الحد ،
كتقولك : « لا اله الا الله » ، فهذا حقيقة ، وقولك : « محمد رسول الله »
شريعة . واذا أراد أحد — فى حال صحة الايمان — أن يفصل بينهما ،
لا يستطيع ، وتكون ارادته باطلة .

وفى الجملة : الشريعة فرع الحقيقة ، كما أن المعرفة هى الحقيقة ،
وقبول الأمر بالمعروف : شريعة ، وأهل المظاهر هؤلاء ينكرون ما لا يتفق
مع طباعهم ، والانكار لأصل من أصول طريق الحق أمر خطير . والحمد
لله على الايمان .

ويرد عنه أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت على وجه أهل الأرض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وروحه ودنياه وآخرته » (١) .

يعنى : أن كل من يعتقد أن له يدا فى نصيبه ، فذلك دليل على أنه
جاهل بالله عز وجل ، لأن معرفته تقتضى ترك التدبير ، وترك التدبير تسليم ،
وإثبات التدبير من الجهل ، والله أعلم .

● ومنهم اختيار أهل الحرمين ، ولجملة المشايخ قررة العين :

((أبو عبد الله محمد بن الفضل الباقى)) (٢) رضى الله عنه . كان من
جلة الشيوخ ، ومرضيا لدى أهل العراق وخراسان ، ومريدا لأحمد ابن
خضرويه . وكان لأبى عثمان الحيرى ميل عظيم اليه .

وقد أخرج المتعصبون من بلخ لافتتان الناس بمذهبه ، فصار الى
سمرقند (٣) ، وقضى هنا لك عمره .

يرد عنه أنه قال : « أعرف الناس بالله ، أشدهم مجاهدة فى أوامره ،
وأتبعهم لسنة نبيه » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : « ما طلعت شمس ولا غربت على أحد على وجه الأرض
الا وهم جهال بالله ، الا من يؤثر الله على نفسه وزوجه ودنياه وآخرته »
(أنظر ص ٢٠٧) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « سمرقند » : من أجل البلدان وأعظمها قدرا وأشدّها امتناعا . انقلقت
سمرقند بعد أن افتتحت عدة مرات لمنعتها وشجاعة رجالها وشدة إبطالها .
افتتحها قتيبة بن مسلم الباهلى فى أيام الوليد بن عبد الملك وصالح ملوكها
(البلدان ص ٥٨) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .

وكل من يكون أقرب الى الحق ، يكون أحرص على اتباع أوامره ، وكل من يكون أبعد عنه يكون أبعد عن متابعة رسوله ، وأشد اعراضا .

ويرد عنه أنه قال : « عجبت ممن يقطع البوادي والقفار والمناور حتى يصل الى بيته وحرمة ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل الى قلبه لأن فيه آثار مولاة » (١) .

أي أن القلب ، وهو محل المعرفة ، أعظم من الكعبة وهي قبلة الخدمة .

والكعبة هي ما يكون اليه نظر العبد دائما ، والقلب ما يكون اليه نظر الحق دائما — حيثما يكون قلب الحبيب فأنا هناك ، وحيثما يكون حكمه فمرادى هنالك ، وحيثما يكون أثر أنبيائي ، فقبلة أحبائي هناك — والله أعلم .

● ومنهم : الشيخ ذو الخطر ، والفاني عن أوصاف البشر :

« أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي » (٢) رضى الله عنه . كان كاملا وإماما في فنون العلم ، ومن الشيوخ المحتشمين ، وله تصانيف كثيرة طيبة ، وكرامات مشهورة . مثل كتاب : « ختم الولاية » ، وكتاب « النهج » ، وكتاب « نواذر الأصول » . وقد عمل كتباً أخرى كثيرة غير هذه . وهو معظم لدى جدا لأن قلبى صيد له ، وكان شيخى يقول : « محمد در يتيم » ، اذ لا قرين له في العالم كله .

وله كتب في علوم الظاهر ، واسناد عال في الأحاديث . وكان قد بدأ تفسيراً ، فلم يف العمر باتمامه ، وهو منتشر بين أهل العلم بالقدر الذى عمله .

وكان قد قرأ الفقه على واحد من خواص أصحاب أبى حنيفة . ويسمونه في ترمذ (٣) : محمد الحكيم ، ويقتدى به الحكيمية من المتصوفة . وله مناقب كثيرة ، منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام .

ويروى مريده أبو بكر الوراق الترمذى أن الخضر كان يأتى اليه كل يوم أحد ، وكانا ينساءلان الوقائع .

(١) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٤) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « ترمذ » : مدينة مشهورة . راجعة على نهر جيحون من جانبه الشرقى . وأشهر من أخرجتهم من العلماء أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، الترمذى الضرير ، صاحب الصحيح . أحد الأئمة الذين يقتدى بهم في الحديث (معجم البلدان ج ١ ص ٨٤٣) .

ويرد عنه أنه قال : « من جهل أوصاف العبودية ، فهو بنعوت الربانية . أجهل » (١) . أى : كل من لا يصل الى معرفة النفس وهى مخلوقة ، فانه لا يصل الى معرفة الحق تعالى وهو الخالق ، وكل من لا يرى آفات الصفة البشرية ، أنى له أن يرى لطائف صفات الربوبية ؟! لأن الظاهر يتعلق بالباطن ، وكل ما يتعلق بالظاهر دون الباطن ، محال . وكل ما يتعلق بالباطن دون الظاهر ، محال . فأوصاف الربوبية منعقدة فى صحة أركان العبودية ، ولا تصح بغيرها .

وهذه الكلمة أصيلة جدا ومفيدة ، وسنتمها فى موضعها ان شاء الله . مزوجل .

● ومنهم : شرف زهاد الأمة ، ومزكى أهل الفقر والصفوة :

« أبو بكر محمد بن عمر الوراق » (٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وزهادهم ، رأى أحمد بن خضرويه ، وصحب محمد بن على ، وله كتب فى الآداب والمعاملات . وقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : « مؤدب الأولياء » .

ويحكى عن محمد بن على الحكيم فيقول : أعطانى كراسة قائلا : ألقها فى جيحون (٣) ! فلم يطعننى قلبى ، وأخفيتها فى منزلى ، وجئته وقلت : ألقيتها . فقال : ماذا رايت ؟ قلت : لم أر شيئا . قال : لم تلقها ، عد وألقها فى البحر . فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبى ، وألقيتها فى الماء ، فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء . فعدت ورويت له ما حدث ، فقال : الآن ألقيتها . وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثنى به . قال : كنت قد صنفت تصنيفا فى الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن ادراكه ، فطلبه منى أخى الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله اليه .

ويرد عنه أنه قال : « الناس ثلاثة : العلماء والفقراء والأمراء . فإذا فسد العلماء ، فسد الطاعة ، وإذا فسد الفقراء ، فسد الأخلاق ، وإذا فسد الأمراء ، فسد المعاش » (٤) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢١٩) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) « جيحون » (نهر) : وهو اسم أعجمى . سعى بذلك لاجتباحه الارضين . وقال ابن الفقيه يجىء جيحون من موضع يقال له « ريوساران » وهو جبل بتسل بناحية السند والهند وكابل ، ومنه عين تخرج من موضع يقال له « عندميس » (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧١) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « الناس ثلاثة : العلماء والأمراء والفقراء . فإذا فسد الأمراء فسد المعاش ، وإذا فسد العلماء فسد الطاعات ، وإذا فسد الفقراء فسد الأخلاق » (أنظر ص ٢٢٢) ، وورد فى طبقات الشعرانى باختلافه فى ترتيب الفئات (أنظر ج ١ ص ٧٣) .

ففساد الأمراء والسلاطين يكون بالجور ، وفساد العلماء يكون بالطمع ، وفساد الفقراء يكون بالرياء . وما لم يعرض الملوك عن العلماء ، لا يفسدون . وما لم يصحب العلماء الملوك ، لا يفسدون . وما لم يطلب الفقراء الرياسة — يعنى العظمة — لا يفسدون ، لأن جور الملوك من الجهل ، وطمع العلماء من عدم التدين ، ورياء الفقراء من عدم التوكل . فالأمر بلا علم ، والعالم بلا تقوى ، والفقير بلا توكل ، كلهم اقتران الشيطان ، وفساد الخلائق جميعا مرتبط بفساد هذه الطوائف الثلاث .

● **ومنهم : سفينة أهل التوكل والرضا ، وسالك طريق الفنا :**

((أبو سعيد بن عيسى الخراز)) (١) رضى الله عنه . وكان لسان أحوال المريدين ، وبرهان أوقات الطالبين ، وأول من عبر عن مقام الفناء والبقاء . وله مناقب مشهورة ، ورياضات ونقاط مذكورة ، وتصانيف متألثة ، وكلام ورموز عالية . وقد صحب ذا النون المصرى وبشرا الحافى ، والسرى السقطى .

ويرد عنه أنه قال فى قول النبى عليه السلام : « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها » (٢) : وأعجبا لمن لم ير محسنا غير الله ، كيف لا يميل بكليته الى الله » (٣) . لأن الاحسان على الحقيقة هو ما يفعله مالك الأعيان . والاحسان هو عمل الخير لمن يكون فى حاجة الى ذلك الخير ، ومن يلزمه الاحسان من الغير ، كيف يستطيع الاحسان ؟

أى أن الملك والملك لله جل جلاله ، لأنه مستغن عن الغير ، وجميع أهل الدنيا والآخرة وما فى الكونين محتاجون اليه ، ولما عرف أحباء الحق هذا المعنى ، رأوا المنعم والمحسن فى الانعام والاحسان ، فصارت قلوبهم بكليتها أسيرة لمحبتة ، وأعرضوا عن غيره . والله أعلم .

● **ومنهم : شاهد المحققين ، ودليل المريدين :**

((أبو الحسن على بن محمد الأصفهاني)) (٤) رضى الله عنه . ويقال له

(١) من أهل بغداد ، صحب ذا النون المصرى وأبا عبد الله النباجى وأبا عبيد البسرى . مات سنة تسع وسبعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٢٨ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٩ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٣ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٤٠ ، نفحات الانس ص ٧٣) .

(٢) رواه ابن عدى فى الكامل ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود : « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها . وبغض من أساء اليها » (شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣١) .

(٤) على بن سهل بن الأزهر . من قدماء مشايخ أصفهان . صحب محمد بن يوسف ابن معدان المعروف بالبناء المتوفى سنة ست وثمانين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٣ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٢ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٠ ، نفحات الانس ص ١٠٣) .

أيضا : « على بن سهل » . كان من كبار المشايخ . وللجنيد معه مكاتبات لطيفة . وقام عمرو بن عثمان بزيارته في أصفهان .

وكان محفوظا من الفتن والآفة ، وذا لسان طيب في الحقائق والمعاملات وبيان لطيف في الدقائق والإشارات .

يرد عنه أنه قال : « الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات ، واليقين خطرات » (١) . لأن الحضور متوطن القلب ولا تجوز عليه الغيبة ، واليقين خاطر يرد حيناً ويذهب حيناً ، فالحاضرون يكونون في الحضرة ، والموقنون على الاعتبار . وسأورد بابا في الغيبة والحضور في هذا الكتاب .

وقال رحمة الله عليه : « من وقت آدم الى قيام الساعة ، الناس يقولون : القلب ، القلب ، وأنا أحب أن أرى رجلا يصف أيش القلب أو كيف القلب ، فلا أرى » (٢) .

والعوام يسمون تلك القطعة من اللحم : القلب ، وتلك تكون للمجانين والصبية والأطفال والمغلوبين ، ولكنهم بلا قلب . فما هو القلب ، فأننا لا نسمع عنه الا العبارة .

أى : اذا أسمينا العقل القلب ، فذلك ليس القلب ، واذا كنا ندعو الروح قلبا ، فذلك ليس القلب . واذا قلنا للعلم القلب ، فهو ليس بالقلب . وقيام كل شواهد الحق بالقلب ، ولا يوجد منه سوى العبارة .

❦ ومنهم : شيخ أهل التسليم ، وفي المحبة : المستقيم :

(« أبو الحسن محمد بن اسماعيل ») (٣) : (خير النساج) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ في وقته ، وذا معاملة وبيان حسن في العظات ، وعبارة مهذبة في الإشارات . عمر طويلا ، وتاب الشبلى وإبراهيم الخواص كلاهما في مجلسه ، وبعث بالشبلى الى الجنيد ، حفاظا على حرمة الجنيد رضى الله عنه .

وكان مريدا للسرى ، ومن أقران الجنيد ، وأبى الحسين النورى ، وكان الجنيد يحترمه كثيرا ، وقد أجاز له أبو حمزة البغدادي .

(١) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٤) .

(٢) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٣٥) .

(٣) أصله من « ساهرا » وأقام ببغداد . صاحب أبا حمزة البغدادي . وكان من أقران النورى وطبقته . عمر مائة وعشرين سنة ، وتوفي سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٣٢٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٢٥ ، وفيات الأعيان ج ١ ص ١٧٥ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١١ ، نفحات الانس ص ١٣٥ ، خزينة الأصفاء ج ٢ ص ١٨٧) .

ويروى أن السبب في تسميته بخير النساج ، أنه عندما خرج من موطنه « سامرا » (١) قاصدا الحج ، مر بالكوفة ، فأمسك به مكار على باب الكوفة ، وقال له : أنت عبدى ، واسمك خير . فرأى ذلك من الحق ، ولم يخالفه . وظل سنوات طويلة يقوم له بالعمل ، وكلما كان يقول له : يا خير ! يقول : لبيك ، الى ان ندم الرجل على فعلته ، وقال له : اذهب ، لقد أخطأت ، ولست عبدى ! فذهب . وصار الى مكة ، وبلغ تلك الدرجة التي قال معها الجنيد : « خير خيرنا » .

وكان أحب اليه أن يدعى خيرا ، ويقول : لا يجوز أن اغير اسما أسمانى به رجل مسلم .

ويقال انه حين اقتربت وفاته ، حان وقت الصلاة ، فلما افاق من غشية الموت فتح عينيه ونظر نحو الباب ، وقال رضى الله عنه : « قف عافاك الله ، فانما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور . وما أمرت به لا يفوتك ، وما أمرت به فهو شيء يفوتنى ، فدعنى أمض فيما أمرت ثم امض بما أمرت » (٢) .

أى : دعنى أؤدى صلاة العشاء لأقضى أمر الحق . لأترك أنا أيضا تؤدى أمر الحق . ثم طلب الماء وتوضأ ، وصلى صلاة العشاء ، واسلم الروح . رحمة الله عليه .

وقد رآه بعضهم فى النوم فى تلك الليلة ، فقيل له : ما فعل بك الله عز وجل ؟ قال رحمه الله : « لا تسألنى عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم » (٣) .

ويرد عنه أنه قال فى مجلسه : « شرح الله صدور المتقين بنور اليقين وكشف بصائر الموقنين بنور حقائق الايمان » (٤) ، فحيثما يكن الايمان يكن اليقين ، وحيثما يكن اليقين تكن التقوى ، لانهما قرينا أحدهما الآخر ، وكل واحد منهما تابع للآخر .

(١) « سامرا » : تخفيف « سر من رأى » وهى وبغداد مدينتا الملك ودار الخلافة . كانت صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها الا دير للنصارى اشترى أرضه المعتصم العباسى سنة احدى وعشرين ومائتين وبنى المدينة وخط القطائع للقواد والكتاب والناس وخط المسجد الجامع والاسواق ، وأفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس وأفرد لكل مهنة مكانا وأخذ يزيد فى البناء حتى توفى سنة سبع وعشرين ومائتين وولى الخلافة الواثق فزاد من عمرانها وسكنها من جاء بعده من الخلفاء (أنظر : البلدان ص ٢٢ — ٣٥) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية بتحريف طفيف (أنظر ص ٣٢٣) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية « استرحت من دنياكم الوضرة » (أنظر ص ٣٢٣) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية « شرح صدور المتقين ، وكشف بصائر المهتدين بنور حقائق الايمان » (أنظر ص ٣٢٤) .

● ومنهم : داعى العصر ، وفريد الدهر :

((أبو حمزة الخراساني)) (١) رضى الله عنه ، كان من قدماء مشايخ خراسان ، صاحب أبا تراب ، ورأى الخراز . وكان ذا قدم ثابتة فى التوكل .

ومن المشهور فى الحكايات أنه كان يسير يوما فى طريق ، فوقع فى بئر ، وظل بها ثلاثة أيام وليال ، فجاء جماعة من السيارة الى البئر ، فقال لنفسه ، أناديهم ، ثم قال : لا ، لا يحسن أن أستعين بغير الحق ، وهذه تكون شكاية أشكوها اليهم ، فكأنى أقول : ان الله تعالى أوقعنى فى البئر فأخرجونى ! ولما أقبلوا ورأوا بئرا فى وسط الطريق بلا حائل وحاجز ، قالوا : تعالوا نغط رأس هذه البئر لكيلا يقع فيها أحد . قال : فاضطربت ويئست من حياتى . فلما أحكموا فوهة البئر ومضوا ، ناجيت الحق تعالى ، ووطنت قلبى على الموت ، ويئست من الخلق جميعا . فلما حل الليل ، سمعت صوتا من رأس البئر ، فلما أمعنت النظر ، نزع شخص الفطاء عن البئر ، فرأيت حيواتا ضخما ، فأمعنت النظر ، فكانت حية دلت بذيلها ، فأدركت أن نجأتى فى ذلك ، وأنها رسول الحق تعالى وتقديس ، فتعلقت بذيلها حتى أخرجتنى . وهتف بى هاتف : يا أبا حمزة ! ما أحسنها نجاة نجاتك هذه ، فقد نجيناك من التلف بالتلف (٢) .

ويسئل : من الغريب ؟ قال : « المستوحش من الالف » (٣) ، اذ لا وطن للفقر فى الدنيا والعقبى ، والالفة فى غير الوطن وحشة ، ومن تنقطع ألفته من الكون مستوحش من الجميع ، ومن ثم يكن غريبا .

وهذه درجة رفيعة ، والله أعلم .

● ومنهم : داعى المريدين بحكم الأمر :

((أبو العباس أحمد بن مسروق)) (٤) رضى الله عنه . كان من كبار وأجلة خراسان ، وكان باجماع أولياء الله عز وجل من أوتاد الأرض ، وقد صاحب التطب المدار عليه .

(١) أصله من نيسابور من محلة ملقباد . صاحب مشايخ بغداد ، وهو من أقران الجنيد ، ومن أفتى المشايخ وأورعهم ، مات سنة تسعين ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٢٦ ، الرسالة ج ١ ص ١٤٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٢ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٣ ، نفحات الانس ص ٧٠ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) وردت هذه الحكاية فى الرسالة القشيرية مع اختلاف فى أن الذى نجاه : « سبع » (أنظر ج ١ ص ٣٨٠) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٣٢٦) .

(٤) اسمه : أحمد بن محمد بن مسروق . من أهل طوس ، وسكن بغداد ، ومات بها . توفى سنة تسع وتسعين ومائتين . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٣٧ ، الرسالة ج ١ ص ١٣١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٥ ، نفحات الانس ص ٨٩) .

سئل : من القطب ؟ قال : لم يظهر ، ولكن يبدو من الإشارة أنه الجنيد
رضي الله عنه ، فقد خدم أربعين من أصحاب التمكين وأفاد منهم ، وكان
فارسا في علوم الظاهر والباطن .

ويرد عنه أنه قال : « من كان سروره بغير الحق ، فسروقه يورث الهموم ،
ومن لم يكن أنسه في خدمة ربه ، فانه يورث الوحشة (١) » .

أي أن كل ما سواه فناء ، وكل من يسر بالفناء فانه عندما يفنى الفناء
يفتقر . وكل ما سوى خدمته هباء ، وعندما تظهر حقارة المكونات يصير
أنسه كله وحشة ، نفهم كل العالم ووحشته في رؤية الغير ، والله أعلم .

● ومنهم أستاذ المتوكلين ، وشيخ المحققين : ((أبو عبد الله محمد بن
إسماعيل المغربي (٢))) رضي الله عنه . كان من كبار ومقدمي وقته ، ومقبول
الأساتذة في زمانه ، ومراعيا لمريديه .

وكان إبراهيم الخواص وإبراهيم بن شيبان كلاهما من مريديه . وله
كلام عال وبراهين واضحة ، وقدم راسخة في التجريد .

ويرد عنه أنه قال : « ما رأيت شيئا أنصف من الدنيا ، ان خدمتها
خدمتك ، وأن تركتها تركتك (٣) » .

أي أنها تطلبك مادمت تطلبها ، وإذا أعرضت عنها وأقبلت على خدمة
الله تعالى تفر منك ، ولا يتعلق فكرها بقلبك ، فكل من يعرض بصدق عن
الدنيا يأمن شرها ، وينجو من آفتها ، ان شاء الله تعالى .

● ومنهم : شيخ زمانه ، وأوحد عصره وأوانه : ((أبو علي الحسن بن
علي الجوزجاني (٤))) رضي الله عنه . كان منقطع النظر في وقته ، وله
تصانيف زاهرة في علم المعاملات ورؤية الآفات .

(١) ورد في طبقات الصوفية : « من لم يكن أنسه في خدمة ربه فهو من أنسه في وحشة »
(أنظر ص ٢٤١) .

(٢) أبو عبد الله المغربي : صاحب علي بن رزين . وعاش ، كما قيل ، مائة وعشرين
سنة ، ومات على جبل طور سيناء ، وقبره عليه ، مع قبر أستاذه علي بن رزين .
مات سنة تسع وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٢ ،
الرسالة ج ١ ص ١٣٠ ، طبقات الشعراني ج ١ ص ٧٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢
ص ١١٦ ، نفحات الانس ص ٩٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٣) .

(٤) ورد في الاصل : أبو علي الحسن بن علي « الجرجاني » . وورد في طبقات الصوفية :
« أبو علي الجوزجاني » ، وفي نفحات الانس : « أبو العلي الجوزجاني » : من
كبار مشايخ خراسان . له التصانيف المشهورة . تكلم في علم الآفات والرياضات
المجاهدات ، صاحب محمد بن علي الترمذی (٢٨٥ هـ) ومحمد بن الفضل (٢١٩ هـ)
وهو قريب السن منها . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٢٤٦ ، طبقات الشعراني
ج ١ ص ٧١ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١١٨ ، نفحات الانس ص ١٢٨) .

وكان مريد محمد بن على ، ومن أقران أبى بكر الوراق . وكان ابراهيم السمرقندى مريدا له .

يرد عنه أنه قال : « الخلق كلهم فى ميادين الغفلة يركضون ، وعلى الظنون يعتمدون ، وعندهم أنهم فى الحقيقة يتقلبون ، وعن المكاشفة ينطقون(١) » .

وكانت اشارة الشيخ الى خيلاء الطبع ورعونة النفس ، لأن الشخص وان يكن جاهلا فانه يعتقد فى جهله ، وبخاصة جهال المتصوفة . وكما أن علماءهم أعز ما خلق الله ، فجهاالهم أذل ما خلق الله ، فما يكون لعلمائهم حقيقة يكون لجهاالهم ظنا لا حقيقة . وهم يرتعون فى ميدان الغفلة ويخالونه ميدان الولاية ، ويعتمدون على الظن ويخالونه يقينا ، ويسرون مع الرسم ويظنونهم حقيقة ، وينطقون عن الهوى ويتوهمون أنه المكاشفة ، لأن الظن لا يفارق رأس الآدمى الا برؤية جلال الحق وجماله ، لأنه فى اظهار جماله يرويه كل شىء فيفنى ظنهم ، وفى كشف جلاله لا يرون أنفسهم فيتبدد ظنهم ، والله أعلم .

● **ومنهم :** باسط العلوم ، وواسط الرسوم : **((أبو محمد أحمد بن الحسين الجريرى(٢)))** رضى الله عنه . كان من أصحاب سر الجنيد ، وأدرك صحبة سهل بن عبد الله . وكان خبيرا فى مختلف العلوم ، وإمام الوقت فى الفقه ، وعلى علم جيد بالأصول ، وبلغ فى طريقة التصوف درجة جعلت الجنيد يطلب منه أن يؤدب مريديه ، ويشرف على رياضاتهم . وكان بعد الجنيد ولى عهده الذى خلفه .

ويرد عنه أنه قال : « دوام الايمان وقوام الأديان وصلاح الأبدان فى خلال ثلاث : الاكتفاء ، والاتقاء ، والاحتماء . فمن اكتفى بالله صلحت سيرته ، ومن اتقى ما نهى الله عنه استقامت سيرته ، ومن احتمى ما لم يوافقه ارتاضت طبيعته ، فثمرة الاكتفاء صفوة المعرفة ، وعاقبة الاتقاء حسن الخليقة ، وغاية الاحتماء اعتدال الطبيعة(٣) » .

أى أن كل من يكتفى بالله : تصفو معرفته ، وكل من يستمسك بالمعاملة : يحسن خلقه فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى عليه السلام : « من كثر

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٤٨) .

(٢) أبو محمد الجريرى : قال ان اسمه : أحمد بن محمد بن الحسين . مات سنة احدى عشرة وثلثائة . (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٥٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٣ ، طبقات الشعرا ج ١ ص ٧٥ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٣٢ ، نفحات الانس ص ٣٩١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ١٨٦) .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « قوام الايمان ، ودوام الايمان ... الخ » (أنظر ص ٢٦٢) .

صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار(١) . و في خبر آخر ان المتقين يأتون يوم القيامة « ووجوههم نور على منابر من نور » . وكل من يسلك طريق الاحتماء : يحفظ جسده من العلة ، ونفسه من الشهوة .

وهذه أقوال جامعة وحسنة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : شيخ الظرفاء ، وقدوة الأصفياء : ((أبو العباس أحمد بن سهل الأدمي))(٢) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ وأكثرهم حشمة ، مبجلاً بين أقرانه ، وعالماً بعلوم التفسير والقراءات ، وكان ذا بيان في فهم القرآن ولطائفه ، اختص به .

وكان من كبار مريدي الجنيد ، وصاحب إبراهيم المارستاني . وكان أبو سعيد الخراز يجله كثيراً ، ولا يسلم لأحد غيره بالتصوف .

ويرد عنه أنه قال : « السكون الى مألوفات الطبع يقطع صاحبها عن بلوغ درجات الحقائق(٣) » .

أى أن كل من يسكن الى مألوفات الطبع يتخلف عن الحقيقة ، لأن الطباع أدوات النفس وآلاتها ، والنفس محل الحجاب ، والحقيقة محل الكشف ، والمريد المحجوب والساكن لا يكشف أبداً ، فادراك الحقائق منعقد في الأعراض عن مألوفات الطباع . والطبع يألف اثنتين ، احدهما : الدنيا وأحوالها ، والأخرى : العقبى وأحوالها ، فهو يألف الدنيا بحكم الجنسية ، ويألف العقبى بحكم الظن . والفه يكون مع وهم العقبى لا مع عين العقبى ، لأنه لو عرفها حق المعرفة ، لانقطع عن هذه الدار الفانية ، واذا ما انقطع عن هذه (أى الدنيا) تفنى ولاية الطبع ، ومن ثم يكون كشف الحقائق ، لأنه لا صلة لتلك الدار (أى العقبى) بالطبع الا بفناء الطبع ، « لأن فيها مالا خطر على قلب بشر » . وخطر العقبى في أن طريقها مملوء بالخطر ، وكل ما يخطر في الخواطر ليس فيه كثير خطر . ولما كان الوهم عاجزاً عن معرفة حقيقة العقبى ، فكيف يكون للطبع الف مع عينها ؟

أذن ، فقد صح أن الف الطبع يكون مع وهم العقبى ، والله أعلم .

● **ومنهم** : مستغرق المعنى ، ومستهلك الدعوى : ((أبو مغيث الحسين

(١) رواه ابن ماجه عن جابر : « من كثرت صلاته » (شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٣١٤) .

(٢) هو أبو العباس بن عطاء : سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر : ص ٥٧٢) .

ابن منصور الحلاج (١) « رضى الله عنه ، كان من سكارى هذه الطريقة ومشتاقياها ، وذا حال قوى وهمة عالية .

ومشايع هذه الطريقة مختلفون فى شأنه ، فهو مردود عند طائفة ، ومقبول عند أخرى ، فقد رده فريق من أمثال عمرو بن عثمان ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأبى يعقوب الأقطع ، وعلى بن سهل الأصفهاني وغيرهم . وقبله ابن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وأبو القاسم النصر ابادى وجملة المتأخرين من الصوفية . وتوقف فى أمره فريق مثل : الجنيد والشبلى والجريرى والحصرى وغيرهم ، ونسبة فريق آخر الى السحر وأسبابه .

أما فى إيماننا هذه ، فقد كان للشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، والشيخ أبى القاسم الجرجاني ، والشيخ أبى العباس الشقاني — رضى الله عنهم — فى حديثه سر ، وكان لديهم معظما . وأما الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه ، فيقول : اذا كان من أرباب المعانى والحقيقة فلن يصير مهجورا بهجر من رده ، وان يكن مردودا من الحق ومقبولا من الخلق ، فلن يصير مقبولا بقبول الخلق . ونحن نتركه لله بحكم التسليم ، ونجمله بقدر ما وجدنا فيه من دلائل الحق (٢) . ولا ينكر كمال فضله وصفاء حاله وكثرة مجاهداته ورياضاته الا قلة من جملة الشيوخ .

وقد كان من غير الأمانة اغفال ذكره فى هذا الكتاب، لأن بعض أهل المظاهر يكفرونه وينكرون عليه ، وينسبون أحواله الى العذر* والاحتيال والسحر ، ويظنون أن الحسين بن منصور الحلاج هو الحسن بن منصور الحلاج (٣) ، ذلك الملحد البغدادي الذي كان أستاذ محمد بن زكريا ، ورفيق سعد القومطى . ولكن الحسين هذا الذي اختلف فى أمره كان فارسيا من بيضاورد (٤)، ولم يكن هجر المشايخ له يعنى الطعن فى دينه ومذهبه ، بل فى حال دنياه ، فقد كان فى بداية أمره مريد سهل بن عبد الله وانصرف عنه دون استئذان ، واتصل بعمرو بن عثمان ، وذهب من عنده بلا اذن وتعلق

-
- (١) ارجع الى ما ورد عن الحلاج فى القسم الاول .
(٢) امتنع القشيري عن ايراد ترجمة للحلاج ضمن تراجم الشيوخ فى القسم الخاص بالتراجم فى الرسالة . * هكذا فى الاصل (يعذر) . عذر الرجل عذرا وعذرا (لازم) كثرت ذنوبه وعبوبه : (أقرب الموارد) .
(٣) كان الهجویری أول من طرق فكرة أنه كان هناك شخصان باسم الحلاج : أحدهما « الحسن بن منصور » الملحد المنسوب الى بغداد ، والآخر « الحسين بن منصور » الحلاج الحقيقى الفارسى المنسوب الى بيضاورد . وقد نقل « العطار » فى تذكرة الاولياء و « محمد بارسا » فى فصل الخطاب هذه الفكرة عنه .
(٤) « البيضاء » (بيضا ورد) : مدينة بفارس وهى أكبر مدينة فى كورة اصطخر . وانما سميت البيضاء لان لها قلعة تبين من بعد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للمسلمين بقصدونها فى فتح اصطخر . وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ (معجم البلدان ج ١ ص ٧٩١) .

بالجنيد فلم يقبله ، ولهذا السبب هجروه جميعا ، فهو مهجور المعاملة
لا مهجور الأصل .

أما رأيت أن الشبلى قال : « أنا والحلاج شيء واحد فخلصنى جنونى
وأهلكه عقله » ؟ فلو كان مطعوناً فى دينه لما قال الشبلى أنا والحلاج
شيء واحد ، وقال محمد بن خفيف : « هو عالم ربانى(١) » ومثل هذا ،
فغضب شيوخ الطريقة والمشايخ — رضى الله عنهم — وعقوبتهم ، أثمر
الهجران والوحشة .

•

وله تصانيف زاهرة ورموز وكلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا
على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفاً(٢) فى بغداد ونواحيها ،
وبعضها فى خوزستان(٣) وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعاً — كما هو
الحال فى بداية أمر المريدين — أقالاً : بعضها أقوى ، وبعضها أضعف ،
وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع . وحين يكون لانسان دليل وبرهان من
الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقاً ،
خاصة وأن المعبر يقرب فى عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ،
وتعجز العقول عن ادراكه ، ومن ثم يقولون ان هذا الكلام عال ، فينكره
فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون انكارهم كإقرارهم . ولكن
حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون
بالغربة ، ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من انكاره وإقراره .

ثم ان هؤلاء الذين نسبوا ذلك الرجل الى السحر باطل زعمهم ، لأن
السحر فى أصول أهل السنة والجماعة حق كالكرامة ، واطهار السحر
فى حال الكمال كفر ، واطهار الكرامة فى حال الكمال معرفة ، لأن الأول
يكون نتيجة سخط الله جل جلاله ، والآخر قرينة رضاه . وسنزيد هذا الكلام
شرحاً فى باب اثبات الكرامات ان شاء الله تعالى .

وبإجماع أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة ، لا يكون المسلم ساحراً
والكافر مكرماً ، لأن الأضداد لا تجتمع . وكان الحسين رضى الله عنه طوال
عمره فى لباس الصلاح : من صلوات طيبة ، وأذكار ومناجيات كثيرة ،

(١) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٠٨) .

(٢) ذكر ابن النديم أسماء سبعة وأربعين كتاباً من كتب الحلاج (أنظر الفهرست ص ٢٧١)

(٣) « خوزستان » : (معرباً « الأخواص ») وهو اسم لجميع بلاد الخوز .

قال ابن الفقيه الأصمعى : الخوز هم الفعلة الذين بنوا الصرخ . وقال أبو زيد :

وليس بخوزستان جبال ولا رمال الا شيء يسير يتأخم نواحي تستر وجند يسابور .

وأما أرض خوزستان فأنسبه شيء بأرض العراق . (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩٦) .

وصيامات متصلة ، وتحميدات مهذبة ، ونكات لطيفة في التوحيد ، فلو كانت أفعاله سحرا لكان هذا كله منه محالا . فصح اذن أنها كانت كرامات ، والكرامات لا تكون الا لولى محقق .

وقد رده بعض أهل الأصول ، وهم يعترضون عليه في كلماته التي تعبر عن الامتزاج والاتحاد ، وذلك مبالغة منه وتهويل في العبارة لا في المعنى ، اذ لا سلطان للمغلوب على العبارة حتى تصح عبارته في غلبة الحال .

ويجوز أيضا أن يكون معنى العبارة مشكلا فلا يستطيعون فهم المعنى المقصود ، ويصور لهم وهمهم صورة عنه ، فينكرونه ، وانكارهم هذا يرجع اليهم لا الى ذلك المعنى .

غير انى ريت فريقا من الملاحدة — أخزاهم الله — في بغداد ونواحيها يدعون توليهم له ، وقد جعلوا أقواله حجة لزندقته ، وأسموا أنفسهم الحلاجيين . وهم يغالون في أمره كفلو الرافضة (١) في تولى على رضى الله عنه .

وسأورد بابا في الفرق بين الفرق أرد فيه على كلماتهم ان شاء الله عز وجل .

وفي الجملة : أعلم أنه لا يجوز الاقتداء بكلامه لأنه كان مغلوبا في حاله لا متمكنا ، وينبغي للكلام متمكن حتى يمكن الاقتداء به . وهو عزيز على قلبى كثيرا بحمد الله ، ولكن طريقه غير مستقيمة على أى أصل ، وحاله غير مستقر على أى وجه ، وفي أحواله فتن كثيرة . وكان لى في ابتداء حالى منه قوى في معنى البراهين . وقد صنف قبل هذا كتابا في شرح كلامه ، وأثبت بالدلائل والحجج علو كلامه وصحة حاله في ذلك الكتاب ، وذكرت بدايته ونهايته في كتاب آخر اسمه المنهاج ، وقد أوردت هنا أيضا هذا المقدار . والطريق الذى ينبغي اثبات أصله بكثير من الاحتراز ، لما إذا ينتمى الناس اليه ويقتدون به ؟ ولكن الهوى لا يتفق أبدا مع الاستقامة ، ويبحث دائما عن الطريق المعوج ليتعلق به .

(١) « الرافضة » : فرقة من الشيعة سميت بذلك لأنه لما خرج زيد بن على بن الحسين سئل عن رأيه في أبى بكر وعمر فأحسن القول فيهما ونرحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة من أجل توليه لهما فسموا رافضة . وانقسم الشيعة اذ ذاك فريقين : رافضة وزيدية ، وكلاهما يفضل عليا على أبى بكر وعمر ، ولكن الزيدية أقل طعنا عليهما وأعدل حكما فيهما .

« ذخى الاسلام » أحمد أمين : القاهرة ١٩٥٦ ج ٣ ص ١٣٦

ويرد عنه أنه رضى الله عنه قال : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات » (١) .

وهذه العبارة كلها آفة ، وفي حقيقة المعنى هذر . وإذا حصل المعنى لا يفقد بالعبارة ، وإذا فقد المعنى لا يوجد بالعبارة ، لأن الوهم يظهر فيها ويهلك الطالب ، لأنه يخال العبارة : المعنى . والله أعلم .

● **ومنهم : قائد المتوكلين ، ورئيس المستسلمين : « أبواسحق إبراهيم ابن أحمد الخواص (٢) »** رضى الله عنه . كان ذا شأن عظيم ومنزلة رفيعة في التوكل ، أدرك كثيرا من الشيوخ ، وله آيات وكرامات كثيرة ، وتصانيف طيبة في معاملات هذه الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضع ما استكفيت » (٣) .

والمراد من هذا هو أن لا تتكلف في القسمة ، لأن القسمة الأزلية لا تتغير بتكلفك . ولا تقصر في الأمر لأن ترك الأمر يثمر لك العقوبة .

وقد سئل : ما رأيت من العجائب ؟ قال : رأيت منها الكثير ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من أن الخضر عليه السلام طلب منى أن يصحبني فلم أجبه . قيل : لم ؟ قال : لا لأنى كنت أطلب رفيقا خيرا منه ، ولكنى خشيت أن أعتمد عليه دون الحق ، وتضر صحبتته بتوكلى ، وأتخلف بالنافلة عن الفريضة .

وهذا من درجات الكمال ، والله أعلم .

● **ومنهم : حجاب الأسرار والتمكين . وأساس اهل اليقين : « أبو حمزة البغدادي البزاز (٤) »** رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومتكلميهم ،

(١) ورد في طبقات الصوفية : « الألسنة مستنطقات تحت نطقها مستهلكات . وأنفس

مستعملات تحت استعمالها مستهلكات » (أنظر ص ٣١٠) .

(٢) إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل : كان أوجد المشايخ في وقته ، ومن أقران الجنيد

والنوري . مات في جامع الرى سنة احدى وتسعين ومائتين (أنظر ترجمته في

طبقات الصوفية ص ٢٨٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٦ ، طبقات الشعرائى ج ١

ص ٧٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٤٩ ، نفحات الانس ص ١٣٦ ، خزينة الاصفياء

ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية (أنظر ص ٢٨٥) .

(٤) اسمه : محمد بن إبراهيم . كان يتكلم ببغداد في مسجد الرصافة قبل كلامه في

مسجد المدينة . وكان ينهى الى حسن المسوحى . وتكلم يوما في جامع المدينة ،

فتفر عليه حاله ، وسقط عن كرسىه ، ومات في الجمعة الثانية . كان من رضاء

أبى سراج النخشبى في أسنارد ، ودخل البصرة برارا . وتوفى سنة سبع وساتين =

ومريد الحارث المحاسبى ، وصاحب السرى . وكان من أقران النورى وخير
النساج ، وصاحب محتشمى المشايخ .

كان يعظ في مسجد الرصافة في بغداد ، وكان عالما بالتفسير والقراءات ،
وله في أحاديث النبى عليه السلام روايات عالية .

وكان رفيق الثورى في وقعته وبلائه اللذين خلصهما الله تعالى منهما ،
وسأذكر ذلك في شرح مذهب النورى ان شاء الله عز وجل .

ويرد عنه أنه قال : « اذا سلمت منك نفسك فقد أدبت حقها ، واذا
سلم منك الخلق قضيت حقوقهم (١) » .

أى أن الحقوق اثنان : أحدهما حق نفسك عليك ، والثانى حق الخلق عليك
فاذا منعت نفسك من المعصية ، وطلبت طريق سلامة أخراها ، فانك تكون
قد قضيت حقها ، واذا أمنت الخلق من أذاك ولم تطلب أساءتهم ،
فانك تكون قد قضيت حقهم . فاجتهد أن لا يصيبك والخلق منك أذى ،
ومن ثم انشغل بقضايا حق الحق . والله أعلم .

● **ومنها** : الامام فى فنه ، العالى الحال ، اللطيف الكلام : « أبوبكر محمد
ابن موسى الواسطى » (٢) رضى الله عنه . كان من محققى المشايخ ، وذا
شأن عظيم ودرجة رفيعة فى الحقائق ، ومرضيا لدى جملة المشايخ .

وكان من قدماء أصحاب الجنيد ، وذا عبارات غامضة لا يفهمها أهل
الظاهر . ولم يستقر ببلد قط ، فلما ورد مرو قبله أهلها للطف بطبعه
وحسن سيرته ، وسمعوا أقواله . وقضى هنالك عمره .

ويرد عنه أنه قال : « الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره (٣) »
لأنه اذا ذكره الذاكر ، فلا ضير اذا نسى ذكره ، وانما الضير فى أن يذكر
ذكره وينساه ، لأن الذكر غير المذكور ، فالاعراض عن المذكور مع ذكر
الذكر يكون أقرب الى الغفلة من الاعراض بلا ذكر ، ولا يكون للناسى
فى النسيان وغيبة الذكر حضور .

= ومائتين (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٢٩٥ ، الرسالة ج ١ ص ١٣٩ ،
طبقات الشعرا ج ١ ص ٧٩ ، نذكره الاولياء ج ٢ ص ٢٥٩ ، نفحات الانس
ص ٧١ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٦٦) .

(١) ورد فى طبقات الصوفية : اذا سلمت منك نفسك فقد أدبت حقها ، واذا سلم منك
الخلق فقد أدبت حقوقهم (أنظر ص ٢٩٨) .

(٢) سبق الإشارة اليه .

(٣) ورد فى طبقات الصوفية : « الذاكرون فى ذكره أكثر من الناسين لذكره ، لأن ذكره
سواء » (أنظر ص ٣٠٥) .

وللذاكر في الذكر والغيبة عن المذكور : ذكر الحضور ، وذكر الحضور ،
بلا حضور أقرب الى الغفلة من الغيبة بلا ذكر ، لأن هلاك طلاب الحق في
ذكرهم ، فحيثما يكون الذكر أكثر ، يكون المعنى أقل . وحيثما يكون المعنى
أقل ، يكون الذكر أكثر . وحقيقة ذكرهم من تهمة العقل ، والعقل يحصل
من الهمة ، ولا اقتران للهمة قط بالهمة والتهمة .

وأصل الذكر يكون في الغيبة أو الحضور ، فحين يكون للذاكر غيبة عن
نفسه وحضور مع الحق تعالى ، فانه لا يكون ذكرا ، بل مشاهدة . وحين
يكون غائبا عن الحق وحاضرا مع نفسه ، فذلك لا يكون ذكرا ، بل غيبة ،
والغيبة من الغفلة ، والله أعلم .

● **ومنهم** : سكينه الأحوال ، وسفينه المقال : « أبو بكر دلف بن جحدر
الشبلى » (١) رضى الله عنه . كان من كبار المشايخ ومذكورينهم ، وذا حال
مذهب ووقت مطيب مع الحق تعالى ، وله اشارات لطيفة ومقبولة ، « كما
قال واحد من المشايخ المتأخرين : ثلاثة من عجائب الدنيا : اشارات الشبلى ،
ونكات المرتعش ، وحكايات جعفر » .

وكان من كبار أهل التصوف وسادات الطريقة . وكان أولا ابن حاجب
حجاب الخليفة ، وتاب في مجلس خير النساج رحمه الله ، وصار مريدا
للجنيد ، ورأى كثيرا من المشايخ .

يرد عنه أنه قال في معنى قول الله عز وجل : « قل للمؤمنين يغضوا من
أبصارهم » (٢) أى : أبصار الرعوس عن المحارم ، وأبصار القلوب عما سوى
الله ، « فمتابعة الشهوة وملاحظة المحارم من الغفلة ، والمعصية الكبرى
لأهل الغفلة هي أنهم يجهلون عيوبهم ، ومن يكن جاهلا في الدنيا يكن أيضا
جاهلا في الآخرة ، لقوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة
أعمى » (٣) .

وفي الحقيقة أنه اذا لم يطهر الله قلب انسان من ارادة الشهوة ، فانه
لا يحفظ عينه من غوامضها ، واذا لم يثبت ارادته في قلب انسان فانه
لا يحفظ بصيرته من النظر الى الغير .

ويرد عنه أنه دخل السوق يوما ، فقال قوم : « هذا مجنون » ! . فقال
رضى الله عنه : « أنا عندكم مجنون وأنتم عندى أصحاء ، فزاد الله في
جنونى وزاد فى صحتكم » ، فجنونى من شدة المحبة ، وصحتكم من غاية

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) سورة « النور » آية ٣٠ .

(٣) سورة « الاسراء » آية ٧٢ .

الغفلة ، فليزد الله في جنونى لأزداد قربا على قرب ، وليزد في صحتكم(١) لتزدادوا بعدا على بعد .

وهذا القول من الغيرة ، والا فكيف يكون في تلك الدرجة شخص لا يميز بين المحبة والجنون ؟!

● ومنهم : حاكى أحوال الأولياء بالطف الأقوال والأداء :

« أبو محمد جعفر بن نصير الخلدی (٢) » رضى الله عنه ، كان من كبار أصحاب الجنيد ، ومن قدماء الصوفية ، متبحرا في فنون هذا العلم ، وحافظ أنفاس المشايخ وراعى حقوقهم .

وله كلام عال في كل فن ، وقد ربط كل مسألة بحكاية ونسبها الى غيره ، تجنباً للرعونة .

ويرد عنه أنه قال : « التوكل استواء القلب عند العدم والوجود » (٣) .

أى أن التوكل هو أن يكون وجود الرزق وعدمه لدى قلبك سواء ، فلا تفرح بوجود الرزق ، ولا تغتم لعدمه ، لأن الجسد ملك للمالك ، والحق تعالى أولى برعايته وهلاكه ، وهو يحفظه كما يريد فلا تتدخل بينهما ، ودع المالك للمالك ، واقطع تصرفك .

ويروى هذه الحكاية فيقول : دخلت على الجنيد فوجدته محموماً ، فقلت يا استاذ ! ادع الحق تعالى أن يشفيك . فقال : لقد كنت أدعو بالأمس فنوديت في سرى : ان جسدك ملك لنا ، فاذا شئنا جعلناه صحيحاً ، واذا شئنا جعلناه عليلاً ، فمن أنت حتى تتدخل بيننا وبين ما نملك ؟ فاقطع تصرفك لتكون عبداً . والله أعلم بالصواب .

(١) الكلمة الفارسية في الاصل تعطى معنى « صحوكم » .

(٢) اسمه : جعفر بن محمد بن نصير . بغدادى المنشأ والمولد . صاحب الجنيد وأبا الحسين النورى وغيرهم من مشايخ الوقت . وكان المرجع اليه في علوم القوم وكتبهم وحكاياتهم وسيرهم . كان من أفنى المشايخ وأجلتهم وأحسنهم قولاً . توفى ببغداد سنة ثمان وأربعين وثلثمائة . أسند الحديث ورواه . (أنظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٣٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٧ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٢٨٣ ، نفحات الانس ص ٢٢٣ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) ورد في طبقات الصوفية : سئل عن التوكل فقال : استواء القلب عند العدم والوجود ، بل الطرب عند العدم والخمول عند الوجود ، بل الاستقامة مع الله تعالى على الحالين « (أنظر : ص ٤٣٧) .

ومنهم الشيخ محمود ، ومعدن الجود :

((أبو علي بن محمد بن القاسم الرودياري (١))) رضى الله عنه كان من فتيان التصوفة وقادتهم ، ومن أبناء الملوك ، وذا شأن عظيم فى فنون المعاملات ، ومناقب كثيرة وأقوال لطيفة فى دقائق الطريقة .

ويرد عنه أنه قال : « المرید لا يريد لنفسه إلا ما أراد الحق له ، والمراد لا يريد من الكونين شيئاً غيره (٢) » ، فيجب أن يكون الراضى بارادة الحق تاركاً لارادته ، ليكون مریداً . وليس للمحب نفسه ارادة حتى يكون له مراد ، ومن يريد الحق لا يريد إلا ما يريده له . والمراد من الحق لا يريد غير الحق ، فالرضا من بداية المقامات ، والمحبة من نهاية الأحوال . والمقامات تنسب الى تحقيق العبودية ، والدرجات تنسب الى تأييد الربوبية . وما دام الأمر كذلك ، يكون المرید قائماً بنفسه ، ويكون المراد قائماً بالحق ، والله أعلم .

• ومنهم : خازن التوحيد ، وسمسار التفريد :

((أبو العباس القاسم بن مهدي السيارى (٣))) رضى الله عنه . كان من أئمة عصره ، عالماً بعلوم الظاهر والباطن ، صاحب أبا بكر الواسطى ، وأخذ الأدب عن كثير من المشايخ .

وكان أظرف القوم فى الصحبة ، وأزهدهم فى الآفة ، وله كلام عال وتصانيف حمودة .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد أن لا يخطر بقلبك ما دونه (٤) » . لأن التفكير فى الغير من اثباتهم ، وإذا ثبت الغير : سقط حكم التوحيد .

وكان فى البداية من بيت علم ورياسة ، ولم يكن أحد من أهل مرو يتقدم على أهل بيته فى الجاه ، وورث عن أبيه ميراثاً كبيراً ، فدفعه كله ثمناً لشعرتين من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، فمن الله عليه بالتوبة

(١) كنيته أبو على ، واسمه : أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهریار . من أهل بغداد . سكن مصر وصار شيخها ومات بها . صاحب الجنيد والنورى ومن فى طبقتهم ، وصاحب بالشام ابن الجلاء . كان عالماً فقيهاً عارفاً بعلم الطريقة ، حافظاً للحديث . توفى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٣٥٤ ، الرسالة ج ١ ص ١٥١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٤٨ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٢٨٥ ، نفحات الانس ص ٢٠٠ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ٣) .

(٢) ورد فى طبقات الصوفية (أنظر : ص ٣٥٦) .

(٣) اسمه القاسم بن القاسم بن مهدي ، كان من أهل مرو وشيوخهم ، وأول من تكلم عندهم فى دقائق الأحوال . كان فقيهاً عالماً ، كتب الحديث الكثير ورواه . توفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة (أنظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٤٠ ، الرسالة ج ١ ص ١٦٨ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٤ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٤ ، نفحات الانس ص ١٤٥ ، خزينة الاصفاء ج ٢ ص ١٩٧) .

(٤) ورد فى طبقات الصوفية : « حقيقة المعرفة أن لا يخطر بالقلب مادونه » (أنظر ص ٤٤٤)

ببركات ذلك ، وصحب أبا بكر الواسطي رحمه الله ، وبلغ من الدرجة أن صار امام صنف من المتصوفة . ولما أشرف على ترك الدنيا ، أوصى فوضعوا الشعرتين في فمه .

وقبره اليوم ظاهر بمرور ، والناس يذهبون اليه لطلب الحاجات ، وتحقيق الأمنيات ، وهو مجرب ، والله أعلم .

● **ومنهم :** مالك وقته في التصوف ، والخالى طبعه من التكلف والتصرف ، « **أبو عبد الله محمد بن خفيف (١)** » رضى الله عنه . كان امام زمانه في مختلف العلوم ، وذا شأن عظيم في المجاهدات ، وبين شاف في الحقائق ، وعهد مهياً وواضح في التصانيف . وقد أدرك ابن عطاء ، والشبلى ، والحسين بن منصور والجريري ، وصحب أبا يعقوب النهرجورى بمكة ، وقام بأسفار طيبة على التجريد .

وكان من أبناء الملوك ، فرزقه الله تعالى التوبة ، وأعرض عن الدنيا ، وثنائه عظيم عند أهل المعاني .

ويرد عنه أنه قال : « التوحيد : الاعراض عن الطبيعة » . لأن الطبائع كلها مكفوفة عن نعمائه ، ومحجوبة عن آلائه ، فما لم يحصل الاعراض عن الطبع ، لا يتأتى الاقبال على الحق ، وصاحب الطبع محجوب عن حقيقة التوحيد . ومتى رأيت آفة الطبع ، بلغت حقيقة التوحيد .

وله آيات وبراهين كثيرة . والله أعلم .

● **ومنهم :** سيف السياسة ، وشمس السعادة :

« **أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي (٢)** » رضى الله عنه . كان من كبار أهل التمكين ، ذا حظ وافر في فنون العلم ، وصاحب رياضات وسياسات ، وله في رؤية الآفات آيات كثيرة وبراهين طيبة .

(١) كان شيخ المشايخ في وقته . وكان عالماً بعلوم الظاهر وعلوم الحقائق . مات سنة احدى وسبعين وثلثمائة (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٦٢ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٣ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٩٦ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ١٢٤ ، تفحات الانس ص ٢٣٥ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٤) .

(٢) سعيد بن سلام : من ناحية « قيروان » وهي مدينة عظيمة بأفريقية ، مصرها عقبة ابن نافع بعد أن أتم فتح أفريقية . أقام بالحرم مدة وكان شيخه . كان أوحداً في طريقته في الزهد . ورد نيسابور ومات بها سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٧٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٧٩ ، طبقات الشمراني ج ١ ص ٩٧ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٨١ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣٠٦ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٦) .

ويرد عنه رضى الله عنه أنه قال : « من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب » .

أى قال : ان الصحبة تكون مع الأغنياء ، والمجالسة تكون مع الفقراء .
فإنما يعرض عن الفقراء من يكون قد جالسهم ، لا من يكون قد صحبتهم — لأنه لا اعراض فى الصحبة — وحين ينصرف عن مجالستهم الى صحبة الأغنياء ، يموت قلبه بموت الاحتياج ، ويبتلى جسده بالعجب والغرور ،

وإذا كان الاعراض عن المجالسة يثمر موت القلب ، فكيف يكون الاعراض عن الصحبة ؟

وقد ظهر فى هذه الكلمات الفرق بين الصحبة والمجالسة ، والله أعلم .

● ومنهم : المبرز فى صفوف الصوفيين ، والمعبر عن أحوال العارفين ،
« أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن محمود بن محمود (١) النصر آبادى (٢) » رضى الله عنه .
كان فى نيسابور كالمملك شابور (٣) من نيسابور ، أى أنه ملك نيسابور بعلو الحال ومرتبة الرجال ، غير أن عز الملوك يكون فى الدنيا ، وعزه فى الآخرة .

وله كلمات بديعة وآيات رفيعة . وكان مريد الشبلى وأستاذ للمتأخرين من أهل خراسان . ولم يكن له مثيل فى عصره ، فقد كان أعلم وأورع أهل زمانه فى فنون العلم .

(١) ورد هذا الاسم فى الأصل « محمود » وفى الحاشية « حمويه » وفى طبقات الصوفية ونفحات الأنس « حمويه » .

(٢) أبو القاسم النصر آبادى : نيسابورى الأصل والمنشأ والمولد . شيخ خراسان فى وقته . أقام بنيسابور ثم خرج فى آخر عمره الى مكة وحج سنة ست وثلاثين وثلثمائة ، وأقام بالحرم مجاورا ، مات سنة سبع وستين وثلثمائة . كتب الحديث الكثير ورواه ، وكان ثقة . (انظر ترجمته فى طبقات الصوفية ص ٤٨٤) ، الرسالة ج ١ ص ١٨١ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٩٧ ، تذكرة الاولياء ج ٢ ص ٣١١ ، نفحات الأنس ص ٢٣٠) .

(٣) « شابور » : سابور الأول ابن أردشير بن بابك : الملك الساسانى . تولى الملك بعد أبيه سنة ٢٤١ م ، وفى أيامه ظهر « مانى » وقال بالآيتين ، وعاب مذهبه . ومال سابور اليه . وقال مالى ان مدبر العالم اثنان وهما شيطان قديمان : نور وظلمة ، خالقان : فخالق خير وخالق شر . فأجابه سابور الى هذه المقالة وأخذ بها أهل مملكته . وأقام سابور على هذه المقالة عشرين سنة ثم رجع عن الثنوية الى المجوسية ، وهم بقتل مانى ، فهرب الى بلاد الهند ، وأقام بها حتى مات سابور . وفى حروبه مع الرومان انتصر عليهم وحاصر ملكهم « فاليريان » بمدينة انطاكية ، وأسره وحمله وجماعة كثيرة معه وأسكنهم « جندى سابور » . ولكن ساءت حاله الذى تطلب على الروم ، استطاع « أذينة » العربى حاكم « تدمر » أن يبرزه وعلى أثر هذه الهزيمة استولى على آسيا الصغرى والشام وجزء كبير من العراق ، واعترف به الامبراطور الرومانى « جالينوس » وخلع عليه لقب امبراطور . وخلفته زوجته « الزباء » بعد وفاته ، واستلاعت بوصفها وصية على ابنها « وهب اللات » أن تدفع اغارة الجوش على تدمر .

يرد عنه أنه قال (١) : « أنت بين نسبتين : نسبة الى آدم ، ونسبة الى الحق . فاذا انتسبت الى آدم دخلت في ميادين الشهوات ، ومواضع الآفات والزلات ، وهى نسبة تحقق البشرية لقوله تعالى : « انه كان ظلوما جهولا (٢) » . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في ميادين الكشف والبراهين والعصمة والولاية ، وهى نسبة تحقق العبودية لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا (٣) » .

ونسبة آدم منقطعة يوم القيامة ، ونسبة عبوديته قائمة دائمة ولايتطرق اليها التغير . وعندما ينسب العبد نفسه الى نفسه أو الى آدم ، فان كمال هذه النسبة أن يقول : « انى ظلمت نفسى (٤) » . وحين ينتسب الى الحق يكون الأدمى أهلا لقول الحق تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم (٥) » . والله أعلم .

● ومنهم : سرور سر سالكى الطريق ، وجمال أرواح أهل التحقيق ، « أبو الحسن على بن ابراهيم الحصرى (٦) » رحمه الله ، ورضى عنه . كان من محتشمى أحرار حضرة الحق تعالى ، ومن كبراء أئمة المتصوفة ، ولم يكن له نظير في زمانه ، وله كلام عال وعبارات حسنة في كل المعانى .

= ويتصل بتاريخ سابور أيضا قصته مع صاحب « الحضر » — وكان يقال له : « الساطرون » أو « الضيزن » — وابنته « النضيرة » التى عشقت سابور وعشقا ، واتفقت معه على حيلة يستطيع بها أن يدخل مدينة أبيها بجيوشه ويقتله في مقابل أن يتزوجها ، ففعل وتداغت المدينة ففتحها عنوة وقتل الضيزن وخرب المدينة وحمل معه النضيرة وتزوجها ثم لم يلبث أن قتلها . وينسب الى سابور بناء مدينة نيسابور في خراسان ، ومدينة « جندى سابور » في الاهواز . وملك سابور احدى وثلاثين سنة . (انظر : تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ١٢٩ ، مروج الذهب ج ١ ص ١٠٤ ، تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٧ — ٥١) .

(١) ورد هذا القول في طبقات الصوفية : « أنت بين نسبتين : نسبة الى الحق ، ونسبة الى آدم . فاذا انتسبت الى الحق دخلت في مقامات الكشف والبراهين والمظلة ، وهى نسبة تحقق العبودية قال تعالى : وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » ، وقال : ان عبادى ليس لك عليهم سلطان » . وقال : فوجدا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما » . واذا انتسبت الى آدم دخلت في مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » .

(٢) سورة « الأحزاب » آية ٧٢ .

(٣) سورة « الفرقان » آية ٣٦ .

(٤) سورة « القصص » آية ١٦ .

(٥) سورة « الزخرف » آية ٦٨ .

(٦) أبو الحسن الحصرى : بصرى الأصل وسكن بغداد . كان شيخ العراق ولسانها ، ومن أجل المشايخ . له لسان في التوحيد بختص هو به ، ومقام في التفريد والتجريد مسلم له ، لم يشاركة فيه أحد بعده .

اسناد العراقيين وبه تأدب من تأدب منهم . صاحب الشبلى وغيره ، وتوفى سنة احدى وسبعين وثلثمائة . (انظر ترجمته في طبقات الصوفية ص ٤٨٩ ، الرسالة ج ١ ص ١٨٣ ، طبقات الشعرانى ج ١ ص ٢٩٨ ، المنتظم ج ٧ ص ١١٠ ، ندرة الأعلام ج ٢ ص ٢٨٩ ، نفحات الانس ص ٢٣١) .

يرد عنه أنه قال : « دعونى فى بلائى ، هاتوا مالكم . أستم من أولاد آدم الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، ثم أمره بأمر فخالف ، اذا كان أول الدن درديا(١) فكيف يكون آخره ؟(٢) » .

أى أنه اذا ترك الآدمى لنفسه يكون كله مخالفة ، أما اذا وافاه بعنايته يكون كله محبة .

فعدد حسن عناية الحق ، وقابلها بقبح معاملتك ، واقض العبر فى هذا . وبالله العون والعصمة .

هذا طرف من سيرة بعض المتقدمين من المتصوفة واهل القدوة منهم رضى الله عنهم ، ولو ذكرتهم جميعا وشرحت أحوالهم العزيزة ، وأوردت حكاياتهم فى هذا الكتاب لعجزت عن المقصود ، ولطال الكتاب .

والآن : ألحق بهم فريقا من المتأخرين لتكون الفوائد والموائد أكثر ، وبالله العون والتوفيق .

(١) « درد » كلمة فارسية تعنى : رواسب الخير فى الدن .
(٢) ورد فى طبقات الصوفية (انظر ص ٤٩٠) .

الباب الثاني عشر باب في ذكر أئمتهم من المتأخرين رضوان الله عليهم أجمعين

اعلم — خيرك الله — أنه يوجد في زماننا هذا جماعة لا قدرة لهم على تحمل الرياضة ، وهم يطلبون الرياسة بدون الرياضة ، ويظنون كل أهل التصوف مثلهم ، وعندما يسمعون أقوال السلف ، ويرون شرفهم ، ويقرأون معاملاتهم ، ينظرون في أنفسهم فيرون أنهم بعيدون عنهم ، ولكنهم لا يقصدون إلى القول : اننا لسنا كذلك ، ولكن يقولون : لم يبق في زماننا أمثال هؤلاء . وقولهم هذا محال ، لأن الله تعالى لا يترك الأرض أبدا بلا حجة ، ولا هذه الأمة بلا ولي ، كما قال النبي عليه السلام : « لا يزال طائفة من أمتي على الخير والحق حتى تقوم الساعة » ، ولقوله عليه السلام : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق ابراهيم » (١) .

وفريق من أولئك الذين أذكركم في هذا الباب قد ماتوا وأسلموا الروح للراحة والروح ، وفريق أحياء ، رضى الله عنهم وعنا وعن جميع المسلمين ، واشملنا برحمتك يا أرحم الراحمين .

● ومنهم : طراز طريق الولاية ، وجمال جمع أهل الهداية :
(أبو العباس أحمد بن محمد القصاب) (٢) رضى الله عنه . وقد أدركه

(١) ورد في طبقات الصوفية : « لا يزال من أمتي أربعون على خلق ابراهيم عليه السلام ، اذا جاء الأمر قبضوا » (انظر ص ٢) .
(٢) أحمد بن محمد بن عبد الكريم القصاب الأملى : خليفة محمد بن عبد الله الطبري ، ومريد أبي محمد الجريري . شيخ أبي سعيد بن أبي الخير ، لجأ اليه أبو سعيد بعد وفاة مرشده أبي الفضل محمد بن حسن السرخسى ، وسافر اليه في أمل وظل يمارس الرياضة تحت اشرافه عاما ، ونال على يديه الخرقة الثانية . توفي في أواخر

المتقدمون منا وصحبوه ، وهو معروف ومشهور بعلو الحال ، وصدق فـراسة
المقال ، وكثرة البراهين والكرامات .

ويقول أبو عبد الله الخياط إمام طبرستان (١) : من أفضل الله عز وجل
أن صير فينا رجلا غير متعلم نسأله إذا أشكل علينا شيء في علوم الدين
وأصوله ودقائق التوحيد ، وهو أبو العباس القصاب رضي الله عنه .

وكان أميا ، غير أن أقواله ونكاته في علم التصوف والأصول كانت رفيعة
جدا . وكان في ابتداء حاله وانتهائه عظيما وحسن السيرة . وقد سمعت
عنه حكايات كثيرة ، ولكن مذهبي في هذا الكتاب هو الاختصار .

يقال أن صبيا كان قد أمسك بزمام بعير يحمل حملا ثقيلا ، وكان يسير
به في سوق آمل (٢) — ويوجد وحل هنالك دائما — فانزلت رجل البعير
ووقع وانكسرت رجله ، فقصد الناس انزال الحمل عن ظهر البعير ،
واستغاث الصبي . ومربهم (أبو العباس) وقال : ماذا حدث ؟ فأخبروه ،
فأمسك رضي الله عنه بزمام البعير ، واتجه الى السماء قبله الدعاء ، وقال :
اللهم أشف هذا البعير ، وإذا لم تشأ أن تبرئه ، فلم أحرق قلب القصاب
ببكاء هذا الصبي ! وفي الحال نهض الجمل ، ومضى صحيحا معافى .

ويرد عنه أنه قال : يجب على العالم جميعا — أرادوا أو لم يريدوا —
أن يأنسوا بالله ، والا فانهم يتألمون . لأنك إذا أنست به ترى المبلى في البلاء
فلا يكون البلاء بلاءا ، وإذا لم تأنس به فانه عندما يحل البلاء تتأذى ، والله
تعالى لا يغير تقديره برضاء أحد أو سخطه ، فرضاؤنا بحكمه راحة لنا ،
وكل من يأنس بالله يرتاح قلبه ، وكل من يعرض عنه يتألم لورود القضاء .
والله أعلم .

= القرن الرابع الهجري . قبل له : ألف السلمي كتابا في طبقات الشيوخ . فسأل :
هل ذكر اسمي فيه ؟ قالوا : لا . قال : لم يفعل شيئا . (انظر ترجمته في تذكرة
الأولياء ج ٢ ص ١٨٥ ، قفحات الأنس ص ٢٨٦ ، وما ورد عنه من اشارات في أسرار
الوحيد الترجمة العربية ص ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩) .

(١) « طبرستان » : بلد منفرد له مملكة جليقة ولم يزل ملكه يسمى الاصبهيد . وهو بلد
كثير الحصون منيع بالأودية وأهله أشرف المعجم أبناء ملوكهم (البلدان ص ٤٣)
غزاها سعيد بن العاص في عهد عثمان بن عفان (معجم البلدان ج ٣ ص ٥٠١) .
(٢) « آمل » : مدينة طبرستان الثانية . من الرى اليها مرحلتان . وآمل على بحر
الديلم . (البلدان ص ٤٣) .

● ومنهم : بيان المريدين ، وبرهان المحققين :

((أبو على الحسن بن محمد بن علي الدقاق)) (١) رضى الله عنه . كان امام فنه ، منقطع النظر في زمانه ، وذا بيان صريح ولسان فصيح في كشف طريق الله تعالى . رأى كثيرا من المشايخ وصحبهم ، وكان مريد النصرابادى ، ويذكر الناس .

يرد عنه أنه قال : « من أنس بغيره ضعف في حانه ، ومن نطق من غيره كذب في مقاله » ، لأن الأنس بالغير غلية في الجهل وعدم المعرفة ، والأنس به وحشة من الغير . والمستوحش من الغير لا ينطق عن الغير .

وسمعت شيخا يقول : ذهبت يوما الى مجلسه وأنا أنوى أن أسأله عن حال المتوكلين ، وكان قد لبس عمامة طبرية حسنة ، فمال اليها قلبي . وقلت له : أيها الشيخ ! ما التوكل ؟ قال : أن تقصر الطمع عن عمام الناس . قال هذا وألقى الى بالعمامة ، رضى الله عنه .

● ومنهم : الامام الأوحى ، وشرف أهل الزمان :

((أبو الحسن علي بن أحمد الخرقاني)) (٢) رضى الله عنه . كان من أجلة المشايخ وقدمائهم ، وممدوحا في وقته من جميع أولياء الله . وقد قصد الشيخ أبو سعيد زيارته ، وكانت له معه محاورات لطيفة في كل فن . وحين كان يهم بالعودة قال له (الخرقاني) قد اخترتك لولاية عهدي .

وسمعت من حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبي سعيد أنه عندما ذهب الشيخ الى (أبي الحسن الخرقاني) لم يتحدث قط ، وكان فقط يستمع اليه ، ويجيب على أسئلته . وقلت له : أيها الشيخ ! لم صمت هكذا ؟ فلم يجب بغير كلمة واحدة هي : كفى (٣) .

وسمعت الأستاذ أبا القاسم القشيري رضى الله عنه يقول : عندما بلغت

(١) أبو على الدقاق الصوفي . استاذ أبي القاسم القشيري وصهره . توفي في نيسابور سنة خمس وأربعمائة ، ويقول آخر سنة ست وأربعمائة . (انظر ترجمته في تذكرة الأولياء ج ٢ ص ١٧٧ ، نفحات الأنس ص ٢٩١ ، سفينة الأولياء ص ١٥٩ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢١٤ ، شذرات الذهب ص ١٧٨) .

(٢) أبو الحسن الخرقاني : اسمه علي بن جعفر . مريد أبي العباس القصاب ، ومن معاصري أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمى وأبي سعيد بن أبي الخير . من الصوفية أصحاب السكر ، والمروجين لوحدة الوجود ، فقد كان يعتنق مذهب أبي يزيد البسطامي . توفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة . (انظر ترجمته في : تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٠١ ، نفحات الأنس ص ٢٩٨ ، رياض العارفين ص ٤٧ ، خزينة الاصفياء ج ١ ص ٥٢٢) .

(٣) انظر قصة زيارة أبي سعيد للخرقاني في أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ١٦٠ وما بعدها .

خرقان (١) انتهت فصاحتى وزالت عبارتى من حشمة ذلك الشيخ ، حتى ظننت
أنى عزلت عن ولايتى .

ويرد عنه أنه قال : الطريق طريقان : طريق الضلالة ، وطريق الهداية ،
فطريق الضلالة هو طريق العبد الى الله ، وطريق الهداية هو طريق الله
الى العبد . وكل من يقول : وصلت ، لم يصل . وكل من يقول : أوصلونى ،
وصل ، لأن الايصال منعقد فى الوصول ، وعدم الوصول مرتبط بالوصول ،
والله أعلم .

● **ومنهم : ملك وقته وزمانه ، والمفرد فى بيانه وعيانه :**
أبو عبد الله محمد بن على المعروف بالداستانى (٢) () رضى الله عنه .
كان عالما بأنواع العلوم ، وسائسا مهذبا ، ومن محتشمى حضرة الحق .
وله أقوال مهذبة ، وإشارات لطيفة .

وكان الشيخ السهلکى (٢) ، امام تلك الديار خلفا طيبا له . وقد سمعت
من السهلکى بعض أقواله ، وهى أقوال عالية وطيبة جدا ، كقوله :
« التوحيد عنك موجود ، وانت فى التوحيد مفقود » .

أى أن التوحيد صحيح عنك ، ولكنك غير صحيح فى التوحيد ، لأنك
لا تقوم بمقتضى حقه . وأقل درجة فى التوحيد ، نفى التصرف عنك فى الملك ،
وإثبات التسليم فى أمورك للحق عز وجل .

قال الشيخ السهلکى (٢) : فى وقت من الأوقات هجم الجراد على بسطام ،
وقد أسودت الأشجار والمزروعات جميعا من كثرتة ، فضج الناس بالدعاء .
وسألنى الشيخ : ماذا حدث ؟ قلت : أقبل الجراد والناس فى عناء منه .

(١) « خرقان » : قرية من قرى بسطام على طريق استرآباد بها قبر أبى الحسن على
ابن أحمد . له كرامات . مات سنة ٤٢٥ هـ (معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤) .
(٢) أبو عبد الله الداستانى : من أقران أبى الحسن الخرقانى وأبى سعيد بن أبى الخير ،
ومن أتباع مذهب أبى يزيد البسطامى . كان يلقب بشيخ المشايخ . توفى سنة سبع
عشرة وأربعمائة (أنظر ترجمته فى نفحات الأنس ص ٢٩٩ ، خزينة الأصفياء ج ٢
ص ٢١٦) .

(٣) كان شيخ الصوفية فى بسطام . أشار اليه ابن الاثير فذكر أنه عندما حمل الشيخ
أبو اسحاق الشيرازى رسالة الخليفة المقتدى بالله الى السلطان ملكشاه
السلجوقى والوزير نظام الملك ، كان كلما وصل الى مدينة من بلاد العجم خرج
أهلها لاستقباله . ولما وصل بسطام خرج اليه السهاكى شيخ الصوفية بها ، وهو
شيخ كبير ، فلما سمع أبو اسحاق بوصوليه خرج اليه ماشيا ، فلما رآه السهلکى
لقى نفسه من دابة كان عليها ، وقبل يد الشيخ أبى اسحاق ، فقبل أبو اسحاق
رجله وأجلسه فى موضعه . (ابن الاثير : أنظر حوادث سنة ٤٧٥) . وهذه القصة
وردت أيضا فى المنتظم فى ترجمة أبى اسحاق الشيرازى (أنظر المنتظم ج ٩ ص ٧)

فنهض الشيخ وصعد الى السطح ، ورفع وجهه نحو السماء ، فطار الجراد كله في الحال ! وعند صلاة العصر لم تبق منه واحدة ، ولم تتلف ورقة زرع لأحد . والله أعلم .

● **ومنهم : سلطان السلاطين المحبين ، وملك ملوك الصوفيين :**
« **أبو سعيد فضل الله بن محمد الميهني (١)** » رضى الله عنه . كان سلطان الطريقة ، سخر له جميع أهل زمانه : فريق بالمشاهدة ، وفريق بالاعتقاد ، وفريق بقوة الحال .

كان عالما بفنون العلم ، وذا حال عجيبة ، وثأن عظيم في درجة الاشراف على الأسرار . وكان له — غير هذا — آيات وبراهين كثيرة ، كما هو ظاهر من آثاره اليوم في العالم .

ترك في بداية حاله « ميهنه (٢) » وذهب الى « سرخس (٣) » لطلب العلم ، واتصل بأبى على زاهر (٤) رحمه الله ، وكان يصوم يوما كل ثلاثة أيام ، ويقضى تلك الأيام الثلاثة في العبادة ، الى أن رأى فيه ذلك الامام الرشد ، وزاد في تعظيمه .

وكان ولى الصوفية في سرخس في ذلك الوقت الشيخ أبو الفضل حسن (٥) رحمة الله عليه، وذات يوم كان (أبو سعيد) يسير على شاطئ نهر سرخس، فتقدم اليه أبو الفضل حسن وقال : يا أبا سعيد ! ليس هذا طريقك الذى تسير فيه ، فاسلك طريقك . فتعلق به الشيخ ، ورجع من عنده الى موطنه ، وانشغل بالرياضة والمجاهدة ، حتى فتح الحق عليه باب الهداية ، وأوصله الى الدرجة الأعلى .

-
- (١) سبق التعريف به في القسم الأول ضمن الشخصيات التى تأثر بها الهجویری .
(٢) « ميهنه » : من قرى خابران . وهى ناحية بين أبيورد وسرخس قد نسب اليها جماعة من أهل العلم والتصوف منهم أبو سعيد أسعد بن أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير وأبو الفتح طاهر وكانا من أهل التصوف وبيته (معجم البلدان ج ٤ ص ٧٢٣) .
(٣) « سرخس » من قرى خابران مثل نسا و أبيورد . وقد فتحت هذه البلاد فى سنة ٣٠ فى أيام عثمان رضى الله عنه (معجم البلدان ج ٣ ص ٧١) .
(٤) أبو على زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسى : الفقيه المقرئ . كان من كبار الشافعية ، وشيخ عصره فى خراسان . وكان يعد من تلاميذ الأشعرى فى علم الكلام . توفى سنة تسع وثمانين وثلثمائة : « طبقات الشافعية » انظر : ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٤٣ .
(٥) أبو الفضل حسن : اسمه محمد بن الحسن السرخسى : نسبة الى سرخس . كان مريدا لأبى نصر السراج الطوسى ، ومرشدا لأبى سعيد بن أبى الخير . توفى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ودفن بموطنه سرخس وقبره بها . (انظر ماورد عنه فى أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٢ — ٧٢ ، ترجمته فى تذكرة الأولياء ج ٢ ص ٣٣٧ ، نفحات الأنس ص ٢٨٤) .

سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسي (١) يقول : كنت معه دائما في خصومة . وذات يوم ذهبت اليه وقد ارتديت مرقعة صارت كالجلد من القذارة . ولما دخلت عليه وجدته جالسا على سرير وقد ارتدى عباءة مصرية ، فقلت لنفسى : هذا الرجل يدعى الفقير مع كل هذه العلائق ، وأنا أدعى الفقير مع كل هذا التجريد ، فكيف أكون عاى وهاق معه ؟ فأشرف على ما يجول بفكرى ، ورفع رأسه وقال : يا أبا مسلم ! فى أى ديوان وجدت من كان قلبه قائما فى مشاهدة الحق يقع عليه اسم الفقير ؟ .

أى أن أصحاب المشاهدة أغنياء بالحق ، والفقراء هم أرباب المجاهدات . قال (أبو مسلم) فندمت على ظنى ، وطلبت منه المغفرة على سوء ظنى . يرد عنه أنه قال : « التصوف : قيام القلب مع الله بلا واسطة » ، وهذا أيضا إشارة الى المشاهدة .

والمشاهدة تتأتى من غلبة المحبة ، واستغراق الصفة فى تحقيق الشوق والرؤية ، وفناء الصفة ببقاء صفة الحق . وسأذكر فى كتاب الحج بابا فى المشاهدة ووجودها ، ان شاء الله عز وجل .

فى وقت من الأوقات ، خرج (أبو سعيد) من نيسابور قاصدا طوس ، وكان فيها عقبة شديدة البرودة ، وكانت قدماه تتجمدان فى نعله . قال درويش : فكرت فى أن أشق الفوطة نصفين وألقى بها على قدميه ، ولم يطاوعنى قلبى لأنها كانت فوطة جميلة جدا . وعندما بلغنا طوس قلت فى المجلس : فليفرق لنا الشيخ بين وسواس الشيطان والهيام الحق ؟ قال : الالهام هو ما قيل لك أن مزق الفوطة حتى لا تبرد أقدام « أبى سعيد » والوسواس هو ما منعك .

وقد تواتر عنه من ذلك كثير ، وليس هذا مرادنا . والله أعلم .

● ومنهم زين الأوتاد ، وشيخ العباد :

« أبو الفضل محمد بن الحسن الختلى (٢) » رضى الله عنه ، وبه قدونى فى هذه الطريقة . كان عالما بعلم التفسير والروايات ، ويذهب فى التصوف مذهب الجنيد .

(١) أبو مسلم الفارسي : فارس بن غالب . من شيوخ الصوفية فى فارس . أدرك أبا عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ، وكان معاصرا لأبى سعيد بن أبى الخير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ ، وأبى الفتح بن سالبه المتوفى سنة ٤٧٣ هـ . أشير اليه فى أسرار التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٥٢ ، شد الأزار ص ١٨٠ حاشيته ٣ (٢) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن شيوخ الهجویری ، وانظر ترجمته فى : نفحات الأنس ص ٣١٥ ، خزينة الأصفياء ج ٢ ص ٢٣١ .

كان مريد الحصرى (١) وصاحب سره ، ومن أقران أبى عمرو القزوينى (٢) ، وأبى الحسن بن سألبة (٣) . وقد ظل ستين عاما وهو يفر الى الزوايا طلبا للعزلة الصادقة ، واختفى اسمه من بين الخلق ، وكان كثيرا ما يلجأ الى جبل اللكام .

عمر طويلا ، وكانت له روايات وبراهين كثيرة ، غير أنه لم يكن يرتدى ثياب المتصوفة ويمارس رسومهم ، وكان شديدا مع أهل الرسم . ولم أر قط من هو أكثر منه مهابة .

وسمعه يقول : « الدنيا يوم ، ولنا فيها صوم » . أى أننا لا نأخذ منها شيئا ، ولا نتقيد بقيودها ، لأننا رأينا آفتها ، ووقفنا على حجبها ، فأعرضنا عنها .

وذات يوم كنت أصيب الماء على يديه للوضوء ، وجال بخاطري أنه مادامت الأعمال بالتقدير والقسمة ، فلم يجعل الأحرار أنفسهم عبيدا للشيوخ ؟ فقال لى : يا بنى ! عرفت ما فكرت فيه . واعلم أن لكل حكم سببا ، وحين يريد الحق تعالى أن يتوج صبيا بتاج إكرامة ، فإنه يمنحه التوبة ، ويشغله بخدمة حبيب لتصير هذه الخدمة سببا لكرامته .

وكانت تظهر لنا منه كل يوم لطائف كثيرة كهذه .

ويوم أن وافته الوفاة « ببيت الجن » — وهى قرية على رأس عقبة بين بانيار ودمشق — كانت رأسه فى حجرى ، وكان قلبى ممتعضا من أحد أصحابى ، كما هى عادة الآدميين ، فقال لى : يا بنى ! سأحدثك فى مسألة من الاعتقاد ، فإذا قومت نفسك عليها نجوت من كل الآلام ! اعلم أن الله عز وجل هو خالق الأحوال من خير وشر ، فى كل مكان ، فلا ينبغى أن تعترض على فعله أو تألم له .

ولم يوص بأكثر من هذا ، وأسلم روحه للحق . رحمة الله عليه ، ورضى الله عنه ، وسقاه صوب رضوانه .

(١) سبق الإشارة إليه .

(٢) أبو الحسن على بن عمرو القزوينى الزاهد . أشار إليه ابن الأثير وذكر أنه كان من الصالحين . روى الحديث والحكايات والأشعار (انظر : الكامل حوادث ٤٤٢) ، صفوة الصفوة ج ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) سبق الإشارة إليه :

● **ومنهم : الاستاذ الامام ، وزين الاسلام :**

« **أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري (١)** » رضى الله عنه ، البديع فى زمانه ، والرفيع فى قدره . ومنزلته كبيرة ومعلومة لأهل زمانه . وله من أحواله وأنواع فضله لطائف كثيرة فى كل فن ، وتصانيف نفيسة كلها محققة . وقد حفظ الله تعالى حاله ولسانه من الحشو .

وسمعه يقول : « مثل الصوفى كعلة البرسام : أوله هذيان ، وآخره سكوت ، فإذا تمكن خرس » .

فالصفوة لها طرفان : أحدهما الوجد ، والآخر الدليل . فالدليل يكون للمبتدئين ، والتعبير عن الدليل فى الدليل هذيان . والوجد يكون للمتقين ، والتعبير عن الوجد فى الوجد محال .

والطالبون ماداموا فى حال الطلب ، فانهم يتحدثون فى المهمة بعلو المهمة ، والنطق يبدو لأهل المنى : هذيانا ، فإذا ما وصلوا فانهم أيضا لا تبقى لهم الى الوصول عبارة وإشارة .

ومثال هذا : أن موسى ، حينما كان مبتدئا ، كانت همته كلها محصورة فى الرؤية ، فعبر عن المهمة ، كما ورد فى قوله تعالى بشأنه : « أرنى أنظر اليك » (٢) . وقد بدت هذه العبارة هذيانا لعدم ادراك المقصود .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، كان فى نهاية حاله وممكنا ، وعندما وصل شخصه الى مقام المهمة فنيت همته ، فقال : « لا أحصى ثناء عليك » (٣) . وهذه منزلة رفيعة ، ومقام عال .

● **ومنهم : الشيخ الأوحى ، وفى طريقه المفرد :**

« **أبو العباس أحمد بن محمد الشقاني (٤)** » رضى الله عنه . كان اماما فى فنون العلم أصوله وفروعه ، ناضجا فى جميع المعانى ، رأى كثيرا من المشايخ وكان من كبار أهل التصوف وأجلتهم .

(١) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن من تأثر بهم الهجویری .

(٢) سورة « الأعراف » آية ١٤٣ .

(٣) ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافائك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (أنظر اللمع ص ١٥٨) .

(٤) أرجع الى ما ورد عنه فى القسم الاول ضمن شيوخ الهجویری .

وكان يعبر عن طريقه في الفناء بعبارة مغلقة اختص بها . وقد رأيت طائفة من الجهلة قلدوه في تلك العبارات ، واختاروا شطحاته . والتقليد غير محمود في المعنى ، فكيف به في العبارة ؟ ! .

وكان لى معه أنس عظيم ، وكان يشفق على شفقة صادقة ، وكان أستاذى في بعض العلوم . ولم أر طيلة حياتى قط رجلا من أى صنف كان يعظم الشرع أكثر منه .

وقد انقطع عن كل الموجودات ، ولم يكن يفيد منه غير الامام المحقق لدقة عباراته . وكان طبعه دائما ينفر من الدنيا والعقبى ، ويصيح قائلا : « اشتهى عدما لا عود فيه » . وكان يقول بالفارسية : لكل آدمى غاية مطلوب ، ولا بد لى أيضا من غاية مطلوب ، وأنا أعلم يقينا أن ذلك لن يتحقق ، لأن غايتى هى أن يحملنى الله تعالى الى عدم ليس له وجود قط ، لأن كل ما هو موجود من المقامات والكرامات محل الحجاب والبلاء ، وقد صار الآدمى عاشقا لحجابه ، والعدم في المشاهدة خير من الراحة مع الحجاب . ولما كان الحق جل جلاله وجودا لا يجوز عليه العدم ، يكون هناك ضرر في ملكه اذا جعلنى عدما ، لأن ذلك العدم ليس له وجود قط .

وهذا أصل قوى في صحة الفناء . والله أعلم .

● ومنهم : قطب زمانه ، وفريد عصره وأوانه :

((أبو القاسم على الجرجاني (١))) رضى الله عنه وأرضاه . لا نظير له في وقته ، ولا بديل له في زمانه ، وكانت له بداية طيبة ، وقام بأسفار شاقة في المعاملة . وتتجه اليه في هذا الوقت قلوب أهل الحضرة جميعا ، ويعتمد عليه جملة الطالبين . وهو آية ظاهرة في كشف وقائع المريدين ، وعالم بفنون العلم ، وكل من مريديه زينة لعالم . وسيبقى له من بعده خلف طيب يكون ان شاء الله قدوة القوم ، وهو لسان الوقت أبو على الفضل بن أحمد الفارمدى (٢) — أبقاه الله — الذى تخلص عن نصيبه في حق ذلك الشيخ العظيم ، وأعرض عن الكل ، وجعله الحق تعالى وتقديس ببركاته لسان حال ذلك السيد .

و ذات يوم كنت جالسا في حضرة الشيخ (أبى القاسم الجرجاني) أعدد أحوالى والرؤى التى ظهرت لى ، لأصفى عليه وقتى ، لأنه ناقد الوقت ، وكان هو رضى الله عنه يصفى لى في احترام . وكانت نخوة الصبى وجذوة

(١) أرجع الى ما ورد عنه في القسم الأول ضمن شيوخ الهجویری .
(٢) سبق الإشارة اليه في القسم الأول .

الشباب تجعلنى حريصا على قول ذلك ، وقد خطر لى أن : عسى الشيخ لا يكون قد مر بهذا! فى البداية ، فهو يبدى نحوى كل هذا الخضوع ، ويتودد الى . ورأى هو فى الحال هذا فى باطنى ، فقال : يا حبيب أبىك ! ان خضوعى ليس لك أو لحالك ، لأن محول الأحوال يجىء فى محل المحال ، فخضوعى هذا لمحول الأحوال . وهذا الذى حدث لك ، يكون عاما لكل الطالبين ، وليس خاصا بك . فلما سمعت هذا أسقط فى يدى ، فرأى ذلك فى ، وقال : يابنى ! ليس للآدمى نسبة الى هذه الطريقة أكثر من أنه حين يوصل بها يأخذه الزهو بادراكها ، وحين يعزل عنها ينال زهو العبارة ، فنفيه وإثباته ، وفقده ووجوده كلاهما زهو ، والآدمى لا يخلص أبدا من أسار الزهو ، ويجب عليه أن يستمسك بأعتاب العبودية ، ويدفع عن نفسه كل نسبة غير الآدمية والطاعة .

وكانت لى معه من بعد ذلك أسرار كثيرة ، ولو شغلت باظهار الآيات لعجزت عن المقصود ، والله أعلم .

● ومنهم : رئيس الأولياء ، وناصح أهل الصفاء :

((أبو أحمد المظفر بن أحمد بن حمدان (١))) رضى الله عنه . كان متربعا فى الرياسة ، وقد فتح الله عز وجل عليه أبواب التصوف ، وتوجه بتاج الكرامة . وكان له بيان حسن وعبرة عالية فى الفناء والبقاء .

قال شيخ المشايخ أبو سعيد رحمة الله عليه : لقد جىء بنا الى ساحة الحق عن طريق العبودية ، وجىء بالشيخ المظفر اليها عن طريق السيادة .

أى أننا أدركنا المشاهدة بالمجاهدة ، وجاء هو الى المجاهدة بالمشاهدة .

وقد سمعته يقول : ان ما أدركه العظماء بقطع البوادر والمفازات أدركته وأنا جالس على الحشايى فى الصدارة .

ويحمل جماعة من أصحاب الرعونة هذا القول من الشيخ على الادعاء ، وذلك لنقص كياستهم ، لأن عبارته عن صدق حاله وليست ادعاء ، وبخاصة أنه كان ذا أهل . وقد بقى لنا منه اليوم خلف طيب وعظيم ، وهو السيد « أحمد » سلمه الله .

وكنيت لديه ذات يوم ، وكان عنده رجل من أدعياء نيسابور ، وكان يقول فى حديثه : أنه يفنى حينما يبقى . فقال له السيد المظفر رحمة الله عليه :

(١) ارجع الى ماورد عنه فى القسم الأول ضمن أساتذة الهجويرى .

كيف يتأنى البقاء على الفناء ؟ والفناء عبارة عن العدم ، والبقاء اشارة الى الوجود ، وكل واحد منهما ينفى الآخر ، أى أنه ضده .

والفناء معروف ، أما اذا فنى ، فانه ان وجد ، لا يكون عين ذاك ، وانما يكون شيئا آخر .

ولا يجوز أن تفنى الذوات ، ولكن فناء الصفة وفناء السبب جائز ، فاذا فنيت الصفة والسبب ، يبقى الموصوف والمسبب ، ولا يجوز الفناء على ذاته .

ويقول على بن عثمان الجلابى رضى الله عنه : اننى لم اذكر عين عبارة ذلك السيد ، أما معناها فهو هذا الذى ذكرته . وأوضح الآن المراد من هذه العبارة لتصير اعم .

والمراد منها : أن اختيار العبد صفة له ، والعبد محجوب باختياره عن اختيار الحق ، فصفة العبد حجاب له عن الحق .

واختيار الحق أزلى لا محالة ، واختيار العبد محدث ، ولا يجوز الفناء على الأزلى . وحين يبقى اختيار الحق فى حق العبد ، فان اختياره ينفى لا محالة ، وينقطع تصرفه ، والله أعلم .

وقد دخلت عليه يوما فى القىظ القائظ ، بثياب الطريق ، أشعث ، فقال لى : قل لى ما تريد فى الحال ؟ قلت : يلزمنى السماع . فأرسل شخصا فى الحال ، فأحضروا القوال وجماعة من أهل الطرب . وصيرتنى جذوة حدثتى ، وقوة ارادتى ، وحرقة بدايتى مضطربا فى السماع ، فلما انقضى على ذلك وقت ، وقل فى سلطان تلك الآفة وغلوانها ، قال لى : كيف كان حالك فى هذا السماع ؟ قلت : أيها الشيخ ! كنت مسرورا جدا . فقال : سوف يأتى وقت يكون هذا ونعيق الغراب كلاهما لديك سواء ، لأن قوة السمع تكون طالما لا تكون المشاهدة ، فاذا حصلت المشاهدة فنيت ولاية السمع . واياك أن تتعود هذا حتى لا يصير طبيعة لك ، وتتخلف بذلك .

والله المستعان ، وعليه التكلان ، وحسبنا الله ونعم الرقيق .

الباب الثالث عشر باب في ذكر رجال الصوفية من المتأخرين على الاختصار من أهل البلدان

وإذا ذكرنا الآن الجميع ، وشرحنا أحوالهم في هذا الكتاب فإنه يطول ،
وإذا أغفلنا البعض فإن المقصود لا يتحقق أيضا .

والآن : أذكر في هذا الكتاب هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون (أحياء) في عهدي
من أحاد القوم ومشايخهم من أرباب المعاني ، ممن هم غير أصحاب الرسوم ،
لأكون أقرب إلى حصول مرادى أن شاء الله عز وجل .

من كانوا في الشام والعراق ، منهم :

« الشيخ زكى بن علاء » : كان من كبار المشايخ ، وسادات الزمان .
وقد وجدته شعلة من شعل المحبة ، وذا آيات وبراهين ظاهرة .

والشيخ الكبير : « أبو جعفر محمد بن المصباح الصيدلانى » كان من
رؤساء المتصوفة ، وذا لسان حسن في التحقيق ، وميل عظيم إلى الحسين
ابن منصور . وقد قرأت بعض تصانيفه .

و « أبو القاسم السدسى » : كان شيخا صاحب مجاهدة ، طيب الحال ،
وراعيا الدراويش وموضع اعتقادهم بحسن الاعتقاد .

أما أهل فارس ، فمنهم :

شيخ الشبيوخ : « أبو الحسين بن سالبه (١) » : وكان لسانه في التصوف
أفصح لسان ، وبيان في التوحيد أوضح بيان ، وله أقوال معروفة .

(١) سبق الإشارة إليه . انظر ، ص : ٤٩ .

والشيخ المرشد : « أبو اسحاق بن شهریار (١) » : وكان من محتشمى القوم ، وذا مهابة عامة .

والشيخ الظريف : « أبو الحسن على بن بكران » : وكان من كبار المتصوفة .

والشيخ : « أبو مسلم (٢) » : وكان رجلا عزيز الوقت طيب الحال .

والشيخ : « أبو الفتح بن سالبه (٣) » : وهو خلف طيب لأبيه ، ومرجو فيه .

والشيخ : « أبو طالب » : وكان رجلا أسير كلمات الحق .

ولم أر من هؤلاء شيخ الشيوخ والشيخ أبا اسحاق .

أما أهل قهستان (٤) و آذربايجان ، وطبرستان وقومس ، فمنهم :

الشيخ « شقيق فرج » المعروف بأخى الزنجانى (٥) : كان رجلا حسن السيرة ، محمود الطريقة .

والشيخ « وندرى » : وهو من عظماء هذه الطريقة ، وتؤثر عنه خيرات كثيرة ، وكان ساطانا تائبا ، ورجلا عيارا فى طريق الحق .

والشيخ « أبو عبد الله الجنيد » : وكان شيخا رفيقا ومحترما .

والشيخ « أبو طاهر المكشوف » : وكان من أجلة وقته .

(١) اسمه ابراهيم بن شهریار الكازرونى . فارسى الاصل والمولد ، ونشأ فى كازرون . كان مريدا للفيروز ابادى ، وصحب كثيرا من رجال الحديث . توفى سنة ست وعشرين وأربعمائة (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ٢٥٤ ، سفينة الاولياء ص ١٦١ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٢٢٥) .

(٢) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٣٨٠ .

(٣) سبق الاشارة اليه . انظر ، ص : ٤٩ .

(٤) « قهستان » : مخفف : « قوهستان » تعريب « كوهستان » ومعناها : موضع الجبل . واكثر بلاد العجم لا يخلو من موضع يقال له كوهستان وأما المشهور بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحى هراة ثم يمتد فى الجبل طولا حتى ينصل بقرب نهاوند وهمدان . فتحها عبد الله بن عامر بن كريز فى أيام عثمان سنة ٢٩ هـ (معجم البلدان ج ٤ ص ٢٠٥) .

(٥) أخى الزنجانى : من كبار الشيوخ فى وقته . كان مريدا للشيخ أبى العباس النهاوندى مريد جعفر الخدى تنسب اليه كرامات وخوارق كثيرة . توفى سنة سبع وخمسين وأربعمائة . وقبره فى زنجان (انظر ترجمته فى نفحات الانس ص ١٤٨ ، سفينة الاولياء ص ١١٢ ، خزينة الاصفياء ج ٢ ص ٨) .

والسيد « حسين السمناني » : وهو رجل ذو بلاء ورجاء .

والشيخ « السهلکی (١) » : وكان من فحول المتصوفة وصعاليكهم .

و « أحمد (٢) » بن شيخ خرقان ، وهو لأبيه نعم الخلف .

و « أديب الكمندی (٣) » : وكان من سادات زمانه .

وأما أهل کرمان ، فمنهم :

السيد : « على بن الحسين السيركاني (٤) » ، وكان سسيّاح الوقت ،
وذا أسفار طيبة ، وابنه « حكيم » رجل عزيز .

والشيخ : « محمد بن سلمة » ، وكان من كبار وقته وقبله كان المكتومون
من أولياء الله عز وجل ، ويوجد الآن شبان وأحداث ذوو رجاء .

وأما أهل خراسان (٥) ، التي يظللها اليوم اقبال الحق ، فمنهم :

الشيخ المجتهد : « أبو العباس الشرمقاني (٦) » وكان ذا عيش حسن ،
ووقت طيب .

والسيد « أبو جعفر محمد بن علي الجويني (٧) » ، وكان من عظماء هذه
الطائفة والمحققين منهم .

(١) سبق الاشارة اليه .

(٢) أحمد بن أبي الحسن الخرقاني المتوفى سنة ٤٢٥ هـ . وردت عنه اشارة في أسرار
التوحيد : انظر الترجمة العربية ص ١٦٠ .

(٣) أورد له الجامي ترجمة لاتعدى الاشارة الواردة في كشف المحجوب (انظر نفحات
الأنس ص ٣١٨) .

(٤) أظن أنه : (خواجه) علي بن الحسن الكرمانی : كان من شيوخ کرمان ، ومريدا
للشيخ « عمو » المتوفى سنة ٤٤١ هـ . ويبدو مما ذكره مؤلف أسرار التوحيد أن
الكرمانی كان معاصرا لأبي طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير المتوفى سنة ٤٨٠ هـ ،
وأبي علي الخباز (انظر : أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٣٩٤ ، نفحات
الأنس ص ٢٦٣ ، شد الأزار ص ١٨١ حاشية ١) .

(٥) « هذه المجموعة من الصوفية من أهل خراسان كانوا جميعا من معاصري أبي سعيد
ابن أبي الخير ، وبعضهم كانوا من طبقة الشيوخ أقران أبي سعيد ، والبعض
الآخر من تلاميذ الشيوخ وأبنائهم ، ووردت في أسرار التوحيد اشارات بشأنهم ،
وان كان هناك بعض التحريف في الاسماء » .

(٦) الشرمقاني : نسبة الى « شرمقان » : بلدة قريبة من اسفرائين بنواحي نيسابور .

(٧) أبو محمد الجويني : من معاصري أبي سعيد بن أبي الخير ، وزميله في الدراسة
على أبي بكر القفال . كان اماما من الشافعية ، تفقه على أبي الطيب سهل بن
محمد الصعلوكي ، ثم خرج الى أبي بكر القفال وعاد الى نيسابور . كان عالما
بالادب وغيره من العلوم . توفي سنة ٤٣٨ هـ (انظر : المنتظم ج ٨ ص ١٣٠ ،
الكامل : حوادث سنة ٤٣٨ ، أسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٤٠) .

- والسيد « أبو جعفر الترشيزي (١) » ، وكان من أعزاء الوقت .
- والسيد « محمود النيسابوري (٢) » ، وكان مقتدى الوقت ، وذا لسان حسن .
- والشيخ « محمد المعشوق (٣) » : وكانت حياته حسنة وطيبة .
- والشيخ « حمزة المحب (٤) » : وكان شيخا طيب الباطن ، وميمونا .
- والسيد « المظفر (٥) » ابن الشيخ أبي سعيد : وهو ذو رجاء في أن يصير مقتدى القوم وقبلة القلوب .
- والسيد « أحمد بن حماد السرخسي (٦) » ، مبارز الوقت ، وكان رفيقى مدة طويلة ، ورأيت من أمره عجائب كثيرة ، وكان من فتيان الصوفية .
- والشيخ « أحمد النجار السمرقندى (٧) » ، وكان سلطان زمانه ، يقيم بمر .
- والشيخ « أبو الحسن على بن أبي على الأسود (٨) » ، وكان خلفا طيبا لأبيه ، وفريد عصره في علو الهمة ، وصدق الفراسة .

-
- (١) أبو على الترشيزي : من معاصري أبي سعيد وأبى القاسم القشيري . وردت بشأنه حكاية في أسرار التوحيد . (انظر الترجمة العربية ص ١٠٤ — ١٠٦) .
- (٢) محمود النيسابوري : كان يعرف بالمريد ، وبلغ من عظيمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل اليه المريدين ، ويقول انه سالك طيب (اسرار التوحيد : الترجمة العربية ص ٨١) .
- (٣) المعشوق الطوسي : كان من عقلاء المجانين ، وشيخا عظيما كاملا ، يقيم في طوس . التقى به أبو سعيد بن أبي الخضر في طوس وهو في طريقه الى نيسابور . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٧٧ ، ترجمته في نفحات الأنس ص ٣٠٩) .
- (٤) حمزة التراب : من معاصري أبي سعيد . من أهل نيسابور . كان يقال له حمزة التراب لأنه كتب يوما رقعة الى أبي سعيد ووقعها ، لشدة تواضعه ، بكلمة : « تراب القدم » ، فكتب أبو سعيد بيتا من الشعر على ظهر الرقعة وأرسلها اليه . (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٢٣١) .
- (٥) أبو الوفا المظفر : الابن الثاني لأبى سعيد بن أبي الخير (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ٣٩٠) .
- (٦) كان رفيقا للهجویری في ما وراء النهر ، وسافر معه الى لاهور ، وظل بها الى أن توفي ، ولا يزال قبره بها داخل ضريح الهجویری ، ومعروفا باسمه . انظر القسم الاول . ص : ٩٠ .
- (٧) أحمد النجار : من أقران أبي سعيد : أشير اليه أكثر من مرة في أسرار التوحيد (انظر الترجمة ص ٥٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩) .
- (٨) هو ابن الشيخ أبي على الأسود (سياه) المتوفى سنة ٤٢٤ هـ . كان من كبار مشايخ مرو ، ومعاصرا لأبى العباس القصاب ، وأبى على الدقاق وأبى سعيد بن أبي الخير ويبدو أنه لم يكن على وفاق مع أبي سعيد (انظر أسرار التوحيد : الترجمة ص ١٩٣ ، ٢٦٩ ، وترجمته في نفحات الأنس ص ٢٩٠) .

وإذا عددت جميع المتصوفة من أهل خراسان فإن ذلك يصعب ، فقد رأيت ثلثمائة متصوف في خراسان وحدها ، لكل منهم مشرب ، ويكفى أن يكون في العالم واحد منهم ، لأن شمس المحبة واقبال الطريقة في طالع خراسان .

وأما أهل ما وراء النهر ، فمنهم :

السيد الامام ، مقبول الخاص والعام ، « أبو جعفر محمد بن الحسين الحرمي (١) » : وهو رجل مستمع ومغلوب ، ذو همة عالية ووقت صاف ، وشفقة كاملة على جميع طلاب حضرة الحق .

والسيد الفقيه ، وبين أصحابه الوجيه : « أبو محمد البائغري » كان هذا وقت طيب ، ومعاملات قوية .

و « محمد الأبلقي » وكان شيخ وقته ، وعظيم زمانه ، وتاركا للرسوم والعادات والأسباب .

والسيد « العارف » : وكان فريد وقته ، وبديع عصره .

و « على بن اسحاق » : وكان سيد زمانه ، ورجلا محتشما ، وذا لسان عذب .

هذه أسماء الجماعة الذين رأيتهم جميعا وعرفت مناقبهم فردا فردا ، وكانوا جميعا من أهل التحقيق .

أما أهل غزني وسكانها ، فمنهم :

الشيخ العارف ، وفي زمانه المنصف ، « أبو الفضل بن أسد » : وكان شيخا عظيما ، وصاحب براهين ظاهرة وكرامات زاهرة . وكان كشطة من نار المحبة ، وحاله مبنى على التلبيس .

والشيخ المجرد ، المفرد من العلائق ، « اسماعيل الشاشي » ، وكان شيخا محتشما ، يسلك طريق الملامة .

(١) على بن عمر بن محمد بن الحسين الحرمي المعروف بالقزويني : كان من كبار الصالحين ، قال أحمد بن علي بن ثابت : كان أبو الحسن القزويني أحد الزهاد المذكورين من عباد الله الصالحين . وتوفي سنة ٤٤٢ هـ صفة الصفة ج ٢ ص ٢٧٥ .

والشيخ « سالار الطبرى » ، وكان من علماء المتصوفة وصاحب حال طيب .

والشيخ العيار ومعدن الأسرار ، « أبو عبد الله محمد بن الحكيم » المعروف بالمريد ، رحمه الله ، وكان من سكارى قرب حضرة الحق ، وأوحد فنه . وإحاله مستورة عن الخلق ، وله برهين ظاهرة ، وآيات زاهرة . وكان حاله فى الصحبة أطيب منه فى الرؤية .

والشيخ المحترم والمقدم على جميع العظماء ، « سعيد بن أبى سعيد العيار » : وكان حافظا لحديث النبى ، وعمر طويلا ، ورأى كثيرا من المشايخ . وكان قوى الحال ، ومطاعا ، ولكنه كان يتستر ولا يظهر معناه لأحد .

والسيد العظيم ، وقاعدة الاحترام والوقار ، « أبو العلاء عبد الرحيم ابن أحمد السفرى » ، كان عزيز القوم ، وسيد الوقت ، ويميل قلبى اليه . وهو صاحب وقت مهذب وحال طيب ، وخبير بفنون العلم .

والشيخ الأوحد ، « قسورة بن محمد الجرديزى » : المشفق على أهل الطريقة تمام الشفقة ، ولكل منهم لديه حرمة ، ورأى المشايخ .

وانى ، وفقا لما يرجوه عامة الناس وعلماء تلك المدينة ، أرجو أن يظهر فيها بعد هؤلاء رجال نعتقد فيهم ، وأن تتخلص من الطائفة التى تفرقت فيها وشوهت صورة هذه الطريقة ، وأن تصير أيضا محطا للأولياء والعظماء أن شاء الله تعالى .

فهرس موضوعات القسم الأول

الصفحة	
كلمة وفاء	٥
تقديم	٧
الباب الأول : التعريف بالهجويرى	١٢—١٠٦
الفصل الأول : عصر الهجويرى من النواحي السياسية والثقافية والدينية	١٥
الفصل الثانى : التصوف فى عصر الهجويرى	٢٧
الفصل الثالث : التعريف بالهجويرى : موطنه ، أسرته ، مولده وزواجه	٣٩
الفصل الرابع : ثقافته ، أساتذته وشيوخه ، الشخصيات التى تأثر بها	٥٥
الفصل الخامس : رحلات الهجويرى	٧٣
الفصل السادس : المرحلة الأخيرة من حياة الهجويرى : استقراره فى لاهور ، وفاته ، قبره	٧٩
الفصل السابع : مؤلفات الهجويرى	٩٧
الباب الثانى : التعريف بكتاب كشف المحجوب	١٠٧—١٨٨
الفصل الأول : تعريف بالكتاب : اسمه ، موضوعه ، تاريخ تأليفه	١٠٩
الفصل الثانى : أقسام الكتاب	١٢٣
الفصل الثالث : مصادر الكتاب	١٤٣
الفصل الرابع : مكانة الكتاب بين كتب التصوف	١٥١

الصفحة

الفصل الخامس :	مظاهر التأثير والتأثر	١٦٥
الفصل السادس :	القيمة العلمية للكتاب	١٨١
الفصل السابع :	مخطوطات الكتاب ، طبعاته ، الترجمة الانجليزية	١٨٥

فهرس موضوعات القسم الثانى

(ترجمة كتاب كشف المحجوب)

١٩١	• • • • •	مقدمة المؤلف
٢٠٣	• • • • •	الباب الأول : باب اثبات العلم
٢١٥	• • • • •	الباب الثانى : باب الفقر
٢٢٧	• • • • •	الباب الثالث : باب التصوف
٢٤١	• • • • •	الباب الرابع : باب لبس المرقعة
٢٥٥	• • • • •	الباب الخامس : باب اختلافهم فى الفقر والصفوة
٢٥٩	• • • • •	الباب السادس : باب بيان الملامة
٢٦٧	• • • • •	الباب السابع : باب فى ذكر أئمتهم من الصحابة
٢٧٥	• • • • •	الباب الثامن : باب فى ذكر أئمتهم من أهل البيت
٢٨٥	• • • • •	الباب التاسع : باب فى ذكر أهل الصفة
٢٩١	• • • • •	الباب العاشر : باب فى ذكر أئمتهم من التابعين والأنصار
٢٩٧	• • • • •	الباب الحادى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من أتباع التابعين الى يومنا هذا
٣٧٥	• • • • •	الباب الثانى عشر : باب فى ذكر أئمتهم من المتأخرين
٣٨٧	• • • • •	الباب الثالث عشر : باب فى ذكر رجال الصوفية من المتأخرين من أهل البلدان

وقعت أخطاء مطبعية بعضها لا يخفى على فطنة القارئ وفيما يلي بيان بالأخطاء الهامة ، رجاء أن يقوم القارئ بتصحيحها قبل القراءة ليستقيم المعنى :

الصفحة	السطر	غلط	صواب
٥	٢١	صحي	صحي
١٧	١	تمض	يمض
١٧	٩	ادولة	الدولة
١٨	١٣	يسيتطع	يستطع
٢٢	١٠	الفردوس	الفردوسى
٢٩	١١	واتحاد	واتحاد
٣٣	٥	والأمر	والأمراء
٣٣	ح ١	المنعم	النعيم
٣٨	١٧	الجر جاوى	الجر جاني
٤٠	١	باسم « غزنه »	باسم « غزنى »
٤٠	س آخر	ومنها	ومنها
٤٥	٣	بخشى	بخش
٤٦	٨	بخلش	بخش
٤٧	١٤	الفضضل	الفضل
٥٠	٤	مدينة	ميهنة
٥٠	٨	أثار	أشار
٦٦	١٨	نيسابورا	نيسابور مركزا
٦٧	١٨	واستخدامها	واستخدامها
٧٧	٧	اليسارية	السيارية
٨٥	١٢	تولى	توالى
٩٢	١١	الجهوىرى	الجهوىرى
٩٢	١٧	استطاع	استطاعت
٩٧	٧	الدارس	والدارس
١٠١	٧	تقبلا	مستقبلا
١٠١	٢١	حالة	حاله
١٠٣	س آخر	كراجى	كراتشى
١٠٤	١٢	الأشرا	الأسرار
١٠٩	١٣	كتاب فى	كتاب
١١٠	٦	وكل	وكل
١١٠	٢٤	بشريت	بشريت
١١٣	١٢	العقوب	العقول
١١٥	١٦	معاصرة	معاصره
١١٨	ح - ٦	انظر ص	انظر ص ٨٤
١١٩	ح ١٠	انظر ص	انظر ص ٨٣

تابع (الخطأ والصواب)

الصفحة	السطر	غلط	صواب
١١٩	ح ٣	انظر ص	انظر ص ١٩
١٣٠	٧	العبادات	العبادات
١٣٣	٢٧	محمديه	محمديه
١٣٥	١٢	الحارس	الحارث
١٣٥	٢١	المق انسان	المؤلف
١٣٩	١٨٠١٧	الظاهرة	الظاهرة
١٤١	٦	ص ٤٧٢	ص ٤٣٢
١٥٣	١٨	السراج	السراج
١٥٥	ح ١	سليمي	السليمي
١٥٩	١١	وآن الشعراء	ولأن الشعراء
١٥٩	١١	ناول	تناول
١٦٢	١٠	ألا لأنس	الأنس
١٦٢	١٢	الاشقي	الجشقي
١٦٨	٢١	ولندر	وانسدر
١٧٤	ح ٢	انظر ص	انظر ص ١١٧
١٧٤	ح ٣	انظر ص	انظر ص ١٣١
١٩٣	٢	الذك	الذي
١٩٣	١٩٠١٧	ظاهرة	ظاهرة
١٩٤	١٢	فالاحباب	فالاحباب
١٩٦	٧	بالنفيق	بالتوفيق
١٩٦	ح ١٨	بخصوصهم	بخصوصهم
٢١٠	١	يتيهمكن	يتهمكن
٢٢١	ح ٣	انظر ص	انظر ص ٦٤
٢٢٤	١	انتظارا	انتظار
٢٢٥	ح ١	خزائنه	خزانة
٢٢٥	ح ١	هذال	هذا الـ
٢٢٨	٨	الصفاء	للصفاء
٢٣٥	٢	تكوم	تكون
٢٤١	٣	وليس	وليس
٢٤٥	٢٠	يرقدونها	يرقدونها
٢٤٥	قبل الأخير	أرجوا	أرجو
٢٤٦	٣	ولا يغني	ولا يغني
٢٤٧	ح ٣	انظر ص	انظر ص ٥٨
٢٤٨	٦	(٥)	(١)
٢٥٠	٢١	محله	محلة
٢٥٠	ح ١	انظر ص	انظر ص ٣٩
٢٦٦	١٩	بقشرة	بقشره
٢٦٦	ح ١	جيهون	جيهون

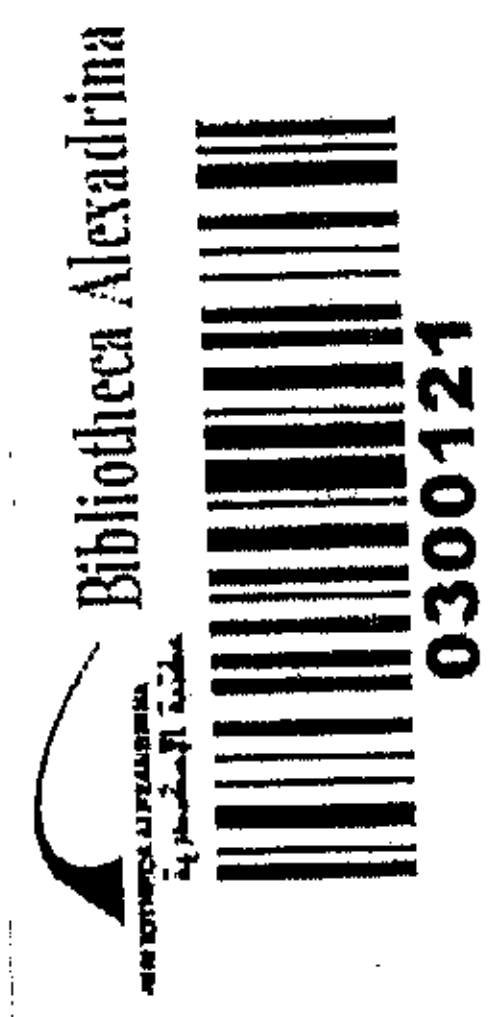
تابع (الخطأ والصواب)

الصحة	السطر	غلط	صواب
٢٦٩	١٠	فصحة	فصحة
٢٧١	١٤	لا تصفوا	لا تصفوا
٢٧٣	١٦ ح ١	عبادة	عبارة
٢٧٦	١٦	بغلية	بغلية
٢٧٦	قبل الأخير	ثلجكنايات	الحكايات
٢٧٧	٤	فيها	أيها
٢٨٢	١٦	بنوا	بنو
٢٩٠	ح ١	أمه	أسر
٢٩٩	٢٣	ولاه	ولاه في
٣٠٢	١٧	للحق الحق	للحق
٣٠٣	١٢	جبتوني	جبتوني
٣١١	١	سالمنا بن	سالم بن
٣١١	١١	يا فضل	يا فضيل
٣١٢	٩	خشوة	خشوعه
٣١٢	٢١	كعادت	كعادة
٣١٢	الأخير	مراد كما	مرادكم
٣١٤	ح ٥ س ٦	أصرت	أمرت
٣١٧	٤	جميع	جمع
٣٢٤	١٧	يكرم	بكرم
٣٢٤	ح ٢	خمس عشر	خمس عشرة
٣٣١	ح ١	عين ندما	عندما
٣٣١	ح ٤	الطفال	الأطفال
٣٣٣	ح ٢	نسوا بيورد	نسا وبيورد
٣٣٣	ح ٢	يا خرز	باخرز
٣٣٤	٨	مام	إمام
٣٣٤	١٣	البصرة	البصرة
٣٣٥	٨	ذكر يا	زكريا
٣٣٥	٢٨	مذهبة	مذهبه
٣٣٦	٢٠	حله	حاله
٣٤٠	٧+ح ١	خبيق	خبيق
٣٤٠	ح ٢	فو	فلا
٣٤٢	٢	الدصيقين	الصديقين
٣٥٧	١٣	اض	أمضى
٣٦٢	٢١	القومطي	القرمطي
٣٦٤	١٠	ريت	رأيت
٣٦٥	٤	لا يفقد	لا يفقد
٣٧٧	٧	غلية	غاية
٣٨٠	٢٤	قدوني	قدوني

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٧٤/٢٦٤٨



مطابع الأهرام التجارية